

دوريان لينسكي

مكتبة ١١٩١

kalemat

أفضل كتاب  
قراته منذ  
زمن طويل!  
سي جيه سانسوم

# وزارة الحقيقة

سيرة رواية «1984» لجورج أورويل

ترجمة:  
نادر أسامة





وزارة الحقيقة



وزارة الحقيقة

The Ministry of truth

سيرة رواية «1984» لجورج أورويل

A Biography of George Orwell's 1984

دوريان لينسكي

DORIAN LYNKEY

ترجمة: نادر أسامة

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar\_Kalamat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalamat.com

Copyright © Dorian Lynskey 2019

مكتبة

t.me/soramnqraa

4 6 2023

ردمك: 1-40-730-9921-978

**وزارة الحقيقة**

**THE MINISTRY OF TRUTH**

**سيرة رواية «1984» لجورج أورويل**

**A Biography of George Orwell's 1984**

**دوريان لينسكي**

**DORIAN LYNKEY**

**ترجمة:**

**نادر أسامة**

**مكتبة | 1191**

**2021**

**//kalemāt**

## المحتويات

9	مقدمة
21	الجزء الأول
22	(1) التاريخ توقّف
58	(2) حُمى اليوتوبيات
81	(3) العالم الذي نحن بصدده
116	(4) عالم ويلز
151	(5) إذاعة أورويل
184	(6) المهرطق
211	(7) حقائق مزعجة
255	(8) كل الكتب فاشلة
291	(9) تعلن الساعات الواحدة بعد الظهر
325	الجزء الثاني
326	(10) الألفية السوداء
362	(11) هذا الذعر اللعين
392	(12) الهوس بأورويل
428	(13) أوقيانيا 2.0
456	كلمة ختامية
459	شكر وتقدير
463	ملحق: موجز رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»





إلى لوسي والانور وروزا



«إنه لأمر مؤسف في عصرنا أن نجد الديستوبيات أيسر على التصديق من اليوتوبيات: لا يسعنا سوى تخيل اليوتوبيات، أما الديستوبيات فواقع نعيشه».

مارجريت أتوود

«الحقيقة موجودة والكذب موجود، وإذا تمسكت بالحقيقة ولو في مواجهة الناس كافة فأنت لست مجنوناً».

جورج أورويل، «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»



ديسمبر 1948. على جزيرة نائية، يجلس رجل إلى آلهة الكاتبة في الفراش يجاهد لإكمال كتابٍ يعنيه أمره أكثر من أي شيء آخر. إنه مريض بشدة. سينتهي من الكتاب بالفعل، وبعد عام أو نحو ذلك، سينتهي الرجل كذلك.

يناير 2017. يقف رجلٌ آخر أمام جمع من الناس في العاصمة واشنطن، ويحلف يمين منصب رئيس الولايات المتحدة الخامس والأربعين. لم يكن الجمع بالعدد الكبير كما كان يأمل. ادّعى السكرتير الصحفي للرجل لاحقاً أنه «أكبر جمهور شهد مراسم تنصيب رئاسية على الإطلاق، سواء بالحضور الشخصي أو بالمتابعة من جميع أرجاء العالم». عندما طُلب بعدها من مستشارة الرئيس تسويق هذا الادّعاء الكاذب المناهض للعقل، وصفت التصريح بأنه «حقائق بديلة». على مدى أربعة الأيام التالية، ارتفعت مبيعات كتاب الرجل الميّت إلى السماء، بنسبة 10 آلاف بالمئة، ما جعله يحتل المركز الأوّل في قوائم أكثر الكتب مبيعاً.

عندما نُشرت رواية جورج أورويل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في المملكة المتحدة في الثامن من يونيو عام 1949، في كبد القرن العشرين، تساءل أحد النقاد متعجباً كيف سيتسنّى لهذا الكتاب المناسب لعصره تماماً أن يكون له نفس التأثير في أجيال متعاقبة. بعد خمسة وثلاثين عاماً، عندما لحق الحاضر بمستقبل أورويل ولم يكن العالم كالكابوس الذي وصفه، تنبأ المعلقون مرّة

أخرى أن شعبية الكتاب ستدوي. انقضى خمسة وثلاثون عامًا آخر منذ ذلك الحين، ولا يزال «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هو الكتاب الذي نرجع إليه عندما تُشوّه الحقيقة، وتُحرّف اللغة، ويُستغلّ النفوذ، ونكون في حاجة إلى معرفة إلى أي مدى قد تسوء الأمور؛ هذا لأن شخصًا عاش ومات في حقبة أخرى كان نافذ البصيرة بما يكفي لاستبيان هذه الشرور، وموهوبًا بما يكفي لإدراجها في رواية وصفها أنتوني برجس، مؤلف «البرتقالة الآلية»، بـ «مخطوطة مستقبلية مُروّعة عن أسوأ مخاوفنا».

لم تبع رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عشرات ملايين النسخ فحسب، بل تسرّبت إلى عقول عددٍ لا حصر له ممّن لم يقرؤوها. أضحت العبارات والتركيبات التي صاغها أورويل مصطلحاتٍ أساسية في الخطاب السياسي، ولم تزل فعّالة بعد عقود من الاستخدام وسوء الاستخدام: اللغة الجديدة، الأخ الأكبر، شرطة الفكر، الغرفة 101، دقيقتا الكراهية، التفكير المزدوج، التّلاشي، حفرة الذاكرة، شاشة الرصد،  $(2 + 2 = 5)$ ، وزارة الحقيقة. جاء اسم الرواية ليهيمن على تقويم السنين، بينما حوّلت الصّفة المشتقة «أورويلي» اسم مؤلّفها إلى مرادف واسع لكل ما كرهه وخافه يومًا. قدّمت الرواية في السينما والتلفزيون والإذاعة والمسرح والأوبرا والباليه. حتّى الكتاب روائيًا آخر على تأليف تتمة له (رواية «1985» لـجورجي دالوس)، وإعادة سرد ما بعد حدثية (رواية «انتقام أورويل: طرس 1984» لبيتر هاربر)، ومؤلفات أخرى إن تُعد لا تُحصى. ألهمت عملية تأليف الكتاب نفسها هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) لصنع دراما

تليفزيونية بعنوان «الروح الشفافة: أورويل على جزيرة جورا» عام 1983، وألهمت أيضًا رواية دينيس جلوفر «آخر رجل في أوروبا» عام 2017. أثّرت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في عشرات الروايات والأفلام والمسرحيات والمسلسلات التلفزيونية والقصص المصوّرة والألبومات والإعلانات والخطب والحملات الانتخابية والانتفاضات. أمضى أشخاص كُثُر سنوات في السجون لمجرّد قراءتها. لم يقترب عمل أدبي آخر في القرن الماضي له نفس الوزن من الانتشار الثقافي ذاته. أدّعت أصواتٌ معارضة مثل ميلان كونديرا وهارولد بلوم أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في واقع الأمر رواية سيّئة، شخصياتها هزيلة وسردها مُضجر وحبكتها غير مقنعة، لكن حتّى هؤلاء لم يستطيعوا إنكار أهمّيتها. وكما لاحظ ناشر أورويل، فريدريك واربورج، فإن نجاح الرواية استثنائي «بالنسبة إلى عمل لم يُصمّم لغرض الإمتاع، وليس من السهل قراءته».

ضريبة الشعبية الهائلة لأيّ فنان هي ضمان أن يُساء فهمه. يعرف الناس ظاهريًا عن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أكثر ممّا يعرفونها بالفعل. هذا الكتاب محاولة لاستعادة بعض التوازن عن طريق شرح عمّا تدور رواية أورويل حقًا، وظروف كتابتها، وكيف غيّرت العالم، على مدى السنوات السبعين الماضية، بعد رحيل مؤلّفها. بالتأكيد، لا يقتصر معنى أيّ عملٍ فني على مقاصد مُبدعه، لكن في حالتنا هذه، تستحقّ مقاصد أورويل (التي كثيرًا ما شوّهت وأُهملت) إعادة النظر، إذا ما أردنا أن نفهم الكتاب بصفته كتابًا، لا مجرد منبع نافع لا ينضب للإحالات

الشعبية الساخرة. إنه عملٌ فني ووسيلة لفهم العالم على حدٍ سواء.

هذه إذاً قصّة كتاب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». لقد كتبت سيرٌ عديدة لجورج أورويل، وبعض الدراسات الأكاديمية عن السياق الفكري لكتابه، لكن لم تُجرِ محاولة من قبل لدمج الأمرين في سردٍ واحد، مع محاولة استكشاف صيرورة الكتاب أيضًا. أنا مهتم بحياة أورويل لأنها في المقام الأوّل وسيلة لإلقاء الضوء على التجارب والأفكار التي غدّت كابوسه الشخصي هذا، الذي دمرّ فيه بشكل منهجي كل ما كان يقدره: الصدق والنزاهة والعدالة والذاكرة والتاريخ والشفافية والخصوصية والفطرة السليمة والتعقّل وإنجلترا والحب. سأتقّى أثر أورويل عبر قصص لندن وقوآت الحرس الوطني وهيئة الإذاعة البريطانية ولندن الثقافية وأوروبا المنهكة بعد الحرب، وصولاً إلى جزيرة جورا حيث كتب روايته أخيراً، كي أهدم الأسطورة التي تقول إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت نحيباً طويلاً سبّبه اليأس، صدر عن رجلٍ وحيدٍ يحتضر غير قادر على مواجهة المستقبل. أريد أن ألفت الانتباه إلى ما كان يفكر فيه حقاً، وكيف تأثّر له هذا التفكير.

أحد الأسباب التي جعلت أورويل يستغرق وقتاً طويلاً جداً في كتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هو أنها أثمرت أفكاراً كان يطوّرها خلال معظم مسيرته الكتابية. جاء الكتاب تكميلاً لسنوات من التفكير والكتابة والقراءة عن اليوتوبيات والدول العظمى والديكتاتوريين والسجناء والبروباجندا والتكنولوجيا

والسلطة واللغة والثقافة والمنزلة الاجتماعية والجنس والأرياف والجرذان وما هو أكثر، إلى درجة يستحيل معها تقريباً إسناد عبارة أو فكرة معينة إلى مصدر واحد. على الرغم من أن أورويل لم يقل إلا أقل القليل عن تطوُّر الرواية، فقد ترك خلفه درباً من الأوراق بطول آلاف الصفحات. حتَّى لو كان عمره امتدَّ لعقود بعدها، فإن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت ستكون نهاية لمرحلة ما. بصفته الروائية، كان سيحتاج إلى البدء من جديد. في الجزء الأوَّل من هذا الكتاب، سأقصُّ سيرة أورويل والعالم الذي عاش فيه: الناس الذين التقاهم، والأخبار التي تابعها، والكتب التي قرأها. سأكرِّس أيضاً ثلاثة فصول لمصادر إلهام «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الأساسية: إتش جي ويلز، ورواية «نحن» ليفجينى زامياتن، وضربي الأدب اليوتوبي والديستوبي. كل كتاب أو مسرحية أو فيلم سيأتي ذكره هو عمل كان أورويل على دراية به، ما لم يُذكر خلاف ذلك. في أثناء الرحلة، سنقابل الدوس هكسلي وإي إم فورستر، ونستون تشرشل وكليمنت أتلي، آين راند وجوزيف مكارثي، آرثر كويستلر وهانا آرنت، لي هارفي أوزوالد وچيه إدجار هوفر، مارجريت آتوود ومارجريت تاتشر، وكالة المخابرات المركزية هيئة الإذاعة البريطانية، ديفيد بوي وفيلم «السجين»، «برازيل» و«في فور فينديتا»، «البرتقالة الآلية» و«ذرية الرجال»، إدوارد سنودن وستيف جوبز، لينين وستالين وهتلر. على مدار الكتاب، سأعقد بعض المقارنات مع الوضع السياسي الحالي.. أحياناً بشكل مباشر، وضمنياً أحياناً أخرى. أفضل عدم لكز القارئ في أضلعه بشكل متكرَّر، لكن ضع حكماًنا الحاليين في الحساب وأنت تقرأ.

نبذة سريعة عن المصطلحات المستخدمة. للفظـة «أورويل» تعريفان متضادان، فهي تعني: إما عمل أدبي يعكس أسلوب أورويل وقيمه، وإما تطوُّرات على أرض الواقع تهدِّدها. لتجنُّب الالتباس، سأستخدمها فقط للإشارة إلى المعنى الأخير، وسأستبدل بها «ذات طابع أورويلي» لخدمة المعنى الأوَّل. سأستخدم أيضًا عنوان الرواية البريطاني «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بدلاً من «1984»، إلا عند اقتباس أقوال الآخرين. أشعر أن له وقعًا أثقل.

\*\*\*

قال الفيلسوف ريتشارد رورتي: «كان أورويل ناجحًا لأنه كتب الكتب المناسبة في الأوقات المناسبة». قبل «مزرعة الحيوان» و«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، كان أورويل رجلًا يمكن مشاهدته في الدوائر الأدبية والسياسية البريطانية، لكنه لم يكن اسمًا معروفًا بأيِّ حال. الآن جميع كتبه، حتَّى تلك التي نبذها ووصفها بأنها تجارب فاشلة أو أعمال تجارية، لا تتفد من السوق، ومن الممكن قراءة كل حرف كتبه ورأى النور بفضل المجهود الأكاديمي الجبَّار للبروفيسور بيتر ديفيسون، الذي يصل عدد صفحات إنجازهِ العملاق المعلنون بـ «أعمال جورج أورويل الكاملة» إلى نحو تسعة آلاف صفحة ومليون كلمة، تقع في عشرين مجلَّدًا. قُرَّاء طبعة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الأولى في عام 1949 لا يعرفون سوى كسرة ممَّا هو متاح اليوم.

لعلمي بمدى حرص أورويل على انتقاء ما يجب مشاركته مع الجمهور، لم أستطع قراءة أعماله الكاملة من دون رجفة شعور بالذنب بين الفينة والأخرى. كان أورويل ليموت خزيًا من رؤية

إعادة نشر معظم كتاباته الصحفية، فضلاً عن نشر رسائله الخاصة، لكن لا شيء منها تقريباً عديم القيمة. حتى وهو مريض، أو مثقل بالعمل، أو في أمس الحاجة إلى كتابة شيء مختلف، كان دماغه يفكر بنشاط في المسائل الكبيرة وفي صفائر السلوان، وكثير من هذي وتلك صبَّ في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». ولأنه رفض استخدام فطنته في خدمة أيديولوجية أو نظام حزبي ما حتى وهو مخطئ (وهو ما كان يحدث كثيراً)، فقد كان مخطئاً بطريقة صادقة ومثيرة للاهتمام. كان يمتلك ما أشاد بأن تشارلز ديكنز امتلكه: «الذكاء الحر». لم يكن بأي حال من الأحوال عبقرياً فريداً من نوعه (أريد أيضاً تسليط الضوء على بعض معاصريه الأقل شهرة)، لكنه كان الكاتب الوحيد في عصره الذي أبلى في نواح عديدة بلاءً حسناً تماماً.

يتذكر سيريل كونولي، صديق أورويل في المدرسة، أن «شيئاً كان يشع منه يجعلك ترغب في أن تثير إعجابه». هذه السمة نفسها تشع عبر كتاباته وتجعل معجبيه يتمنون رضاه في أذهانهم. لكنني لا أرغب في إضفاء صفة التقديس على رجل كان متشككاً في القديسين واليوتوبيات وفكرة الكمال في العموم. لن أتمكن من تفسير كل من الرجل والكتاب إلا بانتهاج الصراحة تجاه زلاته وعيوبه، كما كان عادةً. على الرغم من أن كتاباته خلقت وهمًا بأنه رجلٌ وقورٌ حكيمٌ يقصُّ عليك الحقيقة الواضحة التي تعرفها في قرارة نفسك لكنك لم تسلم بها بعد، يستطيع أورويل أحياناً أن يكون نزقاً ومغالياً وعنيذاً وحاد الطباع وغريب الأطوار. نحن نقدِّره على الرغم من عيوبه لأنه كان محقاً بشأن الأسئلة

المحورية المتعلقة بالفاشية والشيوعية والإمبريالية والعنصرية، في وقتٍ لم يفعل فيه ذلك أشخاصٌ كثر كان يُفترض أنهم أعلم. كان أورويل يشعر أنه يعيش في زمنٍ ملعون، كان يتخيّل لنفسه حياة أخرى يمكن أن يقضي فيها أيّامه وهو يعتني بحديقته ويكتب الأدب بدلاً من أن «يُجبر على أن يكون كاتب منشورات»، ولكن هذا كان ليشكل خسارة كبيرة. إن موهبة الرجل الحقيقية تكمن في تشريحه الدقيق لفترة مضطربة من تاريخ البشرية. على الورق، قد تبدو قيمه الجوهرية غامضة إلى حدٍّ كبير بحيث لا تعني شيئاً هاماً (الصدق، الأخلاق، الحرية، العدالة)، لكن أحداً لم يصارع مثله بلا كلل في السر والعلن مع معنى تلك الأفكار إبان أحلك أيّام القرن العشرين. لطالما حاول قول الحقيقة، وكان يُعجب بأيّ شخصٍ يفعل المثل. لا شيء يُبنى على الكذب - مهما كان مغرياً - يمكن أن يكون ذا قيمة. من الأمور الجوهرية في منظومة نزاهته هو التزامه بأعمال عقله في أفكاره وأسباب اعتناقه لها باستمرار، وعدم التوقّف أبداً عن إعادة تقييم هذه الآراء. نقلاً عن كريستوفر هيتشنر، أحد أفصح مُريدي أورويل: «ما يهم ليس أفكارك، بل طريقة تفكيرك».

أريد أن أرسم للقارئ صورة دقيقة عن موقف أورويل من قضايا عصره الحيوية، ووقت وسبب تغيُّر بعض هذه المواقف، من دون ادّعاء ما كان سيفكر فيه بخصوص البريكست<sup>(1)</sup> مثلاً. لا تتحقّق مثل هذه الادّعاءات إلا عن طريق اقتطاع النّص من

1- خروج المملكة المتّحدة من الاتحاد الأوروبي. (المترجم).



سياقه، وهو ما يُعدُّ ضرئاً من الاحتيال. أذكّر في عام 1993 عندما سمعت رئيس الوزراء البريطاني المحافظ جون ميجور يقتبس مُدلساً سطرًا من أورويل حول «عذراوات عجائز يقدن درّاجات في ضباب الصباح في طريقهن لحضور القربان المقدّس»، كأن الاقتباس لم يأت من مقال «الأسد واليونيكورن»<sup>(2)</sup>، الذي هو حُجّة قوية لصالح الاشتراكية. عندما يستشهد مُذيعو إذاعة «حرب المعلومات» بأورويل بشكل روتيني، يدرك المرء أن التفكير المزدوج شيءٌ حقيقي.

الرواية التي يحتفي بها الاشتراكيون والمحافظون والفوضويون والليبراليون والكاثوليك والمدافعون عن الحريّات من كل صنف، لا يمكن أن تكون مجرد «فكر سياسي متخفّ في صورة رواية» كما زعم ميلان كونديرا. إنها قطعًا ليست حكاية رمزية محدّدة مثل «مزرعة الحيوان»، يتوافق كل عنصر فيها مع العالم الحقيقي كالقفل ومفتاحه. عادةً ما توصف «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها رواية ديستوبية. إنها أيضًا -بدرجات متفاوتة وقابلة للنقاش- عملٌ ساخر ونبوؤة وتحذير وأطروحة سياسية ورواية خيال علمي وكتاب جاسوسية شائق ورواية رعب نفسي وكابوس قوطي ونصٌّ من نصوص ما بعد الحداثة وقصّة حب. معظم

---

2- «الأسد واليونيكورن: الاشتراكية والمبقرية الإنجليزية»: مقال لجورج أورويل نُشر عام 1941، عبّر فيه عن آرائه حول الوضع في بريطانيا في زمن الحرب، وقال فيه إن النظام الطبقي البريطاني الذي عفا عليه الزمن كان يعوق المجهود الحربي، وأنه من أجل هزيمة ألمانيا النازية تحتاج بريطانيا إلى ثورة من شأنها أن تخلق نوعًا جديدًا من الاشتراكية، «الاشتراكية الإنجليزية الديمقراطية»، على عكس الشيوعية السوفيتية القمعية. (المترجم).

الناس قرؤوا «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هي سنٌ صغيرة وصُدِموا منها؛ إنها تخلق معاناة أكثر وتمنح طمأنينة أقل من أي نص نموذجي آخر يُدرّس في المرحلة الثانوية، لكنها لا تُلجّ على عقلك ليعيد اكتشافها في سن النضج. هذا أمرٌ مؤسف. إنها أثري وأغرب ممّا تتذكّرها على الأرجح، وإنني لأشجّعك على قراءتها مرّة أخرى. لكن لإنعاش ذاكرتك في الوقت الحالي، لخصت لك الحبكة والشخصيات والمصطلحات بإيجاز في ملحق هذا الكتاب.

\*\*\*

صادفت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أوّل مرّة وأنا مراهق في إحدى الضواحي جنوب لندن. كما قال أورويل يومًا: «الكتاب الذي ثقروه في الصغر يظل معك إلى الأبد». وجدّتها صادمة وأسرة، لكن كان ذلك في عام 1990 تقريبًا، عندما كان كلّ من الشيوعية والفصل العنصري في طريقهما إلى الازمحلال، وساد التفاؤل، ولم يبدُ العالم بالضرورة أورويليًا. حتّى بعد أحداث 9/11، كانت صلة الكتاب بما يحدث ضئيلة. صحيح أنه اقتُبس بغرض التلميح إلى الخطاب السياسي ولهجة وسائل الإعلام وأعمال المراقبة، لكن لم يؤخذ بصورته الشاملة. كانت الديموقراطية تصعد، واعتُبر وقتها أن الإنترنت قوّة تعمل في صالح الخير إلى حدّ كبير.

غير أنه في أثناء ما كنت أخطط وأكتب «وزارة الحقيقة»، تغيّر شكل العالم. أخذ الناس يتحدّثون عن الاضطرابات السياسية في السبعينيات، والأسوأ من ذلك، في الثلاثينيات. بدأت أرفض

المكتبات في الامتلاء بعناوين مثل «هكذا تنتهي الديموقراطية، الفاشية: تحذير» و «الطريق إلى سلب الحريات» و «موت الحقيقة»، التي استشهد كثيرٌ منها بأورويل. استحقَّ كتاب هانا أرنت «أصول الشمولية» إصدارًا جديدًا، وروَّج له بأنه «مسند واقعي لرواية ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». تكرر الأمر نفسه مع رواية سينكلير لويس عن الفاشية الأمريكية «هذا لا يمكن أن يحدث هنا» التي صدرت عام 1935. أتت المعالجة التليفزيونية التي قدَّمتها «هولو» لرواية مارجريت آتوود «حكاية الجارية» الصادرة عام 1985 مفزعة كأنها عمل وثائقي. «كنت غافلة في الماضي، هكذا سمحنا للأمر بالحدوث»، هكذا قالت أوفريد، الشخصية التي أدَّت دورها الممثلة إليزابيث موس. ذكرني هذا بشيءٍ كتبه أورويل عن الفاشية في عام 1936: «إن تظاهرت بأن ما يحدث من حولك مجرد انحراف سيمرُّ من تلقاء نفسه، فأنت تحلم حلمًا ستستيقظ منه عندما ينزل أحدهم على رأسك بهراوة مطاطية». لقد صمَّم كتاب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لإيقاظك من الغفلة.

كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أوَّل رواية ديستوبية تُكتب مع إدراك أن الديستوبيا أمر واقع. هي ألمانيا والكتلة السوفيتية، شَيْد رجالٌ دولًا ظلامية وأجبروا رجالًا ونساءً آخرين على العيش والموت بين جدرانها الحديدية. قد تكون تلك الأنظمة انتهت، لكن كتاب أورويل يواصل رسم وتحديد كوابيسنا، حتَّى لو تحوَّلت وتغيَّرت. «إنها أشبه بأسطورة إغريقية في نظري، تأخذها وتسقطها على ما تشاء، لاختبار نفسك»، هكذا أخبرني مايكل رادفورد، مخرج فيلم عام 1984 المأخوذ عن الرواية.

«إنها مرآة، كل عصر يرى انعكاس صورته فيها»، هكذا قالت إحدى الشخصيات في مسرحية عام 2013 لروبرت آيك ودنكان ماكميلان. أما المغني ومؤلف الأغاني بيلي براج فيقول: «في كل مرة أقرأها، تبدو لي كأنها عن شيء مختلف».

ومع ذلك، فإن حقيقة أن الرواية تتحدث إلينا بصوت عالٍ وواضح في عام 2019 لهو اتهام رهيب للسياسيين والمواطنين على حد سواء. في حين أنها ما زالت تُعدُّ تحذيرًا، صارت أيضًا تذكيرًا بجميع الدروس المؤلمة التي يبدو أن العالم لم يتعلمها منذ عصر أورويل، خاصة تلك المتعلقة بهشاشة الحقيقة في وجه السلطة الفاشمة. أخشى أن أقول إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وثيقة الصلة بعالمنا الآن أكثر من أي وقت مضى، لكنها معلمٌ لعين أوثق صلة ممّا يجب أن يكون.

وفي إعادة صوغ لعبارة إخلاء المسؤولية التي وضعها أورويل في كتابه «الحنين إلى كاتالونيا» عن الحرب الأهلية الإسبانية، فأنا: أحذركم من تحيزاتي، لكنني حاولت قول الحقيقة.

## الجزء الأول

## الفصل الأول التاريخ توقّف

أورويل من 1936 إلى 1938

«نحن نعيش في عالم كل من فيه ليس حرًا، وقلّمَا  
يُوجد فيه شخص آمن، ومن شبه المستحيل أن تكون  
صادقًا فيه وتظلّ حيًا».

جورج أورويل، «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، 1937.

قبل حلول كريسماس عام 1936 بأيّام قليلة، دخل جورج أورويل  
مندفعًا إلى مكتب مجلّة «ذا نيو إنجليش ويكلي» وهو يرتدي  
ملابس مناسبة لبعثة ويحمل حقيبة سفر ثقيلة، قال معلنًا: «أنا  
ذاهب إلى إسبانيا».

سأله فيليب ميريت رئيس تحرير المجلّة الفرنسي المهدّب:  
«لماذا؟»

فأجابه أورويل: «لا بُدّ لأحد أن يتصدّى لهذه الفاشية».  
من كان هذا الرجل البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا  
الواقف في مكتب ميريت؟ أيّ انطباع ترك على من رآه؟ كان طوله  
نحو 190 سنتيمترًا، وقدمه مقاسها 45، وصاحب كفين كبيرتين  
معبرتين، وذراعين طويلتين متدلّيتين إلى درجة تجعله يبدو متردّدًا  
أين يضعهما. كان ذا وجه شاحب، ناحل، ذابل في غير أوانه،  
تعطي الأخاديد العميقة حول فمه انطباعًا بمعاناة نبيلة وتذكّر

أصحابه بالدون كيخوتيه أو بإحدى لوحات القديسين للرسم إل جريكو. تفصح عيناه الزرقاوان الباهتتان عن ذكاء حسّاسٍ حزين. يميل فمه إلى الالتواء في ابتسامة ساخرة، وإن كنت محظوظًا قد تسمع منه قهقهة عالية خشنة. شعره مبعثر عموديًا مثل شعيرات الفرشاة، وملابسه بحالة مزرية وليست مهندمة على جسده بقدر ما هي معلقة عليه، وشاربه الرفيع هو مظهر الأناقة الوحيد الذي ارتضاه. تفوح منه رائحة التبغ المحترق، ويقول بعض الناس إنها كانت رائحة مرض نفاذة غير محدّدة. كان يتحدث بصوت رتيب جاف فيه خشونة، تتعلّق به شوائب لهجة قرية إيتون العنيدة التي كان يتمنّى ألا يلحظها أحد. في اللقاء الأوّل، قد يبدو متحفّظًا وشاردًا، مجرد عصا مكتسة قديمة يابسة. أما من تسنّى لهم تعرّفه جيّدًا سرعان ما اكتشفوا كرمه وحُسن فكاهته، لكنهم كانوا يصطدمون بعزلته النفسية. كان يؤمن إيمانًا راسخًا بالعمل الجاد والمتع الصغيرة، وقد تزوّج مؤخرًا بخريجة لامعة في جامعة أوكسفورد تُدعى آيلين أوشوناسي. كان منخرطًا في الفكر السياسي لكن ليس الأيديولوجي، وكان كثير السفر وجيد عدّة لغات. يبدو المستقبل واعدًا أمامه.

من ناحية أخرى، كانت الأشياء التي يفتقر إليها بذات الأهميّة. لم يكن بعد شخصية بارزة ولا اشتراكًا مخلصًا ولا خبيرًا في الشمولية ولا كاتبًا أسلوبه واضح شفاف كنافذة زجاجية. كان بالكاد جورج أورويل الذي نعرفه. ستشكّل إسبانيا الفتق الأكبر في حياته: أو ساعة الصفر لها. بعد سنوات، سيخبر صديقه آرثر كويستلر: «التاريخ توقّف في عام 1936». قصد بهذا الشمولية،

وقصد إسبانيا. لقد توقّف التاريخ وبدأت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كتب أورويل في منتصف عمره: «إلى أن بلغت سن الثلاثين تقريباً، كنت أخطط حياتي ليس بافتراض أن أي مشروع كبير مآله الفشل فحسب، بل بتوقع أنني لن أعيش سوى بضع سنوات أطول».

وُلِدَ أورويل باسم إريك آرثر بليز في 25 يونيو عام 1903 في الهند. أمه إيدا، التي أحضرته إلى إنجلترا في العام التالي، كانت امرأة نصف فرنسية متّقدة الذكاء اختلطت بناشطات «حق المرأة في التصويت» وأعضاء «الجمعية الفابية». أما أبوه، ريتشارد بليز، فكان موظفًا مدنيًا متوسط الرتبة في «لجنة الأفيون» التابعة لحكومة الإمبراطورية البريطانية، ولم يعاود الظهور في حياة ابنه حتّى عام 1912، وعندما ظهر كان مجرد «رجل مسن أجش الصوت لا يكف عن قول: ممنوع». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، تقض خيانة ونستون سميث لأمه وأخته في طفولته مضجعه، لكنه يتذكّر أباه بالكاد. وُلِدَ أورويل إذًا لأسرة تنتمي إلى ما يسمّيه بـ «الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة العليا»، وهي طبقة مضطربة من المجتمع الطبقي الإنجليزي تتمتع بطموح وعادات الأغنياء ولكن ليس برؤوس أموالهم، وبالتالي ينفقون معظم أموالهم على «الحفاظ على المظاهر». في وقت لاحق، بات ينظر إلى فترة صباه بخزي وإحراج وبقدر كبير من الازدراء. كان يرى نفسه «متغطرًا صغيرًا بغيضًا» صُمِّمت طبقته الاجتماعية وتعليمه لفرض التنازل. «إن لم تستأصل غطرستك



من تربيتها، ستلازمك إلى القبر». بين سنّي الثامنة والثالثة عشرة، كان تلميذًا في «مدرسة سانت سيبريان»، وهي مدرسة خاصة صغيرة في مقاطعة ساسكس ظلّ يكرهها من شغاف قلبه ما تبقى من حياته. «الفشل، الفشل، الفشل من خلفي ومن أمامي. هذه أعمق فتاعة حملتها بداخلي».

في السيرة الذاتية القصيرة التي أسهم بها عام 1940 في كتاب «مؤلّفو القرن العشرين» كتب: «تلقيت تعليمي في قرية إيتون بين عامي 1917 و1921، لأنني كنت محظوظًا بما يكفي للحصول على منحة دراسية، لكنني لم أنجز شيئًا هناك، وتعلّمت أقل القليل، ولا أشعر أن إيتون كان لها تأثير كبير في حياتي».

في حين أنه -على الأرجح- ضخم من شعور الازدراء الذي يكتّنه دافعو الرسوم تجاه الأولاد المنتفعين بالمنح الدراسية، كان أورويل بالفعل طالبًا متوسطًا لديه شعور عميق بعدم الانتماء. على الرغم من أنه كان يشتهر بـ «اليساري»، كانت اشتراكه المزعومة أقرب إلى وجهة عصرية من اقتناع راسخ. تذكّره تلميذٌ زميل بأنه كان «صبيًا معتدًا بنفسه، يحب دائمًا إثبات أن كل شيء حوله خطأ، ويعطي انطباعًا بأنه أتى لتصحيح الأمور». وقال آخر: «كان ساخرًا أكثر من كونه متمرّدًا، ودائمًا ما يقف بعيدًا ليراقب. دائمًا يراقب».

بعد إيتون، رفض أورويل ارتياد الجامعة، وانضم إلى الشرطة الإمبراطورية الهندية في بورما حيث ترعرعت أمه، وهو القرار المفاجئ الذي لم يحاول تفسيره لقراءه أو لأصدقائه. شال أورويل طموحاته في الكتابة على الرّف، لكن السنوات الخمس التي قضاها

في بورما زوّدته بخبرات تكفي لكتابة رواية واحدة لاثقة هي «أيام بورما»، ومقالين جيّدين جدًّا هما «الشنق» و«إطلاق النار على فيل»، واعتقاد راسخ بقيمة التجارب الحياتية. كان أورويل يكره المثقّفين -وهي كلمة كان يميل إلى وضعها بين علامتي تنصيص- ساخرتين- الذين يعتمدون على النظريات والافتراضات؛ لم يكن يؤمن بشيء على الإطلاق إلا إذا عاشه بطريقة أو بأخرى. مقولة مثل «كي تكره الإمبريالية يجب أن تكون جزءًا منها» هي تعميم خاطئ، لكنها كانت صحيحة من وجهة نظره. عندما يخاطب أورويل القارئ في كتاباته، فهو في الغالب يقصد نفسه.

لعبت الفترة التي قضاها في بورما دور العلاج التفتيري. من خلال رؤية كيف فسدت وتقوقعت الطبقة الحاكمة بسبب إساءة استخدامها للسلطة ومناخ النفاق الذي غلّفها، طوّر أورويل اشمئزازًا تجاه كل أنواع القمع، وصار لفترة وجيزة أناركيًا نوعًا ما، قبل أن يقرر أن هذا «هراء وجداني». عاد إلى إنجلترا في عام 1927 (في إجازة لم يرجع بعدها أبدًا) وهو مُثقل بـ «شعور رهيب بالذنب يجب أن أكفّر عنه». تجسّد هذا الشعور في هيئة رغبة ماسوشية جعلته يزجّ بنفسه في مواقف شاقة، بل ومهدّدة للحياة. «كيف تكتب عن الفقراء إن لم تصبح فقيرًا أنت نفسك، حتّى ولو لفترة مؤقتة؟»، هكذا سأل صديقًا له ذات مرّة. لاحظ أمين مكتبة قابله في هذه الفترة بدكاء أنه كان رجلًا «في طور إعادة ترتيب نفسه».

سعى أورويل - «من دون أدنى اهتمام بالاشتراكية أو بأيّ نظرية اقتصادية أخرى» باعتراهه الشخصي- لفمر نفسه في عالم

المستضعفين السفلي - أولئك الذين بعدم امتلاكهم لوظائف أو لممتلكات أو لوضع على الإطلاق، سَمَوا، أو بالأحرى غرقوا أسفل النظام الطبقي- بأن صار متشردًا في إنجلترا وغاسل صحون في باريس في أواخر العشرينيات. كتب أورويل: «هذا المجتمع أشبه بعالم داخل عالم، حيث الجميع متساوون في ديموقراطية صغيرة بائسة، ربّما هي أقرب شيء إلى الديموقراطية موجود في لندن». كان ريتشارد ريس، أحد محرري مجلة «ذا أدلفي»، يعتقد أن أورويل اختار هذا الطريق كـ «نوع من التكفير عن الذنب أو الوضوء لتطهير نفسه من رجس الإمبريالية». قادة هذا الاشتياق إلى الوحل<sup>(3)</sup>، الذي ظهر بعد ذلك في رحلات ونستون سميث الاستكشافية إلى منطقة العوام في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، إلى تأليف كتابه الأول: مذكرات «الفقر والتشرد في باريس ولندن».

نُشر الكتاب في عام 1933، وكان بمنزلة ولادة «جورج أورويل». أحد الأسباب التي قال إنها جعلته يستخدم اسمًا مستعارًا هو الرغبة في تجنب عائلته أي حرج إذا صُدموا من محتويات الكتاب، أو في حال إخفاق مسيرته في الكتابة، لكنه في الحقيقة كان يكره اسم إريك وكان متعطشًا لتجديده. هذا الاسم الإنجليزي الأصيل المأخوذ من نهر أورويل الذي يتدفّق عبر مقاطعة سوفلوك، نحّى أفكاره البديلة عن الاسم: كينيث مايلز، وبّي إس

3- Nostalgie de la boue: حرفيًا «الاشتياق إلى الوحل»، وهو الانجذاب إلى حياة البؤساء ومجتمع المهتمشين الذي يعترى المثقفين والمفكرين أحيانًا. العبارة صاغها الكاتب المسرحي الفرنسي إيميل أوجيه في عام 1855. (المترجم).

بورتون، وإتش لويس أولويز، وهذا من حسن الحظ أيضًا: ما كانت لفظة «أولويزي» لتكون صفة أنيقة.

\*\*\*

بحلول عام 1936، صار أورويل مؤلفًا لثلاث روايات، وكتاب غير روائي، وبعض القصائد الركيكة، وفيض من الكتابات الصحفية.. لم تتضافر جميعها بعد لتكوّن مهنة يُمكن أن الاعتماد عليها كمصدرٍ للرزق. كان بالكاد يستطيع العيش من خلال العمل مدرّسًا وبائع كتب. في ذلك العام، رسم لنفسه صورة ذاتية مبالغ في ققامتها في روايته الثالثة «دع الدريقة تطير». بطل الرواية، جوردون كومستوك، رجل فقير معدوم، طريد من الطبقات الوسطى التي تحسبها غنية من التعفّف، لديه طموحات أدبية لم تتحقّق ويعمل في مكتبة لتغطية نفقات المعيشة. إنه «لم يبلغ الثلاثين بعد، لكنه مضطّعب، وشاحب تمامًا، وتغزو وجهه خطوطٌ مريرة يتعذّر علاجها». إن رثاءه حاله وتشاؤمه وبغضه للبشر جميعها أشياء تضغط عليه وتخنقه، إلى درجة أن خضوعه النهائي للإمعية البرجوازية -التي يُرمز إليها بنبتة الدريقة المنزلية- يأتي في النهاية بمنزلة الانعتاق الرحيم. تمثّل شخصية كومستوك صورة مشوّهة من أورويل: إنه الرجل الذي كان سيصيره إذا استسلم للمرارة والكآبة.

في يناير عام 1936، قبل أورويل مهمّة أكلها إياه ناشره فيكتور جولانش، وهو اشتراكي يهودي صاعد مفعم بالحيوية، لاستكشاف معاناة الطبقة العاملة في مجال الصناعة في شمال إنجلترا. الكتاب الذي نتج عن ذلك ونُشر في العام التالي، الجزء

الأول من «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، هو مثال رائع على الصحافة الدعائية وإثارة تعاطف القارئ عن طريق تضفير البيانات الموثقة مع خليط زاهٍ من المشاهد والأصوات والأطعمة والروائح من قلب حياة الطبقة العاملة. صدم مشهد المرأة الراكعة لتسليك ماسورة صرف صحّي أورويل، ورأى فيه لوحةً خالدةً عن الكدح لا يمكن طمسها، حتّى أنه أعاد تقديمه بعد سنوات في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». أسرته النظرة التي كانت تعطي وجهها. «كانت تعرف جيّدًا ما يحدث لها». كتب أورويل مرارًا عن دور الوجه في الكشف عن شخصية صاحبه بعمق، سواء كان ديكنز أو هتلر أو رجل ميليشيات إسباني أو الأخ الأكبر. في إقليم آيرستريب وإن في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وهو النسخة الخيالية من بريطانيا في عالم الرواية، يُسمّى خطر إفشاء المرء حقيقة مشاعره «جريمة الوجه»، ونجد أن التعبير المجازي عن الاستبداد الذي يستخدمه المُعذّب أوبراين هو «حذاء يطاء وجه إنسان.. إلى الأبد».

رغم تقليله من قدر ملذّات حياة الطبقة العاملة للتأكيد على معاناتها، وصف أورويل أفرادها كما ينبغي في الجزء الأول من «الطريق إلى رصيف ويجان البحري» بصفاتهم بشريًا لا مجرد أرقام إحصائية أو رموز للجموع المكافحة. لهذا عندما قال لجاك كومون، أحد كتّاب الطبقة العاملة، «أخشى أنني جدتُ نوعًا ما في بعض مواضعه»، كان يقصد على الأرجح الجزء الثاني الإنشائي المليء بالاستطراد، الذي وصفه لاحقًا بأنه لم يكن يستحق إعادة الطبع.

مُفتتح الجزء الثاني المُسهَّب أقرب إلى مذكّراتٍ تتبّع تطوُّر وعيه السياسي بنزاهة جالدة للذات. بقوله إنه تريّ منذ ولادته على «كره وخشية واحتقار الطبقة العاملة»، فهو قد جعل الكتاب ضمناً وسيلة للتعليم وللتكفير عن الذنب. أما الباقي فهو جدال عنيف مشوّش. كان أورويل يعتقد أنه إذا كانت الاشتراكية ضرورية بشكل واضح، فلا بُدَّ أن عدم تمتّعها بشعبية يرجع إلى صورتها الذهنية، فهي «تتفرّ الأشخاص الذين كان ينبغي لهم التهافت على دعمها» من خلال تعميم مُثلها الجوهرية عن العدالة والحرية والآداب العامّة. حدّد أورويل عائقين أساسيين أمام الاشتراكية: الأوّل هو عبادتها الآلة، ممّا يخلق انطباعاً منفراً عن «الطائرات والجرّارات والمصانع المضيئة الضخمة المشيَّدة بالخرسانة والزجاج». العائق الثاني هو سوء طباع الطبقة العاملة. ولأنه بالكاد لاحظ وجود اشتراكيين بين أبناء الطبقة العاملة أو داخل حركة النقابات العمّالية، تخلّص أورويل من تحاملاته الغريبة عن طريق التفكير بعقلية الإنسان العادي، محطّماً كل الأوثان والنواقص التي يُزعم أنها تجعل الاشتراكية غير جذّابة لهم (وبتعبير آخر، له)، والتي تشمل النباتيين والممتنعين عن شرب المُسكرات ومناصري العُري والكويكرين<sup>(4)</sup> ومُنْتَعلي الصنادل وعصير الفاكهة والمصطلحات الماركسية ولفظة «رفيق» والقمصان فستقية اللون وتنظيم النسل واليوجا واللّحى وبلدة ويلون جاردن سيتي وضاحية

4- Quakers: يعرفون أيضاً بـ «الأصدقاء» أو بـ «جمعية الأصدقاء الدينية» أو «أصدقاء الكنيسة». طائفة من المسيحيين البروتستانت نشأت في منتصف القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس. (المترجم).

رتفوردشاير المُشيّدة وفقًا للمبادئ اليوتوبية المثالية. وعلى الرغم من أن أورويل ادّعى في الكتاب أنه يلعب دور محامي الشيطان ليس إلا، من الصعب عدم الشعور بأنه حظي بكثير من المرح في إهانة أقلية اشتراكية حمقاء وغريبة الأطوار أكثر من الدفاع عن أشكال أخرى من الاشتراكية. وبعد أداء مثل هذا، كان اختتامه للكتاب بدعوة «اليساريين من جميع الأوساط لإسقاط خلافتهم والتكاتف معًا» محض نفاق يدعو للسخرية.

جعل أورويل الحياة صعبة على فيكتور جولانش، الذي كان قد أسّس مؤخرًا «نادي الكتاب اليساري» مع نائب حزب العمل جون ستراتشي والعالم السياسي هارولد لاسكي من أجل الترويج للاشتراكية. قال لاسكي المفكر الاشتراكي الأكثر تأثيرًا في بريطانيا عن الجزء الأول من كتاب «الطريق إلى رصيف ويجان البحري» إنه «دعايا رائعة لأفكارنا»، لكن جولانش شعر بأنه مضطّر إلى كتابة مقدّمة لطبعة «نادي الكتاب اليساري» تُبرّي النادي من الأحكام القاسية للجزء الثاني. في تلك المقدّمة، وضع جولانش إصبعه على طبيعة أورويل المتناقضة بشدّة: «الحقيقة هي أنه مفكرٌ عظيم ومُعادٍ عنيف للفكر في الآن ذاته. وبالمثل هو متعجرفٌ رهيب (ويجب أن يغفر لي قول هذا)، وكارهٌ غير زائف لكل أشكال العجرفة». إلى نهاية حياته، اعترف أورويل أن آفات كل ما ينتقده تحيا بداخله. في الواقع، كان هذا الإدراك العميق لعيوبه الخاصة هو الشيء الذي حصّنه ضد الأوهام الخيالية عن مثالية الإنسان.

إنّهم جولانش أورويل أيضًا بأنه لم يدافع عن نسخته المفضّلة من الاشتراكية، ولم يُفسّر كيف يمكن تطبيقها. وفقًا لزميل أورويل

في متجر بيع الكتب ومحرّره اللاحق چون كيمشييه، كان أورويل «اشتراكيًا بالسليقة»: «شريف تمامًا، لكن يمكنني القول إنه لا ينسجم مع الأوضاع السياسية أو العسكرية المعقّدة». وببد أن نقد أورويل للاشتراكية كان منحرفًا وغير مكتمل، كانت نيّاته صادقة. كان يؤمن بأن «لا شيء سواها قادر على إنقاذنا من براثن بؤس الحاضر أو كوابيس المستقبل»، وإن فشلت الاشتراكية في إقناع البريطانيين البسطاء، فمن ثمّ سيستغل سخطهم بلا شك رجل مثل هتلر. كتب أورويل أن الاشتراكية في بريطانيا «تفوح منها رائحة غرابية الأطوار وعبادة الآلة والأفكار الروسية الغبية. وإن لم تُزل تلك الرائحة سريعًا جدًّا، قد تفوز الفاشية».

حتّى عندما كتب أورويل هذه الكلمات، كان يخطّط لمحاربة الفاشية بشكل أكثر مباشرة. كان محرّر مجلة «ذا ألفي» ريتشارد ريس يعرف أورويل منذ عام 1930، لكن فقط عندما ارتحل صديقه إلى إسبانيا، بدأ ريس «يدرك أنه كان رجلًا استثنائيًا».

\*\*\*

«الحرب الأهلية الإسبانية هي إحدى الحالات القليلة نسبيًا التي دوّن فيها الطرف الخاسر نسخة الأحداث التي حازت قبولًا واسعًا، بشكل أكثر إقناعًا من الطرف الفائز»، هكذا كتب المؤرّخ أنتوني بيثور. الأكثر من ذلك أن مذكرات الصراع التي قرئت على نطاق واسع، وهي كتاب «الحنين إلى كاتالونيا» لأورويل، كتبها رجلٌ قاتل مع أكثر الخاسرين خسارة: الـ «بارتيديو أوبريرو دي أونيفيكاسنيه ماركسيستا» أو (حزب عمّال التوحيد الماركسي)، الذي يُعرف اختصارًا بحزب الـ «بوم». هذا منظور خاص جدًّا



للأحداث. كان حزب الـ «بوم» حزبًا صغيرًا في الحجم والتأثير، ضعيفًا عسكريًا ولا يحظى بشعبية سياسية. لذا عندما ادّعى المعاصرون -والمؤرخون لاحقًا- أن كتاب أورويل رسم صورة مشوّهة للحرب، لم يكونوا مُخطئين. لكن الكتاب لم يكذب بخصوص الحرب التي خاضها أورويل.

في فبراير 1936، عندما كان أورويل في وِيجان، صوّت الناخبون في الجمهورية الإسبانية المضطربة التي يبلغ سنّها خمس سنوات لصالح ائتلاف الجبهة الشعبية من الأناركيين والاشتراكيين والشيوعيين والجمهوريين الليبراليين بفارق ضئيل؛ وهو ما أزعج الكنيسة والجيش: الرّكيزتان الأساسيتان لعقيدة الملكية الرجعية. في 17 يوليو، بعد خمسة أشهر من عدم الاستقرار، شن الجنرال فرانيسكو فرانكو انقلابًا في حامية المغرب الإسباني وجزر الكناري، وهو ما أشعل حربًا أهلية وحشية قسمت البلاد إلى قسمين، وصارت بعدها تمثيلًا للصراع الحاسم الذي امتدّ عقدًا بين الفاشية والشيوعية. على الفور، مدّت ألمانيا وإيطاليا متمردَي فرانكو بالأسلحة والأفراد، بينما صارت روسيا -بفضل الحظر المفروض على الأسلحة من بريطانيا وفرنسا- الحليف الرئيس للجمهورية، وما ترتّب على ذلك من عواقب وخيمة.

تتبع أورويل الأحداث الجارية في إسبانيا من كثب. تتضمّن الصفحات الأخيرة من كتاب «الطريق إلى رصيف وِيجان البحري» سردًا مرجعيًا لمعركة مدريد التي دارت رحاها في نوفمبر من ذلك العام. لقد ذهب إلى إسبانيا متوقّعًا محاربة الفاشية والدّفاع عن «الآداب العامّة»، لكنه وجد نفسه غارقًا

في حساء من الاختصارات اللفظية السياسية التي كانت أحياناً ترسم الخط الفاصل بين الحياة والموت لبعض الناس. إن شرح ما سمّاه أورويل «وباء الأحرف الأولى» هو شرّاً لا بُدَّ منه؛ لذا سأكون موجزاً. كان الـ «بسوك» (أو الحزب الاتحادي الاشتراكي الكتالوني) تابعاً كتالونياً للحزب الشيوعي الإسباني سريع النمو، وكان من دون منازع الفصيل الأكثر ثراءً والأقوى تسليحاً بفضل الدّعم الروسي. كان الأناركيون ممثّلين في كلّ من الـ «إف إيه آي» (الاتّحاد الأيبيري الأناركي) والـ «سي إن تي» (اتّحاد العمل العام). أما الـ «يو جي تي» الاشتراكي أو (اتّحاد العمّال العام)، فقد جاء منه رئيس وزراء إسبانيا الأخير، فرانثيسكو لارجو كاببيرو. ثم كان هناك حزب الـ «بوم» بقيادة أندريس نين البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً، وهو حزب الطبقة العاملة الماركسي المارق، الذي يقف في موقف وحيد وضعيف معارضاً لستالين وفي خلاف مع تروتسكي. جاءت هذه الفصائل اليسارية لشن حرب أهلية داخل الحرب الأهلية. أصرّ الشيوعيون -بعد استراتيجية موسكو لإنشاء تحالفٍ مناهضٍ للفاشية مع الرأسماليين تحت مُسمّى «الجبهة الشعبية» - على أن الفوز بالحرب يجب أن تكون له أولوية على الثورة. شعر الأناركيون وأتباع حزب الـ «بوم» أن النصر بلا ثورة أمر غير مقبول، بل مستحيل، ولم يكن من الممكن التوفيق بين الموقفين.

عند التفكير بأثر رجعي، يبدو للمرء أن ولاء أورويل لحزب الـ «بوم» كان مدفوعاً بالمثالية. في الحقيقة، اعترف الرجل لاحقاً: «لم أكن غير مهتم بالوضع السياسي فحسب، بل لم أكن على

دراية به». لو كان أكثر حكمة، هكذا أخبر چاك كومون، لانضم وقتها إلى الأناركيين، أو حتّى إلى الأولوية الدولية المدعومة من الشيوعيين، لكن القرار كان قد اتُخذ له بالفعل. في سعيه للحصول على خطاب توصية لتسهيل دخوله إلى إسبانيا، قصد أورويل أولاً هاري بوليت، الأمين العام الاستاليني المخلص لـ «حزب بريطانيا العظمى الشيوعي». شعر بوليت بأنه غير جدير بالثقة من الناحية السياسية (وقد كان كذلك بالتأكيد، ويفخر بذلك) ورفض مساعدته. كان حظُّ أورويل أفضل مع فينر بروكواي من «حزب العمل المستقل» (آي إل بي)، وهو حزب اشتراكي صغير متمرّد تتماشى أفكاره مع حزب الـ «بوم»، وهكذا قُضي الأمر. أثبت حزبا الـ «بوم» والـ «آي إل بي» نزاهتهما وشجاعتهما في عيني أورويل، باستنكارهما المحاكمات الصورية الجارية في موسكو.

لم يكن مزيج المثالية والجهل والمثابرة الذي كانه أورويل أمراً غير معتاد بين الأجانب الذين توافدوا إلى إسبانيا في عام 1936. جذبت القضية اليسارية العظيمة آنذاك كل أطياف البشر: المغامرين والحالمين، الشعراء والسبّاكين، الماركسيين المتشدّدين والمنبوذين المحبطين. وصف أحد المتطوّعين الأمر بأنه «عالمٌ يشعر فيه الوحيدون والضائعون بالأهمية». خدم نحو 35 ألف رجل من 53 دولة في الأولوية الدولية، بالإضافة إلى خمسة آلاف آخرين في المليشيات التابعة للأناركيين وحزب الـ «بوم». أكثر من ألف صحفي وكاتب ذهبوا أيضاً، من ضمنهم إرنست همنجواي ومارثا جيلهورن وأنطوان دو سانت إكزوبيري والشاعر ستيفن سبندر، الذي كتب لاحقاً: «لقد كانت في جزء منها حرباً أناركية،

حرب شعراء». قلّة من الأجانب -إن وُجدوا- كانوا يعون مدى تعقيد الوضع السياسي قبل وصولهم، ومع ذلك، قال الصحفي مالكوم موجريدج: «بدا من المؤكّد أن الخير والشر انخرطا أخيراً في قتال دموي في إسبانيا».

\*\*\*

غادر أورويل لندن في 22 من ديسمبر وارتحل إلى إسبانيا عن طريق فرنسا. هناك زار الروائي الأمريكي هنري ميلر، الذين كان يعدّ مخاطرة المرء بحياته من أجل قضية سياسية حماقة سخيفة، وحاول إقناعه بالعدول عن الأمر. «على الرغم من أن أورويل كان شاباً رائعاً بطريقته الخاصة، آمنت في نهاية المطاف أنه غبي»، هكذا قال ميلر بعد عقود. «كان مثاليًا مثل كثير من الإنجليز، وبدا لي إنه مثاليّ أحمق». عبر أورويل الحدود إلى إسبانيا ووصل برشلونة في يوم الصناديق<sup>(5)</sup>.

كانت كاتالونيا تفخر بأنها منطقة شبه مستقلة ولها تاريخ طويل من الأناركية. أحدث انقلاب فرانكو في يوليو ثورة معادية لرجال الدين هناك. أحرقت كنائس عديدة وأُعدم كثيرٌ من القساوسة. صُفح عن الطبقة البرجوازية إلى حدّ كبير، لكن أحزاب الطبقة العاملة استولت على البنوك والمصانع والفنادق والمطاعم ودور السينما وسيارات الأجرة، وزيّنت جميعاً بأحرف الـ «سي إن تي» (اتّحاد العمل العام) والـ «إف إيه آي» (الاتّحاد الأيبيري الأناركي). زار فرانز بوركناو، الكاتب الأسترالي الذي التقاه أورويل وأُعجب

5- عطلة رسمية يُحتفل بها في 26 من ديسمبر في المملكة المتحدة وكل الدول الناطقة بالإنجليزية باستثناء الولايات المتّحدة. (المترجم).

به، إسبانيا في أغسطس وشهد نهايات الحماسة الثورية، وكتب: «كان الشعور غامراً. بدا لي كأننا هبطنا قارة مختلفة تماماً عن كل ما رأيته من قبل». شهد سيريل كونولي، صديق أورويل من أيام الدراسة، الأمر بدوره، ما جرّده من الخيال بشكل مؤقت. «بدا كما لو أن الجموع، الرعاع الذين عادةً ما تُنسب إليهم غرائز الغباء والاضطهاد، ستتحول بعد تشرنقها إلى شكل من أشكال ازدهار البشرية».

من غير الواضح ما إذا كان أورويل ذهب إلى إسبانيا للقتال قبل أن ينتهي به المطاف إلى الكتابة أيضاً أم العكس. چون ماكنير، رجل الـ «آي إل بي» في برشلونة، تذكّر دخول أورويل إلى مكتبه وقوله: «جئت إلى إسبانيا للانضمام إلى الميليشيات ومحاربة الفاشية»، لكن أورويل أشار في كتابه «الحنين إلى كاتالونيا» أن الكتابة الصحفية آتت في المرتبة الأولى. في كلتا الحالتين، فقد قرّر خلال أيام قليلة فحسب فعل الأمرين. ما وجده هناك هو «نسخة رديئة من سنوات الحرب بين عامي 1914 و1918. «حرب» موضوعية قوامها الخنادق والمدفعية والغارات والقناصين والطين والأسلاك الشائكة والقمل والركود». أمضى أورويل أربعة أشهر التالية مع الفرقة 29 التابعة لحزب الـ «بوم» في خنادق جبهة أراجون التي كانت تفصل بين بلدة الكوبيرا التي يسيطر عليها الجمهوريون ومعقل الفاشية في سرقسطة وهويسكا. كانت مخاوف أورويل الرئيسية بترتيب تنازلي هي: «الحطب والطعام والتبغ والشموع و...» -بمسافة بعيدة- «... العدو». ولكونها محرومة من الأسلحة والمعدات الروسية، كانت ميليشيات الـ «بوم» عاجزة عن شنّ

هجوم على الفاشيين. كانوا يفتقرون إلى الملابس الموحّدة والخوذ والحِراب والمناظير والخراط والمشاعل والأسلحة الحديثة، من بين أمور أخرى. كانت بندقية أورويل الخاصة من طراز ماويزر، ويعود تاريخها إلى عام 1896. كان الشعور بالعجز والعبث يُحنّقانه، ولعن الجبهة بنفس الحكم الذي أطلقه على حالة جمود عائلة كومستوك الكثيبة في رواية «دع الدريقة تطير»: «لم يكن يحدث شيء على الإطلاق». قال جورج كوب -قائد كتيبة أورويل البلجيكي المتمرد- لرجاله: «هذه ليست حربًا. إنها أوبرا هزلية يشوبها الموت أحيانًا». ومع ذلك، وجد أورويل في الخنادق نسخة أفضل من المساواة المُطهّرة التي وجدها بين المتشردين، وقد جعلته اشتراكًا في النهاية. كان «يتنفس هواء المساواة». هذه التجربة العملية هي التي مكّنته من القول لاحقًا أنه -على الرغم من كل شيء- غادر إسبانيا وهو يحمل «إيمانًا أكبر وليس أقل بالأخلاق البشرية».

شكّلت إمدادات الشوكولاتة والسيجار وشاي فورتيم آند ميسون التي بدأ يتلقاها من زوجته آيلين عزاءً آخر أقل روحانية له، وذلك بعد أن تبعته آيلين إلى إسبانيا في فبراير لتعمل سكرتيرة لماكنير في برشلونة. كان الزوجان قد تزوّجا قبل ثمانية أشهر، بعدما التقيا في إحدى الحفلات عام 1935، وكانا يشكّلان من نواح عديدة ثنائيًا ممتازًا. كان كلاهما كتومًا عاطفيًا، مع ميل إلى الكآبة التي يُنعشها حسُّ الدعابة الساخر وروح الكرم. كانا يشتركان في الشغف بالطبيعة والأدب، وفي الطبع المُقتصد، وفي عدم الاكتراث بالصحة والمظهر، ونادرًا ما كان أحدهما

يُرى بلا سيجارة تتدلى من بين شفثيه. كلاهما يتمتع بمبادئ قوية وبشجاعة العمل وفقاً لها. كان الاختلاف بينهما في الطموح. كانت آيلين الخريجة في أكسفورد شديدة الذكاء، ومحبوبة على نطاق واسع، لكنها أخضعت تطلعاتها الخاصة لتطلعات أورويل، ووضعتها في المرتبة الثانية، وانسحبت من تحضير رسالة الماجستير في علم النفس التربوي للعيش معه في منزل ريفي في قرية هارتفودشاير في والينجتون. قال أحد الأصدقاء: «لقد التقت منه عدوى أحلامه كما تلتقط الحصبة».

شهد أورويل أخيراً بعض الحراك في شهر أبريل، عندما تقدمت الميليشيا نحو خنادق الفاشيين. أظهر همّة حقيقية في مواجهة نيران العدو، وصاح: «هاتوا ما عندكم يا أوغاد!»، وهو ما ردّ عليه أحد زملائه المتطوّعين: «بحق المسيح يا إريك، انبطح!». غير أن في أثناء أسابيع الجمود الطويلة، ظهر جانبه غريب الأطوار. هذا رجل رفض إطلاق النار على فاشي متراجع لأنه كان يكافح من أجل رفع بنطاله بعد قضاء حاجته، وبالتالي كان -كما قال- «أخاً في الإنسانية شبيهاً بك، وهو ما يجعلك لا تشعر برغبة في إطلاق النار عليه»، لكنه في يوم روع بشدة من جرد إلى درجة أنه فجّره ببندقيته، وبالتالي نبّه العدو إلى موقعهم، ما أثار تبادلاً شرساً لإطلاق النار انتهى بتدمير مطبخ الميليشيا واثنين من حافلاتهم. «إن كان يُوجد ما أكرهه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، فهو جرد يسير على جسدي في الظلام»، هكذا كتب قبل اثنتي عشرة سنة من تحطيم القوارض لإرادة ونستون سميث. ذكرت الجرذان في كتب أورويل التسعة، ما عدا واحداً.

على الرغم من روح الصداقة والأخوة من حوله، لم يستطع أورويل بعد أن يكن حبا لحزب الـ «بوم». يرجع سبب ذلك جزئياً إلى تناقضاته: «أضجرتني الجانب السياسي من الحرب، وكنت عادةً ما أناهض وجهة النظر التي أسمعها أكثر من غيرها». لكنه اعتقد أيضاً أن الشيوعيين كانوا يصنعون الفرق الأكبر، وقد طفت رغبته البراجماتية في إنجاز الأمور على عاطفته الرومانسية تجاه الجانب المستضعف المهضوم حقّه. حتّى بعد سنوات، ظلّ يعتقد أن إصرار حزب الـ «بوم» على أن الثورة الناجحة ستؤدي إلى النصر كان مضللاً.

بعد إجازة لبضعة أيّام قضّاها مع آيلين في برشلونة في أواخر أبريل، قرّر أورويل الانسحاب من الميليشيات والانضمام إلى الأولوية الدولية في مدريد، حيث كانت الأمور في حراك دائم. أخبره زملاؤه في الميليشيا بأنه أحرق وأن الشيوعيين سيقتلونه، لكنه كان عاقد العزم. فقط لاحقاً أدرك كم كان محظوظاً أن يُسمح له بتحدّي توجّهات الحزب من دون أن تُستكر فعلته أو يُهدّد. لم يكن يملك أدنى فكرة عن إلى أيّ مدى صارت برشلونة خطرة على أناسٍ مثله، لكنه كان على وشك أن يعرف.

\*\*\*

قبل عودة أورويل إلى برشلونة بوقت قصير، مرّ ريتشارد ريس عبر البلدة في طريقه إلى مدريد ليعمل سائق إسعاف للجيش الجمهوري. عندما قابل ريس آيلين في مكتب حزب الـ «بوم»، فسّر سلوكها المُشَتّت الشارد في البداية بأنه قلق على زوجها، حتّى أدرك ما كان يزعجها حقّاً: «كانت أوّل شخصٍ أرى فيه آثار العيش تحت مظلة من الرعب السياسي».



زار فرانز بوركناو برشلونة مرّة أخرى في يناير ووجدها مدينة مختلفة تمامًا عن تلك التي تركها في سبتمبر. بينما استطاع في السابق الارتحال في أرجاء جمهورية إسبانيا من دون مضايقة، صارت كل الشكوك والانتقادات الآن من المحرّمات. كتب الرّجل: «كان مناخًا من الريبة وتوجيه الاتّهامات، مُشبّعًا بكراهية يصعب وصفها لمن لم يعيشها». وُسِمَ حزب الـ «بوم» الذي لا يحبه أحد» بأنهم «تروتسكيون»، وهي تسمية حوّلتها محاكمات ستالين الصورية إلى حكم بالإعدام. أشار بوركناو إلى أن حقيقة تبرؤ تروتسكي منهم لم تُشكّل فارقًا: «في لغة الشيوعيين، الشخص التروتسكيّ هو شخص يستحق القتل». في فبراير، أرسل يان بيرزين -المستشار العسكري الروسي للجمهورية- تقريرًا إلى موسكو عن حزب الـ «بوم»، قال فيه: «غني عن القول إنه من المستحيل كسب الحرب ضد المتمردين إن لم تُصَفَّ هذه الحثالة الموجودة داخل المعسكر الجمهوري».

استشعر أورويل على الفور «شعورًا مريبًا لا لبس فيه من التناقض والكراهية السياسية» في المدينة. لقد تبخّر التضامن الثوري، وتبخّرت معه طوابير الطعام لبعض الناس، والنوادي الليلية والمطاعم التي تغذيها الأسواق السوداء لآخرين. كل شخص تحدّث أورويل معه كان يعتقد أن العنف أمرٌ لا مفر منه. ذات صباح، في بهو فندق كونتيننتال، قدّم أورويل نفسه إلى الروائي الأمريكي الشهير جون دوس باسوس، الذي أتى إلى إسبانيا لصنع دعاية وثائقية مع إرنست همنجواي، وكان الآن يبحث عن أخبار مُترجمه المفقود خوسيه روبليس. لاحظ دوس باسوس أن برشلونة كانت

تعاني من «مظهر مريب محطّم. المتاجر مغلقة، والناس يتلفتون من فوق أكتافهم مع كل خطوة». وبينما كانا يحتسيان الخمر في مقعدين من الخوص، تبادل الرجلان وجهات النظر حول استيراد الفكر الاستاليني إلى إسبانيا. شعر دوس باسوس براحة أخيراً لكونه «يتحدّث إلى رجلٍ صادق». لم يكن من السهل العثور على هؤلاء.

«عودُ الثقاب الذي أشعل قنبلة موجودة بالفعل»، حسب تعبير أورويل، أضرم في الثالث من مايو، عندما هاجمت قوَّات «حرس الاقتحام» في المدينة -بأوامر شيوعية- مركز الهاتف الذي يسيطر عليه الأناركيون، ما أجَّج خمسة أيَّام بلياليها من قتال الشوارع صارت تُعرف باسم «أيَّام مايو». قضى أورويل ثلاثة أيَّام منها متمركزاً على سطح مرصد سينما بوليوراما مسلَّحاً ببندقية للمساعدة في الدفاع عن مقر حزب الـ «بوم» عبر الطريق. من مكانه، رأى أن الشيوعيين يسيطرون على الشوارع شرق شارع رامبلاس، بينما يتمركز الأناركيون غربه. رُفرت الأعلام المتنافسة من الفنادق والمقاهي والمكاتب التي تحوَّلت بين عشية وضحاها إلى معازل مسلَّحة.

وحدهُ فندق كوتيننتال الذي يؤم شارع رامبلاس اعتُبر أرضاً محايدة؛ لذا صار مجتمعاً سريالياً من المقاتلين والمراسلين والعملاء الأجانب وبعض سائقي الشاحنات الفرنسيين العالقين، يبحثون جميعاً عن الطعام والمأوى. هناك رأى أورويل الروسي البدين المعروف فقط باسم «تشارلي تشان». كان هذا العميل المزعوم لك «إن كيه في دي»، أو شرطة ستالين السرية، يُخبر أيَّ

شخص يستمع إليه بأن العنف انقلابٌ أناركى يهدف إلى تقويض الجمهورية ومساعدة فرانكو. كتب أورويل: «كانت أول مرة أرى فيها شخصاً مهنته الكذب، ما لم يحسب المرء الصحفيين».<sup>(6)</sup> بعد أن خفّت حدّة العنف، وخلف مئات القتلى، ألصقت تلك الأكاذيب على الجدران في هيئة أفيشات مكتوب عليها «مزقوا القناع». كانت الملصقات تُصوّر قناعاً عليه المطرقة والمنجل، يُمزق ليكشف عن مجنونٍ مُزمرٍ يحمل وشم الصليب المعقوف. يدعى أنه الوجه الحقيقي لحزب الـ «بوم». في رواية أورويل «أيام بورما»، يتحوّل الطبيب البريء فيراسوامي إلى تروتسكيّ (أو إلى نسخة مبكّرة من إيمانويل جولدشتاين، الزنديق المزعوم في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون») على يد القاضي الفاسد يو بو كاين: «بعد سماع ما قيل عنه، كان يمكن لأيّ شخص تخيل الطبيب على أنه مزيجٌ من مكيا فيلي وسويني تود والماركيز دي ساد». كان هذا هو مصير «الفاشيّين التروتسكيّين» من حزب الـ «بوم» آنذاك. كانت محطّتهم الإذاعية «فيرداد» تستخدم شعاراً ربّاناً يقول «الخدمة الإذاعية الوحيدة التي تفضّل استخدام الحقيقة بدلاً من زُخرف القول». لكنّ زُخرف القول كان يفوز.

لم يُفاجأ أورويل بأن التوتّر بين الفصائل ظلّ يغلي إلى أن وصل إلى قتالٍ مُسلّح. لكن ما لم يتوقّعه، وما لم يستطع غفرانه، هو الخداع الذي تلى ذلك. ادّعى الشيوعيون أنهم كشفوا

6- \* على مدار القرن الماضي، سمّيت الشرطة السرية الروسية بأسماء عديدة، منها: الـ «تشيك»، والـ «أوه جي بي يو»، والـ «إن كيه في دي»، والـ «كيه جي بي»، والـ «إف إس بي»؛ بينما ظلت عقلية المنظمة متّسقة بشكل ملحوظ. (المؤلف).

شبكة واسعة من الخونة يتواصلون مع الفاشيين عبر إذاعات راديوية سرّية وعن طريق الحبر السري، ويتآمرون لاغتيال قادة الجمهورية. كانت هذه أكاذيب شنيعة إلى درجة أن الناس ظنّوا أنها لا بُدَّ أن تكون حقيقية، لأن أحداً لا يجرؤ على تلفيق مثل هذه الأشياء. أيّد فرانكو -الذي استفاد من فكرة أن الجمهورية مليئة بجواسيسه- الادّعاء. أنشئت محكمة خاصة للتجسس والخيانة العظمى، وخضعت الصحف للرقابة، واعتُقل الآلاف من الأناركيين وأعضاء النقابات، وغصّت الشوارع بالخوف والارتباب.

ما زاد من استياء أورويل أن الصحف الشيوعية الأجنبية مثل «ذا ديلي ووركر» البريطانية كانت تتفق مع تشارلي تشان. «إحدى الآثار الكئيبة لهذه الحرب أنها علّمتني أن الصحافة اليسارية لا تقل زيفاً وخداعاً عن صحافة اليمينيين»، هكذا كتب أورويل، مستثياً -بإجلال- جريدة «ذا مانشستر جارديان». كان الأمر يتطلب تأليف كتابٍ لوضع الحقيقة في نصابها، وقد كتب إلى جولانش ليخبره بذلك: «أرجو أن تُسّح لي فرصة كتابة حقيقة ما رأيته. ما يُنشر في الصحف الإنجليزية هو أكاذيب مروّعة إلى حدٍّ كبير». كان الوضع أسوأ في إقليم فرانكو، حيث ادّعت الصحافة أن ميليشيات الجمهوريين تغتصب الراهبات، وتطعم السجناء إلى حيوانات الحديقة، وتترك أكواماً من الجثث لتتعفّن في المجاري. لاحظ أحد الصحفيين الأمريكيين أن حجم الخداع في سالمنكا، العاصمة القومية، «يكاد يكون مرضاً عقلياً». من وجهة نظر ستيفن سبندر، الذي تبخّرت مثاليته سريعاً جداً إلى درجة أنه ترك الحزب الشيوعي بعد بضعة أسابيع، فإن الحرب

كشفت صفةً متأصلةً في الطبيعة البشرية: «وهي ببساطة أن جميع البشر تقريباً لديهم فهمٌ مُشوَّهٌ تماماً للواقع. فقط بعض الأشياء التي تعكس اهتمامتهم وأفكارهم تكون حقيقية من وجهة نظرهم؛ الأشياء الأخرى، التي هي في الواقع حقيقية بنفس القدر، تبدو لهم مفاهيم مجردة». ولم يستثن نفسه: «لقد صرت تدريجياً أستمع في نفسي رعباً من الطريقة التي يعمل بها عقلي».

بعد صدمة أيام مايو كان من المستحيل ألا يهجر أورويل حزب الـ «بوم»؛ لذا عاد مباشرةً إلى جبهة أراجون، لكنه لم يستمر طويلاً. كان أورويل أطول بكثير من الرجل الإسباني العادي، إلى درجة أن رأسه كان يبرز من فوق حافة الخندق. في كل صباح، كان يحب أن يقف ليستمتع بأوّل سيجارة له في اليوم. عندما سأله رجل الميليشيا الأمريكي هاري ملتون ذات يوم ألم يكن يقلق من القنّاصين، هزّ كتفيه وقال: «لا يمكنهم إصابة ثورٍ في رواق». في فجر يوم 20 مايو، أثبت أحد الرماة خطأه، بطلقة موجّهة بدقّة أصابته في الحلق أسفل حنجرته. ظن أورويل أنه يحتضر. لو أن الطلقة ترحّلت بمقدار ملليمتر واحد لكان ميتاً، لكنها أخطأت الشريان السباتي وشلّت مؤقتاً العصب الذي يسيطر على أحد أحياله الصوتية.<sup>(7)</sup> مستلقياً في الخندق، والدماء تتسكب من حلقه، فكّر أوّل ما فكّر في آيلين، أما الشعور الثاني الذي اعترّاه

7- \* ربّما تكون الطلقة قد أنقذت حياته بإبعاده عن الجبهة قبل هجوم الجمهوريين على هويسكا بعدها بأسابيع قليلة، في نكبة دموية محت نحو تسعة آلاف من الأناركيبين وأعضاء حزب الـ «بوم». (المؤلف).

فكان «استياءً شديداً من الاضطراب إلى مغادرة هذا البلد الذي -بعد كل القيل والقال- يناسبني تماماً... أغضبني سوء الحظ الغبي، أغضبتني تفاهته!».

\*\*\*

مكث أورويل في المستشفى طوال الأسابيع الثلاثة التالية. من الواضح أن حربه انتهت، لكنه كان بحاجة إلى الحصول على أوراق التسريح من الخدمة من الطبيب على الجبهة. بحلول الوقت الذي عاد فيه إلى برشلونة في 20 يونيو، كان الخراب قد حل. بمجرد دخوله فندق كونتيننتال، أخذته آيلين من ذراعه وهمست في أذنه: «غادر».

أدت أزمة «أيام مايو» إلى عزل رئيس الوزراء لارجو كاببيرو، وبالتالي إزالة آخر عائق أمام الانقضاء على حزب الـ «يوم». صار الحزب محظوراً الآن؛ هكذا اكتشف كل رجال الميليشيا العائدين من الجبهة. اعتُقل قائد كتيبة أورويل، جورج كوب. مات عضو حزب العمل المستقل بوب سمايلي («أفضل الرفاق»، حسب تعبير أورويل) في السجن في العاصمة الجمهورية فالنسيا. اختبأ كل من جيمس ماكثير وستافورد كوتمان من حزب العمل. كان أندريس نين مفقوداً، وسرعان ما سيتحوّل مصيره إلى كذبة أخرى. لقد عذّبه عملاء المخابرات الروسية بوحشية («صار وجهه كتلة لا ملامح لها» كما ذكر أحد التقارير) ثم قُتل؛ لكن بعض أعضاء الألفية الدولية الألمان تنكّروا في ملابس الجستابو ومثّلوا «عملية إنقاذ» كي يتمكن الشيوعيون من ادّعاء أن نين ما زال حياً، وأنه يمكن مع أسياده الحقيقيين في سالمنكا أو برلين؛ بالضبط

مثلاً أشيع عن الخنزير سنوبول في رواية «مزرعة الحيوان» أنه السيد فريدريك صاحب مزرعة بينشفيلد.

كانت برشلونة خلال الحملة القمعية هي أول وآخر ما تذوّقه أورويل من «المناخ الكابوسي» الذي سيفلّف رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». في مرق الشائعات والتشويه والبارانويا السام هذا، «كانت الأجواء تجبرك على الشعور بأنك متآمر، مهما كانت ضالة تأمرك». حتّى عندما لم يكن ثمة شيء سيئ يحدث، فإن خطورة حدوث هذا الشيء التي تلوح في الأفق كانت ممزّقة للأعصاب. دُوهمت غرفة أورويل وآيلين في الفندق، وأُصدرت مذكرة باعتقالهما. في عام 1980، اكتُشفت تقارير لعملاء من الـ «إن كيه في دي» ونظراتهم الإسبان وصفت الزوجين زوراً بأنهما «تروتسكيّان بارزان» يتآمران مع المنشقّين في موسكو.

بعد ثلاثة أيّام وليالٍ مرعبة، أمضاها أورويل في التجوّل في الطرقات بأكبر كم ممكن من الحذر، ونام فيها بصعوبة، تمكّن هو وآيلين ومكنير وكوتمان من الحصول على أوراق السفر التي تخصّهم من القنصلية البريطانية والحقاق بقطار الصباح المغادر إلى فرنسا والحرّية. «كانت تجربة غريبة»، هكذا كتب أورويل لصديقه راينر هيبنستول. «بدأنا كأبطال مدافعين عن الديمقراطية، وانتهى بنا الأمر بالتسلّل عبر الحدود والشرطة في أعقابنا. كانت معنويات آيلين رائعة. في الواقع، بدا أنها تستمتع بالأمر». فينر بروكواي -الذي كان يسافر في الاتجاه المعاكس سعياً للإفراج عن أعضاء حزب العمل السجناء، والذي التقى أورويل في برينيون بعد الحدود الفرنسية مباشرة- قال

متذكراً: «كانت المرّة الوحيدة تقريباً التي أراه فيها غاضباً بحق». سيق أورويل إلى إسبانيا بدافع كرهه للفاشية، لكنه غادرها بعد ستة أشهر وقد خلق عدواً آخر. تصرّف الفاشيون بشكل مروّع كما كان يتوقع منهم، لكن قسوة وخداع الشيوعيين صدماه. لچاك برانثوايت -وهو رفيق من حزب الـ «آي إل بي» - تصريح قال فيه: «أخبرني بأنه اعتاد أن يأخذ كلام الناس عن الشيوعيين على أنه بروباغندا رأسمالية، لكنه قال لي بعد ذلك: «أتعرف يا چاك، إنها الحقيقة».

كتب المرسال الأمريكي فرانك هانيجن: «صار كل صحفي تقريباً كُلف بالذهاب إلى إسبانيا رجلاً آخر في وقتٍ ما بعدما عبر جبال البرانس». هذا قطعاً ما حدث لأورويل. في مراحل مختلفة، وجد أن الفترة التي قضاها في إسبانيا مثيرة ومملّة وملهمة ومروّعة، وفي نهاية المطاف وجدها كاشفة. «قلبت الحرب الإسبانية والأحداث الأخرى التي وقعت بين عامي 1936 و1937 الموازين، وبعد ذلك عرفت موقفي»، هكذا كتب بعد عقد من الزمان، قبل بدء العمل على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». «كل سطرٍ كتبتّه في أيّ عملٍ جاد منذ عام 1936 كتبتّه بشكل مباشر أو غير مباشر ضد الشمولية والاشتراكية الديموقراطية كما أفهمها».

آخر ظنٍّ ساذج صدر عن أورويل هو توقّعه أن زملاءه القدامى سينشرون استنتاجاته. لكن بدلاً من ذلك، رفض جولانش كتابه، ورفض كنجسلي مارتن، مدير تحرير مجلة «ذا نيو ستيتسمان آند سوسايتي»، ليس فقط مقالاته عن الحرب، بل أيضاً نقده



لكتاب بوكارنو «غرفة القيادة الإسبانية» الذي حاول دس جوهر ذلك المقال فيه. عندما أُتيحت الفرصة لأورويل في النهاية لسرد قصّته في مجلّة «ذا نيو إنجليش ويكلي» التي يرأس تحريرها فيليب ميريت، كُتبت تحت عنوان «سكب الفاصوليا الإسبانية». كتب أورويل بعد ذلك: «كانت هناك مؤامرة متعمّدة لمنع فهم الوضع الإسباني. جنح الأشخاص الذين يُفترض أنهم أعقل إلى الخداع، بحجّة أنهم إذا سردوا حقيقة الوضع في إسبانيا فستُستخدم كدعاية للفاشية».

لم يكن أشد ما يفضبه الجرائم نفسها -فالحرب تولّد الأكاذيب مثلما تنتج الجثث والقمل- بل التسترُ عليها. في قاموس أورويل، أفحش الكلمات هي الدّجل والزيف والاحتيال. ضربت واقعية جولانش ومارتن السياسية توقّعاته المسبقة بقسوة. قمع الحقيقة لتحقيق مكاسب قصيرة الأجل يشبه إعلان حالة طوارئ: بسهولة يصبح التعليق المؤقت للحرية دائماً. كان الإبلاغ عن الواقع الفوضوي للحرب داخل الحرب اختباراً، وقد فشل فيه اليسار البريطاني المؤيّد للشيوعية بإعادة تدوير مخلصه للبروباجندا الشمولية. لقد توقّع ما هو أفضل.

في نظر أورويل، الحقيقة مهمّة حتّى -أوربّما بالأخص- عندما تكون غير مريحة. في كتاباته السابقة غير الروائية، ابتدع حكايات وحذف حقائق مربكة لأغراض الأدبية، ولكنه كتب «الحنين إلى كاتالونيا» بالتزام جديد بالدقّة بصفاتها فضيلة أخلاقية. جادل أورويل أنه من دون واقع توافقي سائد «لا يمكن أن يكون يُوجد نقاش؛ لا يمكن بلوغ الحد الأدنى الضروري للاتفاق». كان أورويل

بصيرًا بما يكفي ليعرف أنه لا يُمكن دائمًا الوصول إلى الحقيقة الموضوعية، لكن إذا لم يقبل المرء على الأقل وجود مثل هذا الشيء، فجميع الرهانات خاسرة. «وجدتُ نفسي أشعر بعمق أن تاريخ هذه الحرب الحقيقي لا يمكن كتابته ولن يُكتب على الإطلاق. ببساطة، لم تكن الأرقام الدقيقة والروايات الموضوعية لما كان يحدث موجودة»، هكذا كتب بعدها بسنوات، وهو ما عناه بعبارة «التاريخ توقّف»، العبارة التي تكرّرت في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». عندما يكون الحُكم الوحيد للواقع هو السلطة، يستطيع المنتصر ضمان أن تصبح الكذبة -في واقع الأمر- حقيقة.

حسنًا، إلى حدٍ معيّن. قد يبدو خداع حكومة حزب الإنجوسك في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» منيعًا. أما في الواقع، تميل الأكاذيب إلى إحداث نتائج عكسية إن عاجلاً أم آجلاً. لاحظ بوركنوا أن الشيوعيين الذين بدؤوا يكذبون لخداع الآخرين في إسبانيا، انتهى بهم الأمر وهم يخدعون أنفسهم. أنتجت البارانونيا مناخًا من إلقاء اللوم وعمليات التطهير وانكسار للمعنويات، بينما أدّت مبالغات الدعاية الشيوعية إلى أخطاء عسكرية. في روسيا، سرعان ما صار الكاذبون من يُكذب عليهم. أُعِدِمَ معظم كبار المسؤولين الروس في إسبانيا أو أُرسِلوا إلى معسكرات الجولاج. اتُّهم برزين -المستشار العسكري الذي أوصى بتصفية حزب الـ «بوم» - بالتجسس، وأُطلق عليه الرصاص في سجن لوبيانكا في موسكو.

بفضل فينر بروكواي، وجد أورويل أخيرًا في «سيكر آند واربورج» ناشرًا لكتابه «الحنين إلى كاتالونيا»، وهي شركة وليدة

تتمتع بسمعة معادية للاستالينية وبعقلٍ متفتحٍ. «كان هدفي هو إيجاد ودعم هؤلاء الكتاب الذين يرغبون في وضع منهاج لتحقيق اليوتوبيا ورسم الطريق إليها»، هكذا كتب المدير المشارك فريدريك واربورج في مذكراته. «لكن أيّ منهاج وأيّ طريق يؤديان إلى أرض الميعاد، هذا ما لم أكن متأكدًا منه على الإطلاق، ويجب أن يحسب ذلك لصالحه».

«الحنين إلى كاتالونيا» هو أفضل كتاب غير روائي لأورويل. نُشر الكتاب في 25 أبريل عام 1938، قبل عام واحد من كتابه «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، وكان أكثر حكمةً وهدوءًا وتواضعًا وسخاءً. «إنه يبيّن لنا جوهر البراءة الكامنة في الثورة، وأيضًا مناخ الكذب الذي يسلبها هذا الجوهر، أكثر مما تفعل القسوة بكثير»، هكذا كتب فيليب ميريت. حوّلت الأجيال القادمة الكتاب إلى وثيقة مرجعية أساسية عن حرب الأهلية الإسبانية، لكنه في ذلك الوقت كان مجرد غيض من فيض، وباع نحو نصف عدد نسخه المطبوعة التي يبلغ عددها خمسمئة. نبذ النقاد الشيوعيون البريطانيون الكتاب باعتباره مشتتًا في أفضل الأحوال، وباعتباره هدية من خائن لفرانكو في أسوأها. لم يبال أورويل بالمراجعات السيئة، معتبرًا حتى أسوأها دعاية جيدة، ولم ينكر أن كتابه كان رواية جزئية للأحداث. «أحذر الجميع من تحيزاتي، وأحذر الجميع من أخطائي»، هكذا كتب، لكنه أضاف: «لكنني بذلت قصارى جهدي لأكون صادقًا». ولأنه شعر أن التمييز بين الحقائق والأكاذيب حقيقي ويستحق المحافظة عليه، كتب رسائل شكوى من المراجعات التي لطّخت سمعة رفاقه القدامى.

إن كان قد بالغ في تعاطفه مع حزب الـ «بوم» في الكتاب، فذلك لأن لا أحد آخر كان سيدافع عمَّن اتُّهموا زورًا. «لو لم أكن غاضبًا من ذلك الشأن، ما كان ينبغي لي تأليف الكتاب أبدًا»، هكذا كتب لاحقًا.

أحد الإطراءات التي عنت له الكثير هي رسالة من بوركناو، الذي كان يعيش وقتها في إنجلترا: «من وجهة نظري، كتابك تأكيد آخر على اقتناعي أن المرء يمكن أن يكون صادقًا تمامًا مع الحقائق بغض النظر عن قناعاته السياسية». كان الاحترام بينهما متبادلًا. أثنى أورويل على كتاب «غرفة القيادة الإسبانية» باستعارة تتطوي على رهاب التكنولوجيا ليست غريبة عنه («إنه لأمر مشجع جدًا أن يسمع المرء صوتًا بشريًا، في الوقت الذي يذيع فيه خمسون ألف جرامافون نفس اللحن») ولاحقًا قال عن كتاب «الأممية الشيوعية» لبوركناو: «كتاب علّمني أكثر من أيّ كتاب آخر عن المسار العام للثورة». استقال بوركناو من الحزب الشيوعي الألماني في عام 1929 معترضًا على ستالين، وضخّ مساعدات في حزبٍ مناهض للنازية، وطوّر نظرية مبكّرة عن الشمولية. كتب بوركناو: «الحضارة محكوم عليها بالفناء. ليس فقط لوجود قيود على التعبير عن حرية الفكر، بل بسبب الخضوع الفكري للأوامر الآتية من مراكز الأحزاب».

\*\*\*

شخص واحد فقط ألمح أن أورويل كان مصدّقًا على الشيوعية في الماضي. بينما كان أورويل يتسكّع في باريس في أواخر العشرينيات، كان يستمتع أحيانًا بكرم استضافة عمّته

نيلي ليموزن وشريكها يوجين آدم. كان آدم وصديقه لويس بانير شيوعيين سابقين وضليعين في الإسبرانتو، اللغة الدولية المثالية التي استطاعت إثارة غضب كل من هتلر وستالين. ادّعى بانير لاحقاً أنه تذكر جداً شرساً دار بين آدم وأورويل الشاب، الذي «استمرّ في التصريح بأن النظام السوفيتي كان الاشتراكية النهائية». إنها حكاية مثيرة للفضول. بخلاف كل ما كتبه أورويل، سواء كان صحيحاً أم لا، ربّما كان عمّه هو مدخله إلى الحماسة الشيوعية السابقة.

كثيرٌ من كُتّاب أورويل المفضّلين في السنوات التي تلت إسبانيا كانوا شيوعيين سابقين: بوركناو وكويستلر من النمسا؛ إنياتسيو سيلون من إيطاليا؛ فيكتور سيرج من روسيا؛ ماكس إيستمان ويوجين ليونز من الولايات المتحدة؛ أندريه جيد وبوريس سوفارين وأندريه مالرو من فرنسا. لقد تعلّموا الشيوعية بنفس الطريقة التي فهم بها الإمبريالية: من داخل عرين الأسد. شهادات مثل كتاب جيد «العودة من الاتحاد السوفيتي» وكتاب سوفارين «كابوس في الاتحاد السوفيتي»، غدّت فهم أورويل الأوّل لطريقة عمل نظام ستالين. كثيرٌ من التفاصيل والحكايات التي اكتشفها في تلك الأعمال صبّت في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: عبادة الحاكم، وإعادة كتابة التاريخ، وطمس حرية التعبير، وازدراء الحقيقة الموضوعية، وأصدقاء محاكم التفتيش الإسبانية، والاعتقالات التعسّفية، والاتّهامات والاعترافات القسرية، وفوق كل ذلك المناخ الخانق المُعبّأ بالشك والرقابة الذاتية والخوف. يمكن أن نأخذ مثلاً واحداً فقط. في رواية أورويل يكتشف

ونستون سميث صورة تثبت أن الخونة المزعومين جونز وأرونسون وورذفورد كانوا في نيويورك بالفعل في اليوم الذي اعترفوا فيه أنهم كانوا في أوراسيا. لقد قرأ أورويل عن مثل هذه الحالات التي تتعارض فيها الاعترافات الملفقة مع الأدلة الدائمة. صُوِّر أحد المتآمرين المزعومين في مؤتمر في بروكسل في اليوم نفسه الذي «اعترف» فيه بالتآمر في موسكو. وزُعم أن شخصاً آخر التقى تروتسكي في أحد فنادق كوبنهاجن، الذي اتضح أنه هُدم قبل خمسة عشر عاماً.

لم يُجَلَّ أورويل هؤلاء الكُتَّاب فقط بسبب المعلومات التي قدّموها، بل لأن نيران هجماتهم على ستالين أذكيت بمشاعر الخزي الشخصي والحاجة العميقة إلى تطهير سذاجتهم وتواطئهم عن طريق ما سمّاه أورويل «أدب التحرُّر من الوهم الشيوعي». في سيل الهرطقة الأوّل المرعب والمبهج ذلك، كتب الشيوعيون السابقون بعجالة وضرورة ملحة. وجد أورويل أيضاً في عزلتهم بطولية. كثيرٌ منهم نبذهم الأصدقاء القدامى وتجاهلهم الناشرون. كتب سيلون متفقاً: «إنه واحد من أولئك الرجال الذين اتَّهمهم الفاشيون بأنهم شيوعيون واتَّهمهم الشيوعيون بأنهم فاشيون. إنها مجموعة صغيرة بعد، ولكنها تنمو باطراد».

لماذا كان أورويل ينتقد الشيوعية بقوة أكثر بكثير من الفاشية؟ لأنّه اختبرها من كثب، ولأن جاذبيتها كانت أكثر غدرًا. بلغت كلتا الأيديولوجيتين الوجهة الشمولية نفسها، ولكن الشيوعية بدأت بأهداف نبيلة، وبالتالي تطلّبت مزيداً من الأكاذيب للحفاظ عليها. لقد أصبحت «شكلاً من أشكال الاشتراكية يجعل نزاهة

العقل مستحيلة»، وصار أدبها «آلية لتفسير الأخطاء». لم يكن يعرف أيّ فاشيين شخصياً، وكان يحتقر الشخصيات العامة منهم مثل الشاعر عزرا باوند وأوزوالد موزلي، زعيم «اتحاد الفاشيين البريطانيين» الذي شاهده يتحدث في بارنسلي في عام 1936: «على الرغم من أن خطبته قُدِّمت بأسلوب منبري ممتاز، فقد كانت هراءً لا يُوصف بكلمات».<sup>(8)</sup> لكن أورويل كان يعرف شيوعيين كثر. في أوساط المثقفين الأدبيين، كانت الفاشية رذيلة، بينما الشيوعية «كانت تحمل سحراً لا يقاوم لأيّ كاتب تحت سن الأربعين». كان لا يزال غاضباً من ريائهم بعد ذلك بسنوات، عندما كتب في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أن الفضائع التي ارتكبت في الثلاثينيات «تسامح معها ودافع عنها أشخاص كانوا يُعدُّون أنفسهم مستتيرين وتقدِّمين».

لقد نبذ الشيوعيون السابقون القياس المنطقي التالي الذي ربط اليسار بستانالين: «أنا أومن بالاشتراكية. الاتحاد السوفيتي هو الكتلة الاشتراكية الوحيدة. إذا أنا أومن بالاتحاد السوفيتي». أمّا دحض أورويل فتكوّن من شقين. أولاً: لا يمكن تسويغ أيّ غايات -مهما كانت فاضلة- بهذه الوسائل البشعة. ثانياً: لم تكن روسيا الاستالينية اشتراكية حقيقية لأنها رفضت الحرية والعدالة. لكن علاوة على ذلك، لم يستثمر أورويل نفسه أبداً -فكرياً وعاطفياً

8- \* هذا لا يعني أن أورويل كان يرى أن موزلي غير ضار: «حتّى موزلي سيتحمّل بصبر السخرية منه على الملأ. لأن التجربة تُظهر -كما نرى من مسيرة هتلر ونابليون الثالث- أن عدم أخذه المتسلّق السياسي على محمل الجدّ في بداية حياته المهنية تكون مزية أحياناً..» (المؤلف).

واجتماعيًا- في التجربة السوفيتية. أما أولئك من فعلوا ذلك، وجدوا أنفسهم في أزمة وجودية.

أحدهم كان يوجين ليونز، مهاجر يهودي روسي نشأ في المساكن الفقيرة في الجانب الشرقي الجنوبي من نيويورك، وصار صحفيًا في الصحف الاشتراكية. في عام 1922، صار شيوعيًا وتبرأ من أصدقائه الأكثر اعتدالاً. بين عامي 1928 و1934 عمل مراسلاً في وكالة الأنباء «يونايتد برس» في موسكو، وكان ينقل للقراء الأمريكيين الصورة في الاتحاد السوفيتي. وبعد أن كان في البداية مدافعاً قوياً عن ستالين، وأول صحفي غربي أجرى لقاءً معه، أصيب بالرعب من البروباغاندا والملاحقة وصناعة الكذب التي شارك فيها. في يونيو 1938، قدم أورويل مراجعة لكتاب ليونز الملحمي الذي كان بمنزلة «إقرار بالذنب»، وبوسعنا أن نفترض بثقة كبيرة أن تفصيلاً رغبة ستالين في إكمال الخطة الخمسية الأولى في أربع سنوات فحسب قد جذبت انتباهه:

«أثارت معادلة  $2 + 2 = 5$  انتباهي على الفور. بدت لي في التو متكبرة ومنافية للعقل؛ كل جرأة وتناقض المشهد السوفيتي، وسخافته المأساوية وبساطته الغامضة وتحديه للمنطق، اختزلت في معادلة رياضية هازئة، رُسمت بالأضواء الكهربائية على واجهات المنازل في موسكو، ووُضعت بأرقام كبيرة على اللافتات الإعلانية.  $2 + 2 = 5$ : خطأ مقصود، ومغالاة، وتفاؤل منحرف، وأمر طفولي عنيد مفرق في الخيال بشكل مثير.



في غضون بضعة أشهر، كان أورويل يستخدم المعادلة غير الواقعية بنفسه. في مراجعته الإيجابية بشكل عام لكتاب برتراند راسل «السلطة: تحليل اجتماعي جديد»، تحدّى أورويل الافتراض القائل بأن الحسن السليم سيفوز: «يتمثل رعب العصر الحالي في انعدام قدرتنا على التأكد من الواقع. من الممكن أن نتحدر إلى عصر يُساوي فيه جمع اثنين واثنين خمسة إن قال الزعيم ذلك... كل ما على المرء هو التفكير في احتمالات شرور الإذاعة والتعليم الذي تسيطر عليه الدولة، يُدرك أن فكرة أن "الحقيقة عظيمة وستسود" لا تعدو مجرد أمل، وليست أمرًا بديهيًا».

لا بُدَّ أن أورويل قد قدَّر أيضًا وصف ليونز للثمن الذي يجب أن يُدفع مقابل الردة الأيديولوجية. عندما عاد إلى نيويورك، احتار ليونز بين أن يكون صادقًا بشأن ما رآه وألا يكون. كان قول الحقيقة واجبًا أخلاقيًا وانتحارًا اجتماعيًا في الوقت نفسه. وبعد أن اختار ليونز طريقه، سرعان ما وجد نفسه منبوذًا ومرفوضًا من رفاقه القدامى. في نظر المؤمنين الحقيقيين بالشيوعية، فإن كشفه جرائم ستالين كان إهانة روحية تقريبًا، وبالتالي كان أمرًا لا يُغتفر. «كنت مذبذبًا بارتكاب أبشع الجرائم طُرًا: هدم الأوهام النبيلة»، هكذا كتب. كان لا بُدَّ من حماية أبواب روسياهم الأسطورية من براثن الواقع البربري بأيّ ثمن. «لقد أسس كثير من الأمريكيين الذين يشعرون بالضجر أو الملل أو الذعر منازلهم الروحية في كنفها الأسطوري، إلى درجة أن أيّ شخص هدّد بتقويض أسسها كان يعامل على أنه مُخرّبًا صفيقًا. وربما كان كذلك بالفعل».

من السخرية المريرة أن عنوان كتاب ليونز كان: «دراسة في اليوتوبيا».

## الفصل الثاني حمى اليوتوبيات أورويل والمتفائلون

«لا بُدَّ أن العمل من أجل أنبل القضايا الممكنة،  
في تلك الأيام المضغمة بالأمل في ثمانينيات القرن  
التاسع عشر، كان مائعاً أيّما متعة؛ ولكم كانت  
القضايا وفيرة للاختيار من بينها. مَنْ كان بوسعه  
توقُّع إلّا مَ سينتهي كل ذلك؟»

جورج أورويل، مجلة «ذا أدلفي»، 1940.

«إن لم تتضمَّن خريطة العالم يوتوبيا، فلا تستحق النظر إليها...  
التقدُّم هو تحقيق اليوتوبيا على الأرض»، هكذا كتب أوسكار وايلد  
في مقاله «روح الإنسان في ظل الاشتراكية». كان ردُّ أورويل الكُفء  
المقتضب «أجل، ولكن...». كان معجباً بفكرة اليوتوبيا كترياق  
مُلهم للتشاؤم والحيطه، لكنه وجد أيَّ محاولة لوصفها مملة، وأيَّ  
مجهود يُبذل لتشييدها مشؤوماً. في عدد الكريسماس من مجلة  
«تريبون» عام 1943، وتحت الاسم المستعار جون فريمان، كتب  
أورويل مقالاً بعنوان «هل يمكن للاشتراكيين أن يكونوا سعداء؟»،  
قارن فيه بين الفرخ الملموس في نهاية رواية ديكنز «ترنيمه  
الكريسماس» بـ «السعادة الأبدية» غير المقنعة لليوتوبيات. قال  
إن السبب الذي دفع الناس إلى الخصام والقتال والموت من  
أجل الاشتراكية هو مبدأ الأخوة، لا من أجل تحقيق «جنّة مكَيِّفه

الهواء، ومركزية التدفئة، ومزينة بمصابيح». بالتأكيد يمكن للعالم أن يتحسن، بل لا بُدَّ فعل ذلك، لكن لا ينبغي له بلوغ الكمال أبدًا. «من يحاول أن يتخيَّل الكمال يكشف ببساطة عن مدى خوائه».

تاريخيًا، سبقت فكرة اليوتوبيا فكرة الديستوبيا، بالطريقة نفسها التي سبقت بها الجنة الجحيم. ربَّما يُحسب للبشرية أن الناس عكفوا على تصميم المجتمع المثالي قبل وقتٍ طويل من تخيُّل العكس. المخطوطة الأولى المؤسَّسة في هذا الضرب من الأدب هي «جمهورية أفلاطون»، وهي حوار سقراطي يُعدُّ سلفاً مُعترفًا به لكتاب توماس مور «يوتوبيا» الذي نُشر عام 1516.

اللفظة التي صاغها مور مستمدةً من كلمتين يونانيتين: ou بمعنى (لا) و topos بمعنى (مكان). اليوتوبيا مكان لا وجود له. لكن من السهل الخلط بين ou و eu بمعنى (جيد)، وسواء كانت كلمة مور تلاعبًا لفظيًا مقصودًا أم لا، فقد اكتسبت اليوتوبيا معنى أكثر تحديدًا: الجنة على الأرض. في عالم السياسة، ساد التأويل الثاني للكلمة، لكن ظلَّ الغموض يكتنفها في عالم الأدب، وهكذا يمكن لأوروبي وصف «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها «يوتوبيا». لقد فرَّق بين اليوتوبيات «الإيجابية» و «المتشائمة»، لأنه لم يكن ليخطر في باله تسمية الأخيرة باسم ديستوبيات. على الرغم من أن جون ستيوارت ميل استخدم لفظة ديستوبيا (التي تعني حرفيًا «المكان غير الجيد») عام 1868، ظلَّت الكلمة خامدة لقراءة القرن، وطفعت عليها لفظة كاكوتوبيا (المدينة الفاسدة) التي صاغها جيرمي بنثام، أو مصطلح (نقيض اليوتوبيا)، إلى أن بدأت تشيع أخيرًا في الستينيات. صارت رواية أوروبي مرادفًا لكلمة لم يستخدمها قط.

كان أورويل على دراية جيدة بالأدب اليوتوبي. لقد كتب أكثر من مرة عن رواية صامويل باتلر الهجائية «ريوهون» المنشورة عام 1972، وعن فانتازيا وليم موريس الاشتراكية «أخبار من لا مكان» المنشورة عام 1890، وعن مساهمات إتش جي ويلز العديدة، لكنه نادرًا ما اقتنع أن الأفكار اليوتوبية يمكن أن تصنع خيالاً مُشبعًا. «من الصعب وصف السعادة، ونادرًا ما تكون صور المجتمع العادل جيّد التنظيم جذابة أو مقنعة»، هكذا كتب في مقاله عن «رحلات جليفر». منذ أيام كتابه «الفقر والتشرّد في باريس ولندن»، كان يعتبر وعد «اليوتوبيا الماركسية الكئيبة» عقبة أمام الاشتراكية. في صميمه، كان يعتقد أن اليوتوبيات تبدو مملة وكئيبة ولم يكن يؤمن أن الناس تريدها حقًا. «بشكل عام، يرغب البشر في أن يكونوا بخير، ولكن ليس بمنتهى الخير، وبالتأكيد ليس طوال الوقت»، هكذا كتب في مقاله «فن دونالد مكيل» في عام 1941. بمُعطى اهتمامات أورويل، فإن واحدة من أكثر الثغرات المُحيّرة في كتاباته هي عدم وجود أدنى إشارة إلى الكتاب الذي حوّل عملية تخيّل المجتمعات المثالية إلى ظاهرة ثقافية اجتاحت سنوات القرن التاسع عشر الأخيرة. في مجمل أعمال أورويل، لا توجد إشارة واحدة إلى إدوارد بلامبي.

\*\*\*

في أغسطس عام 1887، كان إدوارد بلامبي مؤلفًا مغمورًا وصحفيًا من ماساتشوستس. كان شابًا جادًا حسّاسًا، سنّه سبعة وثلاثون عامًا، ذا ملامح مهذّبة وشارب كثّ ويتمتع بوازع أخلاقي يقظ. وصفه فرانسيس ويلارد بأنه «هادئ ولكنه ملاحظ جيد».

متواضعٌ ولكنه متّزن داخليًا. نبيلٌ مهذبٌ ولكنه ذو شخصية، كما أنه مُفعمٌ بالنشاط». عندما تأمل بلامى في حال الولايات المتحدة الأمريكية في العصر المذهب رأى «أمة عصبية صفراوية تعاني من سوء الهضم» حطمتها اللا مُساواة الشيعة. كانت أسر المليونيرات تُسيطر على الاقتصاد الصناعي، بينما تعمل الطبقات الكادحة ستين ساعة أسبوعيًا مقابل أجر منخفض في مصانع وورش مُستغلة غير آمنة، ويعيشون في أحياء فقيرة كريهة. أنتجت مسيرة التكنولوجيا العجب: المصباح الكهربائي، الفونوجراف، التليفون.. وفي الوقت نفسه لوّثت الأنهار وسوّدت السماء. تعرّض الاقتصاد تحت ضربات الكساد والذعر المالي، واجتاح وباء الإضرابات العمالية البلاد من المحيط إلى المحيط.

في نظر بلامى، لم يكن الوضع الراهن ظالمًا فحسب، بل لا يُطاق. كان يؤمن أنه يعيش في أوقات حرجة وأن تحولًا عظيمًا -لأفضل أو للأسوأ- آتٍ لا محالة. سيُقرّر مصير أمريكا مصير العالم. كتب بلامى: «لنضع في حسابنا أنه إذا آل مصيرنا إلى الفشل، فسيكون هو الفشل الأخير. لا تُوجد عوالم جديدة يمكن اكتشافها، ولا قارات ناضرة تمتدُّ فيها حقولٌ بكر تصلح لمساع جديدة».

في شهر أغسطس ذاك، أنهى بلامى رواية أعادت تصوّر الاضطرابات في ثمانينيات القرن التاسع عشر، والنظر إليها باعتبارها مقدّمة مؤلمة ولكن ضرورية لإرساء يوتوبيا اشتراكية سلمية. كتب بلامى لناشره: «أنا راغب بشكل خاص في أن ترى النور في أسرع وقتٍ ممكن. يبدو لي أن الآن هو الوقت الملائم لقراءة منشور يتطرّق إلى المسائل الاجتماعية والصناعية».

فعلت رواية «النظر إلى الماضي: 2000 - 1887» ذلك بالتأكيد. نُشرت الرواية في عام 1888، وصارت الرواية الأكثر شعبية في الولايات المتحدة منذ رواية «كوخ العم توم»، والأكثر تعرُّضًا للتقليد منذ رواية «جين آير». مثل كثير من الكتب الأكثر مبيعًا المفاجئة، وألّف كتاب بلامي بين الاتجاهات السائدة وقتها، مستفيدًا من شعبية الرؤى اليوتوبية مثل رواية «العصر البلّوري» لدبليو إتش هادسون، ومن المسالك الراديكالية مثل رواية هنري جورج كاسحة النجاح «التقدُّم والفقر»، عن طريق دمج النوعين. في أمريكا، وفقًا للصحفي هنري لويد، «نوقشت الرواية في جميع الأوساط إلى أن وصلت إلى ماسحي الأحذية على الأرصفة». في بريطانيا، صارت نقطة حوار أساسية إلى درجة أن عدم قراءتها كان يُعتبر سقطة في الدوائر الفكرية. «أظن أنك رأيت أو قرأت أو على الأقل حاولت قراءة «النظر إلى الماضي»»، هكذا كتب المصمم والكاتب الاشتراكي وليم موريس إلى صديق له عام 1899. في روسيا، حيث انتشرت الرواية سريعًا، أشاد بها تشيكوف وغوركي وتولستوي، ووصفها الأخير بأنها «كتاب مدهش تمامًا». كان من ضمن الأمريكيين المعجبين بها چاك لندن وأبتون سينكلير وإليزابيث جورلي فلين واشتين من قادة الحزب الاشتراكي المستقبلين. أطلق عليها مارك توين لقب «أحدث وأفضل الأنجيل».

مثل الإنجيل، استقطبت الرواية حواريين، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى نشر أخبار جيّدة عن طبقة بلامي الوسطى. الصورة المحترمة والأمريكية بشكل واضح من الاشتراكية، التي سمّاها

القومية. كتب أحد التابعين: «بلامى هو موسى هذا العصر. لقد أَرانا أن أرض الميعاد موجودة». كَوْنُ مُعْجَبٍ بِبِلَامِي أَوَّلُ نَادٍ قَوْمِي فِي بوسطن عام 1888؛ فِي غضون ثلاث سنوات كان هناك أكثر من 160 نادياً فِي جميع أنحاء البلاد تجذب الصحفيين والفنانين والمحامين والأطباء ورجال الأعمال والمُصلحين، وكان من بينهم المحامية الصليبية كلارنس دارو والنسوية شارلوت بيركنز جيلمان. فِي المناطق الريفية، كان البائعون يبيعون الكتاب من باب إلى باب. استمدَّ «الحزب الشعبوي» المشكَّل حديثاً، الذي فاز بخمس ولايات فِي الانتخابات الرئاسية عام 1892، كثيراً من برنامجهِ التقدُّمي من أفكارِ بِلَامِي. استطاع سَكَّانُ وسط مدينة لوس أنجلوس أن يروا بأنفسهم القوَّة المغيِّرة للحياة فِي «النظر إلى الماضي». أسَّس المهندس المعماري جورج وايمان مبنى برادبوري -الذي صار لاحقاً موقع تصوير التتابع الأخير من فيلم ريدلي سكوت «بليد رانر» - على وصفِ بِلَامِي للمتاجر الشاملة فِي المستقبل.

فِي الوقت الذي كان أورويل يبدأ فِيهِ مسيرته المهنية فِي الصحافة، أعاد الكساد الكبير إحياء الاهتمام بنبوءة بِلَامِي المبهجة. قرأ الرئيس روزفلت كتاب بِلَامِي وناقشه، وتضمَّنت إدارته الجديدة كاتب سيرة بِلَامِي الذاتية، آرثر مورجان. فِي عام 1935، أعطت مجلة «ذا أتلانتيك» كتاب «النظر إلى الماضي» لقب ثاني أهم كتاب فِي آخر خمسين عاماً، زاعمة أن كتاب «رأس المال» هو الوحيد الذي كان له أثر أكبر فِي تشكيل العالم. استمدَّ زعيم «حزب العمل» كليمنت أتلي حماسته لحزب «اتحاد

الكومنولث التعاوني» من رواية «النظر إلى الماضي»، وأخبر نجله الكاتب بول بأن حكومته في فترة ما بعد الحرب كانت «من بنات أفكار بلامي». كان الكتاب ما زال يتمتع بشهرة كبيرة في أمريكا في عام 1949 إلى درجة أن هاري شيرمان -رئيس «نادي كتاب الشهر» - وصف رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها «رواية بلامي مسرودة بالعكس».

قد تتدهش من أن أحد أكثر الكتب المؤثرة ثقافيًا في تاريخ الأدب غير معروف الآن إلا قليلًا، لكن دهشتك ستتبخّر ما أن تقرأه. القصص الجيدة تعيش، أما المواقف السياسية التي تتخفى في هيئة روايات فتصير إمّا للتاريخ.

\*\*\*

بطل الرواية هو جوليان وست، أرستقراطي مُترف يعيش في رفاهية رخوة في بوسطن عام 1887، ويستعد للزواج بخطيبته الرقيقة. ولأنه يعاني من الأرق ليلاً، يذهب إلى طبيب مشعوذ ينوّمه إيحائياً ويدخل في حالة من الغفوة في قبو تحت الأرض عازل للصوت. مثل ريب فان وينكل، تطول نومة جوليان، ويستيقظ بعد قرن في منزل الدكتور ليتي، الذي يشرح له كيف بلغ المجتمع الكمال معتمداً على «التضامن العرقي والأخوة بين البشر». الرواية يسردها جوليان، وهي أكثر من مجرد مجموعة نقاشات سياسية. اعترف بلامي لاحقاً أنه أضاف حبكة رومانسية فرعية «على مضض، أملاً في تطعيم الرواية بما يشجّع القارئ على إعطائها فرصة على الأقل». ومع الأخذ في الاعتبار أن المرأتين الوحيدتين اللتين يقابلهما جوليان في الرواية هما زوجة الدكتور



ليتو وابنته إديث، لا يشعر القارئ في الحقيقة بأنه يريد قضم أظافره من فرط الإثارة.

على الرغم من أن بلامي تتبأ -بصورة عابرة- ببعض الاختراعات مثل البطاقات الائتمانية وساعات الراديو، لم يكن جُول فيرن. كي يجعل مدينته الفاضلة جذاباً له «لجموع الشعب الأمريكي الرصينة الأخلاقية»، كان على بلامي أن يجعلها سهلة التلقّي. مثل رواية لويس سباستيان مرسية «العام 2440: حلم إن كان هناك أيُّ حلم» التي أحدثت ضجة وقت نشرها في فرنسا ما قبل الثورة، فإن يوتوبيا بلامي تدور في تاريخ مستقبلي محدّد وإحداثيات محدّدة.<sup>(9)</sup> خطط بلامي في الأصل لوصف «قصرٍ مشيّد فوق السحاب يليق بجنسٍ بشري مثالي» لكنه «تعثّر في حجر أساس النظام الاجتماعي الجديد المحتوم». ذكر بلامي في حاشية الطبعة الثانية أنه «قصد بكل إخلاص أن يكون الكتاب نبوءة».

يلعب الدكتور ليتي في الرواية دور آلة شرح لا تكل. في كل فصل يسأل جوليان -بالنيابة عن قارئ القرن التاسع عشر- كيف صار هذا التطوُّر أو ذاك ممكناً، فيجيب ليتي بلطف أنه لا يوجد شيء أكثر يُسرّاً: كل ذلك «نتيجة منطقية لجهود الطبيعة البشرية المبذولة في ظل ظروفٍ عقلانية». كانت هذه وجهة نظر شائعة بين الاشتراكيين في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

9- \* في عام 1983، كتب فيرن رواية مماثلة بعنوان «باريس في القرن العشرين»، لكن ناشره رفضها قائلاً: «لقد أخذت على عاتقك تنفيذ مهمة مستحيلة» (المؤلف).

في مقاله «ما الاشتراكية؟» عام 1946، كتب أورويل أنه قبل الثورة الروسية «كان الفكر الاشتراكي كله يوتوبياً بشكلٍ ما»، لأنه لم يُختبر في العالم الحقيقي. «فقط دعوا الظلم الاقتصادي ينتهي، وستنتهي معه كل أشكال الاستبداد الأخرى. سيبدأ عصر الإخاء الإنساني، وستصبح الحرب والجريمة والمرض والفقر والاستعباد أموراً من الماضي».

في عالم الدكتور ليتي، المساواة هي المفتاح الأساسي الذي يفتح كل شيء. يلغي النظام الجديد -الذي يجنّد كل مواطن في «جيش صناعي» - الحاجة إلى المحامين والمشرّعين والجنود ورجال الدين ورجال الضرائب والسجّانين. تعيش المرأة في مساواة مع الرجل، وإن كانت معزولة في جيش صناعي منفصل. الهواء نظيف، والعمل بلا مجهود، والكذب عفا عليه الزمن تقريباً، ومتوسّط الأعمار يتخطّى خمسة وثمانين عاماً. الناس أصح وأطيب وأسعد وأفضل من كل النواحي. فيما يلي سرد لجميع الثوابت النموذجية التي سخر منها أورويل في مراجعته ليوتوبيا هربرت صمويل «أرض مجهولة» المنشورة عام 1942: «النظافة، الأجهزة المؤهّرة للعمال، الآلات الرائعة، التركيز على العلم، العقلانية الشاملة التي أضعفتها نزعة دينية رديئة... لا توجد حرب، ولا جريمة، ولا مرض، ولا فقر، ولا فروق طبقية، إلى آخره، إلى آخره». إن «النظر إلى الماضي» كتابٌ مليء بالمفردات المتشابهة.

تعاني رؤية بلامي خللاً وحيداً استثنائياً. بعد استيقاظ جوليان بوقت قصير، يأخذه الدكتور ليتي إلى سطح منزله ليريه المشهد. يرى جوليان أميالاً ممتدة من الطرق والمباني والأشجار

والحدائق والينابيع، كلها منسقة في تناغم دقيق، لكنه لا يرى بشراً. المشهد أشبه بنموذج معماري مصغر قبل أن توضع فيه التماثيل المصغرة. وعندما تظهر الجماهير أخيراً، يهتز السرد الروائي بالرعب. استطاع بلامي بصورة فعّالة أقلمة القارئ مع هدوء عام 2000 المنظم، إلى درجة أنه عندما يستيقظ جوليان ليجد نفسه مرة أخرى في بوسطن عام 1887، فإن الضوضاء المروعة تصدم الحواس. لقد صُمم التابع لتشويه الحاضر وصدم القارئ لدفعه إلى العمل السياسي، كما أن التابع يكشف أن بلامي اشتراكي أبوي نوعاً ما، يحب العمال نظرياً لكن يعاني لتقبل الحقيقة. قبل استيقاظ جوليان مرة أخرى ليكتشف أن عام 1887 كابوس وأن عام 2000 حقيقة، يتراجع في نفور من «كتلة البؤس البشري المتقيحة» التي أمامه، ويقول وهو يشاهد آسفاً «أقنعتهم الوحشية»: «جميعهم موتى». إن كان ثمة أمل، فهو لا يكمن في العوام.

\*\*\*

في مراجعته المتحفظة لرواية «النظر إلى الماضي»، كتب وليم موريس: «الطريقة الآمنة الوحيدة لقراءة رواية يوتوبية، هي أن تنظر إليها بوصفها تعبيراً عن مزاج مؤلفها». ومن المثير للسخرية لمُصليح مثل بلامي أنه اعترف بـ «مقته العميق للتغيير». فيما مضى كان واحداً من أربعة أبناء لقسّ معمداني شهير وكاليفينيّ متشدد، قضى حياته كلها تقريباً في شيكوبي فولز في ماساتشوستس، التي كانت مدينة رعوية في السابق ثم تحوّلت إلى قوّة صناعية. من نافذة منزل بلامي

المكوّن من طابقين، كان إدوارد الصغير يرى كل شيء: الطواحين والمسابك التي تلفظ الدخان، المساكن المتهالكة المكتظة بالعمّال المهاجرين، وقصور أصحاب المصانع العظيمة، الذين كانوا يذكّرونه بالبارونات الإقطاعيين. عندما كان في الرابعة عشرة من عمره هبط عليه وحيّ ديني و «رأى العالم بعين جديدة».

وهو طالب جديد في «كلية الاتحاد» في مدينة سكتيكدي بنيويورك، صادف بلامي لأوّل مرة الاشتراكية اليوتوبية الخاصة بالمفكرين الفرنسيين الراحلين هنري دو سان سيمون وأوجست كومت. في عام 1868، أمضى عامًا في ألمانيا مع قريبه وليم باكر. هناك صار مدرّكًا بجلاءٍ شنيع لـ «جحيم الفقر الذي يبرك تحت حضارتنا» وأمضى ساعات طويلة مع وليم مفكّرًا في «خطة ما لتحقيق المساواة بين الأوضاع البشرية». بعد العودة إلى منزله في شيكوبي فولز، اجتاز إدوارد اختبار المحاماة لكنه سرعان ما ترك مجال القانون بعد أن أوكله أحد الأشخاص لطرده أرملة لعدم دفع الإيجار، وتحوّل إلى العمل الصحفي. قضى عام 1872 في فضح الظروف المعيشية المحفوفة بالمخاطر والخداع السياسي لصالح صحيفة «إيفننج بوست» في نيويورك، المدينة القاسية التي ترزح تحت قبضة السمسار الثري واسع النفوذ، الزعيم تويد، وآلة «حزب تماني هول الديموقراطي» الفاسد. كتب بلامي في دفتر مفكّره: «عندما يصعب العيش على المرء، ويشهد الكثير من المعاناة، يصبح قوميًا».

رؤية الفقر في مسقط رأسه وخارجها زعزعت إيمان بلامي بالرب، وجعلته عازمًا على حل «غموض» الحياة بنفسه من خلال

نظرية عالمية من شأنها أن توحد السياسة والاقتصاد والمجتمع والفن والدين. طرح بلامي تنويعته الغامضة على الاشتراكية في مقاله «دين التضامن» عام 1873، الذي يصبح فيه كل إنسان تجلياً لكـ «اللا ذات»<sup>(10)</sup> النهائية، ولا يمكن بلوغ السعادة إلا عن طريق وضع المصالح المشتركة قبل الرغبات الفردية. كان يريد أن يجعل الآخرين يرون العالم بأعين جديدة.

تزامن مقال بلامي مع الذعر المالي في عام 1873. خلال الكساد الأول للرأسمالية الصناعية، أفلست عشر ولايات أمريكية، ومئات البنوك، وآلاف الشركات التجارية، وأكثر من مئة خط سكك حديدية. كان إضراب السكك الحديدية الكبرى عام 1877 هو أول نزاع عمالي على مستوى الولايات المتحدة، ولم يُقمع إلا بعد خمسة وأربعين يوماً من أعمال الشغب وإراقة الدماء. وقعت معارك في شوارع شيكاغو وبالتيمور، ومذبحة في بيتسبرج، وأعلنت الأحكام العرفية في سكرانتون. حتّى مع انتعاش الاقتصاد في عام 1879، شعرت الرأسمالية الأمريكية بالهشاشة بشكل مثير للقلق. في الفصل الأول من رواية «النظر إلى الماضي»، يلاحظ جوليان أن بعض من معاصريه أبناء العصر المذهب يخشون وقوع «كارثة اجتماعية وشيكة». هذا القلق المنعكس في جميع أنحاء العالم الغربي ألهم صيحة من روايات ما بعد الكارثة، مثل «بعد

---

10- في البوذية، يشير مصطلح «آنا» أو «آناتمان» إلى الاعتقاد في «اللا ذات». أي أنه لا يوجد في البشر جوهر أساسي راسخ يُسمّى الروح أو الذات. هذا المعتقد هو الذي يميّز البوذية عن التقاليد الروحية الأخرى، مثل الهندوسية التي تؤكد أن الذات موجودة. (المترجم).

لندن» لريتشارد جيفيرز و «تدمير جوثام» لواكين ميلر؛ وهما كتابان معادلان لأفلام الكوارث الحالية.

خلال فترة الكساد، كتب بلامي مقالات افتتاحية تتسم بالهوس لصحيفة «سبرينجفيلد يونيون» الماساتشوستسية، والعديد من الروايات القصيرة والقصص القصيرة المدفوعة بالأفكار بدلاً من الشخصيات المقنعة. في عام 1880، أطلق إدوارد وأخوه تشارلز «ذا ديلي نيوز»، جريدة الشعب، التي غطت النزاعات العمالية بجدية. كان إدوارد متعاطفاً مع حال المضربين، لكنه كان يظن أن النقابات لم ترفع سقف مطالبها كما ينبغي. يجب أن يكون الهدف نظاماً جديداً تماماً، وليس مجرد صفقة أفضل لمجموعة مصالح معينة. حفّز الزواج ومن بعده الأبوة إدوارد على تخيل العالم الأفضل الذي كان يأمل أن يسكنه أبنائه. اعترف بلامي في مفكرته: «عندما أدركت أخيراً ما يمكن فعله لإعادة التنظيم الاجتماعي بشكل جذري، ساعدني كل شعور بالاشمئزاز من المخططات الاشتراكية المختلفة اعتراني في السابق».

بدأ بلامي كتابة «النظر إلى الماضي» في خضم أول «خوف أحمر» اعتري بلاده. في 4 مايو 1886، قتلت قنبلة ديناميت سبعة رجال شرطة في أثناء مسيرة عمال في ميدان هايماركت بشيكاغو. معظم العنف في تلك الحقبة ارتكبه إما الدولة وإما أفراد العصابات المسلحين التابعين للزعماء. أردت قوات الشرطة عدّة متظاهرين في هايماركت، لكن التهمة التي وُجّهت إلى ثمانية أناركيين -بناء على أدلة واهية تماماً- خوّلت قمع الأناركيين والاشتراكيين والنقابات العمالية. وبناء على ذلك، توجّب على أيّ بيان اشتراكي ناجح أن يكون غير مهدّد قدر الإمكان.

من وجهة نظر بلامي -مثل أورويل بعد خمسين عامًا- كانت الاشتراكية منتجًا رائعًا يبيعه باعةٌ شنيعون. كتب بلامي إلى صديقه وزميله اليوتوبي وليم دين هاولز يقول: «من الآراء الثورية التي عبّرت عنها، قد يبدو أنني أنزع صفة الاشتراكية عن الاشتراكيين، لكن كلمة اشتراكي بالفعل مفردة لم أستطع هضمها جيدًا أبدًا. بدايةً، هي كلمة أجنبية في حد ذاتها، وأجنبية بالمثل في كل ما توحى به. في نظر المواطن الأمريكي العادي، تفوح من الاشتراكية رائحة النفط، وتوحى بالعلم الأحمر وبكل أنواع المستجدّات الجنسية وبنبرة مسيئة للرّب والدين». (اشتكى أورويل أيضًا من رائحة الشيوعية). في رواية «النظر إلى الماضي»، يشرح الدكتور ليتي أن «أتباع العلم الأحمر» في ثمانينيات القرن التاسع عشر «أثاروا اشمئزاز الناس إلى درجة حرمان أفضل مشاريع الإصلاح الاجتماعي من حقّها في أن تُسمع». يكشف له ليتي أنهم في الحقيقة كانوا يتقاضون أموالاً من الاحتكارات الرأسمالية لتثويهِ سمعة الأفكار الراديكالية بخطابات عنيفة اللهجة؛ ما دفع جوليان إلى طرح نظرية المؤامرة الشائعة التي تقول بأن رامي قنبلة هايماركت الحقيقي كان جاسوسًا رأسماليًا.

في مثل هذا المناخ المشوب بالتوتر، اقترح بلامي التطوُّر بدلًا من الثورة. كما هو الحال في عمله الصحفي، نصح الرّجل الإصلاحيين بأن يكونوا واضحين ومباشرين ومهذّبين، ونمّق الاشتراكية في روايته وخفّفها حتّى لم تعد تبدو خطيرة. طمأن بلامي قراءه الأغنياء بأنهم يجب ألا يشعروا بالتوتر أو بالذنب، لأنهم أيضًا ضحايا غير ملومين «لخطأ فادح مريع، لإثم جسيم

ألقى بظلال داكنة على العالم». بمعنى آخر: الرأسمالية. وبمجرد أن أُزيل هذا الشيء في رواية «النظر إلى الماضي» من دون إراقة قطرة دماء واحدة، تلاشى التوتر بين الطبقات وبين الجنسين وبين الأعراق والأقاليم إلى الأبد. أربك هذا النوع من الافتراضات اليوتوبية أورويل، الذي اعتقد أن إحدى مغالطات اليسار العظيمة كانت «الاعتقاد بأن الحقيقة ستسود وأن الاضطهاد سيلتهم نفسه، أو أن الإنسان صالح بالفطرة ولا يفسده إلا بيئته».

معالجة بلامى الدرامية لهذا الاعتقاد تحديداً جعلت «النظر إلى الماضي» رواية سطحية وحجّة سياسية مغرية في الوقت نفسه. كانت أمريكا في عام 1888 مليئة بالأخطاء؛ إذا قورن ذلك بمستقبل ناعم كل ما على بطلنا فعله فيه هو الجلوس في منزل جميل في أثناء ما يفسّر له الدكتور ليتي الأمور، فلا بد أنه بدا جذاباً جداً. الجنة مكان لا يحدث فيه أي شيء على الإطلاق.

\*\*\*

حوّل نشر رواية «النظر إلى الماضي» بلامى من صحفي إقليمي إلى واحد من أكثر المفكرين شهرة في العالم. أطلقت الأندية القومية عشرات الصحف، وتولّى بلامى رئاسة تحرير اثنتين منها، وحدّد للشعبيين الناشئين الإطار الفكري لكتاباتهم، على الرغم من رفضه خطاباتهم النارية. في ديباجته لبيان الشعبويين في انتخابات عام 1892، حدّر إجناتايوس دونيلي قائلاً: «ثمّة مؤامرة هائلة تُحاك ضد البشرية في قارّتين، وهي تستولي سريعاً على العالم. إن لم تُواجه ويُطاح بها في الحال فإنها تُنبئ بحدوث تشنّجات اجتماعية مفرّعة، أو بتدمير الحضارة، أو بإنشاء استبداد مطلق».



كان دونيلي، عضو الكونجرس من ولاية مينيسوتا الذي يُعرف أيضاً باسم «منبر الشعب» و «أمير السواعد»، أحد الأشخاص المسؤولين عن حقن نظريات المؤامرة في دماء السياسة الأمريكية. كتب دونيلي روايته اليوتوبية الخاصة البشعة التي تثير القشعريرة، «عمود قيصر»، التي نرى فيها جنة مؤسسة هي أوغندا المملوكة لسويسرا، بينما ترزح الرأسمالية الأمريكية وتهلك في الدّم والنار. يتكوّن العمود الذي في عنوان الرواية من ربع مليون جثة مكدّسة في كومة هائلة مغطاة بالأسمنت في يونيون اسكوير في نيويورك. في انتخابات عام 1896، أيّد الشعبويون المرشّح الديموقراطي وليم جينينجز برايان، الذي كان أسلوبه الفظّ الغوغائي شديد المرارة في خلق بلامي. عندما هُزم برايان هزيمةً نكراء، انتهت فرصة ذوي النعرة القومية.

ومع ذلك، تجاوز تأثير بلامي الحركة. من بين جميع الاشتراكيين الأمريكيين، كانت أعماله تُقرأ على نطاق واسع أكثر من ماركس. ادّعى يوجين دبس -المؤسس المشارك لـ «الحزب الاشتراكي الأمريكي» - أن بلامي «لم يشحن الناس فحسب، بل وضع كثيراً منهم على طريق الحركة الثورية». طلبت «الجمعية الفابية البريطانية» -التي كانت عضوتها بياتريس ويب تحاول كتابة يوتوبيا بلامية خاصة بها- من بلامي أن يكتب مقدّمة الطبعة الأمريكية من كتاب «مقالات فابية في الاشتراكية». كان لديه معجبون داخل الحركة النسائية أيضاً. قالت فرانسيس ويلارد مازحة إن إدوارد قد يكون «إدواردينا» في السر: «امرأة كبيرة القلب، كبيرة العقل».

تُوِّفِّي بِلَامِي بِالسُّلِّ عام 1898 عن عمر يناهز 48 عامًا. كان آخر أعماله رواية بعنوان «المساواة» نُشرت عام 1897، التي كانت محاولة مخصصة لسدّ الفجوات التي خلّفتها «النظر إلى الخلف»، مع الرّد على منتقديه. بذل بلامي قصارى جهده لاحترام الحرية الشخصية وتمكين المرأة والتأكيد على القيم التي أُسّست عليها أمريكا، مدعيًا أن المساواة الاقتصادية هي «الضمان الواضح والضروري والوحيد للحقوق الأصلية الثلاثة: الحياة والحرية والسعادة». يرى كثيرٌ من معجبي بلامي اللاحقين أن رواية «المساواة» أكثر أهميّة من سالفاتها. استُقي أفضل فصول الرواية، الذي يحمل عنوان «مَثَلُ خَزَانِ المياه»، وطُبِعَ في هيئة منشور بيع منه مئات الآلاف من النسخ في روسيا. تنهّد بيتر كروبوتكين، أشهر أناركي في العالم، قائلًا: «يا لها من خسارة أن بلامي لم يعيش لفترة أطول».

من الناحية الأدبية، كانت رواية «النظر إلى الماضي» هندباء بريّة، كل حبة لقاح نثرتها أنتجت برعمًا جديدًا. أثبت النموذج اليوتوبي الذي عمّمه بلامي أنه جدّاب جدًّا للروائيين الشباب، بإزالته للحاجة إلى شخصيات ثرية أو سردٍ مفعم بالحيوية. كل ما على الكُتّاب فعله هو نقل مراقبتهم الفضولي إلى أرض أخرى، عن طريق منطاد أو حطام سفينة أو حلم أو غيبوبة، وتعيين دليل مفيد له يملك وقت فراغ كافٍ، وبيدؤون بعدها وصف المجتمع الذي يجسّد معتقداتهم السياسية بشكل درامي. وقد كان أولئك بالعشرات؛ مفكّرون جادون ومجانين مهوَّسون، نفعيون متحمّسون وأنبياء شغوفون، حالمون وضيقو أفق. هؤلاء راحوا يغطّون كل

هوسٍ يمكن تخيُّله في نهاية القرن التاسع عشر، من النباتية والإضاءة الكهربائية إلى علم تحسين النسل والإمبريالية. ظهر أكثر من 150 عملاً استجابةً لرواية بلامي في الولايات المتحدة وحدها، وكان كثيرٌ منها تحيةً مباشرة أو هجوم مباشر بعناوين مثل «التطلع إلى المستقبل»، «النظر إلى الأمام»، «النظر أبعد إلى الماضي» أو «تجارب السيّد إيست في عالم السيّد بلامي». بعض هذه الأعمال يمكن اعتباره أدب هواة بحكم إعادة استخدام كُتّابه لشخصية جوليان وست لتحقيق مآربهم الخاصة. حتى «ساحر أوز» كان بلامياً، إن احتكنا إلى وصف المؤلف ليمان فرانك بوم لمجتمعه القائم على المساواة في رواية «مدينة أوز الزمردية». منذ وقتٍ مبكّر يعود إلى عام 1890، اشتكى أحد كُتّاب مجلة «العالم الأدبي» أن «الكتب التي تتحدّث عن القرن العشرين أو القرن الحادي والعشرين صارت كثيرة جداً إلى درجة أن الموضوع برمته سرعان ما سيكون قاتلاً من الملل». قيل هذا بينما كان الجنون لا يزال في مستهله. مع اندفاع الولايات المتحدة المحموم نحو القرن الجديد، واصلت الاضطرابات تغذية خيالات المؤلفين الجامعة. ضرب زعر عام 1893 الاقتصاد بقوة وأقعده مدّة أربع سنوات أخرى. لكن من الجانب الإيجابي المبهج، قدّم «المعرض العالمي» في شيكاغو في ذلك العام المستجدات المستقبلية إلى ملايين الأمريكيين، مثل غسّالة الصحون، والسير الكهربائي، والسحّاب، وعجلة الملاهي الدوّارة. في ذلك المعرض، استهلّ القس المعمداني فرانسيس بلامي -ابن عم إدوارد- «عهد الولاء» في الحياة الوطنية الأمريكية، وأعلن المؤرّخ الأمريكي الشهير

فريدريك چاكسون ترنر أن «الأفق اختفى، ومع اختفائه انتهت المرحلة الأولى من التاريخ الأمريكي». كانت هناك حاجة إلى آفاق جديدة: اجتماعية وسياسية وروحية وتكنولوجية.

\*\*\*

تأثر عشرات الكتّاب وبدؤوا يرسمون مستقبلاً ذهبياً يعكس أولوياتهم السياسية الخاصة. أخبر وليم موريس صديقاً له بأن روايته اليوتوبية «أخبار من لا مكان» كتبت كـ «رد فعل غاضب» على «الجنة المترفة» المجسّدة في «النظر إلى الماضي». تدور الأحداث في عام 2102؛ مجتمع موريس المثالي هو مجتمع زراعي لا حضري، فوضوي لا مركزي، مدفوع بالملذّات لا بالواجب. أصبحت الرواية من أكثر الكتب مبيعاً عالمياً، وألهمت إبنيزر هوارد لبدء حركة «جاردن سيتي»، لكن أورويل لم يكن من ضمن محبّيها، وقال عنها «نسخة طاهرة وعفيفة من اليوتوبيا الويلزية». «الجميع طيبون وحصفاء، الأثاث والمفروشات كلها فاخرة، لكن الانطباع الذي تخلفه هو كآبة مائعة».

مثل رواية الاقتصادي النمساوي ثيودور هيرتسكا «الأرض الحرّة»، وثلاثية وليم دين هاولز صديق بلامي حول اليوتوبيا الرعوية في ألتوريا، حازت «أخبار من لا مكان» متابعة كبيرة، لكن معظم روايات ما بعد بلامي لم يكن لها سوى تأثير متواضع. في كتابه «الانجراف البشري»، نقل كينج كامب چيليت -قطب شفرات الحلاقة- كل مواطن أمريكي إلى مدينة عملاقة، أو متروبوليس، تستمدّ طاقتها من من شلالات نياجرا. بتفاؤل، تضمّنت كل نسخة من الكتاب وثيقة عضوية لـ «حزب الشعب

المتَّحد»، وهو منظَّمة حقيقية على أرض الواقع لم يُسمع عنها أكثر من ذلك. استخدم رجل الأعمال برادفورد سي بيك من ولاية مين روايته «العالم سوق تجارية» للترويج للحركة التعاونية. وفي نظر جيه مأكولو مؤلِّف رواية «رياضة الجولف في عام 2000، أو ما نحن مقبلون عليه»، تعني اليوتوبيا مباراة جولف متواصلة بلا انقطاع. ومن ناحية أخرى، نشر القس المعمداني وابن أحد العبيد السابقين، ساتون إي جريجز، بنفسه أوَّل يوتوبيا سوداء، هي «السيادة داخل الحكومة»، التي تدور حول حكومة سرّية من الأميركيين الأفارقة في واكو بتكساس. أما اليوتوبيات النسوية مثل «أمازونيا الجديدة: لمحة من المستقبل» لإليزابيث كوربت و «هيرلاند» -الأكثر نجاحًا- لشارلوت بركنز جيلمان التي نُشرت عام 1915، فكانت خالية من الرجال، وبالتالي من العنف. جعلت هذه اليوتوبيات القرّاء يعتقدون أن التغيير الأساسي ممكنًا، مهما شعروا بالعجز في الحياة الحقيقية.

بالتأكيد، يوتوبيات قوم عند قوم ديستوبيات. أو كما كتب كليمنت أتلي: «لا مناص من أن يصبح أغلبنا تعساء في جنّات الآخرين». رأى المحامي النيويوركي آرثر دادلي فينتون أن مستقبل بلامي الخيالي أقرب إلى الجحيم منه إلى الجنة. وفي تتمة شديدة التعصّب كتبها فينتون بعنوان «النظر أبعد إلى الماضي»، نرى أن القومية والنسوية حوّلت أمريكا إلى أمّة متفسّخة وتافهة وضعيفة تغزوها الصين بسهولة، ويضطر جوليان المحبّط إلى الاعتماد على الدَّهاء الذي اكتسبه من العصر المُذهَّب لمحاربة الخطر الأصفر. كتب جيروم كيه جيروم، مؤلف رواية «ثلاثة

رجال في قارب» البريطاني، صفة مضادة أكثر مرحًا، وقد أنت قصته القصيرة «اليوتوبيا الجديدة» محاكاة ساخرة لأفكار بلامي وأسلوبه السردي على حدّ سواء. يسأل راوي جيروم ثابت الجنان عند استيقاظه بعد مرور ألف عام: «هل صار كل شيء على ما يُرام في هذا العصر؟ هل الجميع سواسية الآن؟ هل نجحنا في التخلص من كل الآثام والأحزان وما إلى ذلك؟»، فيجيبه دليله المعادل لشخصية ليتي: «أوه، أجل. ستجد كل الأمور بخير الآن... غير مسموح لأي شخص ارتكاب أي خطأ أو فعل شيء سخيف». أعطى جيروم مواطني عالمه الموحد الباهت (الذي يرفع شعار «لغة واحدة، وقانون واحد، وحياة واحدة») أرقامًا بدلًا من الأسماء، وهي نكتة ستصير لاحقًا من كليشيهات الخيال العلمي. في رواية أورويل، يُعرّف ونستون سميث أيضًا بـ «6079 سميث دبليو».

حلمت اليوتوبيات المحافظة بلوائح تنظيمية أقل، ونقابات أضعف، وقوّات شرطة وجيش أقوى، ومزيد من التوسّع، باختصار: حلمٌ أمريكي مُضخّم. استهلّ جون چيكوب آستور -أحد أغنى أغنياء العالم- روايته «رحلة في عوالم أخرى: رومانسية مستقبلية» في العام 2000، عندما تخطّط الولايات المتّحدة لاستعمار النظام الشمسي بعد أن هيمنت على نصف الكوكب، وتغيّر اسم كوكب المشتري إلى كنتاكي. كثير من هذه الروايات تعد بتجربة قراءة مرعبة الآن. في رواية أديسون بيل راسل «ساب كولم: عالم بشري مشيّد في السماء»، يُجرى تعقيم «غير اللائقين» ويُزج بالنساء «الفاسقات» في السجن بسبب جرائم مثل شرب الخمر والتصفير بالشفاء والضعف في النحو. في رواية «2050 ميلاديًا:

التطوُّر الكهربائي في أطلانتس» لجون باتشلدر، يفرُّ اللاجئون من مجتمع بلامي القومي الفاشل إلى أطلانتس، ويحوّلونها إلى دولة بوليسية أوروبية ترزح تحت المراقبة المستمرة. جاء وليم هاربين بسيناريو يساري مشابه في رواية «أرض الشمس المتغيرة»، حيث تستخدم حكومة مُشكَّلة من علماء تحسين النسل -في مجتمع تحت سطح البحر يُدعى ألفا- أجهزة المسح التلفزيوني لتحديد المنشقين، وتعذيبهم نفسياً لسحقهم.

حتّى أنه يُوجد تنبؤٌ مسبق بدولة أوقيانيا الأوروبية في أعمال بلامي ذاتها. في روايته القصيرة «عملية الدكتور هيدنهوف» المنشورة عام 1880، يكتشف العالم المُسمّى في عنوان الكتاب طريقة لمسح الذكريات المؤلمة ومحو الشعور بالذنب: «الذاكرة هي جوهر الانحطاط الأخلاقي. إن تذكر الخطيئة لهو أكبر تأثير شيطاني في الكون». أما في قصته القصيرة عام 1889 «إلى من سيصل إليه الأمر»، فإن قراء العقول التي قضت قدرتهم التخاطبية على الجريمة والخداع عن طريق «تمزيق حجاب النفس، وعدم ترك أيّ مساحات معتمدة في العقل تسمح باختباء الأكاذيب فيها»، جعلوا شرطة الفكر التي ابتكرها أورويل تبدو كمجموعة هواة.

ما يدلُّ على إيمان بلامي الذي لا يتزعزع بالطبيعة البشرية والحسّ السليم أنه فشل في رؤية الآثار الديستوبية للطاعة والولاء لدولة الحزب الواحد الباقية إلى الأبد، ولا إمكانية أن يقضي مفهوم «اللا ذات» الذي ابتكره على ما سمّاه أورويل «الحياة الخاصة». امتلك هذا المثالي من أواخر القرن التاسع عشر عقلاً غير واعٍ على الإطلاق للفكر الشمولي. كان على أورويل أن

يخرق سذاجة ذلك الجيل عن طريق شخصية أوبراين في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «هل بدأت ترى الآن طبيعة العالم الذي خلقه؟ إنه النقيض التام لليوتوبيات المانتعة الغبية التي تصوّرها المصلحون القدامى».

انتقد أورويل الكتابات اليوتوبية واستهزأ بها في مناسبات عديدة. ومع ذلك، بحلول أواخر أربعينيات القرن العشرين، طوّر ولعاً مُشفقاً لرؤى القرن التاسع عشر لعالم أفضل، مهما كانت باهتة أو ساذجة. عندما كتب عام 1948 عن مقال أوسكار وايلد، «روح الإنسان في ظل الشيوعية»، وجد أن تنبؤات وايلد الوردية عن شعب تُحرّره التكنولوجيا، وإلغاء الملكية الخاصة كي يتمتع بحياة من الازدهار الفردي تحت عين الدولة المتساهلة الخيرة الحارسة، أدّت إلى «قراءة عسيرة في الواقع». بدا له أن وايلد مخطئ بشكل غير عادي. ومع ذلك، رأى أورويل أيضاً قيمة كبيرة في تذكيره بأن الاشتراكية لا يجب أن تكون مرادفاً لمعسكرات العمل وطواير الطعام والشرطة السرية. كتب أورويل عن يوتوبيات القرن التاسع عشر: «ربّما كانت تطلب المستحيل، وربّما تبدو أحياناً متقدمة وسخيفة، لأن اليوتوبيات تعكس بالضرورة الأفكار الجمالية الخاصة بفترتها. لكنها على الأقل تُذكر الحركة الاشتراكية بهدفها الأصلي شبه المنسي، وهو أخوة البشرية».

لقد رأى أورويل كثيراً ليكون مثاليًا، لكنه لم يكن أسمى من أن يشعر بالشفقة، وربّما بقليل من الحسد، تجاه أولئك الحالمة الذين عاشوا في أوقات أكثر تفاؤلاً.

مكتبة

t.me/soramnqraa



## العالم الذي نحن بصدد

أورويل من 1938 إلى 1940

«لا ينتمي المستقبل -بالأدق المستقبل الوشيك- إلى

العقلاء. ينتمي المستقبل إلى المتعصبين».

جورج أورويل، مجلة «تايم آند تايد»، 8 يونيو 1940.

في 22 مايو عام 1938، كتب أورويل إلى صديقه جاك كومون ليخبره بأنه يخطّط لبدء كتابة روايته الرابعة، على الرغم من أن الظروف التاريخية كانت أقل من مثالية. قال مازحًا بحزن: «أخشى أنني لو بدأت في أغسطس سأضطر إلى الانتهاء منها في معسكرات الاعتقال»<sup>(1)</sup>.

كان يكتب من مصحّة باترسون هول في أيلزفورد في مقاطعة كنت، لأنه بدأ يعمل دُمًا قبل شهرين. أخو زوجته إيلين الكبير، لورانس أوشوناسي الشهير بإريك، أحد أكبر خبراء بريطانيا في مرض السل، شخّص وجود آفة في رئة أورويل اليسرى وأوصاه بالمكوث في المصحّة التي يعمل بها جرّاحًا استشاريًا. في أثناء إقامته التي دامت ثلاثة أشهر، استقبل أورويل زوّارًا من جميع نواحي حياته غير العادية كثيرة التنقّل بين الطبقات. كانت الممرّضات يسمعن أصوات أصدقائه الأدباء الراقية أمثال

---

11- \* قصد أورويل هنا المعنى الأصلي لمصطلح «معسكر الاعتقال Concentration Camp» أي مجرّد معسكر اعتقال بريطاني في هذه الحالة، لا معسكرات الاعتقال النازية. (المؤلف).

ريتشارد ريس وسيريل كونولي في يوم، وفي اليوم التالي يسمعن لهجات الطبقة العاملة الصادرة عن رفاقه من حزب العمل المستقل في إسبانيا. أرسل إليه هنري ميلز خطاباً ودياً ينصحه «أن يكف عن التفكير والقلق بشأن الأحداث الخارجية»، وهو أمر أشبه بأن يطلب أورويل من ميلر التوقف عن التفكير في نفسه. كانت آيلين تسافر إلى منزلهما في والينجتون مرة كل أسبوعين، حيث يحتفظان بكلبهما البودل الرمادي، «أسميناه ماركس ليدكرنا أننا لم نقرأ لماركس قط»، هكذا أخبرت إحدى صديقاتها بمزاح جاف، «الآن بعد أن قرأنا له قليلاً بتنا نكنُّ كرهاً شديداً للرجل إلى درجة أننا لم نعد نستطيع النظر في وجه الكلب عندما نتحدث إليه». كان الزوجان يستطيعان معرفة الكثير عن زوَّارهما من تفصييلة ما إذا كان الزائر يفترض أن الكلب سُمِّيَ تيمناً بكارل ماركس أو جروتشو ماركس أو سلسلة متاجر ماركس آند سبنسر. نصح الأطباء في مصحة باترسون هول أورويل قضاء الشتاء في مناخ أكثر ملاءمة. بتمويل من تبرُّع مجهول المصدر قيمته 300 جنيه استرليني من الروائي إل إتش مايرز، قرَّر آل أورويل الذهاب إلى المغرب، ووصلا إلى مراكش في 11 سبتمبر. على الرغم من بذله أقصى جهد لملء دفتر يومياته بملاحظات دقيقة عن العادات المحلية، وجد أورويل المغرب «بلداً مملاً نوعاً ما». لذلك، كان مكاناً جيّداً لتأليف رواية.

\*\*\*

على الرغم من أنه قضى عامين تقريباً في القتال في حربٍ ومحاولة القتال في حربٍ أخرى، كان أورويل من دعاة السلام. صدمته النسخة البريطانية من مناهضة الفاشية لكونها «تكرراً

رديئاً للإمبريالية القومية المتطرّفة». علاوة على ذلك، كان مقتنعاً بأن الحرب سيكون لها تأثير «فاشي» على الشعب البريطاني: «تخفيض الأجور، قمع حرية التعبير، الوحشية في المستعمرات، إلى آخره»<sup>(12)</sup>. أحد الأقوال المفضّلة له في هذا الوقت كانت حجة نيتشه التي تقول بأن أولئك الذين يقاتلون التنايين يخاطرون بأن يصبحوا تناييناً أنفسهم. «ليست الفاشية بعد كل شيء إلا تطوّراً للرأسمالية، ومن الممكن أن تتحوّل الديمقراطية المعتدلة المزعومة إلى فاشية عندما تُحلّ الأزمة»، هكذا كتب أورويل إلى صديقه جيفوري جور عام 1937، وقالها بصراحة أكثر في رسالة إلى أحد القراء: «الفاشية وما يُسمّى بالديموقراطية وجهان لعملة واحدة. إنها توأما لويس كارول: تويدلدم وتويدلدي». لذلك وقّع أورويل بياناً مناهضاً للحرب في مجلّة «نيو ليدر»، وانضمّ رسمياً إلى حزب العمل المستقل، وكان يكتب مقالات مناهضة للحرب في أواخر يوليو 1939. حتّى أنه خطط لتنظيم احتجاجات غير قانونية. أخبر أورويل ريتشارد ريس ووكيله ليونارد مور في عام 1938 بأنه يكتب كُتَيْباً مناهضاً للحرب بعنوان «الاشتراكية والحرب»، لكنه لم يُنشر قط، لهذا السبب كان أوضح تعبير علني عن معارضة أورويل للعنف، والأسباب الكامنة خلفها، هو تلك الرواية التي كتبها في المغرب.

كانت رواية «من أجل استنشاق الهواء» تتحدّث عن الشيء عينه الذي ظنّ أورويل أنه قد يمنعه من إكمالها. وقّعت معاهدة ميونيخ

12- \* لم يكن هذا الاعتقاد غريباً في ذلك الوقت. اعتقد الروائي إي إم فورستر أنه «إذا انتصرت الفاشية ستكون نهايتنا: علينا أن نصبح فاشيين أنفسنا كي نفوز». (المؤلف).

بعد فترة وجيزة من وصوله إلى المغرب، ولكن تلك المعاهدة كانت مجرد تأجيل للمحتوم. زعم أورويل لاحقاً أنه كان يعرف منذ عام 1931 أن «المستقبل حتماً سيكون كارثياً»، وأنه كان يعرف منذ عام 1936 أن إنجلترا ستخوض حرباً مع ألمانيا. في وقت لاحق، تذكر أورويل «الشعور المضني بعدم الجدوى والهشاشة، والانتظار المرير في غرفة متهالكة حتى يبدأ إطلاق النار». كان تشاؤمه مصدر تسلية لآيلين، التي كتبت إلى مارچوري أخت أورويل عن خططه لبناء ملجأ مضاد للقنابل في والينجتون عندما يعود إلى دياره. «فكرة المخبأ جاءتته كنوع من التخفيف عن النفس بشكل عام، أما مجال تخصصه فهو معسكرات الاعتقال والمجاعات». عزا بعض أصدقاء أورويل في وقت لاحق اليأس البادي في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة ثمانون» إلى حالته الصحية المتدهورة، لكن الإحساس المروّع بالعجز الفردي كان حاضراً في رواياته طوال الوقت. لم يكن أورويل يرحم في رواياته بقدر ما كان عطوفاً في كتاباته الصحفية. بطله المعتاد هو فرد عادي متواضع يكتشف أن الدور الذي يؤديه في المجتمع لا يُطاق، ومن ثم يحاول المقاومة أو الهرب، لينتهي به الأمر من حيث بدأ، لكن من دون أمل في أن حياة أفضل ممكنة. كل حيكاته الروائية تدور في هذه الدائرة الجهنمية. في روايات «أيام بورما» و «ابنة القس» و «دع الدريقة تطير» و «من أجل استنشاق الهواء»، نجد أن شخصياته ليست مهزومة فقط، بل مكسورة ومنبوذة، ويتأثر قوًى أقل عنفاً وتطرفاً من الصدمات الكهربائية والغرفة 101 في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». على سبيل المثال، في رواية «أيام بورما» المنشورة عام 1934، يعيش تاجر الخشب چون فلوري الإمبريالي المعذب في «عالم

خائق ومضطرب... تخضع فيه كل كلمة وكل فكرة للرقابة... ومسألة حرية التعبير غير مطروحة من الأساس». الكذبة التي يكذبها المستعمرون على أنفسهم - وهي أن دورهم هو رفع مستوى الحياة في بورما بدلاً من استغلالها - تسممهم، في حين ما يحكم رأي فلوري المخالف السري عليه بأن يعيش حياة منعزلة عقيمة: «إنها لمفسدة أن يعيش المرء حياته الحقيقة في السر». في رواية «دع الطريقة تطير»، كل شيء كئيب وبلا مذاق ورمادي، إلا عندما يكون صادمًا وجحيميًا. قصيدة بطل الرواية جوردون كومستوك (التي كان أورويل قد نشرها من قبل في مجلة «ذا أدفي») ترسم صورة للندن في الثلاثينيات كأنها مقاطعة أيرستريب وان، بسُلطاتها الخبيثة وملصقاتها الممزقة التي تخفق في مهب الريح «من يتجسس بغيرة ويراقب بحذر أفكارنا وأحلامنا وأدق خصوصياتنا/ من يختار كلماتنا ويفصل ثيابنا ويخطط نمط أيا منا». الطاغية في هذه القصيدة هو «إله المال»، والحزب هو «كهنوت النقود»، و«آلاف الملايين من العبيد» هم العوام. وفي حين ما تقهر الملصقات الدعائية ونستون في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، نرى أن كومستوك يتعذب باللوحات الإعلانية: إن الأخ الأكبر في عالمه هو رولاند بوتنا، الشخصية التي تروج لمشروبٍ ساخن يُدعى «بوهكس». حتى أن اسم الوكالة الإعلانية التي يعمل كومستوك فيها في وظيفة «تلخيص عالم من الأكاذيب في مئة كلمة» يصلح ليكون اسم حركة فاشية: ألبيون الجديدة.<sup>(13)</sup>

13- ألبيون Albion: اسم بديل لجزيرة بريطانيا العظمى أو إنجلترا، غالبًا ما يستخدم للإشارة إلى العصور التاريخية القديمة، لكنه سقط من الاستخدام الشائع في اللغة الإنجليزية. (المترجم).

بصفته كاتبًا روائيًا، كان أورويل يعاني من محدودية الخيال ومن اضطراب الاكتناز<sup>(14)</sup> على حدّ سواء. كانت رواياته الأربع الأولى عبارة عن متاجر خردة مكتظة عن آخرها بهوم متنوّعة لم يتمكن من إيجاد منزل آخر أكثر ملاءمة لها. في عام 1946، أخبره الكاتب جوليان سيمونز بأنه على الرغم من جودة «من أجل استنشاق الهواء» كسيرة ذاتية مستترة، فهي بالكاد تُعدُّ رواية. لم يُجادل أورويل، بل كتب له قائلاً: «أنت محق تمامًا بخصوص صوتي الذي يتطلّف باستمرار على صوت الراوي، فأنا لست كاتبًا روائيًا حقيقيًا على أيّ حال». ما يجعل روايات أورويل المبكّرة تستحق القراءة ليست الحكمة أو الشخصيات، بل الأفكار: تدفّق الآراء والملاحظات والحكايات والنكات المفعم بالحيوية، وتعبيره المُقنّع عن رؤيته للعالم، والشعور بأن الكاتب ينفضّ عن شيء في صدره.

في رواية «من أجل استنشاق الهواء» يمتزج الحنين بالرهبة، وتشحذ كل عاطفة نكهة الأخرى. الراوي اسمه جورج بولينج، وهو شخص متوسّط الثقافة من سكّان الضواحي لديه عائلة ووظيفة قوية في مجال التأمين. في أثناء تجوّله أحد الأيام في لندن، تطارده هواجس الحرب بشراسة إلى درجة أنه يقرر زيارة جنوب بلدة بينفيلد، مسقط رأسه الريفي في وادي التايمز، ويذهب ليصطاد. سبقت ذكريات بولينج الشاعرية عن الفردوس الريفي أحلام ونستون سميث عن «القرية الذهبية» في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وشكّلت في الآن ذاته مستودعًا نقل إليه أورويل مخزون ذكريات طفولته، وهو ما يعطي أهمية لسخرية سيريل

14- وسواس قهري يميل المصاب به إلى تجميع وتكديس الأشياء على نحوٍ خارج عن إرادته. (المترجم).

كونولي من أورويل ووصفه له بأنه «ثوري واقع في حب بدايات القرن العشرين». لكن الحنين -الذي ليس بالضرورة رجعيًا- يبدو مسوغًا هنا. إذا كانت هناك فترة يمكن أن يدَّعي المرء فيها أن الماضي وقتها بدا أفضل من المستقبل، فهي عام 1938. كما أن الذاكرة مهمة، وهي سيفٌ ودرع في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». يعترف بولينج أن المجتمع كان أقسى وأكثر تفاوتًا أيام شبابه، ولكن «كان لدى الناس وقتها شيء لم يعد لدينا الآن. ماذا؟ إنهم -ببساطة- لم يفكروا في المستقبل على أنه شيءٌ مُوجس». لا يخشى بولينج العالم المقبل فحسب، بل هو قادر على رؤيته بالفعل. وهو يتجول في لندن - «كما لو أن بصري صار حديدًا» - تنتابه رؤى مفزعة عن طوابير الطعام والملصقات الدعائية والمدافع الرشاشة التي تبرز من نوافذ غرف النوم. والأسوأ من ذلك أنه يتخيل «ما بعد الحرب»:

العالم الذي نحن بصده، هو عالم الكراهية، عالم الشعارات والقمصان الملونة والأسلاك الشائكة والهراوات المطاطية. عالم الزنازين السرية حيث لا تنطفئ المصابيح الكهربائية ليلاً أو نهاراً، وحيث يراقبك المحققون في أثناء نومك. عالم المواكب وملصقات الوجوه الضخمة، والحشود المليونية التي تهتف باسم الزعيم بهدير مدو يصمُّ الآذان يجعلهم يتوهَّمون أنهم يعبدونه حقًا، بينما في قلوبهم هم يكرهونه إلى حدِّ التقيؤ.

هذا التصوُّر المُسبق المفزع لمقاطعة آيرسترب وان مُحملٌ بالتحذير نفسه الذي في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»:

«الأشياء التي تقنع نفسك بأنها مجرد كوابيس أو تحدث في الدول الأجنبية فقط» يمكن أن تحدث هنا.

حتى أن بولينج يشهد بروفة لـ «دقيقتي الكراهية» عندما يحضر اجتماع «نادي الكتاب اليساري» ويسمع أحد مناهضي الفاشية يتحدث بشعارات ميكانيكية: «إنه لأمر مروّع حقًا أن يكون هناك آلة بشرية تنفث الدعاية في أذنك بلا انقطاع على مدار الساعة، وتقول الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا. اكره، اكره، اكره. لننضم جميعًا ونحظى بلحظة كراهية جيدة». ليست السياسة هي التي تجعل أورويل ينتكس -فهو كذلك كان مناهضًا للفاشية- وإنما النبرة واللغة المستخدمان. حتى بعد أن نبذ السلمية، لم يفقد أورويل شكوكيته بشأن الخطاب الوحشي أبدًا. تصدم «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» القارئ بمفاجأة قبيحة، وذلك عندما يتظاهر أوبراين -مسؤول الحزب الداخلي- بأنه عضو في جماعة «الأخوية» السفلية، ويسأل ونستون وعشيقته جوليا ما إذا كانا مستعدين للقتل والتخريب وزرع القنابل وحتى «إلقاء حمض الكبريتيك في وجه طفلك» في سبيل هزيمة نظام الأخ الأكبر، فيوافق الاثنان بلا تردد. في وقت لاحق، يُذكر أوبراين ونستون باللحظة التي أيد فيها فكرة أن الغاية تُسوِّغ الوسيلة. حقيقة أن معارضي الأخ الأكبر يُدعون «الأخوية» توحى بأنهم ليسوا مختلفين كما يوّد ونستون أن يعتقد.

يتضح أن إقامة بولينج المؤقتة في جنوب بينفيلد خاذلة. جنة طفولته السابقة صارت الآن غابة أسمنتية تعجُّ بالضجيج. الحداثة طاعون في عيني بولينج، وتسدُّ لفته الفجوة بين الديمقراطية



والشمولية. «الجيل الجديد من البشر من شرق أوروبا الذين يفكرون وفقاً للشعارات ويتحدثون بالرصاص» كانوا «مُسَيَّرين»، لكن بريطانيا الحديثة هي الأخرى كانت كذلك.<sup>(15)</sup> في قاموس أورويل في الثلاثينيات، كانت كلمة «مُسَيَّر» خبيثة مثلها مثل كلمات «نظيف» أو «عقيم» أو «أملس». هذه هي ديستوبيا الرأسمالية: «كل شيء أملس وانسيابي، كل شيء مصنوع من شيء آخر. السليلويد والمطاط والفولاذ في كل مكان، المصابيح الساطعة تتوهج فوق رأسك، جميع أجهزة الراديو تذيع النغمة نفسها. لم يبق نبات حي، وكل شيء مغطى بالأسمت....» هذا يُشبه إلى حد كبير قائمة المكاره التي ذكرها أورويل في كتاب «مؤلفو القرن العشرين»: «لا أحب المدن الكبيرة، والضوضاء، والسيارات، والراديو، والطعام المملّب، والتدفئة المركزية، والأثاث الحديث». بينما كان أورويل يقدّر حياة الإنسان العادي، جعله زهده وذوقه عتيق الطراز يكره أشياء كثيرة كان الإنسان العادي يستمتع بها في الثلاثينيات.

لذلك ثمة أشياء لم يكن بولينج يمانع أن يراها تدك بالقنابل. بالمثل، نجد أن كومستوك في «دع الطريقة تطير» يخشى الحرب ويشتهيها في الآن ذاته، بصفتها تطهيراً بشعاً سيجرف في طريقه زخارف الحياة الحديثة الفارغة: «لم يتبق إلا قليلاً قبل أن تأتي الطائرات، ثم، زووم - بووم! فقط بضعة أطنان من المتفجرات ستكون كافية لإعادة حضارتنا إلى الجحيم حيث تنتمي». هذه هي النزعة الكارثية الحادة ذاتها التي دفعت إتش جي ويلز إلى

15- \* انظر إلى زوجة ونستون المنفصلة كاثرين: «لم يكن في رأسها فكرة لم تكن شعاراً».

تخيّل المَرِيخِيِّينَ وهم يُبِيدُونَ بلدةَ ووكينج، أو التي جعلت جون  
بِتْجَمَان يأمل أن تُمطر السماء قنابل على مدينة سلاو: التدمير  
ثم البدء من جديد. تشترك روايات أورويل الأربعة الأولى -على  
الرغم من اختلافاتها الكبيرة- في حسٍّ لاذع هو مزيج من رهاب  
الأماكن المغلقة والفساد وحياة الموت. وفوق كل ذلك، رائحة  
الخوف المعلقة في الهواء.

يقول بولينج: «نحن نسبح في الخوف. إنه مُكوّن أساسي. كل  
شخص لا يرتعد خوفاً من أن يفقد عمله، يرتعد خوفاً من الحرب  
أو الفاشية أو الشيوعية أو شيءٍ ما».

\*\*\*

في الثامنة مساءً بالتوقيت الشرقي، في 30 أكتوبر 1938،  
أُجريت إذاعة «سي بي إس» من دون قصد دراسة في سيكولوجية  
الخوف على صعيد وطني. كانت حلقة عيد الهالوين من البرنامج  
الإذاعي «مسرح ميركوري على الهواء» عبارة عن معالجة لرواية  
إتش جي ويلز «حرب العوالم»، كتبها الشاب العبقرى أورسون  
ويلز في سنِّ الثالثة والعشرين مع الكاتب هوراد كوك. لم يقصد  
ويلز أن يخدع أحداً. «كنا نظن أن الناس سيشعرون بالضجر أو  
الانزعاج من سماع حكاية بعيدة الاحتمال تماماً كهذه»، هكذا  
قال لاحقاً. وكما لو أن احتمال هبوط آلات دمار من المريخ في  
نيو جيرسي لم يكن غير معقول بما فيه الكفاية، كان أورسون  
ويلز يبدأ وينهي كل نصف ساعة من حكايته الإذاعية التي بلغت  
الساعة بإعلان يوضّح أنها خيالية. لكن النصف الأوّل قدّم بشكل  
مقنع كمجموعة من نشرات الأخبار الطارئة، وفي ذلك العصر

بعد فترة وجيزة من معاهدة ميونيخ، كانت الأعصاب منهكة. فتح بعض الأمريكيين الراديو وبدؤوا يستمعون إلى «حرب العوالم» في الوقت الخطأ تمامًا، وأقنعوا أنفسهم بأنها حقيقية، وخرجوا في حالة من الذعر. هجمت التقارير على أورسون ويلز الجافل بشائعات جامحة عن حالات تدافع وانتحار. غرقت الصحف ومحطات الإذاعة وأقسام الشرطة في طوفان من المكالمات الهاتفية التي تطالب بمزيد من المعلومات. اتُّهم مذيع راديو في كليفلاند بأنه «يتستر على الحقيقة» بعد أن أخبر المستمعين بأنه لا يوجد غزو. كانت ردود الفعل هذه متطرفة وغير متوقعة إلى درجة أن القصة أنتجت أكثر من 12 ألف خبر ومقال في الجرائد على مدار الأسابيع الثلاثة التالية. حتى هاورد كوك نفسه تأثر. وهو يسير في مانهاتن في الصباح التالي، سمع كلامًا عن غزو ما وظنَّ أن ألمانيا أعلنت الحرب.

في كتابه «الغزو المُرْخي: دراسة في سيكولوجية الذعر» المنشور عام 1940، بالغ عالم النفس هادلي كانتريل من جامعة برينستون كثيرًا في تقدير عدد الأشخاص الذين تأثروا بالواقعة، لكن نيَّاته كانت صادقة، والدراسة التي أجراها على الأفراد أتت نافعة. وجد فريقه أن معظم الأشخاص الذين صدَّقوا البث دون التحقق من مصادر أخرى هم المتدينون بشدة، والذين يعانون القلق، وغير الآمنين اقتصاديًا، لأنه -أي البث- أكد الخوف والشعور بانعدام السيطرة على حياتهم اللذان تشعر هذه الفئات بهما بالفعل. كتب كانتريل: «تعقيد النظام الحكومي والوضع المالي الحديث، والتعارض الملحوظ بين المقترحات الاقتصادية

والسياسيات المقدّمة من مختلف من يُدعَوْنَ بالخبراء، والتهديدات  
الفاشية والشيوعية المحسوسة، والبطالة الطويلة بين ملايين  
الأمريكيين، هذا بالإضافة إلى ألف سمة أخرى لحياتنا الحديثة،  
تخلق جميعها بيئة يعجز الفرد العادي عن تفسيرها بوضوح». قال  
واحد ممَّن أُجريت معهم مقابلات إن الأخبار الحقيقية جعلت من  
السهل تصديق أمورٍ لا تُصدّق، لأن «أمورًا كثيرة نسمعها لا تُصدّق».  
اعتقد أورويل أن كتاب كانتريل ألقى ضوءًا هامًا على الأساليب  
الشمولية. من جهة، جسّدت الواقعة قدرة الإذاعة على التلاعب  
بالرأي العام، حتّى من دون قصد. كتب أن الجرائد «لا تستطيع  
أن سرد أكاذيب أكبر من حجم معيّن». حدّرت المجلّة التجارية  
«إديتور آند بابليشر» قائلة: «لا تزال الأمة ككل تواجه خطر الأخبار  
غير المكتملة التي يُساء فهمها، والتي تأتي عبر وسيط لم يثبت  
بعد أنه مؤهّل لأداء وظيفة نشر الأخبار».

ألقى بحث كانتريل ضوءًا أيضًا على لا عقلانية الجماهير  
وعدم تحقّقهم من الحقائق. كتب أورويل: «العلاقة الواضحة  
بين التعاسة الشخصية والاستعداد للإيمان بالخوارق هو أكثر  
الاكتشافات إثارة للاهتمام. إنه إطار ذهني مشابه دفع دولاً  
بأكملها إلى إلقاء نفسها في أحضان المخلّص». من المثير  
للسخرية إذاً أن هتلر -سيد الأكاذيب الكبيرة- انقضّ على  
واقعة «حرب العوالم» باعتبارها دليل على تدهور الديمقراطية.  
اعتقدت الكاتبة دوروثي طومسون أن الحادث كان «دليلاً ممتازاً  
على أن الخطر ليس من المريخ وإنما من الزعيم الديماغوجي  
البارع في التمثيل».

إن استطاع ويلز خداع أناس كثيرين جداً من دون حتى أن يحاول، ما الذي يمكن أن يفعله كذابٌ ماهر بالعقل البشري؟ كانت هذه تيمة مسرحية باتريك هاملتون «ضوء مصابيح الغاز»<sup>(16)</sup> التي افتُتحت على مسرح ريتشموند في لندن في 5 ديسمبر عام 1938. في خبطة هاملتون الميلودرامية الفيكترية الناجحة هذه، يحاول زوجٌ مستغل يدعى مانينجهام إقناع زوجته بيلا بأنها تفقد عقلها -كي يتمكن من إرسالها إلى مصحة عقلية- عن طريق تلفيق الأدلة، ودفعها إلى عدم تصديق حواسها. يخبر محقق الشرطة بيلا قائلاً: «أنت لا تفقدين عقلك يا سيّدة مانينجهام. أنت تُدفعين ببطء وبمنهجية إلى حافة الجنون». كثيراً ما قارن أورويل آثار الكذب الممنهج بالمرض العقلي: على سبيل المثال، وصف برشلونة في أثناء التطهير الشيوعي بـ «مصحة مجانين». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، يحارب ونستون للتأكيد على رجاحة عقله ضد إصرار أوبراين على أنه «مختل عقلياً». في كتابها «المرأة التي لم تستطع الموت»، وهو مذكرات تسرد وقائع قضاء سنتين في قبضة شرطة ستالين السرية كان أورويل يملك نسخة منه لكنه لم يكتب عنه، لخصت الكاتبة الروسية والزوجة الدبلوماسية يوليا دي بوسوبير الآثار النفسية للوقوع في أسر قبضة نظام شمولي كالآتي: «هل أنا مجنونة حقاً؟ هل كلهم مجانين؟ هل العالم برمّته مجنوناً؟ التدهور العقلي تأثيرٌ مطلوب بلا شك.

16- هذه هي الترجمة الأدق للمعنى المقصود من عنوان المسرحية الأصلي: Gas Light. اكتسب العنوان بعد ذلك معنى آخر هو «التلاعب». (المترجم).

وجد مصطلح «التلاعب بالعقول»<sup>(17)</sup> طريقه إلى كتب التحليل النفسي، وفي نهاية المطاف إلى الخطاب السياسي، لكن بعدما فات أوان استخدامه لوصف هتلر وستالين، الرجلان القادران على التلاعب بعقول أمة كاملة.

\*\*\*

عاد أورويل وآيلين إلى لندن في 30 مارس 1939، قبل يومين من استسلام آخر الجمهوريين الإسبانين لفرانكو. أرسل مخطوطة رواية «من أجل استنشاق الهواء» إلى فيكتور جولانش، وأمضيا ثلاثة أسابيع مع لورانس أوشوناسي في جرينتش، وزارا والد أورويل المريض في ساوثولد، وهي بلدة صغيرة قرب نهر أورويل في سوفلوك. في يونيو، مات ريتشارد بليز من السرطان عن عمر اثنين وثمانين عامًا. قبل ساعات من رحيله، قرأت أفريل أخت أورويل مراجعة إيجابية لرواية «من أجل استنشاق الهواء» على مسمع والدهما، ومات وهو يعلم أن ابنه قد حقق شيئاً بعد كل شيء. عاد الزوجان إلى والينجتون انتظاراً للحرب القادمة، التي كان يراها أورويل كارثة كبيرة وإهانة شخصية له على حدّ سواء. كان لديه أمور يريد إنجازها، منها كتابة ملحمة عائلية من ثلاثة أجزاء بعنوان «الأحياء والموتى»، وكانت «فكرة أنني مضطّر إلى التخلي عنها إما بسبب مقتلي أو ترحيلي إلى معسكر اعتقالٍ قذر تجعلني أستشيط غضباً. قرّرت أنا وآيلين أنه إذا جاءت الحرب، فإن أفضل شيء فعله هو البقاء على قيد الحياة، وبالتالي زيادة عدد العقلاء»، هكذا أخبر چاك كومون.

17- بالإنجليزية: Gaslighting. (المترجم).

الانطباع الذي يأخذه المرء من قراءة كتابات أورويل هي تلك الفترة هي أنه رجل يحاول بشكل عاجل توضيح العلاقة بين الفاشية والشيوعية والرأسمالية. من الواضح أنه كان يفضل الخيار الرابع - الاشتراكية الديمقراطية - ولكن يبدو أن هذا لم يكن مطروحاً على الطاولة في ذلك الوقت. قبل أن يذهب إلى إسبانيا مباشرة، ازدرى «الكذبة السوقية الشائعة جداً الآن التي تقول إن الشيوعية والفاشية وجهان لعملة واحدة». لكنه عندما قرأ كتاب «دراسة في اليوتوبيا»، شعر أن الاستالينية كما وصفها ليونز «لا تبدو مختلفة تماماً عن الفاشية».

كلمة واحدة فقط يمكن أن تفسّر التقارب المحير بين عدوين ظاهرين. أنصار الشمولية طوّروا مفهومها في إيطاليا في عشرينيات القرن العشرين. عرّفها موسوليني بأنها «كل شيء داخل الدولة، ولا شيء خارج الدولة، ولا شيء ضد الدولة»، لكنها تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية بدلالات سلبية بحتة. قدّم كتاب بوركناو «العدو الشمولي» المنشور عام 1940 النازية والاستالينية على أنهما رأسان لوحش واحد: «البشافية البُنية» و «الفاشية الحمراء». يتناقض هذا جذرياً مع النظرية القديمة التي اكتسبت شعبيتها من كتاب چون ستراتشي «الصراع القادم على السلطة» المنشور عام 1932، التي تقول إن الفاشية ببساطة «هراوة الطبقة الرأسمالية» وإن الشيوعية هي الدرع الوحيد ضدها. «على الرغم من أن النظامين بدأ من طرفي نقيض، فهما يتطوّران سريعاً إلى نظام واحد: شكل من أشكال حكم الأقلية الشمولي»، هكذا كتب أورويل في مراجعته لكتاب بوركناو، في تبصّر منه بعنوان كتاب

إيمانويل جولدشتاين في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «حكم الأقلية الشمولي: النظرية والتطبيق». «خطيئة كل اليساريين منذ عام 1933 فصاعدًا أنهم أرادوا أن يكونوا معادين للفاشية من دون أن يكونوا معادين للشمولية»، هكذا كتب لاحقًا.

لم يستطع التاريخ تفسير ما كان يحدث، كان هذا أمرًا جديدًا تمامًا. كتب أورويل في مراجعته كتابًا عن فرانكو: «عنوان هذا الكتاب الفرعي هو «العودة إلى العصور الوسطى»، وهذا ظلمٌ للعصور الوسطى. لم تكن هناك مدافع رشاشة في تلك الأيام، وكانت محاكم التفتيش أعمال هواة. فبعد كل شيء، حتى توركيمادا نفسه لم يحرق إلا ألفي شخص في عشر سنوات. في روسيا الحديثة أو ألمانيا المعاصرة سيقولون إنه لم يكن يبذل جهدًا كافيًا».

\*\*\*

في الحادية عشرة والربع صباحًا، في 3 سبتمبر عام 1939، أعلن رئيس الوزراء نيفيل تشامبرلين أن المملكة المتحدة في حربٍ مع ألمانيا. بعدها بدقائق، أُجري أول تدريب عسكري جوي في سماء لندن. بدأ إجلاء الأطفال إلى الريف. وُزعت أقنعة الغاز. امتلأت سماء لندن بالمناطيد الدفاعية وتكدّست أكياس الرمل على الأرصفة وأُطفئت أنوار الشوارع. كتب الصحفي مالكوم موجريدج قائلاً: «تلمّس الطريق ليلاً في الشوارع المظلمة أوجد شعورًا خافتًا بأن أسلوب حياتنا يتداعى، وأن راحته المألوفة ترحل من دون أمل في العودة مجددًا... يصعب تصوّر أيّ ملمحٍ للمستقبل، يصعب تخيّل استمرارية أيّ شيء».



لم يعد أورويل داعية سلام. بعد بضعة أسابيع من اندلاع الحرب، كتبت الروائية إيثيل مانين -التي كانت لا تزال داعية سلام- إلى أورويل تنثي على الرسالة المناهضة للحرب في «من أجل استنشاق الهواء». لكنها «تذمّرت وارتبكت وانكسرت» عندما ردَّ عليها يقول إنه متلهّف الآن للاشتراك في الحرب والقيام بواجبه. «ظننت أنك تعتقد أن صدام الوجوه النازية الجاري هذا جنون»، هكذا قالت معترضة.

ما غيّر رأيه هو صدمته من الميثاق النازي السوفيتي. في 23 أغسطس، استُقبل وزير الخارجية النازي يواخيم فون ريبنتروب في مطار موسكو بأعلام الصليب المعقوف المرفرفة وفرقة الجيش الأحمر التي تعزف لحن «نشيد هورست فيسل».

كان أورويل يرى أن إنجلترا الإمبريالية التوسّعية ما زالت أفضل من تحالفٍ شمولي استبدادي. وبشكل غير معتاد من شخص عقلاني مثل أورويل، عزا شعوره بالهلع ليس إلى التحالف نفسه بل إلى حلم كان قد حلمه في الليلة السابقة على نشر الأخبار: «لقد علّمني شيئين: أولاً، أنني يجب أن أشعر بالارتياح ببساطة لأن الحرب التي طالت خشيتها اندلعت. وثانياً، أنني كنت وطنياً حتّى النُخاع، لن أخربّ أو أرتكب أعمالاً ضد بلدي، وسأدعم الحرب، وسأقاتل فيها إذ أمكن». استقال أورويل على الفور من حزب الـ «آي إل بي» ووصف السلمية بأنها شكل من أشكال التسوية، بل بأنها «مؤيِّدة للفاشية» (وهو زعم وصفه فيما بعد بأنه «غير أمين»). أخبر جولانوش: «إن المثقفون الذين يشيرون في وقتنا الحاضر إلى أن الديمقراطية والفاشية هما الشيء

نفسه وما إلى ذلك، يحبطونني بشكل مريع». هذا من قال يوماً  
إنهما التوأمان تويدلدم وتويدلدي.

وضعت الحكومة البريطانية خططاً لتشييد مقابر جماعية  
وتوابيت من الورق المقوّى تحسُّباً لما قد يصل إلى نحو عشرين  
ألف ضحية من الغارات الجوّية الضخمة. لكن قاذفات القنابل  
لم تأت. وبدلاً من ذلك، كان يوم 3 سبتمبر بداية لثمانية أشهر  
من «الحرب الزائفة» التي وصفها أورويل في عبارة سيعيد  
استخدامها لاحقاً بنجاح أكبر بأنها «حرب باردة». ذكره الأمر  
بشهور جبهة أراجون الطويلة الخاوية. كان يكره الشعور بالجمود.  
بعد قراءة تقرير أجرته «هيئة المراقبة الاجتماعية» بعد ستة  
أشهر، وجد أورويل أن معظم البريطانيين كانوا «يشعرون بالملل  
والحيرة والغضب بعض الشيء، ولكن شعوراً منعشاً زائفاً تماماً  
بأن الفوز في الحرب سيكون عملاً يسيراً كان يغذّيهم في الوقت  
نفسه». تولّت آيلين على الفور وظيفة في قسم الرقابة بوزارة  
الإعلام وانتقلت إلى لندن، في حين ما ظلّ أورويل في والينجتون  
يسيطر عليه شعور بعدم الأهمية. كان يريد القتال في «هذه  
الحرب اللعينة» لكن رثيته منعتاه من ذلك. ولأنه لم يعد يشارك  
بكثرة في العمل الصحفي الحر، أمضى أورويل حربه الزائفة  
يتأمّل العالم وهو يفوص في الهاوية.

من الصعب فصل حجم تشاؤم أورويل الحقيقي عن حبه للمغالاة  
في السلبية. «أجد أن أيّ شيءٍ شنيع الغرابة يميل بشكل عام إلى  
إذهالي حتّى عندما أكرهه»، هكذا كتب في «الطريق إلى رصيف  
ويجان البحري». منذ أوّل كتبه «الفقر والتشرّد في باريس ولندن»

وصولاً إلى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، نجد أن وتيرة أسلوبه تُسرّع كلما انحرف نحو كارثة. لذا ليس من المفاجئ أنه استمتع بكتاب مالكوم موجريدج - «الرائع والكثير» - «الثلاثينيات». كان موجريدج -مراسل صحيفة «ذا مانشستر جارديان» السابق في موسكو- صائغ عبارات لامعاً، وكانت «الثلاثينيات» رواية قاسية وبارعة عن ذلك العقد المخجل. كتب أرويل في مراجعته للكتاب: «إنه لا يرى إلا الجانب المظلم، لكن من المشكوك فيه وجود أي جانب مضيء من الأساس. يا له من عقدا اضطرابات حمقاء مريعة تتحوّل فجأة إلى كابوس، قطار يمرُّ بمناظر طبيعية خلّابة ينتهي إلى غرفة تعذيب».

من بين جميع رؤى موجريدج الثاقبة، أكثر ما يلفت الانتباه الآن هو العواقب غير المقصودة لهوس العقد الجديد بتجميع البيانات في شكل أفلام وثائقية ودراسات واستطلاعات. «من المثير للسخرية، أو ربّما كان هذا حتمياً، أن هذا التعطُّش إلى الحقائق والحاجة إلى توفيرها بكثرة صاحبه شغفٌ جديد بالوهم والحاجة إلى توفيره بكثرة... ربّما لم يحدث من قبل أن وُجد مثل هذا الطلب الكبير على الإحصائيات، ولم يحدث من قبل أن زُوِّرت بمثل هذا الإفراط». يحفّز افتتان الوسط الثقافي بالبيانات صنع المعلومات الزائفة، وبالتالي بدلاً من تدعيم الحقيقة، ينتهي الأمر إلى إنتاج أكاذيب أكثر مرونة. حدث ذلك في روسيا وألمانيا ويحدث باستمرار في أوقيانيا، حيث يقضي ونستون سميث أيامه وهو يعيد كتابة نُسخ من صحيفة «تايمز» لصالح إدارة السجّلات. الحقائق لا تهتمُّ في وزارة الحقيقة، ولكن يجب أن يُنظر إليها على

أنها مهمة، لأن الذاكرة الضبابية غير الموثوق بها لا تستطيع مجازاة «الأدلة».

ما الذي على الكاتب فعله في مثل هذه الأوقات العصبية؟ ما الاستجابة اللائقة على نكبة الحرب الشنيعة؟ خلال أشهر الوحدة في والينجتون، كان أورويل يجاهد لإيجاد أجوبة. في الكتاب المعلنون بـ «داخل الحوت»، أوّل مجموعة مقالات مجمّعة له، لم يتمكّن أورويل من إقناع نفسه -فضلاً عن القارئ- بأن انشغال هنري ميلر بذاته ولا مُبالاته السياسية كانتا مثيرتان للإعجاب (لاحقاً نبذ هذا السلوك ووصفه بأنه «تصوُّف عدمي»)، فقط هو فضّل إنسانية الأمريكيين الفظة وقلة اكتراثهم بـ «مسمّيات وشعارات ومراوغات» المثقّفين المؤيدين للشيوعية. «الروايات الجيدة لا يكتبها المتشدّدون، ولا من يأنّبهم ضميرهم حيال هرطقتهم. الروايات الجيدة يكتبها أشخاص لا يشعرون بالخوف». كان عماد المقال هو اليأس ومحاولة إنقاذ النزاهة -ولا شيء غيرها- من خراب الثلاثينيات. عندما تكون كل الخيارات سيئة، عندما يكون العالم «في طريقه إلى عصر تكون فيه حرية التفكير في البداية إثماً قاتلاً وفي وقت لاحق فكرة مجرّدة لا معنى لها»، على المرء أن يختار على الأقل أن يكون صادقاً.

لا يجب أبداً الاقتباس من كتاب «داخل الحوت» دون الإشارة إلى أن أورويل كتبه في فترة من الكرب العاطفي والفوران العقلي. على سبيل المثال، مقولة مثل «يبدو أن تاريخ الأدبي في الثلاثينيات يُسوِّغ الرأي القائل بأن الكاتب يعمل بجهد كي يتبعد عن السياسة»، هي رأي أمضى أورويل بقية حياته يتجاهله.

خُصِّصَ المقال الثاني من المجموعة لكاتب رفض الاختباء داخل الحوت. كتب أورويل أن تشارلز ديكنز «ينحاز دومًا إلى جانب المهضوم حقهم، إلى جانب الضعفاء في مواجهة الأقوياء» و«دائمًا ما يعطي موعظة في كتاباته... لأن المرء لا يمكن أن يبدع إلا لو كان يكثر حقًا». كان تعاطفه مع موضوعه شديدًا إلى درجة أن المقالة صارت أشبه بطوفان من التحليل الذاتي. في النقد الأدبي، كان أورويل أقل اهتمامًا بتحليل النصوص نفسها وأكثر اهتمامًا بالأفراد والأفكار: من كان ديكنز وشكسبير وميلر وغيرهم حقًا؟ وكيف رأوا العالم؟ تنتهي المقالة بوصفه الشهير لوجه ديكنز، أو على الأقل الوجه الذي تخيَّله أورويل: «وجه رجل لا يكف عن النضال من أجل قضية ما، لكنه يناضل في العراء بلا خوف. وجه رجل غضبه سخي، أو بتعبير آخر، وجه ليبرالي من القرن التاسع عشر، مثقَّف حر، نمط الرجال الذي يكرهه بالتساوي كل أنواع الأصوليين البغيضين الضلَّاء الذين يتنافسوا الآن على امتلاك أرواحنا». إنه وجل الرجل -والكاتب- الذي يطمح أورويل أن يكونه: رجلٌ -من عدة نواحٍ- لا يحده زمان.

لم يكن أورويل يعرف أن النقاط التي أثارها حول خلود ديكنز بعد وفاته ستطبق عليه يومًا: «أشك أن أي شخص قرأ لديكنز حقًا يمكن أن يمرَّ عليه أسبوع من دون أن يتذكَّره في سياقٍ أو آخر. وسواء كنت تتفق أو تختلف معه، فهو موجود مثل عمود نيلسون». (كان للعمود قوَّة رمزية في عين أورويل: في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، استُبدِلَ أحد تماثيل الأخ الأكبر بتمثال الأدميرال نيلسون). في حديثٍ إلى زمالة ديكنز في لندن في مايو

1940، ذهب أورويل إلى أبعد من ذلك. وفقًا لتقرير الزمالة، «كان يشعر بأنه ليس بالضرورة لكي تكون من عشاق ديكنز أن تكون على دراية بأعماله بشكل مثالي، لأنه كان واحدًا من عددٍ قليل جدًا من الكتّاب الذين لديهم تراث يحيا خارج عالم الأدب». ذَكَر أورويل الوقت الذي قضاه في كينت عام 1931 وهو يعمل إلى جانب جامعي زهور الجَنجل الذين يعرفون كل شيء عن «أوليڤر تويست» دون قراءة الرواية، والذين كانوا يشعرون بأن ديكنز إلى جانبهم. أيُّ شخص يستشهد بالتفكير المزدوج أو الأخ الأكبر فهو زميل لقاطفي الجَنجل هؤلاء.

\*\*\*

انضمَّ أورويل إلى آيلين في لندن في شهر مايو، الشهر الذي حلَّ فيه ونستون تشرشل محل تشامبرلين على مقعد رئاسة الوزراء. استأجر الزوجان شقّة في الطابق العلوي في 18 دورست تشامبرز في شارع تشاجفورد بالقرب من حديقة ريجينتس. ولأنه كان بحاجة إلى راتبٍ شهري، عمل على مضض ناقدًا مسرحيًا لمجلة «تايم آند تايد»، لكن سرعان ما عاد إليه إحساسه بالعجز وعدم الأهمية في مساء يوم 29 مايو. في أثناء ما كان يشاهد مسرحية «بورتريه هيلين» لأودري لوكاس في مسرح تورش، أعلن الحاجب -خلال الاستراحة- أن قوَّات مُشاة الجيش البريطاني تُجلى الآن من دانكيرك. كان أخو آيلين يعالج الجرحى على ذلك الشاطئ. أمضى أورويل غرّة يونيو وهو ينتظر في محطّتي فيكتوريا وواترلو ليرى إن كان أوشوناسي من ضمن الرجال العائدين من الساحل، لكن بلا جدوى. وسرعان مع علم الزوجان

أنه قُتل بشظايا على الشاطئ في فرنسا قبل ساعات من موعد إجلائه. هزلت آيلين التي كانت تحب شقيقها إلى درجة العبادة وأنهكها الهم. خلال السنوات الأربع التالية، أخبرت صديقتها لاتيس كوبر بأنها لم تعد تهتم حقًا إذا عاشت أو ماتت.

في 10 يونيو، دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا وانتشرت شائعات الغزو الألماني. بدأ القائد والتر شلينبرج تجميع ما عُرف بـ «قائمة المطلوبين في بريطانيا العظمى»، وهي قائمة تضم ما يقرب من ثلاثة آلاف مواطن بريطاني ومنفي أوروبي يجب القبض عليهم بعد نجاح الغزو. كانت القائمة التي اكتشفها جنودٌ بريطانيون وأطلقوا عليها اسم «الكتاب الأسود» تضمُّ إتش جي ويلز والدوس هكسلي وفرانز بوركناو وكنجسلي مارتن وفيكتر جولانش، لكن ليس أورويل. كان من الازدراء نوعًا ألا يعتبره النازيون يستحقُّ الاعتقال.

كتب أورويل في مذكراته: «كل شيء يتفكك. أتلوَّى ألمًا لأنني أكتب مراجعات للكتب وما إلى ذلك في مثل هذا الوقت، بل ويغضبني أن مثل إضاعة الوقت هذه ما زال مسموحًا بها. أشعر الآن كما كنت أشعر في عام 1936، عندما كان الفاشيون يقتربون من مدريد، ولكن أسوأ بكثير».

لكن على الأقل سُنحت له في ذلك الوقت فرصة لحمل السلاح، إن جاز التعبير. تحت ضغط من الصحافة والشعب، دعت الحكومة من لم يتمكنوا من القتال للتسجيل في ميليشيا «متطوعو الدفاع المحلي» - التي أُعيدت تسميتها لاحقًا «الحرس الوطني» - استعدادًا للغزو. سجّل أورويل نفسه في 20 يونيو.

وبصفته الرقيب بلير، جُنِّد ناشره فريدريك واربورج في شعبته، التي شملت كثيراً من اللاجئين الأوروبيين. وكما لو أن الغرض هو توضيح كيف توخَّد الأزمة الوطنية الفصائل السياسية المختلفة، كان الضابط المسؤول عنه عضواً سابقاً في حزب موزلي الفاشي «القمصان السوداء».

كان أورويل أبعد ما يكون عن الخوف من الغزو، بل كان يأمل في حدوثه، لذا راهن بتهوُّر على قدرة بريطانيا على صدّه: «سنتخلص مرة واحدة وإلى الأبد من تلك العصابة التي زجَّت بنا إلى هذه الفوضى». رأى بمثالية رومانسية حمقاء أن «الحرس الوطني» قوَّات لها وزنها، وكتب رسالة إلى «تايم آند تايد» تحتوي على بعض نصائح قتال الشوارع التي تعلَّمها في برشلونة، وطلب أن يُسلَّح المدنيون بالقنابل اليدوية والبنادق وأجهزة اللاسلكي. لا بُدَّ أن القرَّاء صُدِّموا لرؤية ناقدهم المسرحي يصرخ «سلِّحوا المدنيين» في العدد نفسه الذي قدَّم فيه مراجعة نقدية لمسرحية رچينالد بيكويت «شباب في ملابس بُنية». في أثناء سيره في شوارع لندن، وجد أورويل نفسه يتفحَّص النوافذ ويتساءل عن أيِّ منها تصلح لأن تكون مخبأً فعَّالاً لمدفع رشَّاش. مثل بطل روايته جورج بولينج وبصره الحديدي، استطاع أورويل أن يرى الجمجمة القابعة خلف وجه لندن التي تنتظر أن تتكشف. كان واريورج يراه «شجاعاً، متشدِّداً، حازماً، عازماً على تدمير أعدائه دون خوف أو رحمة، فقط إذا صاروا في متناول يديه». لكن هذا لم يحدث قط بالتأكيد.

\*\*\*



في 20 أغسطس، استطاع رامون ميركادير -عميل المخابرات السوفيتية الكاتالوني- متكرراً في هيئة تروتسكيّ فرنسيّ التسلّل إلى مكتب تروتسكي في مكسيكو سيتي، وأخرج فأس جليد من معطف المطر الذي يرتديه، وهبط به على جمجمة تروتسكي. مات الزعيم المهرطق في المستشفى في اليوم التالي. قال عنوان جريدة «ذا ديلي ووركر» الرئيس: «وفاة زعيم العصاة المُعادي للثورة».

فكّر أورويل: «كيف ستستمر الدولة الروسية من دون تروتسكي؟ أم ربّما يُوجد شيوعيون في مكانٍ آخر؟ ربّما سيضطّرون لابتكار بديل».

\*\*\*

في ذلك الصيف، كتب أورويل عن مجموعة روايات ديستوبية في مقال قصير لمجلة «تريبيون» اليسارية الأسبوعية. أخذ أربع روايات نُشرت بين عامي 1899 و1932 واختبر نبوءاتهم أمام واقع الفاشية. الروايات هي: «عندما يستيقظ النائم» لإتش جي ويلز، و«سر العصابة» لإرنست براما، و«العقب الحديدية» لجاك لندن، و«عالم جديد شجاع» لألدوس هكسلي. وانتهى بتفضيل رواية لندن. كتب إليه اثنان من القراء يُشيرا إلى أن مثل هذه الروايات كانت «مخططات عمل ثقافية» زرعت في عقول هتلر وموسوليني أفكاراً خطيرة. لم يكن أورويل مقتنعاً: «لا أعتقد أن أيّ شخص عليه أن يخشى -على سبيل المثال- كتابة عمل يكتهن بدولة فاشية بريطانية قادمة لأنه بهذا قد «يزرع أفكاراً» في رأس نازيٍّ محليّ. ستصل الأفكار إلى رأس من ستصل إليه من تلقاء نفسها، ما دام أن الصّراع الطبقي حقيقة».

لاحظ أن «عالم جديد شجاع» كانت الرواية الحديثة الوحيدة التي أعارها اهتمامه. لأنه كاتب روائي طموح ولكن غير ناجح، كان أورويل يميل إلى رسم صورة كاريكاتورية لأقرانه تجعلهم غير مهمين في نظره أو نظريين بشكل مضجر. وبهذا التفكير، تجاهل عددًا كبيرًا من الروايات المستقبلية من اليسار البريطاني. الروايات التي كتبت في أوائل الثلاثينيات، مثل «بين رَجُلَيْن» لفريدريك لي جروس كلارك و «الطاعون القرمزي» لفينر بروكواي رئيس حزب الـ «آي إل بي»، كانت تركز على معاداة الرأسمالية. (من الجدير بالذكر أن العمل الساخر «قول الحقيقة» الذي كتبه أمابيل وليمز إليس، أخت جون ستراتشي، تضمّن شخصيتين ثانويتين اسمهما الأخ الأكبر وجوليا). مع اشتداد ظُلمة العقد، تحوّل التركيز إلى أنواع من الفاشية المحلية، وظهر هذا في كتب مثل «لندن تحترق: رواية عن انحدار وسقوط الليبراليين» لباربرا ووتون، و «الرجل الأدنى: أو حان وقت الذهاب» لأندرو مارفل، و «في العام الثاني» لمارجريت ستورم جيمسون.<sup>(18)</sup> «يمكنني تخيل فاشية إنجليزية وحشية خبيثة نصف مقنّعة، مُطعّمة بنزعة الفضيلة الميثودية»، هكذا قالت مارجريت جيمسون مفسّرة. عندما اتُّهم كتابها بالانهزامية، جاءت مراجعة مجلة «ذا لفت

18- \* كان إتش جي ويلز في الطليعة برواية «استبداد السيّد برام» التي كانت هجاءً غير متجانس لعام 1930، وتحكي عن أكاديمي يميني بنام في أثناء جلسة تحضير أرواح ويحمل بأنه أصبح ديكتاتورًا يغزو العالم. «لقد تفوّق الواقع على الخيال منذ ذلك الحين»، هكذا كتب أورويل في عام 1934: «وخداع موزلي المشابه في قاعة ألبرت الملكية هو وجماعته من القمصان السوداء يجعل حلم برام الكبير بالاجتماع هناك يبدو منطقيًا ومعقولًا تمامًا». (المؤلف).

ريفيو» للدفاع عنها: «ليست الرواية نبوءة، بل تحذيرًا لليبراليين». لم تكن أي من هذه الروايات جذابة أو مقنعة مثل نسخة سينكلير لويس من الفاشية الأمريكية «هذا لا يمكن أن يحدث هنا»، لكن كان هناك ما يكفي من تلك الروايات لجعل صمت أورويل يثير الدهشة. لم يكتب أورويل عن أبرز نموذج منها، «ليلة الصليب المعقوف» لموراي قنسطنطين، مع الأخذ في الاعتبار أن جولانش نشرها في عام 1937، وأعيد إصدارها بعد ثلاث سنوات ضمن اختيار «نادي الكتاب اليساري». في مراجعة أورويل لكتاب «كفاحي» في ذلك العام، تكاد تكون رؤيته للنازية في عام 2040 موجزًا لرواية قنسطنطين. «إنها إمبراطورية مربعة لا عقل لها، لا شيء يحدث فيها تقريبًا سوى تدريب الشباب على الحرب وتفريخ المقاتلين الجدد الذي لا ينتهي».

في «عام 720 من تقويم الإله هتلر»، نجد أن العالم مقسوم مناصفةً بين الإمبراطوريتين الألمانية واليابانية. الإمبراطورية الألمانية مقسمة طبقيًا بشكل صارم، يلعب فيها «الفرسان» دور الحزب الداخلي، ويلعب فيها النازيون دور الحزب الخارجي. تحتلها تأتي النساء، وفي القاع ترزح طبقة الهمجيين الأدنى، التي تصر على ممارسة العقيدة المسيحية. مُحيت حقيقة هتلر و «حرب السنوات العشرين» عن طريق الحرب على الذاكرة. وفقًا لإنجيل هتلر، وهو الكتاب الوحيد المسموح بقراءته بخلاف الكُتُبَات التقنية، هتلر هو إله أشقر شبيه بثور، طوله يتجاوز المترين بعشر سنتيمترات، والنازية ديانتته.

بعد عقود، اكتشفت الناقدة دافني باتاي أن موراي قنسطنطين كان اسمًا مستعارًا للروائية النسوية كاثرين بورديكين. بقراءة رواية «ليلة الصليب المعقوف، يبدو هذا واضحًا، لأن الدولة الشيوعية الكارهة للنساء المجسدة فيها تجعل من جلعاد في «حكاية الجارية» دولة هواة رخوة بالمقارنة. تُستخدم النساء -باعتبارهن أدنى من البشر- بغرض التكاثر فقط ويمكن اغتصابهن من دون عقاب. لكن الإمبراطورية الألمانية أصبحت راکدة وعقيمة لأن الرجال ينتحرون، ولأن الإناث -لسبب ما غامض- لم تعد تُولد. لتعذر قهر بعضهم لبعض، يقبع الألمان واليابانيون أسرى لحالة من السلام المشلول الذي يُثبت سُميته للمجتمعات المشيدة على المجد العسكري: عكس الدول العظمى في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» المتحاربة إلى الأبد. يشتكي الفارس فريدريك فون هس بخيبة أمل: «لا يمكننا خلق شيء، لا يمكننا ابتكار شيء. لسنا في حاجة إلى الخلق، ولا نحتاج إلى الابتكار. نحن ألمان. نحن مُقدّسون. نحن مثاليون، وكذلك أموات». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، يعطي أورويل ونستون مجموعة متنوعة من الحجج يحاجي بها ضد استمرار الديكتاتوريات كي يدحضها أوبراين، واحدة منها حجة فون هس. يقول ونستون إن المجتمع الذي يُشيد على الخوف والكراهية والقسوة «لن يمتلك أي حيوية، وسوف يتفكك. سوف ينتحر».

يشير محرّك الحبكة أيضًا إلى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». يخبر فون هس بطل بورديكين -وهو مهندس طيران إنجليزي اسمه ألفريد- بسرّ عائلي كبير. إن كتابه الممنوع، الذي

كتب فيه سلفه تاريخ النازية الحقيقي، مُزعِزٍ للاستقرار مثل كتاب غولدشتاين. ومثلما صُدم ونستون عندما عثر على صورة جونز وأرونسون ورذرفورد، صُدم ألفريد بعثوره على صورة تُظهر أن هتلر لم يكن إلهًا آريًا، بل «شخصًا ضئيلاً ناعمًا خبيثًا بدنيًا مبتسمًا»، وأن النساء فيما مضى كُنَّ واثقات وجذَّابات وبشريات بالكامل كالرجال. يقول فون هس: «لا يُوجد فرق كبير بين تزوير التاريخ وتدميره». اسم الحركة السرية التي وصفتها بورديكين هي روايتها، مثل حركة أورويل، «الأخوية».

لا نعرف ما كان رأي أورويل في «ليلة الصليب المعقوف»، لكنه أُعجب بالفعل بقصة واحدة على الأقل عن الفاشية في إنجلترا. في 24 أغسطس عام 1940، شاهد أورويل مسرحية جديدة بعنوان «استعد حريتك» ووجدها «رائعة في نفاذ بصيرتها». بدأت الكاتبة النسوية وعضوة حزب الـ «آي إل بي»، وينفريد هولتبي، تأليف المسرحية (تحت عنوان «الديكتاتور») في عام 1934، لكنها تُوِّفيت بسبب مرض في الكلى قبل أن تتمكن من إجراء التغييرات التي طلبها منتجها المسرحي، لذا أنهى الكاتب المسرحي نرومان جينزبري المهمة لها. أظهرت هولتبي وجينزبري فهمًا عميقًا لجاذبية الديماغوجيين الشعبويين. بطل المسرحية أرنولد كلايتون وكيل وزارة يافع وذكي وذو كاريزما. يستقيل من الحكومة ويؤسس «حزب التخطيط البريطاني» الذي يعمل وفقًا لشعار «الحركة - العزلة - التنظيم». فسّر أورويل الرجل على أنه «نسخة أكثر تهذيبًا من هتلر أو نسخة أذكى من موزلي». يفوز كلايتون باكتساح مفاجئ من خلال استغلال الدوافع غير العقلانية للعوام الذين

يحتقرهم. يخبر أمه: «يجب أن نتمتع بالعاطفة. يقسم المنطق البشر إلى آلاف الأحزاب، لكن الشغف يوحدهم». وكما قال موجريدج عن هتلر: «كثيرون ممن وجدوا أن التفكير بعقولهم غير مريح كانوا على استعداد لاتباعه مفكرين بعواطفهم». بمجرد وصوله إلى منصبه، يصبح كلايتون طاغية يجنّد الرجال، ويحظر النساء من أماكن العمل، ويظهر منافسيه ويسجن خصومه في معسكرات الاعتقال.

أعجب أورويل بالمسرحية لأنها جسّدت كلايتون على أنه «سجين للسلطة»، ضحّى تدريجياً بنزاهته للبرنامج الانتخابي، وضحّى بالبرنامج للحزب، وبالحزب لأصدقائه، وبأصدقائه لنفسه. ربما استمتع أورويل كذلك بأسطر الحوار التالية الأكثر أورويلية في المسرحية. خلال الحملة الانتخابية، قتل أربعة من حرس كلايتون الرمادي، الشبيهين برجال الجستابو، متظاهراً يهودياً، وأحمد هو الفضيحة زاعماً أن القتلة عملاء محرّضون يعملون لصالح أعدائه. بدأت أمه التي كانت داعمة له في البداية -مع تزايد رعبها- تشك في أساليبه.

قالت السيّدّة كلايتون: «هل ما قيل عن العملاء المحرّضين صحيح؟»

قال كلايتون: «لقد سمعت ما قلت».

كرّرت السيّدّة كلايتون: «أكرر، هل الأمر صحيح؟»

قال كلايتون: «إنه ضروري، لذا سيكون صحيحاً».

\*\*\*

لم يحب أورويل لندن في أوقات مجدها، لكنه تعلّق بها في أحلك الأوقات. بدأ قصف لندن في 7 سبتمبر عام 1940،

والحقيقة أن أورويل وجدته مثيراً نوعاً. قدّر جانب التطهيري فيه المحنة، واستمتع الاشتراكي بداخله بالتضامن القسري، وأثار دوي القنابل، والسماء المحترقة، والمناطق الدفاعية التي تصطبغ بلونٍ وردي في وهج اللهب، وإيقاع نيران الدفاع الجوي، حماسة المقاتل فيه. شكّ سيريل كونولي في أن أورويل «شعر بانتماءٍ كاسح في أثناء قصف لندن، وسط القنابل والشجاعة والأنقاض ونقص الإمدادات والمشرّدين ومؤشرات ارتفاع الروح الثورية».

في أثناء الرحلة من دانكيرك، تنزّه أورويل وكونولي في الحديقة ولاحظاً أن سكان لندن يلعبون الكريكت ويدفعون عربات الأطفال كما لو أن شيئاً لا يحدث. تنبأ كونولي: «سيستمرّون في التصرّف هكذا حتّى تبدأ القنابل بالسقوط، ثم سيهلعون». لكنهم -كما لاحظ أورويل لاحقاً- لم يفعلوا ذلك: «لقد حافظوا على نمط حياتهم المعتاد إلى درجة مدهشة». مرّت أوقات مشى أورويل فيها في شوارع لندن ورصد الحياة الطبيعية العنيدة، وأوقات أخرى بدا فيها أن الحياة تحطّمت إلى شظايا وأُعيد تجميعها في هيئة فسيفساء سخيفة: أرض شارع أوكسفورد المهجور تتلألأ بشظايا الزجاج المحطّم. كومة من تماثيل عرض الملابس تبدو من بعيد ككومة جثث. حديقة حيوان لندن تبيع حيواناتها لأنه لا يُوجد طعام لإطعامها. شابتان مدهولتان يُغطّي الطين وجهيهما، تسألان أورويل: «من فضلك يا سيّدي، هل تستطيع إخبارنا أين نحن؟». كانت لندن مدينة من الحطام. ذات صباح، وجدت إنز هولدن -صديقتها المقرّبة- نفسها تحدّق إلى شجرة في حديقة ريجنت كُسيّت بالجوارب وخيوط الحرير وقبّعة سوداء مستديرة

جديدة تمامًا... البقايا الملوثة لفندق قُصِف في الليلة السابقة. اصطدمت هولدن بصديق كان رسّامًا سرياليًا. قال لها: «كنا نرسم أشياء من هذا القبيل منذ سنوات بالتأكيد، لكن الأمر استغرق بعض الوقت ليصل إلى هذا الحال».

اعتقد أورويل أن بريطانيا كانت بحاجة إلى تحوّل جذريّ من نوع مختلف. مشهد المصصقات الإعلانية المبهرجة في الأنفاق بعد ما حدث لتوّه في دانكيرك أثار في داخله شعور اشمئزاز مروّعًا جديرًا بـكوموستوك: «كم من القمامة ستكنس هذه الحرب، إذا نجحنا في الصمود خلال الصيف؟» بعد أن جرّب النزعة السلمية وصاغ حجّة متضاربة للتصوّف، بدأ أورويل يجنح نحو الوطنية الثورية. في مقاله «بلدي يمينية أم يسارية؟» الذي نُشر في ذلك الخريف، رسم أورويل صورة ميلودرامية لقتال الشوارع والمليشيات الاشتراكية في الريتز. في دفتر يومياته، كان اشمئزازه من أنانية الأثرياء تتزايد، وقارنهم بالطبقة الروسية الأرستقراطية في عام 1916: «من الواضح أن لا شيء سيعلم هؤلاء القوم أن 99 بالمئة من السكّان لهم وجود». في مساهمتين في كتاب «خيانة اليسار»، وهو مختارات مقالية جمعها فيكتور جولانش للتعبير عن قلقه من الميثاق النازي السوفيتي، ردّد أورويل صدى فكر حزب الـ «بوم»: «لن نستطيع هزيمة هتلر دون ثورة، ولن نوطّد ثورتنا دون هزيمة هتلر».

توسّع أورويل في هذه الفكرة في مقاله الرائع «الأسد واليونيكورن: الاشتراكية والعبقرية الإنجليزية». في يناير، رثّب واربورج لقاءً بين أورويل والكاتب الصهيوني ألماني المولد توسكو



فيثيل لمناقشة أهداف الحرب البريطانية. أثار فيثيل فكرة تكليف مجموعة من الكُتَّاب بإعداد منشورات «مكتوبة بلغة يسيرة من دون الرطانة السياسية المعهودة» تحت اسم «سيرشلايت بوكس». كان ستيقن سبندر، وصحفي جريدة «ديلي ميرور» وليم كونور (الملقَّب بـ«كاسندرا»)، وكاتب الخيال العلمي الاشتراكي أولاف ستايبيلدون، من ضمن المشاركين. وكذلك أورويل بعد بعض التردد. إن مقال «الأسد واليونيكورن» -بلا أدنى لبس- هو نتاج لعام غريب جداً، لكنه كان أفضل ما كتب عن إنجلترا (التي وصفها بـ«أرض العجرفة والامتيازات، التي يحكمها المُسنَّون والسدج» ومع ذلك «ما زالت تُطوِّقها سلسلة غير مرئية»)، وكذلك أقوى حجة صاغها في صالح الاشتراكية: اقترح تأميم الصناعة، وفرض الضرائب التصاعدية، وإلغاء التعليم الخاص، واستقلال الهند. وفي تنبؤ مبكر برعب مقاطعة آيرستريب وان البوليسية، كتب أورويل محتفلاً: «ما يدلُّ على أهمية الخصوصية في الحياة الإنجليزية... هو أن أكثر اسم مكروه من بين كل الأسماء على الأذن الإنجليزية هو نوزي باركر<sup>(19)</sup>». وصف فيثيل المقال بأنه «الكتاب الإيجابي الحقيقي الوحيد الذي كتبه في حياته». أما تقييم آيلين فكان طريفاً وغير مبالٍ: «كتب جورج كتاباً صغيراً يشرح فيه كيف تكون اشتراكياً ومحافظاً في الوقت نفسه».

كان أورويل يؤمن أن انهيار فرنسا غير كل شيء، عن طريق فضح هشاشة الرأسمالية بما لا يدع مجالاً للشك. للمرة الأولى،

19- نوزي باركر أو «الجشري»: الشخص الفضولي الذي يمتلك طبيعة تطفلية مزعجة ويدسُّ أنفه في كل شيء. (المترجم).

لم تكن النسخة البريطانية من الاشتراكية ممكنة فقط، بل ضرورية (لا تجمُّعات، ولا زي موحد، ولا دماء في الشوارع). وكما كتب في مقاله الذي حثَّ فيه القراء على الانضمام إلى الحرس الوطني في مجلَّة «تريببون»: «نحن في فترة تاريخية غريبة جدًا تحتَّم على الثوري أن يكون وطنيًا وعلى الوطني أن يكون ثوريًا». لقد قطع شوطًا طويلًا منذ تبنيَّه نظرية «الفاشية» في رواية «من أجل استنشاق الهواء» إلى درجة أنه استهزأ بـ «أنصاف المثقفين» الذين أعلنوا أنه «إذا قاتلنا النازيين سنكون نازيين أنفسنا»، كأنه لم يصرِّح بهذا الادِّعاء من قبل. لقد تلاشى أورويل المسالم ابن عام 1938.

عندما نُشر مقال «الأسد واليونيكورن» في فبراير عام 1941، باع أكثر من اثني عشر ألف نسخة. «نحن أمام شخص لم يُتهم من قبل قط بأنه وطنيٌّ كبير أو مؤيِّد للإمبريالية صار يجادل فجأة بشكل مقنع وفعال جدًا بأن هذه حرب يجب دعمها. كانت هذه نقطة تحوُّل فارقة لأشخاص كُثر مثلي»، هكذا تذكَّر صديقه جون كيمشي، الذي تأثَّر بكلماته واستقال من حزب الـ «آي إل بي». في هذه الأثناء، ظلَّ واربورج أن رؤية أورويل للراديكالية المنطقية مهَّدت لفوز حزب العمل في انتخابات عام 1945. لذا كان أورويل محقًّا عندما رأى الحرب كعامل محفِّز للتحوُّل الاجتماعي في نهاية المطاف. كان مخطئًا بلا شك في توقُّعه أن النصر سيكون مستحيلًا من دون ثورة، لكنه لم يكن الكاتب الوحيد الذي استنشق رائحة التغيير الراديكالي في الهواء. بعد

واقعة دانكيرك، أعلن إتش جي ويلز، عملاق الأدب الإدواردي<sup>(20)</sup> كبير السن أن «الثورة بدأت في إنجلترا الآن». في أثناء ما كانوا يحاولون إنجاح «سيرشلايت بوكس»، قصد أورويل وفيثل وواربورج بيت إتش جي ويلز في هانوفر تراس على حدود حديقة ريجنت. في سنّ الرابعة والسبعين، كان ويلز أسداً عجوزاً، لكنه في شبابه كان يجسّد قدرة ونجاح الإبداع الأدبي في التأثير على السياسة أفضل من أي شخص آخر، لذا بدا لهم الرجل المناسب لطلب المشورة. لكن مع الأسف، وجد ثلاثي «سيرشلايت» أمامهم «رجلاً مريضاً لا يكف عن الشكوى»، هكذا قال فيثل. «شعرت أنا وأورويل بخسارة بطل الصبا».

مكتبة  
t.me/soramnqraa

---

20- بعد العصر الفيكتوري، جاء عهد الملك إدوارد السابع، وارث الملكة فيكتوريا وابنها الوحيد. سُميت فترة حكمه التي امتدّت من 1901 إلى 1910 بالعصر الإدواردي. ولُقّب الأدب في تلك الفترة بـ «الأدب الإدواردي». (المترجم).

## الفصل الرابع

### عالم ويلز

#### أورويل وإتش جي

«في مطلع القرن العشرين، احتلت صورة المجتمع الثري المترف المنظم الفعّال إلى درجة يصعب تصديقها، العالم المتألّئ المعقّم المشيّد من الزجاج والفولاذ والأسمنت الأبيض بلون الثلج، جزءاً من وعي كل مثقّف تقريباً».

جورج أورويل، «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كان إتش جي ويلز يلوح في أفق صبا أورويل ككوكبٍ دُرّي مذهل، غاشم، يستحيل تجاهله.. ولم يستطع أورويل تجاوزه قطّ. «أشك في أن أيّ مؤلّف آخر كان يكتب بين عامي 1900 و1920، على الأقل باللغة الإنجليزية، استطاع أن يؤثّر في الشباب مثله»، هكذا كتب أورويل في مقال عام 1941 «ويلز وهتلر والدولة العالمية»، «عقولنا جميعاً -وبالتبعية عالمتنا المادي- كانت لتكون مختلفة على نحوٍ ملموس إن لم يكن ويلز موجوداً في دنيانا». في إيتون، تشارك أورويل نسخة مهترئة من مجموعة ويلز القصصية «بلد العميان وقصص أخرى» مع سيريل كونولي، الذي تذكّر استمتاع أورويل بالقصص ووصفه لها بأنها «تطرح أسئلة مخيفة وأخلاقية وقائمة». في أثناء عطلاته الصيفية مع عائلة بوديكوم في أوكسفوردشاير، كان أورويل قارئاً مخلصاً لرواية

«يوتوبيا حديثة». تذكرت جاسينثا بوديكوم قوله ذات يوم إنه «قد يكتب يومًا كتابًا مثل هذا». في الحقيقة، أوّل قصّة نشرها أورويل عندما كان في إيتون كانت «نظرة سريعة على المستقبل»، وهي حكاية ويلزية عن ثورة ضد دولة ثيوقراطية علمية. كاد أورويل يلتقي الرجل العظيم شخصيًا عن طريق عمّته نيلي عضوة «الجمعية الفابية» حسنة العلاقات، لكن هذا لم يحدث. قال بوديكوم أنه بدا «شديد الإحباط إلى درجة أنني تساءلت عمّا إذا كان سيبتسم مرّة أخرى».

في نظر شاب طموح شكوكيٍّ مثل أورويل، كانت كتب ويلز فتايل فكرية فجّرت أبواب طفولته الإدواردية المهدّبة المغلّفة بالامثال المملّ الخانع. في عقل ويلز، الذي تجاوز بدايات أكثر تواضعًا من التي حظي بها أورويل، لم يكن ثمة ما لا يستطيع الكاتب تحقيقه بقدر كافٍ من العمل الشاق وقوّة الإرادة. كان مُهوّسًا بالكتابة، ونشر في حياته أكثر من مئة عمل روائي وغير روائي وهجين غير مُصنّف من النوعين، كما لو أنه كان في مقدوره تغيير محور الأرض بمحض وزن كلماته. كتب ويلز قائلًا: «لا بدّ لي من الكدّ في العمل -بغض النظر عن كل ما يحمله الكدّ من مضار- لإنجاز عملي». ومع ذلك، لم ينتهِ عمله أبدًا. اشتهر ويلز بأنه «الرجل الذي اخترع الغد»، فقد تتبّأ برحلات الفضاء والدبّابات والقطارات الكهربائية وطاقة الرياح والماء وبطاقات الهوية والغاز السام ونفق المانش والقنابل الذرية، وهو الذي أشاع في الأدب أفكار السفر عبر الزمن وغزو المريخيين والاختفاء والهندسة الوراثية. كان أكثر الكُتّاب إبهارًا وإثارةً للحنق على حدٍ سواء في

عصره، وعشش حتى في عقول من لا يطيقونه. ليس من المبالغة القول إن ضرب الأدب الديستوبي أخذ هذا المسار التطوري لأن أشخاص كثر أرادوا إثبات خطأ إتش جي ويلز.

يبدو أن أورويل قرأ كل ما كتبه ويلز، لذا كانت الرغبة التي لا تقاوم في الإطاحة بـ «هذا الرجل الرائع» الذي هيمن على شبابه تحمل مسحة أوديبية، وهو ما جعله يتساءل عما إذا كانت هجماته تشكّل «نوعاً من العقوق المتطرّف». بدايةً من «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، حوّل أورويل ويلز إلى «رجل قش»: النبي الضال الذي أتت خططه الكبرى لتحسين البشرية (المدفوعة بالآلة العظيمة) غير موفّقة في أفضل الأحوال، وفي أسوأها كريهة. كتب أورويل بازدراء: «يجب أن يكون العالم الاشتراكي عالمًا منظمًا قبل كل شيء، عالمًا فعليًا، ولكن رؤية المستقبل على أنه عالمٌ ويلزي متألئ هي التي تنفّر العقول الحساسة». على أيّ حال، نضر عقل أورويل على الأقل، وهذه هي الرؤية التي سخر منها في كتاب جولدشتاين. في كتاب «داخل الحوت»، كان جرح أورويل شخصيًا أكثر، وقال ساخراً: «دائمًا ما يقع «التقدميون» المتفائلون من نوعية ويلز وبرنارد شو في حب إسقاطاتهم الأنوية، تلك التي يظنون بالخطأ أنها المستقبل».

ليس غريبًا أن ويلز التقى أورويل، لأن ويلز التقى الجميع: العديد من رؤساء الوزارة البريطانيين، وأربعة رؤساء أمريكيين، واثنين من رؤساء الوزراء السوفيت، وهنري فورد، وتشارلي شابلن، وأورسون ويلز، وكل كاتب أعجب به أورويل تقريبًا. كان تعطش ويلز للحياة لا ينضب. إذا حقق الثروة والإشادة، كان يشتهي المزيد. إذا

حظي بحب امرأة، كان يحتاج إلى واحدة أخرى (على الأقل). إذا عقد صداقة، كان يشدُّ أطرافها في أغلب الأحيان حتَّى تنقطع. بمجرد انضمامه إلى جماعة سياسية أو تحالف، يكون في أشدَّ الحاجة إلى الانسحاب. أينما كان موقعه في الحياة جغرافيًا أو فكريًا أو شعوريًا، كان يشترق إلى أن يكون في مكانٍ آخر، ومن هنا جاء تحمُّسه لليوتوبيات. كتب ويلز أن قيمة هذا القالب «تكمُن في الاكتراث بحرية الإنسان، في رغبة الروح البشرية الدائمة في الهروب من براثن الذات، وفي قدرتها على مقاومة سببية الماضي، وقدرتها على المراوغة والمبادرة والسعي والتغلب». كانت هذه قصَّة حياة ويلز.

\*\*\*

كان هيربرت جورج ويلز -الذي يُدَّلل باسم «بيرتي» - طفلاً مشاكساً كثير المطالب، ومن بعض النواحي، ظلَّ كذلك إلى وفاته عن عمر التاسعة والسبعين. لكن أنانيته الضخمة خفَّفتها وحي شديداً -وإن كان يأتي عادةً بأثر رجعي- بنقائصه وأخطائه. وُلِدَ في 21 سبتمبر 1866 في بروملي، إحدى ضواحي لندن سريعة النمو، لوالدين يعملان خادمين صاراً بعد ذلك مالكي متجر. كان يرى والده شخصاً فاشلاً ووالدته متعصبة دينية، وكان يعامل إخوانه الأكبر سنّاً «بضغينة حاقدة وعدوانٍ صارخ». وهو صبي، كان يتخيَّل معارك كبيرة في حقول كينت، معارك لعب فيه دور ديكتاتور حميد قادر على إعادة شعبه إلى الطريق الصحيح بحكمته وقوته اللتين لا مثيل لهما. في عام 1934، قال عن هتلر -في وصفٍ مُروَّع- إنه «مجرَّد أحد أحلام يقظتي وأنا في الثالثة

عشرة وقد تحقّق». بعد أن رفض المسارات رُسمت له -الإمّية الدينية وتجارة الأقمشة- حصل على منحة دراسية في «مدرسة العلوم القياسية» في ساوث كنزينجتون في عام 1884. كان هذا هو أول إنجاز له في مجال الهروب الذاتي.

عززت الدراسة تحت إشراف عالم الأحياء التطوّري توماس هنري هكسلي إيمان ويلز بقدرة العلم على علاج أمراض البشرية وإيمانه بهشاشتها على حدّ سواء. أثارت قراءة كتاب هنري جورج «التقدّم والفقر» فضوله تجاه الاشتراكية. بشكلٍ أو بآخر، هذان الاهتمامان سيوجّهان تفكيره لبقية حياته. من خلال سحره وذكائه وطاقته وتعصبه الشديد ضد الأرثوذكسية والهراء، أصبح ويلز نجمًا في «مجتمع المناظرة». استعرضت خطبته المعنونة بـ «ماضي وحاضر الجنس البشري المستقبلي» الأفكار التي سيتكرّر ظهورها في رواياته. بدأ يكتب قصصًا قصيرة عن المستقبل أيضًا. لكن نقاط قوته لم تتضمن القدرة على اجتياز الامتحانات، وغادر ساوث كنزينجتون بعد ثلاث سنوات وفي صدره شعورٌ ساحق بالرفض والذعر. «طبّقت عمليًا كل ما هو ضروري لضمان الفشل والفصل من الدراسة، ولكن عندما وقع الأمر أخيرًا، وجدت نفسي مدهوشًا وبلا خطة».

أصبح ويلز مدرّسًا. في عام 1981، غامر بدخول مجال الصحافة بمقال «إعادة اكتشاف الوحيد والأوحد»، واصفًا العلم بأنه «ثقاب أشعله الإنسان للتوّ»، لكنه بدلًا من أن يُضيء غرفة مليئة بالعجائب، لفت الانتباه إلى الظلام الواسع الواقع وراء وجهه الضعيف. أصاب عصر القلق الأوّل هذا بريطانيا وكذلك



أمريكا. خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، استهلكت فكرة التفسُّخ والانحدار مخيِّلة العديد من الكتاب. وقبل أن يصبح رسوياً للتقدُّم، استغل ويلز شريان مخيِّلته المروِّع بنجاح مذهل. في عام 1895، بدأت مجلة «ذا نيو ريفيو» نشر رواية ويلز الأولى «آلة الزمن» سلسلة، والتي استطاعت أن تصيب وترّا حسَّاساً على الفور. قالت مجلة «ذا ريفيو أوف ريفيوز» إن «إتش جي ويلز عبقرى». لأكثر من قرن، كان الكتاب ينقلون شخصياتهم إلى المستقبل عبر سُبَّاتٍ طويلة. تطلَّب الأمر من ويلز ابتكار آلة زمن وبالتالي مفهوم السفر عبر الزمن. وفقاً لكتاب «تاريخ السفر عبر الزمن» لجيمس جليك، فـ «عندما تخيَّل ويلز في غرفته شاحبة الإضاءة آلة الزمن، ابتكر أيضاً نمطَ تفكيرٍ جديد». كان تشاؤمه خلاقاً بدوره. وصف الناقد مارك هيليجاس «آلة الزمن بأنها «أول صورة متسِّقة الخيال وحسنة التنفيذ لمستقبل أسوأ من الحاضر». كلمة «ويلزي» صارت تعني الاعتقاد في يوتوبيا علمية مستقبلية منظَّمة، لكن روايات الخيال العلمي الأربعة التي كتبها - «آلة الزمن و «جزيرة الدكتور مورو» و «الرجل الخفي» و «حرب العوالم» - فضلاً عن القصص القصيرة مثل «قصة الأيام القادمة»، هي حكايات تحذيرية عن معوِّقات التقدُّم وسوء استخدام العلم وعقاب التفاعس القانع. في تلك الحقبة، لم يكن ويلز ويلزيّاً بعد.

بدأت مسيرته المهنية تجري على قدم وساق. «إنه لأمر طيب أن يجد المرء شيئاً لنفسه في العالم بعد كل سنوات المحاولة والإحباط»، هكذا أخبر أمه. سرعان ما كوَّن ويلز صداقات في

الوسط الأدبي (حمل كثيرٌ منهم أيضًا ذات الخوف المضطرب المميز للدخلاء)، وشَهد مطلع القرن الجديد في حفلة منزلية مذهلة في ساسكس استضافها الروائي الأمريكي ستيفن كرين، برفقة هنري جيمس وجوزيف كونراد وجورج جيسينج وإتش رايدر هاجارد وفورد مادوكس فورد. «لم نستغرق وقتًا طويلًا لندرك أنه عبثي، عبثي حقيقي أصيل... وأن لندن الكبرى كلها تسجد عند قدميه»، هكذا كتب فورد.

كثيرًا ما نُعت ويلز بالمعادل الإنجليزي لجول فيرن، لكن كلا الكاتبين رفض المقارنة. قال فيرن: «أنا أستخدم الفيزياء، أما هو فيُلقِّق». ضمن أشياء أخرى، كان فيرن الأكبر سنًا بكثير يمثل جيلًا أكثر تفاؤلًا. كان ويلز يكتب في عصر أدرك فيه الجميع أن التغيير الهائل يحدث بالفعل ولكن أحدًا لم يكن يعرف ما إذا كان سيؤدِّي إلى الجنة أم الجحيم. يمكن للعلم أن يخلق معجزات سماوية أو وحوشًا لا توصف. يمكن للرجال العظماء أن يكونوا أبطالًا خارقين أو مجانين مهوَّسين بالسلطة. يتحتم أن يؤدي المستقبل -عن طريق الانتروبيا- إلى الفراغ الأسود الجليدي، لكن ربَّما سيعرج على الجنة قبل ذلك. ملأ ويلز عقل القارئ بالعجائب: رُؤاد الفضاء، ورجال وحوش، ورجال لا يمكن رؤيتهم. آلات زمن وآلات طائرة وآلات موت. «عالم من النجوم الباردة والدينوصورات المتحاربة»، على حدِّ تعبير أورويل.

كان ويلز يهضم المواد الجديدة بسرعة فائقة. كان لينتهز إحدى النظريات أو الاختراعات الجديدة، ويدمجها مع أحدث صيحات الاتجاهات الخيالية -كالعوالم المفقودة والهويَّات المزدوجة والاجتياحات الأجنبية والعلماء المجانين- ويربطها

بالواقع باستخدام جهاز ما -آلة أو باب أو تجربة علمية- كي ينقل بطله من إنجلترا الفيكتورية إلى زمن آخر أو مكان آخر. «لقد أدركت أنه كلما زاد شطط واستحالة القصة التي سأحكيها، على الإطار الذي تدور فيه أن يكون أكثر بساطة»، هكذا كتب. حلم ويلز برواية «حرب العوالم» وهو يقود دراجته في أنحاء بلدة ووكننج، وتخيل آلات مريخية ثلاثية الأرجل تعيثُ فساداً في ريف مقاطعة ساري، وشعر بمتعة عظيمة وهو «يختار ساوث كنزينجتون أرضاً لأعمال وحشية معينة».

كانت كتابات ويلز المبكرة في الخيال العلمي مبهجة لأنها احتشدت بالأفكار بدلاً من الرسائل الموجهة. كان خياله واسعاً جداً وأجمع من أن يُقوِّل لخدمة أغراض تربوية. في مراجعة لكتاب آخر، قدّم ويلز بعض النصائح السليمة التي نسيها لاحقاً: «الفيلسوف الذي يتكرر في هيئة روائي ينتهك شروط الفن إلى درجة تُكسب أفكاره سمعة شائنة تسيء إلى نفسه وإلى رسالته». قد تحتوي رواية «حرب العوالم» على نقد ضمني للإمبريالية، لكن هذا ليس له تأثير سلبي على استمتاع القارئ بها، والشخصية الوحيدة التي لديها خطة واضحة للمستقبل هي رجل المدفعية، الفاشي البدائي المتبجح الذي يتطلع إلى بناء مجتمع جديد من «الرجال أقوياء البنية نظيفي العقول». إذا كانت آمال ويلز كبيرة، فهكذا كانت مخاوفه، ولهذا كانت أعماله المبكرة صراعاً للتوفيق بين منطقهِ وكوابيسهِ.

كان هذا التناحر حاداً بشكل خاص في رواية عام 1899 «عندما يستيقظ النائم»، التي وسمت المرة الأولى التي طغت فيها السياسة على العلم في رواياته. اعترف ويلز في وقت لاحق أنه على الرغم من أنها شائقة، فهي أقل جودة من نظيراتها.

وبينما كان مثقلًا بالعمل، أعاد ويلز كتابتها في عام 1910 تحت عنوان «صحوة النائب»، لكنه تعجّل الخاتمة ولم يصلح غير بعض من مشكلاتها الهيكلية، لكنها لا تزال واحدة من أكثر نقائص اليوتوبيات تأثيرًا. كتب أورويل: «كل من قرأ «صحوة النائب» يتذكّرها جيدًا. إنها رؤية لعالم متألّئ وشرير تجمّد فيه المجتمع وأصبح نظامًا طبقيًا يُستعبد فيه العمّال بشكل دائم». تلك الكلمة مجددًا: «متألّئ». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، تصف الكلمة كلاً من وزارة الحقيقة ووزارة الحب.

استلهم ويلز -غير آسف- إدوارد بلامي، إلى درجة جعل بطله النائب جرهام يقرُّ بأن رواية «النظر إلى الماضي» «تنبأت بشكل يثير الدهشة بهذه الأحداث الواقعية». لكن عند استيقاظ جرهام من سباته بعد 203 سنة، لم يجد جنّة اشتراكية، بل وجد أن لندن تطوّرت إلى مدينة عملاقة يقطنها ثلاثة وثلاثون مليون نسمة: «خليفة زجاجية عملاقة» ازداد فيها الأثرياء ذوو الامتيازات ترهلاً في «مدن المتعة»، بينما تزرع الجموع العريضة أسفلهم في البؤس. وفقاً لويلز: «هذه حال عالمنا المعاصر مع كثير من المفالات».

منابع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» -وبالأحرى كل الأدب الديستوبي- تتبع من هنا. دور التكنولوجيا في الحفاظ على سيطرة الدولة. ارتداء الجموع المستعبدة زيّاً أزرق موحدًا مثل حزب أورويل الخارجي، ومشيهم على الصراط خوفًا من «شرطة العمل». نشأة الأطفال في حضانات الدولة. تحريق الكتب وتفتيش المواد الإباحية واختزال اللغة الإنجليزية إلى درجة فادحة. حلول الفونوجرافات محلّ الطباعة، وكذلك «الكينوتوليفوتوجرافات»، هذه الأخيرة هي نسخة ويلز من شاشات الرصد. في كل شارع

تصدق آلات ثرثارة بالبروباجندا والإعلانات و «العامية المبتذلة»، ويقف المنوّمون إيحائيًا مستعدّين «لطبّع ذكريات دائمة على العقل... وفي المقابل يمكن محو الذكريات وإزالة العادات والقضاء على الرغبات... وهي أنواع من الجراحات النفسية كانت في واقع الأمر شائعة». مشكلة «كابوس انتصار الرأسمالية» الخاص بويلز أنه لم يكن كابوسًا بالكامل. كتب أورويل: «إنه يعاني من تناقضات هائلة. لأن ويلز -كبير كهنة التقدّم- لا يستطيع في حقيقة الأمر الكتابة بشكل مقنع ضد التقدّم».

في أثناء سُبات جرهام الطويل، تجعله فائدة المصرف المركّبة ثريًا بدرجة لا يمكن وصفها. يصير «سيد الأرض» شبه الإله، بينما يحكم العالم أُمناؤه -أعضاء المجلس الأبيض- بالنيابة عنه. إن صحوته لم تأت مصادفةً، بل هي مؤامرة لتسهيل انقلاب بقيادة من يُدعى أوستروج، وهو رجل نيتشوي قوي ووحشي يحارب الاشتراكية والديموقراطية باعتبارهما «أحلامًا بالية من القرن التاسع عشر». قبل أن يتمكن جرهام من إقناع نفسه بقتال أوستروج، عليه كبح جماح إعجابه بالحُكّام القساة الأكفاء وآلاتهم الرائعة، وعليه أن يُطوّر عاطفة أخوة تجاه «الحشود البشعة». يبدو ويلز خائب الأمل مثل جراهام لاكتشافه أن هذه الدولة المتقدّمة تقنيًا لا تتماشى مع الحرية، واصفًا ثورة بطله المتضاربة بأنها «نزوة من القصور العاطفي إزاء أمور لا مفر منها». يضع المؤلّف على لسان أوستروج مونولوجًا بارعًا: الشر:

ما أمل البشرية؟ أن الإنسان الأعلى قد يأتي يومًا ما؛ أن يومًا ما قد تُحكم السيطرة على الضعفاء والهمج ومن هم أدنى أو يُقضى عليهم... ليس العالم مكانًا للمعيبين

والأغبياء والواهنين. واجبهـم المـُجتمعي أن يموتوا، وهذا لعـمري واجـب نبـيل! إن مـوت الفـشل هو السـبيل الـذي ارتقـت به الـوحوش وصارت بشـراً، وهذا هو السـبيل الـذي سـيرتقي به البـشر ليصـيروا مـخلوقات أسـمى.

لكن أوستروج هو نسخة ضارة من النخبويين المتمكنين المناهضين للديموقراطية الذين سيقضي ويلز بقية حياته في إعلاء قيمتهم. يشير اسم الشخصية إلى موسى أوستروجورسكي، وهو عالم سياسي روسي كان ويلز معجباً بعمله.

\*\*\*

مع اقتراب القرن الجديد، رأى ويلز فجوة في السوق الأدبية لرجل يستطيع وصف شكل الأيام القادمة. «أنا رجل المستقبل لهذا العام»، هكذا أخبر وكيله في عام 1899. كان العالم يدخل عصر السيارات والأفلام السينمائية والطائرات، عصر الاشتراكية والنسوية وحرية الحب (وهي قضية منحها ويلز اهتماماً شخصياً كبيراً)، عصر الثورات في كل مناحي الحياة. «لقد تفكك النظام المحلي القديم أو يجري الآن تفكيكه في جميع أنحاء الأرض. في كل مكان تتحلل المجتمعات، في كل مكان يطفو البشر وسط حطام تقاليدهم التي أغرقتها المياه»، هكذا كتب في رواية «يوتوبيا حديثة» عام 1905. وكما عبّر عن مخاوف تسعينيات القرن التاسع عشر، كان يسعى الآن للتعبير عن آمال بدايات القرن العشرين الكبيرة، ولم يعد الأدب كافياً.

وصف ويلز كتابه «توقعات تأثير التقدم الميكانيكي والعلمي في حياة الإنسان والفكر البشري» بأنه «حجر الأساس في جدار

أعمالي». بخلاف رومانسياته العلمية، كان من المفترض أن يكون هذا العمل «تنبؤاً رصيناً» غير مسبوق مبنياً على اتجاهات معاصرة: فرع من المعرفة سمّاه «علم البيئة البشري». أخبر ويلز صديقاً له بأن التنبؤات التقنية كانت مجرد طُعم، أما كتاب «التوقعات» فـ «يهدف إلى زعزعة وتدمير الملكية، والزواج التقليدي، والإيمان بالله وبقِيمة الاحترام، والإمبراطورية الإنجليزية؛ كل ذلك تحت ستار من التكهّنات حول السيارات والتدفئة الكهربائية».

كان لدى ويلز اعتقادٌ راسخ بأن التقدم العلمي غير متوافق مع الهياكل الاجتماعية والسياسية الحالية. لذلك كان يرى أن أفضل أمل للبشرية هو إنشاء دولة عالمية واحدة تحكمها نخبة جديرة بالثقة. في كتاب «التوقعات»، سُمّيت هذه الزمرة الحاكمة بـ «الجمهورية الجديدة»، تيمناً بأفلاطون. في أعمالٍ لاحقة سمّاها «الساموراي»، ثم «المؤامرة العلنية». في حين ما بقي جوهر الفكرة الأساسية على حاله، واصل ويلز تغيير رأيه حول من يجب أن يكونوا أعضاء هذه النخبة، وكيف ينبغي لهم إعادة تنظيم المجتمع، وما إذا كان يمكن الوثوق بهم بعدم إساءة استغلال السلطة. كان جوزيف كونراد سريعاً في تحديد نقطة ضعف ويلز القائلة: «بوجه عام، مشكلتي معك هو أنك لا تراعي بقدرٍ وافٍ حماقة البشرية المتمثلة في المكر والغدر». لم يكن الأمر أن ويلز لا يدرك اللا عقلانية، أكثر من أنه يؤمن بقدرة الرجال العظماء في التغلب عليها وإخمادها في نهاية المطاف.

كانت رؤية ويلز مثيرة للإعجاب -وقد سبقت توقعاته بوجود ثلاثة تكتلات عالمية بحلول عام 2000 دُولَ أوروبا، العظمى

أوقيانيا وأوراسيا وإيستاسيا- لكن اقتناعه بأن أكبر عائق أمام التقدم هو الزيادة السكانية جعله يضل ضللاً كبيراً في الفصل الأخير، الذي يبدو سرده المريع كأنه كُتب بتعاون بين مالتوس وأوستروج ورجل المدفعية. كان حله مشكلة «الناس الأدنى» الذين سمّاهم «أهل الهاوية» -في حقيقة الأمر- هو الإبادة الجماعية: «حسنًا، العالم مجرد عالم، وليس مؤسّسة خيرية، ولذا أرى أنه يتعيّن عليهم مغادرته». فكرة أن «الجمهورية الجديدة» سيكون لها «إطار فكري يسوّغ القتل» جلبت عليه نقدًا حادًا من القراء الذين كان من ضمنهم جلبرت شيلسترتون وآرثر كونان دويل، وتكبّد عناءً كبيراً لإصلاح الأمور في تخیلاته المستقبلية اللاحقة. ومع ذلك، ظلّت البشرية فوضى تحتاج إلى ترتيب من وجهة نظره.

بخلاف خاتمته المزعجة، نجح كتاب «التوقّعات» نجاحًا كبيراً حين نُشر عام 1901. فجأة، بدأت بريطانيا ترى في إتش جي ويلز المفكر العميق الذي يراه في نفسه. عندما كتب الروائي والناقد أرنولد بينيت -أحد أقرب أصدقائه- ليقول إنه يجب أن يكون إما «أحد أبرز الرجال على قيد الحياة» وإما رجل شديد الثقة بالنفس، رد ويلز: «ليس هذا توهّمًا. أنا عظيم». حوّل الكتاب من روائي شعبي إلى مفكر مرموق، وصار جواز سفره إلى العظمة والخير. انضم إلى «الجمعية الفابية» وإلى «الأكفاء»، وهي جماعة غير رسمية من السياسيين والفلاسفة البارزين. وجدت بياتريس ويب -العضوة الرائدة في كلتا المجموعتين- أن هذا الوافد الجديد يبعث على السخط والسرور على حدّ سواء بتصميمه على التخلص من التفكير التقليدي كي يصبح «مستكشفًا لعالم جديد».



على الرغم من أن كتاب «التوقعات» رَسَّخ ويلز في المجتمع الأدبي وجعل منه نبياً، عَوَّقَه بصفته كاتب رومانسيات علمية. في خضم مهمته للترويج لعالم أفضل، فقد ويلز المذاق الحريف الذي جعل قصصه الأولى مقنعة جداً، وأصبح تربوياً وفاتراً بشكل متزايد. على مدار العقد التالي أو نحو ذلك، جرَّب العديد من المسارات الخيالية للكتابة عن اليوتوبيا في أعمال مثل «طعام الآلهة وكيف جاء إلى الأرض» و «أيام المذنب» و «الحرب الجوية» و «تحرير العالم»، الأخيرة تنبأت بالقنابل الذرية قبل اثنين وثلاثين عاماً من إلقائها. «السماء تذود عنا من يوتوبياته، لكننا نحب انفجاراته»، هكذا صرخ ناقد مجلة «ذا نيشن».

أكثر إنجاز كان ويلز يفخر به هو «يوتوبيا حديثة»، التي تحكي عن رجلين يتزهران في جبال الألب يتعثران في أرض موازية يحكمها الساموراي، وهي طبقة متزمتة من «النبلاء المتطوعين». في أحد مستوياته، كان الكتاب جدلاً مفتوحاً مع الجميع، من مور وبيكون إلى بلامي وموريس، ويسخر من «قوانينهم الخيالية التي تناسب بشراً مذهلين». حاول ويلز إعادة تقديم الحرية والفردية والخصوصية والمرح إلى ضرب معروف بكماله «الغريب واللا إنساني»، وتقديم فكرة التغيير الحيوي بدلاً من الرخاء الممل: هذه يوتوبيا «نشطة» لا يوتوبيا «ساكنة». كانت الرواية أيضاً تحسناً على كتاب «التوقعات» باستعراضها المساواة بين الجنسين وبين الأعراق والأشكال أخف من السيطرة على السكان. لم تكن أرض ويلز الموازية المتسمة بالكفاءة عالماً مثالياً، بل كانت عالماً أفضل فحسب. كانت «أشبه بمحرك جيد التزييت قابع بجوار

كومة خردة». اختتم ويلز قائلاً: «ستكون هناك يوتوبيات كثيرة. كل جيل سيكون لديه نسخة جديدة من اليوتوبيا أكمل وأوقع وأكثر قابلية للتحقيق».

وهو في سن المراهقة، جذبت رواية «يوتوبيا حديثة» أورويل، لكن المرء لا يستطيع تخمين ذلك أبداً من كتاباته اللاحقة عن ويلز. كتب أورويل في عام 1943: «كلنا نريد إلغاء الأشياء التي يريد ويلز إلغاؤها، لكن هل يُوجد أي شخص يرغب حقاً في العيش في يوتوبيا ويلزية؟ على النقيض من ذلك، أصبح عدم العيش في عالم كهذا، وعدم الاستيقاظ في ضاحية خضراء نظيفة مليئة بالمدرّسات الصارمات العاريات، دافعاً سياسياً واعياً». اعتقد أورويل أن هتلر دليلاً على ذلك. بدلاً من السلام والرخاء، وعد الفوهرر الشعب الألماني بـ «المعاناة والخطر والموت»، وقد شرب الشعب هذا الكلام.

ضاق صدر بعض معاصري ويلز من يوتوبياته أيضاً. اختلف جوزيف كونراد معه في ذلك الوقت قائلاً: «الفرق بيننا يا ويلز جوهرى. أنت لا تكثرث بالجنس البشرى لكنك تظن أنه سيتحسن. أنا أحب الجنس البشرى لكنني أعرف أنه لن يتغيّر!». نعت كليمنت أتلي ويلز بالمصلح العلمي النموذجي «المنكوب بخطيئة العجز عن تلمّس العذر لمختلف الحساسيات الفردية».

في هذه الأثناء، شعر إي إم فورستر برغبة في الرد عن طريق قصة قصيرة. في عام 1909، نشر فورستر الرواية القصيرة «الآلة تتوقّف» بين روايتي «غرفة مُطلّة على منظر جميل» و «منزل آل هاورد»، وكانت حسب اعترافه «ضربة مضادة لواحدة

من يوتوبيات إتش جي ويلز»، ويا لها من ضربة عبقرية ممتدة التأثير! كان القرن العشرون يملأ نفس فورستر بالخوف، وكتب في مذكراته: «لقد وُلدت في نهاية عصر السكينة ولا أتوقع الشعور بشيء غير القنوط. العلم يجعل البشر عبيداً للآلة بدلاً من أن يحرّرهم... بئس الأمل المُرتقب! لسوف تُجَرَّف البيوت الصغيرة التي آلفها، ومن الحقول ستفوح رائحة النفط، ويوماً ما ستحطم المناطيد البخارية النجوم». ولأنه مستجدٌ بالكامل في أدب الخيال العلمي، سرق فورستر معظم أفكاره المستقبلية من كتب مثل «يوتوبيا حديثة» و«عندما يستيقظ النائم» و«أول رجال على القمر»، قالباً خيال ويلز ضده. مواطنو دولة فورستر المستقبلية الجوفية يعيشون في شرنقة متقدمة تقنياً. كل ما يحتاجون إليه من إضاءة وهواء وطعام وماء وموسيقى ورفقة تُقدِّمه لهم الآلة المقدَّسة. يستطيع البشر الذين أضعفهم عدم النشاط وحولهم إلى كائنات رخوة إلقاء المحاضرات والتحدُّث إلى «عشرات الآلاف» من أصدقائهم حول العالم عبر الفيديو، في تكهّن صائب بيوتوب وسكايب وفيسبوك. لا تزال بعض المناطيد البخارية في الخدمة، ولكن قلة فقط من يهتمون باستخدامها لأن الآلة جعلت كل الأماكن متشابهة: «ما فائدة الذهاب إلى بكين وهي نسخة من شروزبري؟». كلما ازدادت قوَّة الآلة زاد اعتماد الناس عليها، وكلَّما زاد الاعتماد عليها ازدادت قوَّتها. التكنولوجيا في حد ذاتها هي المُستبَدَّة. «لقد جاء التقدم ليعني تقدُّم الآلة». في النهاية، تتعطَّل الآلة بصورة غامضة، لكن الناس صاروا مُستعبدين إلى درجة تحول دون احتجاجهم. يتحمَّل البشر مياه

الحمام الآسنة والفاكهة الصناعية المتعفنة حتى يأتي اليوم النهائي الذي تنهار فيه الحضارة. تتضمن أسطورة فورستر عن إدمان التكنولوجيا فكرة أوروبية واحدة لافتة للنظر. في مجتمع تصبح فيه «الحقائق المطلقة» بغيضة، يُعاد كتابة التاريخ إلى ما لا نهاية إلى أن يتحقق الكمال عن طريق الجيل «فاقد الهوية تمامًا» الذي «لن يرى الثورة الفرنسية كما حدث بالفعل، ولا كما يودُّ لو أنها حدثت، بل كما كانت ستحدث لو وقعت في عهد الآلة».

مثل هذا الرد المفصّل لهو دليل على تأثير ويلز الثقافي. ملأت رواية «يوتوبيا حديثة» ويلز بثقة كافية لمحاولة إحداث انقلاب من شأنه أن يحوّل «الجمعية الفابية» التي تعتق مبدأ التدرّجية إلى أخوية ساموراي ثورية: هذا الانقلاب كان «حملة مضطربة ومضجرة، غير مدروسة وغير فعالة» سيُعتبرها لاحقًا الحلقة الأكثر إحراجًا في مسيرته المهنية. كان العمل مع أشخاص آخرين مهارة لن يتعلمها ويلز أبدًا. علّق ويب قائلًا: «إنه لا يمتلك الصبر ولا الأخلاق الحميدة اللازمة للجهود التعاونية، وفي الوقت الحالي من المحتمل أن يكون غروره مُعوقًا». مثل بلامي وأورويل، لم يقبل ويلز النسخة السائدة من الاشتراكية (كان يُعدُّ الماركسية «وباءً عقليًا مُضعفًا»)، لذلك كان عليه أن يضع «خطّته الخاصة لإعادة بناء الحياة البشرية، من أجل استبدال النظام بالاضطراب، من أجل إقامة دولة تعيش فيها البشرية بشجاعة وبهاء أبعد من تصوّرنا الحالي».

حصّنت غطرسة ويلز ونفاذ صبره أورويل ضد فيروسي الفاشية والشيوعية، اللذان أصابا كثيرًا من معاصريه في الفترة

بين الحربيين. فلا يمكن لأيديولوجية شخص آخر أن تنافس الخطط الرائعة في رأسه.

\*\*\*

من الشائع التساؤل كيف كانت ستكون سُمعة أورويل حالياً لو أنه عاش بعد سنِّ السَّادسة والأربعين، لكن التساؤل عمّا كان سيحدث لو لم يعيش ويلز لما بعد هذه السنِّ مثيرٌ بالمثل. كتب أورويل: «كثيرٌ من الكُتّاب -ربما معظمهم- يُستحسن أن يتوقَّضوا عن الكتابة عند وصولهم إلى منتصف العمر. للأسف لن يسمح مجتمعنا له بالتوقف». كان يظنُّ أن حتّى أفضل الكُتّاب يتمتَّعون فقط بخمسة عشر عاماً من العبقرية، وكان يستعرض مسيرة ويلز المهنية كمثال. بين روايتي «آلة الزمن» في عام 1895 و«صحوة النائم» في 1910، كتب ويلز كل رواياته الباقية: الرومانسيات العلمية، واليوتوبيات الأكثر إقناعاً، والروايات الهزلية عن إحباطات الطبقة الوسطى مثل «تاريخ السيّد بولي»، والكتاب الذي اعتبره دُرّة تاج أعماله: «تونو بانجي».<sup>(21)</sup> لو كان قد عاش عمراً كعمر أورويل بالضبط، لمات في 19 أبريل عام 1913، ولظُلَّت سمعته ناصعة لا تشوبها شائبة، لكنه عاش ثلاثة وثلاثين عاماً آخر لتزلّ قدمه.

تنبأ ويلز بحربيين عالميتين في روايتي «الحرب الجويّة» و«تحرير العالم»، واحدة منهما بدأتها ألمانيا. في الواقع عندما انضم فورד مادوكس فورد إلى الجيش ووصل إلى الجبهة الغربية، كان رأسه يعجُّ بتحذيرات ويلز المسبقة إلى درجة أنه لم يتفاجأ.

---

21- \* كانت رواية «كيبس» هي النموذج الذي قصده أورويل عندما وصف روايته «من أجل استنشاق الهواء» بأنها «أشبه بويلز بعد تخفيفه. أكنُّ لويلز إعجاباً كبيراً بصفته كاتباً. وقد كان مصدر إلهام مبكراً جداً لي». لاحظ تعبير «بصفته كاتباً»، وليس بصفته مفكراً. (المؤلف).

لكن في قرارة نفسه، لم يكن ويلز يظن أن الحكومات معنوهة بما يكفي للسماح بحدوث ذلك بالفعل. وما أن وقعت الحرب، لم يستطع أن يقبل أن مثل هذه الكارثة لن تصدم البشرية وتعيدها إلى رشدها. في مساء 4 أغسطس 1914، اليوم الذي أعلنت فيها بريطانيا الحرب على ألمانيا، جلس ليكتب مقالة تصدرها ذلك العنوان الذي لا يُنسى للأسف: «الحرب التي ستنتهي كل الحروب». كانت الحرب تُفكك ويلز جسديًا (بدأ شعره يتساقط) وعقليًا. صار وطنيًا متطرّفًا شرّسًا إلى درجة أن بعضًا من أصدقائه دعاة السلام لم يسامحوه قط. ثم أثار غضب معجبيه العلمانيين من خلال المرور بتحوّل ديني غريب قصير الأجل. كان يحب زعم أنه من ابتكر الدبابة في قصّة عام 1903 «المدرّعات الأرضية» (إلى أن قاضاه الرجل الذي فعل ذلك)، وشعر بأنه مضطهد لأن الجيش رفض الاستفادة الكاملة من عبقريته. في عام 1918، استقطب مالك صحيفة «ديلي ميل» ومدير الدعاية الجديد اللورد نورثكليف ويلز للمشاركة في المجهود الحربي، واستأجره لكتابة صحفٍ مزيفةٍ يمطرون بها الجنود الألمان لتقويض معنوياتهم. استمر في هذا العمل بضعة أسابيع.

كان ويلز يستطيع التنبؤ بالآلات، ولكن ليس بالطريقة التي ستفاعل بها مع الطبيعة البشرية. على سبيل المثال، كان يعتقد أن الحرب الجويّة -بمحوها الفرق بين العسكري والمدني- ستكون مروّعة إلى درجة لا يجرؤ معها أحد على المشاركة فيها. أما في الواقع، أثبتت الدول بشكل ملحوظ راحتها الكبيرة في إبادة الأبرياء من ارتفاعاتٍ عالية. ثم اعتقد بعدها أن مثل هذه الحرب الكارثية

ستؤدي قطعاً إلى «موجة من التعتُّل» من شأنها أن تُسقط النزعة العسكرية والإمبريالية والأرستقراطية، وتقود إلى اتِّحاد عالمي للدول الاشتراكية. ولذلك ألقى بنفسه في الحركة الداعية لتشكيل عصبة الأمم بعد الحرب، لكن سرعان ما نفد صبره بشكل متوقَّع نتيجةً لقصور الرؤية. مرَّةً أخرى، شعر بأنه عملاق محاطٌ بالأقزام، وبدأ يشعر بأن سلطته وسمعته يتراجعان. في مقالٍ مدَّمرٍ بعنوان «المرحوم السيّد ويلز»، اختتم الناقد إتش إل مينكن كلامه قائلاً: «إنه يعاني من عقدة المخلَّص، وبمجرَّد أن يبدأ المرء في المعاناة من عقد المخلَّص، تنتهي أيَّامه كفنانٍ جاد».

غيَّرت الحرب كل شيء. تذكَّر أورويل لاحقاً أنه في عام 1918 «كان بين الشباب طائفة تكره كبار السن واعتبرت هيمنة كبار السن مسؤولة عن كل شر عرفته البشرية». في سنِّ الثانية والخمسين، كان ويلز يصنِّف «كبير السن»، وأخبر أرنولد بينيت: «انتهت ازدهارتي. لقد حظيت بها ومرَّت. أنا من الماضي الآن». لكن ويلز كان يؤمن دائماً أنه يستطيع البدء من جديد، واختار انتزاع نفسه من برائث ذعر ما بعد الحرب بكتابة عمل ليس أقل من تاريخ الجنس البشري الكامل. استطاع كتابه الملحمي «موجز تاريخ العالم» الذي نُشر عام 1920 تعويض ما افتقر إليه من دقَّة تاريخية بالحيوية، واستطاع المرور بالمقارئ -كما قال ونستون تشرشل- «من السُّدُم إلى الشيوعية الدولية». في نظر ويلز، كان للتاريخ إيقاعٌ ودورة. تنهض الأمم بالطاقة الإبداعية لطبقة تشبه الساموراي، ويصيبها الركود في ظلِّ قيادة البيروقراطية القمعية، ثم تتحدَّر في النهاية إلى الهمجية. كان يعتقد أن العالم الآن في المرحلة الثانية، ويتطلَّب جيلاً جديداً من الساموراي للبدء مرة أخرى.

باع كتاب «موجز تاريخ العالم» مليوني نسخة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وحدهما. مع انتفاخ كلٍّ من حسابه المصرفي وغروره مرّة أخرى، كان ويلز على استعداد لمواجهة العالم من جديد. قبل دعوة الروائي الروسي مكسيم جوركي -الذي التقاه في نيويورك عام 1906- لزيارة روسيا ما بعد الثورة، وهي رحلة تضمّنت حوارًا مع لينين نفسه. لدهشته، وجد ويلز لينين «رجلاً صغيراً مذهلاً» براجماتيته «منعشة تمامًا» بالنسبة إلى ماركسي. للأسف لم يكن الإعجاب مُتبادلاً. وفقاً لتروتسكي، قال الزعيم الروسي عنه: «يا له من برچوازي ضيق الأفق! ما هذا القرف! يا له من جاهل!»

لم يفلح نجاح «موجز تاريخ العالم» في تخليص ويلز من الشعور الممض بأنه يهدر وقته وموهبته، ولم تفلح عودته الحذرة إلى مستنقع السياسة عن طريق الانضمام إلى حزب العمل والترشح مرّتين (دون جدوى) في البرلمان في التخفيف من استيائه. كانت حياته العاطفية في حالة يرثى لها، حيث أن عدم قدرته على الاختيار بين زوجته جين التي تعاني من المرض منذ فترة طويلة وعشيقته القديمة ريبكا ويست، دفعت وست إلى إنهاء علاقتهما في عام 1923. في رحلة إلى جنيف، وقع ويلز في حب كاتبة تُدعى أوديت كيون وبدأ يقضي الوقت معها في الريفييرا الفرنسية، حتّى بينما كانت جين تموت بالسرطان لاحقاً. لقد هزم الملل -عدوّه اللدود- مرّة أخرى. ومع ذلك، صار الملل مشكلة متزايدة لقراءه، لأن ويلز صبّ جلّ تركيزه على نسخته الأخيرة من النخبة الحاكمة التي سمّاها هذه المرّة «المؤامرة العلنية». في رواية «رجال



كالآلهة»، يستعيد صحفي قلق مثقل بالعمل حيويته بالسقوط إلى أرض مثالية في كونٍ موازٍ ذبل فيها مفهوم الدولة. ثم يعود إلى العشرينيات عازماً على «ألا يكف أو يرتاح مرّة أخرى حتّى تصبح الأرض القديمة مدينة واحدة، وتقام فيها المدينة الفاضلة». في رواية «الحلم»، يحلم عالم في عام 4000 بحياة الإنسان العادي في ظل «العالم الذي يسكنه الخوف» في أوائل القرن العشرين. ظل ويلز متفانياً في شرح أحلامه -وهو مسعى محفوف بالمخاطر دائماً- لكن القراء فضّلوا كوابيسه.

عبّر أورويل عن عدم حبه لروايته «الحلم» و«رجال كالألهة» في كتاب «الطريق إلى رصيف ويجان البحري». شعر أن يوتوبيات ويلز المريحة مأمونة العواقب، من خلال إزالتها لكل الألم والخطر، من شأنها أن تُضعف العديد من الصفات الإنسانية التي يقدّرها ويلز. كان ويلز يعتقد أن مسألة استخدام الآلات للتحرير أو الاستعباد، للرفع أو للتدمير، هي مسألة قيادة. مثل فورستر، شعر أورويل أن ويلز لم يستطع قبول فكرة أن الآلة نفسها قد تكون المشكلة: «إنها مركبة متألّئة ضخمة تسير بنا إلى حيث لا نعلم، لكن ربّما نحو عالم ويلز المريح وأحلام الدماغ في الوعاء».<sup>(22)</sup> في الفصل ذاته، أثنى أورويل على «عالم جديد شجاع» لألدوس

---

22- دماغ في وعاء: مصطلح فلسفي متداول في عدّة تجارب فكرية، ويُقصد به تسليط الضوء على مفاهيم الإنسان عن المعرفة والواقع والحقيقة والعقل. المصطلح مستمد من قصص الخيال العلمي التي يفصل فيها عالم مجنون دماغ شخص ما عن جسده ويحتفظ به في وعاء يحوي سائل حافظ للحياة، ثم يوصل الدماغ بحاسوب متطوّر عن طريق أسلاك، بحيث يصنع الحاسوب للدماغ محاكاة تبدو حقيقية. عندها سيواصل الشخص الذي أزيل دماغه الشعور بتجارب حياتية لا علاقة لها بما يجري في العالم الحقيقي. (المترجم).

هكسلي ووصفها بأنها «هجومٌ لا يُنسى على أفكار المثالية والكمال المبالغ فيها. السماح للمبالغات الكاريكاتورية ربما يعبر عما يشعر به غالبية المفكرين تجاه حضارة الآلة». كان لويلز علاقة معقدة مع عائلة هكسلي. غير توماس حياته، وساعده جوليان حفيد توماس في تأليف كتاب الأحياء الدراسي «علم الحياة» عام 1929، والآن ها هو ألدوس شقيق جوليان يسخر من يوتوبياته. بعد عقود، قال هكسلي لمجلة «باريس ريفيو» أن «عالم جديد شجاع» بدأت كمحاكاة ساخرة لرواية ويلز «رجال كالألهة»، لكنها «خرجت تدريجياً عن السيطرة وتحولت إلى شيء مختلف تماماً عما قصدته في الأصل».

\*\*\*

إن روايتي «عالم جديد شجاع» و «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» توأمتان أدبيتان إلى درجة مريكة. معظم القراء يكتشفونهما في نفس العمر تقريباً، ويتعاون الاثنان بثمان واحدة في صفة ديستوبية كلاسية جيّدة، وبالتالي يرون أنهما نبوءتان متنافستان، كما لو أن كلا المؤلفين مُنح -في الوقت نفسه- الموجز ذاته كي يتنبأ بالمستقبل، وعلينا الآن أن نقرر أيهما النسخة الأدق: المتعة أم العقاب؟ الجنس أم الموت؟ نشوة عقار السوما أم الحذاء الذي يطأ وجه الإنسان؟ من منهما أصاب؟

حاول هكسلي في وقت لاحق تعديل «عالم جديد شجاع» لتكون نبوءة جادة، مع التأكد من إبلاغ أورويل بالتالي: «أشعر أن كابوس «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مقدّر له التحول إلى كابوس حقيقي أكثر من ذلك الذي تخيلته في «عالم جديد شجاع»».

لكنه كتبها في صورة هجاءٍ سوفيتي<sup>(23)</sup>. في أثناء العمل عليها في فرنسا خلال صيف عام 1931، صرَّح في إحدى رسائله: «أنا أكتب رواية عن المستقبل، عن رعب اليوتوبيا الويلزية والثورة ضدها. إنه أمر بالغ الصعوبة. لا أملك خيالاً كافياً للتعامل مع هذا الموضوع». لذلك استخدم خيال شخص آخر. إن «عالم جديد شجاع» مليئة بالأفكار الويلزية التي سُخِّفت أو جُعِلت شريرة. لقد سخر هكسلي قبل ذلك من مشاريع ويلز الوهمية في روايتي «أصفر بلون الكروم» و «مقارعة الحجَّة بالحجَّة»، ووصفه سرّاً بأنه «رجلٌ سوقِيٌّ مبتذل ضئيل الحجم»، وكتب مجموعة مقالات تعبّر عن القلق من التقدُّم التكنولوجي. «لم يعد البشر يُسلُون أنفسهم بطريقة خلاقَة، بل يقعدون بلا حراك ويحصلون على تسليتهم بشكلٍ سلبي من الأجهزة الميكانيكية»، هكذا اشتكى على طريقة دودة اسبينوزا.<sup>(24)</sup> تفتّح «عالم جديد شجاع» باقتباس من الفيلسوف الروسي نيكولاس بيرديايف يقول: «تبدو اليوتوبيات أكثر قابليةً للتحقيق ممَّا افترضنا سابقاً. والآن نجد أنفسنا نواجه

23- نسبة إلى جوناثان سويفت. (المترجم).

24- في رسالة شهيرة يعود تاريخها إلى عام 1665، يشرح اسبينوزا العلاقة بين الجزء والكل مستخدماً تشبيهاً بيولوجياً. يطلب اسبينوزا من القارئ تخيّل دودة صغيرة تعيش في مجرى دم كائنٍ آخر: هذه الدودة صغيرة جداً إلى درجة أنها قادرة على تمييز جزئيات الدَّم الفردية وحركتها وطريقة تفاعل بعضها مع بعض. يوضّح اسبينوزا أن مثل هذه الدودة سيكون لها نظرة عالمية مختلفة تماماً عن رؤيتها: فهي غير قادرة على رؤية مجرى الدم على أنه (نظام موحد) في حدِّ ذاته، فضلاً عن عجزها عن إدراك الجسم نفسه الذي يحتوي على الدَّم واعتباره نظاماً كاملاً في حدِّ ذاته. وهكذا يحدّد منظور الراصد (الدودة في المثال) ما يُرى على أنه جزء وما يُرى على أنه كل. ثم يقدِّم عدداً من الاستنتاجات المثيرة للاهتمام من المثال. والتي لا مجال للخوض فيها هنا. (المترجم).

سؤالاً مؤلماً بطريقة جديدة تماماً: كيف يمكننا تجنب تحققها في نهاية المطاف؟»

كان هكسلي يكتب في عالم مختلف عن عالم أورويل. على الرغم من أن موسوليني وستالين كانا في الحكم بالفعل، كانت الحقبة الشمولية في مهدها. ولم يكن هكسلي يفكر في أوروبا حقاً. في عام 1926، أبحر من آسيا إلى كاليفورنيا وقضى بضعة أسابيع يُذكي نيران فرغته من خلال استكشاف المجتمع الأمريكي في ذروة عصر الجاز. على متن السفينة، وجد نسخة من سيرة هنري فورد الذاتية «حياتي وأعمالي»، التي أصبحت أساس الديانة الميكانيكية في «عالم جديد شجاع»: الفوردية. كان يخطط للعودة إلى أمريكا ذات يوم، «فقط لمعرفة الأسوأ، كما ينبغي للمرء أن يفعل من وقت إلى آخر».

دولة هكسلي العالمية (وهي عبارة تحمل نقداً صارخاً لويلز) ليست محكومة بالحديد والنار، وإنما بالمخدرات، والتنويم الإيحائي، والتسلية، وبنظام طبقيٍّ معدّل وراثياً، يبدأ من النخبة ألفا الأعلى وينتهي بطبقة الإيسيلون العمالية الأدنى. استتدت الرواية باستعراضها ناطحات السحاب والسحابات<sup>(25)</sup> والعلكة

---

25- ربّما تكون رمزية السحاب أو الزمام المنزلق (السُّوستة)، هذا الابتكار اليسير الذي نستخدمه في عصرنا من دون تفكير، قد ضعفت مع مرور الزمن. لكن في وقت كتابة «عالم جديد شجاع»، كان السحاب لا يزال شيئاً جديداً، خصوصاً في ملابس النساء، التي لم يصل إليها سوى في الثلاثينيات. في الرواية، كل النساء يرتدين ملابس بسحابات، ما يرمز إلى سهولة الوصول إلى أجسادهن، ومن ثمّ المتعة الجنسية. لذا يُشكّل السحاب في «عالم جديد شجاع» نوعاً من الفيتيشية الجنسية. (المترجم).

والهواتف الجنسية و «الأفلام الملموسة» (وهي نسخة محسوسة من السينما الناطقة) بشكل كبير على رحلاته في أمريكا، حيث وصف لوس أنجلوس بأنها «مدينة المتع المخيفة». سيقضي هكسلي آخر ستّ وعشرين سنة من حياته في كاليفورنيا، لكن انطباعه الأوّل عنها كان سيئاً: «إنها مليئة بالحركة والضوضاء، مثل بقبة الماء في حوض الاستحمام وهو يمرُّ عبر البالوعة إلى المجاري». لم يقتصر هجاء هكسلي على أمريكا. لقد سخر أيضاً من فرويد وچون مينارد كينز، وعن طريق تخیل ما سمّاه «محمية الهمج»، سخر من فكرة الهمجي النبيل والشاعرية البدائية التي يتبنّاها صديقه الراحل دي إتش لورانس. وعن طريق تسمية شخصياته بأسماء رؤاد الصناعة والماركسيين والملحدين والعلماء والأطباء النفسيين والسياسيين، ألمح هكسلي ضمناً إلى أن جميع الرجال العظماء -وجميع الحركات العظيمة- يتجهون صوب الاتجاه العصيب نفسه.

ثم صار الكتاب أكثر تعقيداً لأن هكسلي كان ينجذب إلى بعض الأفكار التي يسخر منها. مثل أخيه جوليان، كان مفتوناً بعلم تحسين النسل، وقادته الأزمة الاقتصادية التي دمّرت بريطانيا بينما كان يكتب الرواية إلى التفكير في أن شيئاً من فقدان الحرية قد يكون ثمناً يستحق دفعه للحفاظ على النظام من الفوضى. وكما تساءل المراقب العالمي المقيم لأوروبا الغربية، مصطفى موند، بطريقة مغرية: «ما فائدة الحقيقة أو الجمال أو المعرفة والقنابل تتساقط من حولك في كل مكان؟»

كان أورويل معجباً بـ «عالم جديد شجاع»، إلى حدّ معيّن. كان يحمل ذكريات جميلة لفترة تعلّمه من هكسلي في إيتون في

عام 1918. زعم أحد زملاء أورويل في المدرسة أن هكسلي جعل منه «ذؤاقة للكلمات ولاستخدامها الدقيق المعبر». ولكن بصفته شخصاً يخشى الألم ويرتاب في الملذات، لم يقتنع أورويل بطغيان الإشباع في «عالم جديد شجاع». كتب شاكيًا في عام 1946: «لا يوجد جوعٌ للسلطة، ولا سادية، ولا مشقة من أي نوع. لا يحمل من في القمة دافعًا قويًا للبقاء في القمة، وعلى الرغم من أن الجميع سعداء سعادةً جوفاء، صارت الحياة عديمة الجدوى بحيث يصعب تصديق أن مثل هذا المجتمع يمكن أن يدوم». أما ديستوبيا أورويل فلا تُقدّم الحرية ولا السعادة. إنها لا تتلأأ. لذلك وجد كلا الكاتبين أن تصوّر الآخر للمستقبل القاتم بعيد الاحتمال. إن أوجه التشابه بين الكتائين ضئيلة، والاختلافات عميقة، لكنهما يتداخلان في منطقة واحدة: حالة العوام.

وصف أورويل للعوام هو العنصر الأقل إقناعًا في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». من الصعب تصديق أن نظامًا مهووسًا بالسيطرة المطلقة سيسمح لـ 85 بالمئة من السكّان بالعيش بعيدًا عن متناول شرطة الفكر وشاشات الرصد، ولا أن يكون العوام مُحَصَّنِينَ ضد التفكير المزدوج. كما أظهرت روسيا وألمانيا، لا يمكن أن يكون لديك شمولية بلا جماهير. ما يفعله أورويل هو هجاء نظامين سياسيين متعارضين. في حين أن عمل الحزب يمثل الشمولية، فإن عالم العوام صورة كاريكاتورية للرأسمالية التي تسير بالأحرى مثل المجتمع الموصوف في «عالم جديد شجاع»، وإن كانت أكثر رثاءة. في كتاب «الطريق إلى رصيف ووجان البحري»، رفض أورويل نظرية «الخبز والسيرك» التي

تقول إن الحكومة البريطانية تعمّدت تخدير الجماهير بالطعام الرخيص ووسائل الإعلام والسلع الاستهلاكية. لقد حدث ذلك، بسبب «التفاعل الطبيعي بين حاجة المصنّع إلى السوق وحاجة أنصاف الفقراء إلى المسكنات الرخيصة». بيد أن ذلك كان أسلوباً متعمداً وفعّالاً تماماً في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». يُغَيَّب وعي العوام ويُفَرِّق بالركون إلى الخمول عن طريق حمية ثابتة من الأفلام والأدب الشعبي والمواد الإباحية وقراءة الطالع وكرة القدم والبيرة والقمار والأغاني العاطفية. هذا هو مخدّر السوما الخاص بهم.

نجاح هذه الاستراتيجية يجعل العوام مغيبين ولكن ليس جديرين بالازدراء. لم يكن أورويل يعاني من الفوقية النخبوية الحادة مثل هكسلي. توصّل ونستون إلى إيمان بأن العوام في الحقيقة أرقى من أعضاء الحزب، ليس لأنهم -كما تصوّر في البداية- جيشٌ ثوري محتمل، بل لأنهم -ببساطة- «ظلّوا بشراً ولم تتججّر قلوبهم». ليسوا موتى. عندما رأى ونستون امرأة تعلق ملابسها المفسولة على الحبل، ربّما كانت تغني أغنية جاهزة مبتذلة تقيّأها آلة تأليف الأغاني الوطنية، لكنها بعذب غنائها جعلتها تفيض بالإنسانية والنقاء. «الطيور تغني، والعوام يُغنون، أما الحزب فلا يُغني». وعمّ تحكي هذه الأغنية التي يُفترض ألا يكون لها معنى؟ عن الحب والأحلام والذكريات التي لا تتمحي. بهذا الفعل البشري اليسير، تؤكد المرأة من دون قصد اعتقاد ونستون: «إن كان ثمة أمل، فهو يكمن في العوام».

\*\*\*

كانت «عالم جديد شجاع» أولى نقائص اليوتوبيا التي تحقّق أعلى المبيعات، وبات عنوانها المُستوحى من شكسبير مشهوراً بما يكفي ليُقتبس ويُحال إليه على نطاق واسع. وصف عضو حزب العمل هيو دالتون مازحاً إحدى خطب كليمنت أتلي المخيَّبة للآمال عام 1939 بأنها «عالم جديد غامض». في العام التالي، وصف مالكوم موجريدج الصدام بين النازية والشيوعية بأنه «عالم جديد شجاع يواجه عالم قديم شجاع، ويلوِّح كلاهما بالأسلحة نفسها بشكلٍ مهذّب». في «دع الطريقة تطير»، يتخيَّل كومستوك مجتمعاً اشتراكياً على أنه «أشبه بعالم ألدوس هكسلي الجديد الشجاع: لكنه ليس مسلياً مثله». خلق نجاح الرواية رواجاً جديداً لأدبيات الهجاء المستقبلي. حتّى سيريل كونولي ألقى بدلوه بقصّته القصيرة اللعوب «العام التّاسع»، التي تدور أحداثها في دولة شمولية يطلُّ فيها وجه «زعيمنا» من اللافئات الضوئية، ويتجول فيها الرُّقباء العسكريون في الشوارع للقضاء على «المنحط» (مثل روايات «ديد ويلز») التي خلفها النظام القديم. وماذا كان رأي ويلز في «عالم جديد شجاع»؟ تناول هكسلي العشاء معه في الريفييرا بعد صدور الكتاب مباشرة وكتب عن الرجل المُسنّ قائلاً: «أخشى أنه لم يسعد بها جداً». بالتأكيد. وصف ويلز الرواية لاحقاً بأنها «خيبة أمل كبيرة من وجهة نظري. لا يملك كاتب بمكانة ألدوس هكسلي أدنى حق في خيانة المستقبل مثلما فعل في ذلك الكتاب».

ردّ ويلز الضربة أدبيّاً، واصفاً «عالم جديد شجاع» بأنها «إنجيل المرموقين العاجزين جنسياً» في رواية «النظام العالمي



الجديد»، وواصفًا هكسلي بأنه «واحد من ألمع الكُتَّاب الرجعيين» في «شكل الأيام القادمة»، آخر رواية كتبها قبل سيرته الذاتية المسلية تمامًا. صاغ ويلز أحدث تأريخ وضعه للمستقبل في صورة كتاب مدرسي من عام 2106 يقرؤه -في حلم- دبلوماسي من عام 1933. الكتاب اسمه «عصر الإحباط»، ويوضح أن العالم انزلق إلى حرب عالمية أخرى واجتاحه انهيار اقتصادي وطاعون خبيث، ما رُكِّع الحضارة على ركبتيها. أنقذت نخبة من الطيارين العالم من الفوضى، هؤلاء أسَّسوا «طفينًا تطهيريًا». يبدو الرفيق أوغلفي -بطل الحرب الذي اخترعه ونستون سميث في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»- أشبه بأحد طيَّاري ويلز: عازب ومتعفف ومُولع بالرياضة وتعس تمامًا. بعد مُضيِّ قرنٍ على هذا الشر الضروري، تُسقط ديكتاتورية الهواء من دون استخدام العنف، ويحلُّ محلُّها يوتوبيا سلمية من مثقفي الطبقة المتوسطة، كل واحد منهم ألفا في حدِّ ذاته.

في أثناء العشرينيات، فكَّر ويلز في المصرفيين ورجال الصناعة ليكونوا أعضاءً مرشَّحين في «مؤامرتة العلنية»، لكن انهيار سوق المال في عام 1929 وما تلاه من كساد جعلهم غير جديرين في نظره. كان الآن يُعدُّ نفسه «يساريًا ثوريًا فائقًا»، وفي عام 1934 انطلق لزيارة اثنين من المخططين المحتملين لدولة عالمية اشتراكية. في العاصمة واشنطن، وجد أن الرئيس فرانكلين ديلاانو روزفيلت «جهاز الإرسال الأكثر فاعلية للنظام العالمي الجديد». وفي موسكو، حاول لمدة ثلاث ساعات إقناع ستالين بأن الماركسية هراء، وأن ما يشيِّده هو نسخة من الرأسمالية

الدولية الإصلاحية. انتقد ويلز -بإنصاف- بسبب اقتناعه بأنه «لم يلتق رجلاً أكثر صراحة وعدلاً وصدقاً قط»، لكنه لم ينخدع تمامًا مثل بياتريس وسيدني ويب أو جورج برنارد شو.<sup>(26)</sup> لقد كتب أن روسيا السوفيتية لم تكن الدولة العالمية التي كان يأملها، وقد سئم من قول الناس هناك له: «تعال لرؤيتنا مرة أخرى بعد عشر سنوات». لقد قالوا نفس الكلام في عام 1920. وفي نهاية المطاف أعلن: «روسيا خذلتني». تعكس الصياغة شعور ويلز بأن البشرية خيبت آماله بشكل شخصي، على الرغم من بذله كل طاقته لإنارة طريق المستقبل. قارنه أحد الأصدقاء وهو في هذه الحالة الغاضبة بـ«مفتش كوني عام ساخط».

في أثناء رحلاته، كان ويلز يكتب سيناريو رواية «شكل الأيام القادمة» لتحويلها إلى فيلم (اختصر عنوانه إلى «الأشياء القادمة») من إنتاج المنتج ألكساندر كوردا. أعجبه إمكانية استخدام السينما كمطية لأفكاره. كانت سينما الخيال العلمي ما زالت في مهدها، وأنجح مثال لها كان فيلم فريتز لانج «متروبوليس»<sup>(27)</sup>. على الرغم من أن الفيلم كان يستند إلى رواية ويلزية كتبتها تيا فون هاربو، زوجة فريتز لانج، لم يشعر ويلز بإطراء من هذا التكريم. في مراجعته النقدية لصحيفة «نيويورك تايمز»، فعل

26- \* قال مالكوم موجريدج لأورويل أن الزوجين ويب -عمّ وعمّة زوجته- حجباً في كتابهما «الشيوعية: حضارة جديدة؟» حقائق مزعجة حول الاتحاد السوفيتي، في محاولة مخجلة لتحسين صورته. (المؤلف).

27- \* بدأ مصطلح «خيال علمي» science fiction. يستبدل المصطلح السابق «scientifiction» (الذي يمكن ترجمته إلى «خيال علمي») في عام 1929. (المؤلف).

ويلز بـ «متروبوليس» ما فعله المريخيون ببلدة ووكنج: «إنه يضع أمام المشاهد طبقاً واحداً تقريباً فيه كل حماقة وكليشيه وابتذال وتحوير يتعلّق بقضية التقدّم الميكانيكي والتقدّم بشكلٍ عام، ويُقدّمه مع صلصة عاطفية من اختراعه الخاص». بعد أن عثر على «بقايا متحلّلة» من روايته «صحوة النائم» في الفيلم، شعر بأن رؤية لانج لمدينة عمودية مؤسّسة على العبودية عتيقة أكل عليها الزمن وشرب. لكن فيلم «الأشياء القادمة» الذي طُرِح عام 1936 لم يرق إلى مستوى «متروبوليس»، وتميّز أكثر بتصاميمه من أفكاره (منها المشهد التنبؤي لقاذفات القنابل في سماء لندن)، وقد أساءت تلك الأفكار إلى الشيوعيين والفاشيّين والليبراليّين والمسيحيّين على حدّ سواء. قال ويلز -مُلقياً اللوم على كوردا- إنه «فيلمٌ مهلهل». هاجم أورويل ويلز لأوّل مرة في العام الذي طُرِح فيه «الأشياء القادمة»، لذا كانت كاريكاتورية الفيلم الذاتية المخيفة هي ما قصده أورويل على الأرجح عندما اشتكى من عالم ويلز المتألّث.

لم يساو أورويل التكنولوجيا بالتقدّم قط، بل على العكس، كتب خلال الحرب: «كل تقدّم علمي يُسرّع الخطى نحو القومية والديكتاتورية». في مراجعته سيناريو «الأشياء القادمة» الذي كتبه ويلز، سخر ممّا سمّاه خلط المؤلف بين العالم المعتدل والشخص الرجعي العدواني. «لم يخطر على بال السيّد ويلز أن تصنيفاته قد تكون اختلطت، وأن الرّجعي قد يكون هو من سيحقّق أقصى استفادة من الآلة، وأن العالم قد يُعمل عقله بشكل أساسي في النظريات العرقية واختراع الغازات السامّة». لم يكن هذا نقداً

منصفًا على الإطلاق. لأن مبتكر «الرجل الخفي» و «الدكتور مورو» لم يكن يخفى عنه العلم المنحرف. لكن فيلم «الأشياء القادمة» لم يُسدِ لسمعته أي معروف.

بالاستناد إلى كتابه «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، يمكن قول إن أورويل لو كان قد كتب ديستوبيا في الثلاثينيات، لكان من المحتمل أن تكون هجاءً للآلة على غرار «عالم جديد شجاع»، يُهاجم فيها أهوال المستقبل القريب التي تصوّرها في رسالته عام 1933: «الثقة العمياء في السلطة والتحصيل الكامل لها. هذا عالمٌ سيُختزل جميع سكّانه ليصبحوا عبيدًا بالأجر» حيث يستغلّون بلا رحمة «باسم التقدم». ولكن على الرغم من بعض العناصر المستقبلية، كمبنى وزارة الحقيقة شامخ الحجم، فإن مقاطعة آيرستريب وان البائسة المنهكة بعيدة جدًا عن عالم ويلز. في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، يصمّم علماء في معاطف بيضاء شاشات الرّصد وحوَّامات التجسّس، ويخترعون أسلحةً جديدةً وأجهزة تعذيب ونازعات أوراق الشجر، ويمارسون جراحات تجميلية متطرّفة، ويعكفون على إلغاء النشوة الجنسية، ولا يفعلون شيئًا لتحسين مستوى الحياة. يمكن القول إن العلم -مثل التاريخ- توقّف. كتاب جولدشتاين في الرواية يقول: إن ذلك «يرجع ذلك جزئيًا إلى أن التقدّم العلمي والتقني يركّزان إلى التعوّد على التفكير التجريبي، الذي لا يمكن أن ينجو في مجتمع نظامي صارم. بصفة عامّة، العالم اليوم أكثر بدائية عمّا كان منذ خمسين عامًا».

كان أورويل يراقب من كثب فساد العلم في عهد ستالين، وخاصّة على يد تروفيم ليسينكو، المهندس الزراعي السوفيتي

الذي أدت نظريته الماركسية الزائفة عن الميراث الجيني إلى مجاعات لا داعي لها، وتطهير جائر للعلماء المخالفين. واحد من آخر الكتب التي قرأها أورويل كان «الجينات السوفيتية والعلم العالمي»، وهو هدم لعلم ليسينكو الزائف كتبه چوليان هكسلي. العلم في أوقيانيا يدين إلى ليسينكو أكثر من ويلز، الذي استخف مرة أخرى بالحماسة البشرية.

نحن الآن نقرب من ويلز الذي قابله أورويل في هانوفر ترأس: رجلٌ يعيد تدوير أفكارٍ قديمة، ويبحث بيأس أكثر من أي وقت مضى عن مرشّحين لقيادة نظامه العالمي الجديد، وهو مُبتلى باعتلال الصحة والأفكار الانتحارية وشعورٌ ساحق بالهزيمة النهائية. تكهن رئيس تحرير «نيو ستيتسمان» كينجسلي مارتن قائلاً: «كان يشعر بأن فشل البشرية في الحرب العالمية الثانية هو فشله الشخصي». خلال جولة محاضرة غير ناجحة في الولايات المتحدة عام 1940 للترويج لأحدث أفكاره الكبيرة «إعلان حقوق الإنسان»، التقى ويلز سومرست موم، ووجده الأخير «رجلاً عجوزاً منهكاً وذابلاً» تجاوزه الزمن، «واصل النهر جريانه تاركاً إياه خلفه على الضفة بلا حول ولا قوة». سيُنظر إلى إعلان ويلز، الذي أعاد صياغته عدّة مرّات بين عامي 1939 و1944، بصفته مساهمة رائدة في مجال حقوق الإنسان، ولكن ليس في حياته. في تلك الأيام الأخيرة، كان نبياً منبوذاً يعظ الفراغ.

«ليس لدي جماعة، ليس لدي مريدون»، هكذا كتب إلى صديقه مع اقتراب الحرب. «سيقول النقش على قبري كان ذكياً، لكنه لم يكن ذكياً بما يكفي». ما زلت أوّلُ الكتب، لكن الأمر أشبه بإلقاء

قوالب طوب ذهبية في بركة من الطين». لكن كتبه لم تكن ذهباً، ولم تكن حتى قوالب طوب. معظم أعماله الأخيرة كانت كُتُباً ضئيلة ومتسرّعة، طُبعت في طبعات فاخرة فقط بسبب اسمه المهيّب الأثري. كان يكتب منذ زمنٍ طويل. خلد ويلز تشاؤمه على حائطٍ في هانوفر تراس في هيئة لوحة جدارية تمثّل التطوُّر. بجوار الإنسان في اللوحة، طبع ثلاث كلماتٍ مؤلمة: «حان وقت الرحيل».

## إذاعة أورويل

أورويل من 1941 إلى 1943

«كل البروباجندا أكاذيب، حتّى عندما يقول المرء الحقيقة. أعتقد أن الأمر ليس مهمًّا ما دام المرء يعرف ماذا يفعل ولماذا».

من دفتر يوميات جورج أورويل، بتاريخ 14 مارس 1942.

في أغسطس عام 1941، دعا أورويل وآيلين إتش جي ويلز إلى العشاء. قبل عدة أشهر، خسرت صديقة أورويل، إنز هولدن، منزلها في قصفٍ من قوَّات اللوفتفافه، وعرض ويلز استضافتها في شقّة صغيرة يملكها. تركت هولدن -البوهيمية التي تخلّت عن الأرستقراطية- انطباعًا أوليًا رائعًا في عشرينيات القرن الماضي باعتبارها «شابّة ساطعة». وصفها أنتوني باول -الذي عرفها بأورويل ذات ليلة في مقهى رويال في لندن- بأنها «رفيقة ممتازة»، ثرثرة وتعبج بالآراء وبارعة في تقمُّص الشخصيات. في سنِّ السَّابعة والثلاثين، كانت مؤرخة نشطة لوضع بريطانيا في الحرب في رواياتها ومذكراتها، وصديقة مخلصّة لأورويل طوال الأربعينيات. كانت هولدن سعيدة لتيسير لقاء ملائم بين رجلين تكنُّ لهما إعجابًا وتقديرهما. غير أن قبل يومين من موعد العشاء، علم ويلز أن أورويل نشر مقالاً عنه في مجلّة سيريل كونولي «هورايزون» واشترى نسخة. لم يملأ المقال المعنون بـ «ويلز وهتلر والدولة العالمية» قلبه بالسرور.

كان أورويل وأيلين يعيشان في الطابق الخامس من لانجفورد كورت، وهو برج سكني ارتفاعه ثمانية طوابق بُني في الثلاثينيات، يقع في شارع أبي في شمال غرب لندن، وهو على الأرجح الذي ألهم «قصور النصر» في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كان فراش التخييم في غرفتهما الأمامية يستضيف في أغلب الليالي أحد أصدقائهما الذين تعرّضوا للقصف. في تلك الليلة كان ضيوفهما ويلز وهولدن والناقد المعروف الشاب وليم إمبسون. كتم ويلز الأمر إلى أن انتهى العشاء. وفقط عندما بدأت الأواني تُرفع من على المائدة أخرج من جيب معطفه نسخته من مجلّة «هورايزون» بطريقة تنذر بسوء. ردّ أورويل بجلب نسخته الخاصة وضرب مائدة العشاء بها بقوة. انخرط الرجلان في معركة حامية الوطيس، بينما جلس إمبسون -الذي لم يعرف أورويل إلا منذ يوم واحد- في صمت، مُفرقًا إحراجَه في الويسكي.

قسّم أورويل الكُتّاب المنخرطين في السياسة إلى فئتين: من يفهمون طبيعة الشمولية الحقيقية (لا يُوجد منهم بريطاني واحد)، ومن لا يفهمونها. في المقال المُهين، ادّعى أن عقل ويلز المنطقي العلمي المحصّن من إغواء شعار الدّم والأرض لم يكن قادرًا على أخذ هتلر (الذي وصفه بـ «هذا الجعجاع الصغير المختل في برلين») على محمل الجدّ. كتب أورويل: «ويلز أعقل بكثير من أن يفهم العالم الحديث»، ثم اختتم بمزيج غريب من المدح والتنديد: «منذ العشرينيات وهو يهدر مواهبه في ذبح تتانين لا وجود لها. لكن كم يملك من المواهب لتبديدها على أيّ حال؟»



كان أورويل فخوراً بـ «وحشيته الفكرية»، وكثيراً ما عقد صداقات مع أشخاص أهانهم من قبل في مقالاته، من ضمنهم ستيفن سبندر، وكاتب الجريمة جوليآن سيمونز، والأناركي الكندي جورج وودكوك الذي قال عنه أنه «أحد تلك الكائنات الغريبة التي تشعر بألفة معها بسبب اختلافكما في الرأي». أخبر أورويل سبندر بأنه بمجرد ما يلتقي بشخص يصبح هذا الشخص «إنساناً وليس كاريكاتيراً يجسّد أفكاراً معيّنة»، لكن حرية التعبير عن نفسه على الورق من دون حاجة إلى الاعتذار كانت مهمة وجوهرية جداً لأورويل إلى درجة لم يخطر معها على باله أن بعض الناس قد يستأثرون من السخرية منهم، وقد يعبرون عن هذا الاستياء في وجهه. حطّم أصنامك، لكن لا تدع ذلك يمنعك عن دعوتهم إلى العشاء.

استمرّ الجدل في شقّة أورويل لبعض الوقت قبل أن يأكل غضب ويلز نفسه ويندوي. في طريقه إلى المنزل، قال لهولدن أنها كانت «أمسية مأسّية». لكن بعد سبعة أشهر، قرأ ويلز مقالاً آخر بعنوان «إعادة اكتشاف أوروريا: الأدب بين الحروب»، وأغضبه الادّعاء الذي اتّهمه بأنه يؤمن بأن العلم قادر على «شفاء كل العلل التي ورثتها البشرية». في رسالة كتبها إلى رئيس التحرير، اعترض ويلز على «تعميمات أورويل الحمقاء». وفي خطاب خاص إلى أورويل، كتّب بأسلوب مباشر أكثر: «لم أقل ذلك على الإطلاق. اقرأ أعمال المبكرة أيها القذر». كانت هذه نهاية علاقتهما.

كان المقال المُهين عبارة عن نسخة مطبوعة من أحاديث أورويل في «القطاع الهندي» التابع لهيئة الإذاعة البريطانية

الشرقية، حيث كان يعمل بين عامي 1941 و1943. مثل ويلز في عام 1918، كان أورويل الآن يكتب على مضض باسم الدولة. لاحقًا وصف تلك الفترة بأنها كانت «عامين مهديرين»، لكن علينا ألا نصدّقه. يومًا بعد يوم، عرّفته الوظيفة الجديدة بآليات البروباجندا والبيروقراطية والرقابة ووسائل الإعلام، ما أعطاه الوعي اللازم لكتابة وظيفة ونستون سميث في وزارة الحقيقة. علاوة على ذلك، تألّف إنتاجه في هيئة الإذاعة البريطانية من ساعات من التأمّلات في الحرب والسياسة والفكر الشمولي والأدب، وهو ما مهّد الطريق لعمليه الروائيين الرائعين وأفضل مقالاته. بالنسبة إلى عقل مشغول طوال الوقت كعقل أورويل، لا يُوجد ما يُسمّى بعامٍ مُهدير.

\*\*\*

طوال النصف الأوّل من عام 1941، كان أورويل بلا هدف ويهيم على غير هُدى في «كابوس لندن الغريب والممل» في وقت الحرب. بدأ العام بموجة جديدة من الشائعات حول الغزو الألماني لبريطانيا، ما ألهم وزارة الإعلام لإصدار كُتيب يوضّح العواقب. تصف الرواية القصيرة «أنا جيمس بلانت» لكاتب الرحلات إتش في مورتون الاحتلال الألماني من وجهة نظر رجل مُسنّ عادي في قرية إنجليزية عادية. بعد شرح كيفية ترسُّخ نظام الرقابة والمراقبة والتلقين والاضطهاد النازي في إنجلترا، اكتشف التاجر المتقاعد جيمس بلانت أن موظفًا سابقًا مقيّمًا انضمّ إلى الجستابو وأبلغ عنه بسبب كلام سابق مناهض للفاشية تفوّه به. أهدى مورتون قصّته القصيرة القوية إلى «المتفائلين المطمئنين

والمُفرقين في التمني». في عام 1943، بعدما تبخّر خطر الغزو، استخدم المحامي والجندي روبن موم القالب الذي صاغه مورتون -وهو مذكرات تنتهي قبل أن تفرغ الشرطة السرية الباب مباشرة- لكتابة رواية «1946 إم إس»، التي يستولي فيها بطل حرب بريطاني على السلطة وسط الاضطرابات التي تلت الحرب وقيم دولة فاشية. كان ختام رواية موم التي نشرتها «صحافة حقائق الحرب» المرتبطة بوزارة الداخلية مباشراً وصريحاً مثل كلمات مورتون: «لا وجود للورد مردوخ وشخصية «المؤشر العام». هذه القصة كُتبت كي لا يوجد أبداً، وكي لا يصبح البريطانيون عبيداً».

كتب أورويل مراجعة لـ «أنا جيمس بلانت» ووصفها بأنها «عمل يثير القشعريرة»، وكان يمتلك نسخة من «1946 إم إس» في مجموعته الكبيرة من الكُتبيات، لذلك كان على دراية بأدب «يمكن أن يحدث هنا» الوعظي، لكنه شعر بأنه غير قادر على إنتاج هذا النوع من الأدب بنفسه. «فقط الموتى عقلياً من يستطيعون الجلوس وتأليف الروايات في أثناء هذا الكابوس»، هكذا كتب في أبريل عام 1941. وفقاً لسيريل كونولي، كانت حالة الشلل هذه عامّة: «يجب أن نتذكّر أن الحياة التي يعيشها كثيرٌ منا الآن غير مناسبة لتقبُّل الأدب. نحن نعيش فترة تاريخية، وهذا يعني أننا نعيش على الكفاف ونقرأ إصدارات لا حصر لها من الجرائد المسائية».

كانت تلك أخباراً جيّدة للصحافة الحرة على الأقل، وهي الطريقة التي كان أورويل يسدّ بها فواتيره. استغلّ أورويل مراجعات الكتب كفرصة لاستكشاف آليات عمل الفكر الشمولي

من كل زاوية ممكنة. لاحظ أورويل أن «ملحمة الجستابو»، حكاية السير بول دو كس الحيوية عن تحقيقه في حوادث الاختفاء في تشيكوسلوفاكيا المحتلة، وصفت مجتمعاً «صارَتْ فيه ممارسة الكذب أمراً معتاداً إلى درجة يكاد يستحيل معها تصديق أن أي شخص يمكن أن يقول الحقيقة». جعلته المقالات القصيرة عن شكل الحياة في ظل حكم هتلر في كتاب «إطفاء الأضواء» لإريكا مان يتساءل كيف يمكن لنظام يبدو «شديد الشناعة إلى درجة لا يمكن أن يقبلها أي شخص عاقل محترم» أن يحظى بدعم شعبي؟ رأى أورويل أن رواية جون مير المؤامراتية البوليسية الصعبة «لا تُعد أبداً» دليل على أن «مفهوم الغابة السياسية الرهيبة، بأحزابها السرية، والتعذيب الواقع فيها، والإدانات، وجوازات السفر المزورة، وكلمات المرور، والرسائل المشفرة وما إلى ذلك، اشتهرت بما يكفي لتكون مادة مناسبة للأدب الخفيف». إن السرية والخداع والخيانة لمكونات أساسية لكل من الواقع الاستبدادي والأدب الشائق كما ستظهر رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لاحقاً. المشاهد التي يعتقد فيها ونستون أنه يتآمر مع أوبراين و «الأخوية» ضد الحزب تشعرك بأنها خارجة من رواية جاسوسية. بالإضافة إلى الكتب، قدّم أورويل مراجعات لعشرات الأفلام لمجلة «تايم آند تايد» بين شهري أكتوبر 1940 وأغسطس 1941، لكن وصفه بأنه ناقد سينمائي سيكون قولاً سخياً. لم يكن لديه أي تقدير للتقنيات السينمائية أو التمثيل، ولا احترام للمهنة التي توقع أنه بامتهانها «سيبيع شرفه مقابل كأس من نبيذ الشيري الرخيص». في الحقيقة، كان غير مُعجب بتأناً بالسينما الأمريكية:

في فهرسه الخاص للأوبئة المعاصرة في كتاب «داخل الحوت»، تقع أفلام هوليوود بين المسكنات والجرائم السياسية. قال أنتوني باول إن أورويل كان «سريع الملل. إذا ظهر موضوع لا يروق له في محادثة، فلن يبذل أيَّ جهدٍ لاستيعابه». ولأن من الواضح أن السينما كانت تثير مله، فقد علق على عديدٍ من الأفلام العظيمة إما بمدحٍ خافت أو بازدراءٍ فظٍّ. فيلم «هاي سييرا»، الذي يُعدُّ حاليًا فيلم نوار كلاسيًا، لم يرَ فيه غير احتفالٍ بـ «السادية» و «عبادة المتسلط».

فقط الأفلام التي كانت تذكر الشمولية هي التي أثارت فضول أورويل. على سبيل المثال، أثنى على فيلم حربي هوليوودي منسي اسمه «هروب» لأنه اقتنص «أجواء الدولة الشمولية الكابوسية، وعَجَزَ الإنسان العادي المطلق، وغياب مفاهيم العدالة والحقيقة الموضوعية بالكامل». بمعنى آخر، أعجبه الأجزاء التي نستطيع وصفها بالأورويلية. بمجرد هروب البطل والبطلة، رأى أن بقية الفيلم هراء. أيُّ فيلم معقول عن ألمانيا النازية لن يكون له نهاية سعيدة، ولن يُسمَّى «هروب» لأنه لا يوجد مهرب. كان لديه أشياء ألطف ليقولها عن فيلم تشارلي شابلن «الديكتاتور العظيم». على الرغم من كونه مدافعًا عنيدًا عن الاتحاد السوفيتي في السَّر، كان شابلن على الشاشة يمثل، في نظر أورويل، «جوهر الإنسان العادي، والإيمان بالأخلاق الذي يتعدَّى استئصاله في قلوب الناس العاديين». مستمتعًا بمفارقة التشابه الجسدي بين شابلن وهتلر، حسب أورويل أن الحكومة البريطانية ستبذل جهدًا كبيرًا لدعم الفيلم وتوزيعه كدعاية مناهضة للفاشية بسبب «قدرة شابلن على

إعادة ترسيخ الحقيقة التي طمسها الفاشية و-للمفارقة أيضًا- الاشتراكية السوفيتية، الحقيقة التي تقول إن صوت الشعب هو صوت الرب، وإن العمالقة في حقيقتهم طفيليات».

بحلول عام 1941، لم يكن صوت الشعب في حالة جيدة جدًا. أُوصِدَت نافذة الفرصة الثورية التي ظنَّ أورويل أنها فُتِحَت بسبب إذلال دانكيرك بإحكام. وطَّد الأثرياء امتيازاتهم عن طريق صفقات السوق السوداء، بينما سائر الآخرون الوضع طوعًا. أخبر أورويل مازحًا صديقًا له بأنه خلال سنة سنرى «حساء فئران» في قوائم الطعام، وفي العام الذي سيليه سيكون «حساء فئران مغشوش». في مذكرات الحرب التي كتبها وفي «رسائل لندن» التي كانت تصدر كل شهرين عن «بارتيزان ريفيو»، وهي مجلة يسارية نيويوركية مناهضة للاستالينية يديرها فيليب راف ووليم فيليبس، وثَّق أورويل الحياة في زمن الحرب بدقة رائعة. أخبر أورويل قراء المجلة بأن الغارات الجوية «أقل إفزاعًا مما تتصوَّرون، ولا تعدو كونها مصدر إزعاج». لم يكن احتمال سقوط قبلة على سقفه هو ما يزعجه، بقدر ما أزعجته المضايقات اليومية التي ظهرت الفصل الأول من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: انقطاع الكهرباء المتكرَّر وغلق المتاجر وخطوط الهاتف المقطوعة ونقص الحافلات وأكوام الحطام وارتفاع سعر البيرة. صارت الحياة «تدافعًا مستمرًا لتعويض الوقت الضائع». كان كل شيء مزعجًا جدًا. كان يذكي نيران مدفأته بصحف قديمة تعود إلى فترة ما قبل دانكيرك، و «يلقي نظرة خاطفة على عناوين الأخبار المتفائلة قبل أن تتطاير محترقة مع الدخان».

استمرَّ قصف لندن ثمانية أشهر، لكن أورويل لم يتأثر حتّى الساعات الأخيرة. في ليلة 10 مايو، ألقت قوَّات اللوفتفافه ثمانمئة طن من القنابل على العاصمة. كان هو وآيلين من بين مئات الضحايا تقريبًا. في الثانية صباحًا، استيقظا على انهيار مروّع. لقد أُصيب مبنى لانجفورد كورت الذي يقطنانه وامتلأت الأروقة برائحة المطاط المحترق الخانقة والدخان الكثيف المُسبَّب للغمى. اسودَّ وجهيهما بالسخام، وتمكَّنا من التقاط بعض الأغراض وفرًّا إلى منزل أحد الأصدقاء حيث تعافيا بالشاي والشوكولاتة. في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، الشوكولاتة سلعة رمزية: عندما تحصل جوليا على بعض منها من أجل ونستون، فهي بادرة حب.. وعندما يسرق ونستون قطعة شوكولاتة من أخته، فهي خيانة أثيمة.

على الرغم من أن لندن تحمّلت الهجوم الألماني، كانت الأخبار الآتية من أوروبا قاتمة. كتب أورويل لاحقًا: «في منتصف عام 1941، كان الشعب البريطاني يعلم ما هو بصدده». استولى الفيرماخت على اليونان ويوغوسلافيا، بينما نجح فيلق روميل الإفريقي في صدّ الحلفاء في شمال إفريقيا. في الساعات المبكرة من يوم 22 يونيو، كسر هتلر الميثاق النازي السوفيتي وعبر ثلاثة ملايين جندي ألماني الحدود الروسية، مُجبرًا الشيوعيين المناهضين للحرب على تحوُّل هزلي مفاجئ. اعتاد أورويل الاستمتاع بسرد حكاية سمعها، تحكي عن عضو في الحزب كان في حمّام أحد مقاهي نيويورك عندما اندلعت الأخبار، وعاد إلى أصدقائه ليجد أن المسار قد تغيَّر بالفعل: يُحتمل أن يكون هذا الرجل هو الذي

ألهم خطيب الحزب الداخلي في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الذي «تحوّل من اتّجاه إلى آخر في منتصف الجملة». فأغرقت أحداث الصيف أورويل في مستنقع من اليأس: «في غضون عامين سنكون إما أمة مُحْتَلَّة وإما جمهورية اشتراكية تقاتل من أجل حياتها، ويتضوّر نصف شعبها جوعاً، وتحكمها الشرطة السريّة».

\*\*\*

كان أورويل يتوق إلى فعل ما هو أكثر من ارتياد اجتماعات الحرس الوطني مرّتين أسبوعياً، لكن ماذا؟ لم يكن يتمتّع بصحّة جيّدة للقتال، أو حتّى ليخدم كمراسلٍ حربي، كما قُوِّل للطلب الذي قدّمه للعمل عند مدير العلاقات العامّة بوزارة الطيران بالرفض. كان لا بُدّ من استحكام الأمور قبل أن تقبل الحكومة البريطانية تعيينه بأيّ صفة، لأسبابٍ ليس أقلها سياسته. في عام 1937، درست إدارة «المكتب الهندي» أعماله وحدّدت أنه «ليس مجرّد يساري عازم، بل متطرّف محتمل الأرجح». لكن بحلول عام 1941، كانت هيئة الإذاعة البريطانية في حاجة إلى موهبة أورويل أكثر من خشيتها من آرائه. كتب لاحقاً: «بدأت الحكومة البريطانية الحرب الحالية بنقطة معلنة بشكل أو بآخر باستبعاد النخبة الأدبية المثقّفة، لكن بعد ثلاثة أعوام من الحرب، أُقجم كل الكُتّاب تقريباً، بغضّ النّظر عن تاريخهم السياسي أو آرائهم غير المرغوب فيها، في الوزارات المختلفة أو في هيئة الإذاعة البريطانية». كان الخطر السياسي من توظيف أورويل ضئيلاً لأن كل بثٍ إذاعي كان يمرّ مرّتين على الرقابة: مرّةً للرقابة الأمنية،



ومرّة للرقابة السياسية. كان ذو الفقار علي بخاري، مدير «القطاع الهندي»، قد اختبره بالفعل من خلال تكليفه بكتابة أربعة حوارات عن النقد الأدبي. في حلقة «الأدب والفكر الشمولي»، التي أذيعت في شهر مايو من ذلك العام، جادل أورويل بأن الأدب مشتق من الحقيقة الشعورية، وبالتالي لا يمكن أن يستمرّ في ظلّ نظام يعتمد على تشويه الحقيقة:

تكمّن غرابة الدولة الشمولية في أنها على الرغم من تحكمها في الأفكار، فهي لا تُصلحها. إنها ترسّخ لمعتقدات لا جدال فيها، وتغيّرها من يوم إلى آخر. إنها تحتاج إلى تلك المعتقدات لأنها تريد الطاعة العمياء ممّن تحكمهم، لكنها لا تستطيع تجنّب التغييرات التي تملّيها احتياجات سياسات السلطة. إنها تعلن أنها معصومة من الخطأ، وفي الوقت نفسه تهاجم مفهوم الحقيقة الموضوعية.

التحق أورويل بـ «القطاع الهندي» في وظيفة مساعد محادثات الإمبراطورية في 18 أغسطس، براتب سخّي مبدئي قدره 640 جنيهًا استرلينياً سنوياً، وهو المبلغ الذي قرّم دخله من العمل الحر. أمضى أسبوعين في كليّة بيدفورد في ريجنت بارك في دورة تمهيدية مع مجنّدين جدد آخرين، كان من ضمنهم وليم إمبسون، التي منحها اسم «مدرسة الكذّابين». خلال وجوده هناك، توقّف أورويل عن الكتابة في مذكراته الحربية في الوقت الحالي، متعهداً ألا يستأنفها إلى أن يتغيّر شيء مهم: «لا يلوح النّصر في الأفق في الوقت الحالي. سنخوض حرباً طويلة وكثيفة

ومرهقة يزداد الجميع فيها فقرًا طوال الوقت». في 23 سبتمبر، وصل إلى شارع بورتلاند بالاس، مقر هيئة الإذاعة البريطانية الرئيس في قلب لندن، لبدء العمل لصالح بخاري تحت سيطرة مدير المحادثات جاي بيرچس الكاملة. بالنسبة إلى عنصر حر مثل أورويل، كان العمل لصالح بيروقراطية كبيرة في زمن الحرب يُعدُّ بحثًا لا يقدر بثمن في آليات عمل الدولة.

خلال السنوات القليلة الماضية، استغلت هيئة الإذاعة البريطانية ارتباطها بأورويل بطرق كان يُمكن أن تسلي الرجل نفسه. في الاحتفال بذكرى أورويل المئوية في عام 2003، كلّفت الإذاعة الفنانة راشيل وايتريد بإنتاج مجسم من الجص للغرفة 101 وُضع في البناية رقم 55 في بورتلاند بالاس، فقط ليكشف إلى أي مدى كانت الغرفة عادية وغير ذات أهمية في الرواية. وفي عام 2017، نصبت هيئة الإذاعة البريطانية تمثالاً برونزيًا لأورويل خارج مقرها الرئيس في دار الإذاعة، عليه اقتباس محفور من مقدمة غير منشورة لـ «مزرعة الحيوان» يقول: «إذا كانت الحرية تعني أي شيء على الإطلاق فهي تعني حق الناس في إخبارهم بما لا يريدون سماعه»، وهو وصف جيّد لما لم تكن عليه وظيفة أورويل في «القطاع الهندي».

وصف إمبسون الفصول الأولى من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها في حقيقتها «محاكاة هزلية صارخة» لهيئة الإذاعة البريطانية. هذه مغالاة خطيرة، لكن هذا لا ينكر أن أورويل استخدم صورًا وكلمات وأصواتًا وروائع من الوقت الذي قضاه هناك لمنح مكان عمل ونستون أصالة حريفة. في عام 1942،

انتقل «القطاع الهندي» من بورتلاند بالاس إلى مخزن بضاعة مُصادَر في شارع أكسفورد، حيث كان الموظفون يعملون في مقصورات مثل تلك الموجودة في إدارة السجلات بوزارة الحقيقة. ظهر مقصف الموظفين الجوفي الذي تضح منه رائحة الملفوف المسلوq المميّزة في الرواية، وكذلك عمّال النظافة الذين يغفون لأنفسهم كل صباح وهم يمسحون الممرّات. مبنى وزارة الحقيقة، «الهيكل الهرمي الضخم المغطى بخرسانة بيضاء متألّئة بلون الثلج» كان مبالغة ويلزية لمقرّ وزارة الإعلام الرئيس في مجلس الشيوخ في جامعة لندن، حيث كانت آيلين تعمل. على الرغم من أن حجمه كان خمس حجم الوزارة الخيالية، كان البرج المزخرف هذا الذي يبلغ ارتفاعه أربعة وستين متراً ثاني أعلى مبنى في لندن، وكان الزوجان يستطيعان رؤيته من نوافذ شقّتهما في بناية لانجفورد كورت. كان عنوان الوزارة لتلقّي رسائل التلّغراف هو «مينيفورم»، ومن هنا جاء اسم «مينيترو» في الرواية. أما الارتباطات الأخرى بالرواية فأكثر هشاشة بكثير. الغرفة 101 كانت واحدة من غرف الاجتماعات ولم تكن غرفة مزعجة بشكل خاص. بريندان براكين، وزير معلومات تشرشل المخيف، كان من المؤيدين المتحمّسين لـ «لغة تشارلز كاي أوجدن الإنجليزية الأساسية»، وهي حصيلة مفردات مبسّطة جدّاً تتكوّن من 850 كلمة جوهرية فقط استخدمها إتش جي ويلز لتكون اللغة العالمية في القرن الحادي والعشرين في روايته «شكل الأيّام القادمة». غالباً ما يقال إن تلك «اللغة الأساسية» كانت هي النموذج الذي اعتمد عليه أوروبيل في قاموس «اللغة الجديدة» الأكثر محدودية

المصمَّم «لتضييق نطاق الفكر»، لكن أورويل لم يكن يرى أن فكرة اللغة الإنجليزية الأوضح والأنقى خبيثة بالضرورة. في عام 1944، دافع الرجل عن «اللغة الأساسية» من هجوم عددٍ كبير من النقاد وقال إنه باستخدام لغة أوجدن «لا يمكن الإدلاء ببيان أجوف من دون أن يتَّضح أنه أجوف». ثم حدث أن كتب لاحقاً في عام 1947: «تُوجد مناطق لا غنى فيها عن استخدام لغة مشتركة من نوع ما، والانحرافات المستخدمة بالفعل في الخطاب السياسي تجعل المرء يرى ما يمكن أن يُقال عن "اللغة الأساسية"».

لذا فإن وزارة الحقيقة لم تكن بأيِّ حال من الأحوال هيئة الإذاعة البريطانية متنكِّرة. كانت الهيئة ببساطة هي بيئة العمل المؤسَّسية الوحيدة التي اختبرها أورويل من كثب. علَّمته مهنته أن بريطانيا بعيدة كل البعد عن التحوُّل إلى دولة شمولية. «كلَّما كبرت آلة الحكومة، زاد تشتُّتها والأركان المنسية فيها»، هكذا كتب قبل أن يغادر الوظيفة. كان عمله في حدِّ ذاته دليلاً على ذلك. إن كان قد عاش ليعرف حقيقة رئيسه في العمل، لصار أكثر دهشة من سهولة اختراق الدولة البريطانية. في عام 1951، عاد جاي بيرجس إلى موسكو. كان جاسوساً سوفيتياً منذ الثلاثينيات.

\*\*\*

قبل أن يعرف بأمر انضمامه إلى الهيئة، كتب أورويل في «رسائل لندن» الشهيرة عام 1941: «أعتقد أن هيئة الإذاعة البريطانية، بخلاف حماقة دعاياتها الأجنبية وأصوات مُذيعيها التي لا تطاق، صادقة جداً». سرعان ما وجد أورويل نفسه متورطاً في هذين العيبين. على الرغم من سهولة تعيين صوتٍ جيدٍ للإذاعة،

بالإمكان قول إن أورويل لم يكن يتمتع بهذا الصوت. لم ينجُ أيُّ تسجيلٍ إذاعي له، لكن صوته كان ضعيفاً ورتيباً بكل المقاييس، وبسبب الرصاصة الإسبانية التي اخترقت حلقه كان أوهن من أن يُسمع وسط ضجيج مطعمٍ صاخب. قارن ستيفن سبندر إجراء محادثة مع أورويل بـ «المشي في ضباب لندن». معظم ما كتب لصالح هيئة الإذاعة البريطانية عُيِّن له مُذيعون محترفون. بعد سماع إحدى الخطب التي أذاعها أورويل بنفسه، اشتكى جي بي كلارك، مدير الخدمات الخارجية، في مذكرة من أن صوته قد ينفّر المُستمعين ويحرج الهيئة «ويظهرها كجاهلة تماماً بملكات الإذاعة الأساسية ومستتهرة بالجمهور إلى حدٍّ جعلها تلجأ إلى مثل هذا الصّوت غير المناسب على الإطلاق». لم يكن أورويل يكن أيَّ حبٍّ للوسيط، واعتبر الراديو -كما كان في الأربعينيات- «شمولياً بطبيعته».

بيد أن أورويل كان يتمتع بعقلٍ رائعٍ يناسب الإذاعة. بعد أن طلب منه بخاري أن «يرتدي قُبعة تفكيره الخاصة»، أنتج أورويل سيلاً من الأفكار، تلك التي طوَّرها مع زملائه وهم يحتسون البيرة في الحانات القريبة من بورتلاند بالاس، أو مع قدامى المحاربين الإسبان في الحرب الأهلية وهم يشربون نبيذ ريوخا ويأكلون أرز البايلا في مطعم برشلونة في سوهو، محاطين بسحابة دخان دائمة تفوح منها رائحة التبغ الأسود، ودونّها «في تعجُّلٍ مُلح» قبل تبخُّرها.

بكثيرٍ من النشاط والفاعلية وبروح دعابة جيّدة، ابتكر أورويل لصالح «القطاع الهندي» برنامج «جامعة على الهواء» غير المسبوق.

لأنه عَلِمَ أن مستمعيه الهنود المتعلِّمين سيفلقون الراديو في وجه الدعاية البريطانية المتعجرفة، ولعلَّه أن الاحتفاء الضمني بالديموقراطية مطلوب، جرَّب أورويل أنماط محتوى جديدة جعلته يعيد التفكير في عدائه للراديو. كتب أورويل في مقال «الشعر والمذيع»: «قِلَّة من الناس قادرون على تخيُّل استخدام الراديو في نشر أشياء أخرى غير التوافه، يجب على المرء ألا يخلط بين إمكانيات الوسيط والطريقة التي يُستخدم بها في الواقع». دعا أورويل كلاً من تي إس إليوت وديلان توماس وإي إم فورستر ليقروا نصوصاً على الهواء، واستهل مشروع قصة قصيرة تجريبية مع خمسة مؤلِّفين من ضمنهم فورستر وإنز هولدن، وقُدِّم معالجات إذاعية لقصص ويلز وإينياتسيو سيلون وأناطول فرانس وهانز كريستيان أندرسن، وكتب مقالات عن شكسبير وأوسكار وايلد وبرنارد شو وچاك لندن، وقُدِّم برنامجاً إذاعياً شعرياً باسم «فويس» استضاف فيه ضيوفاً مثل سبندر وستيفي سميث وهربرت ريد. أصبحت بعض القوالب التي استحدثها ركائز أساسية للراديو، لكنه كان صريحاً بشأن محدودية نفعها. لم تكن مقدِّمته لحلقة «فويس» الأولى دعوة أكثر من كونها اعتذاراً: «أعتقد أنه في أثناء كل ثانية نقعدها هنا، يموت شخص واحد على الأقل ميتة عنيفة». ومع ذلك تابع البرنامج، وقرأ أبياتاً لوردسورث.

سبقَت اثنتان من أفكاره الإذاعية بعض الأفكار المستقبلية التي ستظهر لاحقاً في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». أولها كان برنامج باسم «لمحات من المستقبل»، والآخر كان باسم «2000

ميلادياً»، وهو برنامج تكهن العلماء فيه بأحوال الهند في مطلع القرن المقبل. بينما احتفل برنامج ثالث بنوع النصوص التي سيكتبها أورويل قريباً. كان اسمه «الكتب التي غيرت العالم».

\*\*\*

في 14 مارس 1942، واصل أورويل الكتابة في مذكراته الحربية للمرة الأولى منذ سبعة أشهر، مازجاً مرةً أخرى أفكاره حول تطوُّر الصراع بالتدبُّر المعتاد من أسعار التبغ وندرة شفرات الحلاقة، وهو مصدر قلق ونستون سميث الخاص. في اليوم التالي، سمع أوَّل صافرة إنذار من غارة جويَّة منذ نهاية قصف لندن. تظاهر بأنه لم يلحظها، لكنه كان يرتعد من الداخل. كانت المتع صغيرة وثمانية في ذلك الوقت. كتب في مذكراته يقول: «تبرعمت زهور الزعفران. يدرك المرء لمحات منها وسط ضباب أخبار الحرب». كان إحباطه من هيئة الإذاعة البريطانية موضوعاً آخر متكرراً: «الأجواء في الداخل خليط من مدارس البنات ومصحَّات المجاذيب، وكل ما فعله حاليًّا لا طائل منه، أو أسوأ قليلاً». فليضعوا هذا الاقتباس على قاعدة تمثال له إن كانوا يجروؤون. ثم أضاف في يونيو: «الشيء الذي يصدم المرء في هيئة الإذاعة البريطانية ليس القذارة الأخلاقية والعقم المطلق لما نقوم به، بل الشعور بالإحباط، واستحالة إنجاز أيِّ شيء، أو حتَّى النجاح في الخداع ولو مرةً». ومع ذلك، إن كان يشعر بأنه ليس أكثر من مجرد كاتب فاشل منافق لم يحقق شيئاً، لكان استقال قبل ذلك بكثير. كان يفضي بشكوكه إلى مذكراته الشخصية، لكن إذا قال شخصٌ آخر شيئاً مشابهاً، كان يدافع بحدَّة عن موقفه. وفقاً

لليتيس كوبر، محررة أورويل السابقة في مجلة «تايم آند تايد» وواحدة من أقرب أصدقاء آيلين، فهو «لم يتأكد تمامًا إن كان يخسر نزاهته بالفعل بسبب وجوده في هيئة الإذاعة البريطانية. أظن أنه شعر أن موقفه يتعلّق بالدفاع عن أمر سيئ ضد الأسوأ». كان أحد منتقديه هو الأناركي جورج وودكوك، الذي لم يكن صديق أورويل بعد، وقد سدّد إليه لكمة أسفل الحزام في مناظرة عن النزعة السلمية في مجلة «بارتيزان ريفيو»: «والآن يعود الرفيق أورويل إلى ولائه الإمبريالي القديم ويعمل في هيئة الإذاعة البريطانية ويصنع بروباغندا بريطانية لخداع الجماهير الهندية!». أجاب أورويل بصراحة أنه ليس واهمًا ولكنه يعتقد أنه «أبقى البروباغندا البريطانية أقل إثارة للاشمئزاز نوعًا مما كان يمكن أن تكون عليه». قال إن المرء يستطيع «إدراك ما الأوساخ والقذارة التي تتفق عادةً عبر الهواء» فقط بعد التعرّض اليومي للأصناف الأخرى. اعتقد ديزموند هوكنز زميله في الهيئة أن الذي بلور دور آلة البروباغندا في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لم يكن هيئة الإذاعة البريطانية وإنما البث النازي، الذي طُلب من موظفي الإذاعة البريطانية دراسته: «كنا نستمع إلى برنامج «الدعوة الألمانية»، الذي يضمُّ كل أشكال تزيف الحقائق و«التفكير المزدوج». لذا كنا نرى كيف تُستغل وسائل الإعلام الجديدة، أيضًا يجب أن يؤخذ في الحسبان أنني وأورويل ولدنا في عالم بلا إذاعة». تذكر ديفيد أستور، رئيس تحرير جريدة «ذا أوبزيرفر» الأرستقراطي الذي قدّمه سيريل كونولي إلى أورويل، أن الأخير كان يفكر في إعادة تحرير مقتطفات من خطاب تشرشل لجعلها



تبدو كما لو كان يعلن السلام، فقط لإظهار مدى سهولة التلاعب بالتسجيلات. قال أستور: «أظن أنه كان يؤمن بإمكانية استخدام آلات الدعاية لاختراع أي شيء، ولجعل الناس يلقون خطاباً لم يلقوها من قبل».

كان أورويل أسرع غضباً بكثير عندما نشر ألكس كومفورت، الطبيب وداعي السلام الذي سيشتهر في السبعينيات بصفته مؤلف كتاب «متعة الجنس»، قصيدة طويلة باسم مستعار في مجلة «تريببون» هاجمت الكتاب الذين انضموا إلى المجهود الحربي. ردّ أورويل بقصيدة أوضححت تناقض مشاعره إزاء وظيفته في هيئة الإذاعة البريطانية:

لا يحتاج الأمر إلى عيني محقق

لمراقبة جادة «بورتلاند بالاس» ورصد العاهرات

لكن يُوجد رجال -أعترف أنهم ليسوا الأشد يقظة-

بضعف مواهبك وثلاثة أضعاف جرأتك

يؤدّون ذلك العمل القذر لأنه مطلوب،

وهم -لأسبابٍ وجيهة وليس بطاعةٍ عمياء-

يفنون أعمارهم ويهدرون مواهبهم.

أخفى هذا التحديّ العلني قدرًا كبيرًا من القلق الخاص حول تأثير الحرب على مستوى الخطاب. كتب أورويل في دفتر يومياته: «في هذه الأيام، مهما قيل أو فُعل، يبحث المرء على الفور عن الدوافع الخفية ويفترض أن الكلمات تعني أي شيء آخر غير ما يبدو أنها تعنيه... عندما أتحدّث إلى أي شخصٍ أو أقرأ كتابات أي شخصٍ لديه وجهة نظر قوية، أشعر أن الصدق الفكري وحسن

التقدير قد اختفيا ببساطة من على وجه الأرض... السلطة برمتها في أيدي المصابين بجنون العظمة».

كان صيفاً مملاً كئيباً. انتقلت أيدا أم أورويل وأخته أهريل إلى لندن، حيث عملت الأولى في سلسلة متاجر سيلفريدجز والثانية في مصنع صفائح معدنية، حتَّى تُوَفِّت أيدا في شهر مارس التالي. انتقلت آيلين إلى وزارة الغذاء، حيث عملت في ابتكار وصفات طعام اقتصادية لصالح خدمة هيئة الإذاعة البريطانية المنزلية. انتقل الزوجان من لانجفورد كورت إلى شقّة كبيرة معرّضة لتيّارات الهواء في شارع مورتايمر كرسنت في حي مايداهيل. أخبرت آيلين إحدى صديقاتها: «لو لم نكن أنا وچورج ندخّن كثيراً، لاستطعنا الحصول على شقّة أفضل».

\*\*\*

مال النقد الأدبي الذي أنتجه أورويل لصالح «القطاع الهندي» -بسبب ضيق الوقت وهواجس معيّنة- إلى الكتب التي كان يعرفها عن ظهر قلب بالفعل، والتي لها بعض الصلة بالشمولية. صار «ماكبث» على سبيل المثال «النموذج المثالي للطاغية المسكون بالإرهاب الذي يكرهه ويخشاه الجميع، ويحيط نفسه بالجواسيس والمجرمين والمتملّقين، ويعيش في خوفٍ دائم من الغدر والتمرد... إنه نسخة بدائية نوعاً ما للديكتاتور الفاشي الحديث».

كانت رواية «رحلات جليفر» نموذجاً آخر، وهي رواية الطفولة المفضّلة لأورويل التي مثّلت «الهجوم الأدبي الأفدح في التاريخ ربّما على المجتمع البشري». شعر أورويل أن سلسلة يوتوبيات جوناثان سويفت الساخرة التي نُشرت عام 1726 كانت وثيقة

الصلة بالعصر الحديث بشكل ملحوظ. في مقالٍ لاحقٍ له، وصف الجزء الثالث بأنه «رؤية جليّة تماماً للدولة البوليسية المسكونة بالجواسيس، بمطاردتها الدائمة للهراطقة ومحاكمات الخيانة العظمى». الدافع الأدبي الذي حثَّ سوفيت على ابتكار «أكاديمية لاجادو» في روايته يقود مباشرةً إلى شخصية جوليا التي تعمل مُشغلة آلة في إدارة الخيال في وزارة الحقيقة.

كان أكثر أعمال أورويل غرابة في هيئة الإذاعة البريطانية حواراً مُتخيلاً مع شبح سوفيت، لعب فيه أورويل دور المتفائل الحذر من بُغض سوفيت الوحشي للبشر. لم تتأثر النسخة التي تخيلها من سوفيت بهتلر أو ستالين أو بقصف لندن، لأن التقدم ليس إلا خداعاً ولأن العلم لا ينتج سوى آلات قتل أكثر فاعلية. ربّما كان أورويل يستخدم سوفيت لتجسيد دوافعه الكئيبة ليتمكن من تكوين حجّة ضدّها. فعلى الرغم من أنه أصبح متشائماً، لم يكن يعتقد أن البشر مخلوقات وضعية وعديمة القيمة تحمل في طبيّاتها بذور الهزيمة. «لم يستطع أن يرى ما يراه أبسط البشر»، هكذا خلص أورويل بعد انقطاع المكالمات الهاتفية الخارقة للطبيعة مع سوفيت، «وهو أن الحياة تستحق أن تُعاش وأن البشر -حتى لو كانوا قذرين وسخيفين- جديرون في العموم. ولكن في النهاية، أفترض أنه لم يكن ليكتب «رحلات جليشر» لو كان في مقدوره رؤية ذلك». وكما قال آرثر كويستلر: «لم يفقد أورويل إيمانه قط بالرعاغ البلهاء نخري الأسنان».

فقط عندما حاول سوفيت تخيّل مجتمع مثالي في الجزء الرابع من «رحلات جليشر» خذلته مخيلته، هكذا اعتقد أورويل.

ابتكر سوفيت عرقاً نبيلًا من الجياد الذكية يُدعى «هوينمز» يرفل في الطهارة، وبالتالي أتى «مضجراً بشكل لا يُطاق». كما نعرف، يرى أورويل أن اليوتوبيات الإيجابية مملة إلى أقصى درجة. في مراجعته لرواية هيربرت صمويل «أرض مجهولة» عام 1942، لم يستطع أن يقاوم النيل من ويلز مجدداً: «العجرفة الواثقة والميل إلى إطرء الذات من عيوب سَكَن اليوتوبيات الشائعة، كما يُمكن أن تُظهر أيُّ دراسة لأعمال السيّد إتش جي ويلز».

ألقي أورويل أيضاً محاضرة عن جاك لندن، وهي واحدة من ستّ مرات كتب فيها عن المؤلف الأمريكي. بعد سوفيت وويلز، لم يجذب أيُّ كتاب انتباه أورويل أكثر من رواية لندن «العقب الحديدية» المنشورة عام 1908، التي جذبت جمهوراً جديداً من القراء الأوروبيين خلال الثلاثينيات. قال عنها أورويل: «نبوءة رائعة جداً عن صعود الفاشية»، ثم بميله المعتاد للاستخفاف بالكتب التي هتته أكثر من غيرها، وصفها بـ «كتاب سيئ جداً» من نواحٍ عديدة، لكن لا يمكن نسيانه.

كتب أورويل أن لندن كان «اشتراكياً بغرائز قرصان وبتقافة ماديٍّ من القرن التاسع عشر». على الرغم من انضمامه إلى حزب العمل الاشتراكي في 1896، كان لندن عنصرياً حاداً وإمبريالياً يسترشد بفكرة هيربرت سبنسر «البقاء للأصلح» أكثر ممّا يسترشد بماركس. ذات مرّة صدم الجميع في اجتماع حزبي عندما صرخ قائلاً: «أنا أولاً وقبل كل شيء رجل أبيض، واشتراكي في المرتبة الثانية». قبل تحوُّله السياسي، كان مؤلِّف «نداء البرية» و «الناب الأبيض» يرى نفسه «أحد وحوش نيتشه الشُّقر. يرتحل

في الأرض ويفتح البلدان بشهوة، عن طريق تفوقه المطلق وقوّته الفاشمة». لقد أعاد توظيف تلك الغريزة، لكنه لم يفقدها أبدًا. في خريف عام 1905، نظّم لندن جولة محاضرات حول حتمية الاشتراكية، تفاعل خلالها أثرياء نيويورك بحدّةٍ بعباراتٍ مثل: «لقد أسأت إدارة العالم، ولسوف يؤخذ منك!». دفعه غضبهم الشديد، والثورة البلشفية المخففة في روسيا، وقراءة رواية ويلز «عندما يستيقظ النائم» إلى حبك كابوسٍ حول القمع الوحشي للاشتراكية في أمريكا.

كان من بين المعجبين اللاحقين برواية «العقب الحديدية» زعيم الحزب الاشتراكي الأمريكي يوجين دبس، والسياسي البريطاني أنورين بيشان من حزب العمل، وتروتسكي، لكن لم يدّع أيٌّ منهم -مثل أورويل- أنّ الرواية كانت قطعة نفسية من الأدب. إن قراءتها تورّث -إذا أسأنا اقتباس فيليب لاركين- الملل أولاً، ثم الخوف. يحكي الجزء المملّ من الرواية عن إرنست إفرهارد، الفحل الاشتراكي المستوحى من المؤلف، إلى درجة الاقتباس المباشر من محاضراته. الرواية ترويها آفيس عشيقّة إفرهارد، وتسرد من خلالها قصصًا فيّاضة عن تمتّع عشيقها بـ «جسد مصارع وروح نسر»، وهي قصص تصل إلى درجة حب مفرط للذات من جانب لندن. يصف كاتب سيرة المؤلف إيرل لابورز الرواية بأنها «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لو صاغتها إليزابيث باريت براوننج.

لكن إن كان النصف الأوّل محاضرةً، فالنصف الثاني حمّام دم. عندما فاز إفرهارد وفصيله الاشتراكي في انتخابات الكونجرس، انتقمت الأقلّية الرأسمالية بتفتيت النقابات العمّالية أو شرائها،

وإخضاع الإعلام والمعارضة السياسية، وسحق الطبقة الوسطى،  
 وتجنيد الميليشيات، واستخدام عملاء محرّضين للقيام بأعمال  
 شغب واعتداءات إرهابية لتسويغ تعليق العملية الديمقراطية. كما  
 كتب تروتسكي في عام 1937: «عند قراءتها، لا يصدّق المرء ما  
 يراه بأمّ عينه: إنها الفاشية في أبرز تجلّ لها، باقتصادها وأساليبها  
 الحكومية وسيكولوجيتها السياسية!». كان معجباً بتصميم لندن  
 على «زعزعة من ركنا إلى الروتين، لإجبارهم على فتح أعينهم  
 لرؤية الواقع والمستقبل الذي يقترب». تنتهي الرواية فجأة بإعدام  
 إفرهارد في الكواليس وانتصار الأقلية الحاكمة، التي تُسمّى  
 الآن «العقب الحديدية». رأى أورويل أن حكاية لندن عن ضراوة  
 الأقلية الحاكمة واعتقادها شبه الديني بنزاهتها كانت «أحد أفضل  
 التصريحات التي كُتبت في التاريخ عن المستقبل الذي لا بُدّ أن  
 الطبقة الحاكمة ستحظى به إذا قُدِّر لها الاستمرار». باختصار:  
 «السلطة، لا الرب ولا شيطان الجشع، لا شيء إلا عبادة السلطة».  
 رأى أورويل أنه من المستحيل تحديد إلى أين كانت رحلة  
 لندن السياسية ستقوده لو لم يمت في عام 1916 عن عمر يناهز  
 الأربعين. كان من الممكن أن يتحوّل إلى شيوعي أو تروتسكي أو  
 أناركي أو نازي. «فكرياً كان يعرف أن الاشتراكية تعني أن يرث  
 الودعاء الأرض، لكن هذا لم يكن يتوافق مع طبيعته. على الأقل ما  
 كان ليرتكب خطأ عدم أخذ هتلر على محمل الجدّ»، هكذا كتب  
 أورويل. بسبب «نزعتة الوحشية» و«فهمه للبدائية»، كان لندن  
 «نبياً أفضل من مُفكرين كثر أكثر استنارة ومنطقية» مثل ويلز.  
 مثل هذه البصيرة النافذة للعنف والسلطة لن يملكها غير رجل  
 حافظ على بعض الصّلة بالوحش الأشقر الذي بداخله. كتب

أورويل: «يمكنك القول إنه يستطيع فهم الفاشية لأنه يحمل بذور الفاشية داخله». ربّما إذا لم يكن أورويل بدوره ليبتكر وزارة الحب ما لم يكن يحمل بذور الوحشية.

ربّما تكون رواية «العقب الحديدية» قد ألهمت التسلسل الهرمي للأقلية الحاكمة، والعوام، وصورة الحذاء الذي يبطأ وجه الإنسان إلى الأبد في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كتب أورويل لأول مرة عن «صورة الحذاء الذي يهبط على وجه إنسان» في مقال «الأسد واليونيكورن»، واستخدم الحذاء كمجاز عن عنف الدولة ما يقرب من عشرين مرة في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». ومع ذلك، ربّما كانت أعظم هدية قدّمها لندن لأورويل هي البناء الراوئي. تحتوي كلُّ من «رحلات جليشِر» و «النظر إلى الماضي» على مقدّمة من محرّر وهمي، كي تُقرأ على أنها مذكرات لا رواية، لكن لندن ذهب إلى أبعد من ذلك. لقد صاغ حكاية آفيس عن عشيقها على أنها «مخطوطة إفرهارد»، وهي وثيقة قدّمها وكتب لها الهوامش أنطوني ميرديث، المؤرخ الذي يعيش في المدينة الفاضلة الاشتراكية في القرن السّابع والعشرين، ويُعدُّ النص «تحذيرًا للمنظرين السياسيين المتهورين الحاليين، من يتحدّثون بيقين عن التطوّرات الاجتماعية». تُعدُّ هوامش الرواية أداة لإدخال السياق السياسي في السرد القصصي إلى حدٍّ كبير، لكنها توضّح أيضًا أن الأقلية الحاكمة المعروفة بالـ «العقب الحديدية» أُطيح بها أخيرًا بعد ثلاثة قرون، وحلّت محلّها أخوية إنسانية.

يقودنا هذا إلى ما سأسمّيه «نظرية الملحق».

\*\*\*

«النهاية» ليست آخر كلمة في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». الكلمة الأخيرة الفعلية هي «2050»، التي تختتم الملحق المعنون بـ «مبادئ اللغة الجديدة». لهذا الملحق سمتان بارزتان: الأولى أنه مكتوب بإنجليزية القرن العشرين المعروفة باسم اللغة القديمة، والثانية أنه مكتوب بصيغة الماضي. لذا فهو يثير بعض الأسئلة الملحة: من كتبه، ومتى، ولمن؟

يُوجد تفسيران محتملان لهذا: التفسير الأوّل هو أنه خطأ فادح من المؤلّف الذي بدا -بخلاف ذلك- متحكّمًا بشكل كامل في أدواته، وكان بإمكانه بسهولة إضافة تحليل «اللغة الجديدة» إلى كتاب جولدشتاين. التفسير الآخر، أو نظرية الملحق، هو أن قصة ونستون سميث نصّ داخل عالم الرواية مؤلّفه مجهول، ومن هنا جاء الهامش الوحيد في الفصل الأوّل الذي يُحيل القراء إلى الملحق.

منطقيًا، هذا يعني أن كل الحقائق المذكورة حيّة بدقّة في ذاكرة التاريخ، وأن اللغة الإنجليزية لم يُقض عليها بحلول عام 2050، وهذا يعني بالتبعية أن حزب الإنجوسك لم يدم «إلى الأبد». لا بُدّ أن ونستون كان مخطئًا عندما ظن أن «اليوميات ستتحول إلى رماد وأنه هو نفسه سيتلاشى»، لأنّها هو مؤلّف الملحق يعرف القصة كاملة. يكمن في سرد الملحق النزاهة الدقيق لتاريخ اللغة الجديدة نهاية سعيدة من نوع ما: إنه صدّع في بدن اليأس الهائل. لا يستطيع ونستون لمس التغيير في «زمنه الحالي»، لكنه يتصوّر «ترك بعض السجّلات خلفه، كي يتمكّن الجيل التالي من الماضي قدمًا من حيث انتهينا». في مقدّمتها للنسخة المسرحية من



الرواية عام 2013، وهي أول معالجة دمجت الملحق في أحداثها، كتب روبرت آيك ودانكان ماكميلان أنه «يفتح بجرأة شكل الرواية ويعكس تساؤلاتها الجوهرية إلى القارئ مرةً أخرى. يمكنك الوثوق بالأدلة؟ كيف يمكنك تمييز الحقيقة؟ وفي أي عصرٍ ومكان أنت الآن أيها القارئ؟».

أبرز مناصر لنظرية الملحق هي مارجريت آتوود. «أورويل أكثر تفاؤلاً ممّا يعتقدّه الناس»، هكذا قالت في عام 1986. وفي مقابلة لاحقة أضافت أن كثير من الروايات الديستوبية «لديها قالب محدّد، وهو أن كل تلك الأشياء الفظيعة حدثت في يوم من الأيام، لكننا الآن ننظر إليها من المستقبل». ملحق آتوود الذي بعنوان «الملاحظات التاريخية» في رواية «حكاية الجارية» يتبع القالب نفسه، وينظر إلى عالم استبدادي لا يُطاق في الماضي من ملاذ عام 2195 الآمن. تقول آتوود: «التفاؤل شيء نسبي، بصيص الأمل شيء جيّد. لم نعد نؤمن بالحياة السعيدة الدائمة، لكن يمكننا التعايش من بصيص الأمل».

هذه إذاً هي نظرية الملحق.

\*\*\*

كان أحد آخر الأعمال التي كتبها أورويل لصالح «القطاع الهندي» هي المعالجة الدرامية لقصة إتش جي ويلز القصيرة «زلة تحت المجهر» المنشورة عام 1896، وهي حكاية صغيرة عن التحيز الطبقي والبيروقراطية التي لا ترحم والمصير القاسي، النابعة جميعاً من تجارب الكاتب في «مدرسة العلوم القياسية». بعد حفل العشاء الناري في لانجفورد كورت، أخبر وليم إمبسون

إنز هولدن بأنه يعتقد أن ويلز غضب لأن أورويل كان وقحًا. ردّت هولدن قائلة بل إن ذلك كان لأن ويلز اعتقد أن أورويل كان مخطئًا. وقد كان أورويل مخطئًا بالفعل، أو اختزاليًا على الأقل، عندما سخر من الرجل الأكبر سنًا باعتباره مؤثرًا ذا حظوة لا يملك أدنى فكرة عما تواجهه الديمقراطية. في الواقع، كان ويلز عجوزًا مكتئبًا تنتابه ميولٌ انتحارية بين الحين والآخر. كانت رؤاه اليوتوبية في حقيقة الأمر تحذيرات بقدر ما كانت نبوءات: إما أن تتّبع البشرية طريق التقدم (كما وصفه ويلز) وإما تنزلق مرّة أخرى إلى الهاوية. ويبدو أنها اختارت الأخيرة. «نحن الشعب البريطاني مجموعة من الحمقى لا أمل في تعليمهم، في حربٍ مع مجنون مُعدٍ وضحاياهم». هكذا كتب ويلز إلى برنارد شو في عام 1941.

ليس من المستغرب إذاً أن ينفجر ويلز غضبًا كلّما شعر أن شخصًا ما يُشوّه تاريخه المهني. السّمعة شيء نفيس وهش ويجب الدفاع عنها. كان يؤمن بأن سيرته المهنية برمتها تمثّل «أوضح إصرار على طرح مخاوف التّقدّم وإمكانية اضمحلال الإنسان وانقراضه... أعتقد أن الاحتمالات ليست في صالح الإنسان ولكن الأمر لا يزال يستحق القتال ضدها». لذا تساءل كيف أن شخصًا ذكيًا مثل أورويل لم يلتفت إلى تلك النقطة الجوهرية؟ بنهاية العقد، سيكتشف أورويل بنفسه شعور المرء عندما يرى وجهة نظره الأساسية تجاه العالم يُساء فهمها.

اقرأ أعماله المبكرة أيها القدر.

في الوقت الذي أُذيعت فيه معالجة «زلة تحت المجهر» في أكتوبر عام 1943، كان أورويل قد قدّم استقالته بالفعل من هيئة الإذاعة البريطانية. «ربّما سأعود شبه إنسان مرّة أخرى في وقت ما من عام 1944 وأتمكّن من كتابة شيءٍ جادٍ. في الوقت الحالي أنا مجرد ثمرة برتقال صارت مداسًا لكل حذاءٍ قذرٍ»، هكذا كتب إلى راينر هبنستال، صديق قديم له كان يعمل حاليًا في قسم آخر من هيئة الإذاعة البريطانية. ابتهجت آيلين من قرار استقالته، وأخبرته لاحقًا: «أظن أنك لو امتنعت جمع القمامة سيكون أكرم لك وأفضل لمستقبلك ككاتب».

في خطاب استقالته، شدّد أورويل على أنه عُوْمِلَ بشكلٍ جيّدٍ وأُتيح له قدرٌ كبير من الحرية: «لم أجبر ولا مرّة على أن أقول شيئًا على الهواء لم أكن لأقوله كشخص عادي». كانت تلك مبالغة مهندبة، فقد وُبّخ ذات مرّة لأنه مرّر نقدًا لستالين في بثٍّ إخباري، لكن السبب الرئيسي وراء استقالته كان افتناعه المزعج بأن عمله لم يكن سوى مضيعة لوقته ولأموال الشعب. لم يكن في الهند غير 121 ألف جهاز راديو، في دولة يبلغ عدد سكّانها ثلاثمئة مليون نسمة، ولم يكن أولئك الذين يستمعون بالفعل يألّفون عادة الكتابة ليرسلوا آرائهم. عندما أُجرت هيئة الإذاعة البريطانية استطلاعًا للمستمعين، كانت نسبة تأييد أورويل منخفضة، إلى حدٍّ 16 بالمئة. فقط بعد الحرب علِمَ أن عمله لم يكن له أيُّ معجبين في الهند على الإطلاق. لم يقرأ أبدًا التقرير الداخلي المفعم بالحماسة الذي كتبه راشبروك وليمز، مدير «القطاع الهندي»، الذي أشاد بموهبته وأخلاقياته في العمل ونزاهته:

«إن صادق تمامًا وليس من شيمه الخداع، وفي العصور القديمة كان سيُعلن قديسًا أو سيُعدم حرقًا، وكان سيَتَقَبَّلُ أيُّ المصيرين بشجاعة رزينة». في اليوم الذي غادر فيه، أقام له زملاؤه حفلة مفاجئة. كانوا يخشون أنهم إذا أخبروه مسبقًا، لما كان ليحضر. لقد شهد أورويل أسلوب عمل آلة البروباجندا على الأقل عن طريق وظيفته ووظيفة آيلين، وقد تركه هذا مهووسًا بصناعة الكذب. تمامًا مثلما علّمه توجّهه الإمبريالي أن يكره الإمبريالية، ومثلما أكسبته مؤاخاة المتشرّدين وعمّال المناجم إحساسًا عميقًا بالظلم الاقتصادي، ومثلما عزّز القتال في إسبانيا معارضته لكل من الفاشية والشيوعية، أعطاه عمله الإذاعي -حتى وإن كان حميدًا بشكل بنسبي- السلطة الأخلاقية لنقد البروباجندا بأشدّ لهجة. في مقال طويل بعنوان «تأمل الحرب الإسبانية من جديد» كُتب عام 1942، فهم أورويل بشكل أفضل ما رآه يتكشف في إسبانيا: «للمرّة الأولى أرى تقارير إخبارية ليس لها أدنى علاقة بالأحداث، ولا حتى تلك العلاقة التي تتطوي عليها كذبة عادية... رأيت أن التاريخ يُكتب ليس من منظور ما حدث بل بما كان يجب أن يحدث وفقًا لمختلف «التوجّهات الحزبية»».

كان هذا أمرًا جديدًا، هكذا فكّر. في الماضي، كان الناس يُدانون بالخداع المتعمّد أو التحيُّز اللاواعي، لكنهم على الأقل كانوا يؤمنون بوجود الحقائق ويميّزون بين الصواب والخطأ. أما الأنظمة الشمولية فتكذب على نطاق هائل إلى درجة جعلت أورويل يشعر أن «مفهوم الحقيقة الموضوعية نفسه يتلاشى من العالم». ما كان مجرد فكرة في عام 1937 تحوّل إلى اقتناع

سِيُشكّل الركيزة التي تتكئ عليها وزارة الحقيقة ومصدر سلطة حزب الإنجوسك الحقيقي: هذه السلطة «لا تتحكّم في المستقبل فحسب، بل في الماضي. إذا قال الزعيم عن حدث ما إنه لم يحدث قط، فهو لم يحدث قط. إذا قال إن  $2 + 2 = 5$ ، إذا  $2 + 2 = 5$ . هذا الاحتمال يخيفني أكثر من القنابل، وبعد التجارب التي خضناها في السنوات القليلة الأخيرة، ليس هذا تصريحاً تافهاً». هنا تكمن بلا شك الأسس الأخلاقية والفكرية لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». حرب الشمولية على الواقع أكثر خطورة من البوليس السري والمراقبة المستمرة أو الحذاء الذي يطاء وجه الإنسان، لأن في «هذا العالم الوهمي المتغيّر الذي قد يصبح الأسود فيه أبيض غداً ويمكن فيه تغيير طقس الأمس بفرمان» لا توجد أرضية صلبة لشنّ تمرّد، ولا ينجو أيّ ركن من أركان العقل من فساد وتشويه الدولة. إنها سلطة تمحي إمكانية تحدي السلطة. لهذا السبب لم يكف أوبراين إجبار ونستون على قول إن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة، ولم يريح حقاً إلا عندما آمن ونستون أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة.

خلال فترة عمل أورويل في هيئة الإذاعة البريطانية، انقلبت كفة الحرب. عندما بدأ يومه الأوّل في «مدرسة الكاذبين» في أغسطس عام 1941، كانت ألمانيا تهيمن على أوروبا وتقدّم إلى موسكو، واليابان تجتاح جنوب شرق آسيا، ولم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب بعد. لكن في شهر نوفمبر عام 1943، كانت قوات هتلر قد طُردت من شمال إفريقيا ومن معظم الاتحاد السوفيتي، واستسلمت إيطاليا للحلفاء، ووصف الإمبراطور

هيرو هيتو الوضع الياباني بأنه «خطير حقًا». كان تشرشل وروزفلت وستالين على بعد أيام من الاجتماع في طهران لمناقشة «مناطق النفوذ» بعد الحرب، وهي القِمة التي وصفها أورويل بأنها شكّلت إلهامًا مبكرًا جدًا لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كانت مسألة وقت فقط قبل أن تنهار ألمانيا واليابان. تحوّل عقل أورويل إلى الاهتمام بمستقبل الشمولية، الآن بعد أن هُزمت الفاشية وبدأت الاستالينية تنتفش بالكبرياء.

في مرحلة ما رسم الخطوط العريضة لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، التي كان عنوانها وقتها «آخر رجل في أوروبا» (نجا أثرٌ من ذلك العنوان الأصلي في كلمات أوبراين الساخرة: «إن كنت رجلًا يا ونستون، فأنت آخر الرجال. لقد انقرض نوعك، ونحن الوارثون»). إن دفتر يوميات أورويل غير مؤرخ، ويبدو واضحًا أن محتوياته منسوخة من مسوّدَة أو أكثر، لكن يميل الباحثين إلى إرجاع وقت كتابة خطوط الرواية العريضة إلى نهاية عام 1943 أو بداية عام 1944. بعض مكونات الرواية الجوهرية لا تظهر في هذا المخطّط، ولكن المحتوى الأساسي موجود، بما في ذلك حزب الإنجوسك واللغة الجديدة والتفكير المزدوج والتأثير الذي خطّط لخلقه: «الأجواء الكابوسية الناتجة عن اختفاء الحقيقة الموضوعية». تلك العبارة مرّة أخرى. إن لم يكن هناك شيء آخر، فإن الفترة التي قضاها في هيئة الإذاعة البريطانية منحت هذه الأفكار المستهلكة وقتًا كي تتطوّر إلى مفاهيم معقّدة.

نُشر مقال «تأمل الحرب الإسبانية من جديد» في «نيو رود» في يونيو 1943، محذوفًا منه أجزاء جوهرية تحدّث عن الدعاية

وإساءة استخدام التاريخ. لن يُنشر الأصل كاملاً حتى عام 1953، وهذه خسارة كبيرة، لأن هذه الأجزاء لم تشرح فقط الأفكار الكامنة وراء «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، بل شكّلت دفاعاً استباقياً عن الكتاب ضد أي شخص سيُتهمه مستقبلاً بالإغراق في المليونيراما الهستيرية. «هل من التصابي أو التشاؤم أن يُفزع المرء نفسه برؤى مُستقبلٍ شمولي؟»، هكذا تساءل أورويل. «قبل نبذ فكرة العالم الشمولي باعتبارها كابوساً لا يمكن أن يتحقّق، تذكّروا أن عالمنا الحالي كان سيبدو كابوساً لا يمكن أن يتحقّق في عام 1925».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«أعلم أن لدي عادة مزعجة جدًا هي التزوُّه بما أراه حقيقة بدلاً من قول ما قد يكون ملائمًا في الوقت الراهن».

يفجيني زامياتن، خطاب إلى ستالين، 1929.

في يناير 1944، لفت بروفيسور في الأدب روسي المولد يُدعى جليب ستروف انتباه أورويل إلى رواية يفجيني زامياتن «نحن المناهضة للليوتوية، التي كُتبت بين عامي 1920 و1921. ردَّ أورويل: «أنا مهتم بهذا النوع من الكتب، حتَّى أنني أدوّن ملاحظات لنفسي من أجل رواية سأبدأ في كتابتها آجلًا أو عاجلاً».

عثر أورويل في ذلك الصيف على نسخة من الترجمة الفرنسية المنشورة عام 1929 بعنوان «نوز أوتغ»، وكتب عنها في النهاية في مجلَّة «تريببون» في يناير عام 1946 تحت عنوان «الحرية والسعادة». كان الحكم الذي أطلقه أورويل عليها أنها «ليست عملاً من الطراز الأوَّل، لكنها عملاً فريداً بلا شك»، وأشار إلى أن «عالم جديد شجاع» «يجب أن تكون اشتُقَّت جزئياً منها». في رسالة لاحقة إلى فريدريك واربيورج، تجاوز ذلك إلى «سُرقت جزئياً». لم يكن هذا ادِّعاءً متماذياً - فقد قال كورت فونيغوت شيئاً مشابهاً لاحقاً - لكن هكسلي لم ينفك عن نفي أنه قرأها،



وقد صدّقه زامياتن في ذلك قائلاً إن التشابه «يثبت أن تلك الأفكار تحوم في الهواء العاصف الذي نتنفسه».

جاءت العاقبة لأورويل في صورة اتّهام نُقّاد عديدين له بأنه سرق من «نحن». الأوّل كان المؤرّخ آيزك دويتشر، الذي اتّهم المؤلّف بانتحال «فكرة 1984» وحبكتها وشخصياتها الرئيسية ورمزيّتها وأجوائها العامّة» من رواية «نحن». في هذا الادّعاء ثلاث مشكلات. الأولى: بالغ دويتشر في التشابه بين الروايتين. الثانية: كما رأينا، كان أورويل قد كتب خطوط روايته العريضة قبل أن يقرأ «نحن» بأشهر. الثالثة: بذل أورويل جهوداً متكررة لإعادة نشر رواية زامياتن بالإنجليزية وشجّع قُراءه أكثر من مرة على «البحث عن هذا الكتاب». بالتأكيد ليس هذا ما يفعله عادةً مُنتحلو الأدب. إن الأصالة مفهومٌ محيّر في الأدب الروائي. نحن لا نثّهم كل من يكتب عن محقّق عبقرى غريب الأطوار بالسرقة من آرثر كونان دويل. الخيال اليوتوبي بدوره نوعٌ أدبي فيه مجموعة من الأفكار والموضوعات المتكرّرة. أثر إدوارد بلامى في وليم موريس، وأثر كلاهما في إنش جي ويلز. وأثر ويلز في هكسلي وأورويل وزامياتن، وقد قدّم كل هؤلاء الكُتّاب أفكاراً وتقنيات وأساليب جديدة رائدة. كما قال موريس، كل عملٍ «يُعبّر عن مزاج مؤلّفه». ومع ذلك، من المستحيل قراءة رواية زامياتن الغربية المتبصّرة من دون تذكّر القصص التي كُتبت بعد ذلك، بما في ذلك رواية أورويل.

وصف زامياتن «نحن» بأنها «أهم أعمالى وأخفّها ظلاً». تدور

أحداث الرواية التي بدأ كتابتها في بتروجارد<sup>(28)</sup> عام 1920 -وهو في سنِّ السادسة والثلاثين- بعد مئات السنوات في المستقبل، في دولة واحدة استبدادية متطرّفة التعقُّل، في تعبير متَّسم بالغلو عن اعتقاد المؤلِّف بأن الحياة الحضرية «تجرّد البشر منُ فرديتهم، وتجعلهم نسخًا متشابهة شبه آليّة». يشحذ زامياتن أفكار ويلز ودوستوفسكي ويطوِّرها إلى نموذج قوي لحكايات عديدة عن الفردية في مواجهة التماثل. يحكي لنا زامياتن عن عالم يحكمه ديكتاتور غامض لا اسم له يتظاهر بأنه حامي الحمى، ويلقّب نفسه بـ «المُنعم»، يعيش الناس في ظلِّ حكمه في دولة واحدة تمثِّل «انتصار الكل على الفرد»، يرتدون زيًّا موحدًا ويمنحون أرقامًا بدلًا من الأسماء. يلغي الديكتاتور الخصوصية بإسكان هؤلاء «المرفَّقين» في منازل زجاجية تراقبها الشرطة السرية («الحراس») باستمرار، باستثناء «ساعة الجنس» التي تفرضها الدولة، والتي تُنظَّم -في عالم بلا حب- عن طريق التذاكر. يُقدِّم لهم طعامًا مصنَّعًا، ومناخًا ثابتًا تحت السيطرة، وموسيقى آليّة (كالتي ظهرت في رواية أورويل)، ويجبرهم على القيام بطقس يومي يُدعى «جدول الساعات»، يحاكي بسخرية «مبدأ الكفاءة» للمستشار الإداري فريدريك وينسلو تايلور. يشيّد الديكتاتور كذلك مدينة زجاجية هندسية مستقيمة الخطوط على غرار معمار بتروجارد، يقع خلفها ما يُسمَّى بـ «الجدار الأخضر»، وهي برّية جامحة تمثِّل دوافع الإنسانية الرجعية. يؤسّس زامياتن في روايته كذلك لشخصية الجبان النمطية: ترس الآلة الرعديد الذي تدفعه أنثى خلابة مهرطقة إلى التمرد.

28- \* تغيّر اسم مدينة سانت بطرسبرج إلى بتروجراد في عام 1914. ثم صارت لينينجراد في عام 1924، وعادت إلى اسمها الأصلي في عام 1991. (المؤلِّف).

على الرغم من أهميتها، لا تحظى رواية «نحن» بشعبية كبيرة لأنها عملٌ صعب. إن متابعة المرء لأسلوب زامياتن الموجز الانطباعي تُشعره بأنه يدرس إحدى لوحات معاصريه مالفيتش وإل ليسيتزكي، التي تتكوّن من محض ألوان وأشكال. على سبيل المثال، أسراب الطيور «مثلثات حادة سوداء نافذة تهبط»، والضحك «مفرقات نارية حمراء وزرقاء وذهبية»، فضلاً عن أنه يصف علم التشريح كما الهندسة. أراد زامياتن لغة مناسبة لعالم متسارع. كتب في عام 1923: «عندما تتحرّك بسرعة، لا تلمح العين المألوف والمعتاد، ولهذا استخدمت الرمزية والمفردات غير المألوفة والمدهشة في كثير من الأحيان. الصورة التي أريد رسمها حادة واصطناعية وتتمتّع بخصيصة بارزة واحدة: خصيصة المشاهد التي تلمحها من سيارة مسرعة». أراد زامياتن أيضاً التعبير عن عقلية راويه، دي 530. استخدم كُتّابٌ مثل بلامي وويلز بطلاً معاصراً كنائب عن القارئ، لكن زامياتن الذي انغمس مباشرة في المستقبل احتاج إلى لغة جديدة لتحريك عالمه الجديد. فيما بعد قارن كتاباته بالسينما: «لم أشرح قط، بل استعرضت وأوحيت دائماً».

دي 530 هو عالم رياضيات يعمل على مركبة الفضاء «إنتجرال»، التي تهدف إلى توسيع رقعة الدولة الواحدة إلى كواكب جديدة، ويكتب في يومياتٍ تشرح عالمه للقراء الذين يعتقد أنهم سيصبحون أسلافه البربريين. إن حكيه المتعجرف والمتعالي عن «السعادة المعصومة رياضياً» يحاكي النبرة الإنجيلية للمرشدين السياحيين اليوتوبيين، مثل الدكتور ليتي الذي ابتكره بلامي. يقول دي 530:

«إن شرح كل هذا أمرٌ مسلٌّ، وفي الوقت نفسه شاقٌّ جداً». أحب زامياتن رواية «اليوتوبيا الجديدة» لجيرونم كيه جيرونم، وثمة فكاهاة بالفعل في شروحات دي 530 المتفاخرة بصدق، مثل عنوان ملهاة الدولة الواحدة المساوية «هو الذي تأخر عن العمل».<sup>(29)</sup> لكن ينتهي الأمر بدي 530 إلى توثيق رحلة عقله المفكك بدلاً من ذلك، عندما يشيع الاضطراب في معادلة حياته المثالية بسبب القيمة المجهولة إكس والرقم المستحيل  $1 - \sqrt{v}$ . وفي أثناء تعطُّله الفكري «كمحرِّك آلة يُجبر على الدوران بسرعة فائقة»، تُصاب كتاباته بذكریات معيبة وانتكاسات وتناقضات وشكوك وأحلام: إنه «المرض القديم» الذي أصابه من الثورة المتحرِّرة جنسياً أي 330. وتبدأ قصته تتقلَّب منه.

شعر أورويل أن لـ «نحن» «حبكة ضعيفة غير مترابطة نوعاً أعقد من أن تُلخَّص». لتيسير الأمر، إنها تتضمَّن عصابة من الثوَّار تُسمَّى ميفي تحاول اختطاف السفينة «إنتجرال» وتفجير الجدار الأخضر وإسقاط الدولة الواحدة، كل ذلك بمشاركة متردِّدة من دي 530. يُقاوم «المنعم» عن طريق ما يُدعى بالعملية الكبرى، وهي عملية شبيهة بالجراحة الفصّية تزيل المخيَّلة وتجعل المواطنين «على قدم المساواة مع الآلة» وتجعل «الطريق إلى السعادة الكاملة واضحاً». بئس المجتمع المثالي الذي يتطلَّب عقولاً مثالية. ينتهي الكتاب بتعذيب أي 300 إلى الموت وهي

29- \* كان الفكاهاي البريطاني جيرونم كيه جيرونم محبوباً جداً في روسيا. وفقاً للمؤرِّخ برايان موينهان فإن «كل كشك كتب من موسكو إلى هارين كان به نسخة من رواية جيرونم ثلاثة رجال في قارب». (المؤلف)

تبتسم، وباستسلام دي 530 الذي يصر على أن الدولة الواحدة سوف تريح: «لأنه ينبغي للمنطق أن تريح».

لم ينته صراع زامياتن نفسه مع الدولة بشكل جيد. بالنسبة إلى هذا الرجل الرائع، الذي دائماً ما تطفئ مبادئه على غريزة حماية النفس، كانت «نحن» بالتحديد الرواية التي حطمت حياته. لهذا وصفها أورويل بأنها «واحدة من الأعمال الأدبية الغريبة اللافتة للنظر في عصر تحريق الكتب الذي نعيشه».

كتب زامياتن ذات مرة: «ربما لم أكتب أكثر القصص إثارة للاهتمام أو أكثرها جدية، لكنها حدثت لي».

\*\*\*

كان يفجيني زامياتن عازماً على جعل الحياة صعبة على نفسه. وُلِدَ الرجل في بلدة ليبديان الإقليمية في 1 فبراير 1884، وكان صبيًا وحيداً يعيش حياته في الكتب. «كان نيقولا ي جوجول صديقي»، هكذا كتب، كأنما لم يكن يحتاج إلى آخرين. عندما تخرَّج في المدرسة في فورونيج عام 1902، حصل على ميدالية ذهبية لإنجازاته الأكاديمية، بالإضافة إلى تحذير. أطلعته مفتش المدرسة على كُتَيْبٍ لأحد خريجي فورونيج اعتُقل بسبب أنشطته الثورية قبل ثلاث سنوات: «هو أيضاً أنهى دراسته بميدالية ذهبية، ثم ماذا حدث له؟ انتهى به الأمر في السجن. نصيحتي لك: لا تكتب. لا تسلك هذا المسار». أضاف زامياتن في رواية هذه الحكاية: «لم يكن لتحذيره أي تأثير».

هذا على الأقل ما رواه زامياتن في واحدة من ثلاث مسودات السيرة الذاتية التي كتبها للصحف الروسية خلال عشرينيات القرن الماضي. سواء تَمَّتْ المحادثة على هذا النحو أم لا، هذا

غير مهم. هذه هي القصة التي أراد أن يرويها: قصّة الرجل الذي سبّح عكس التيار مهما كلفه الأمر. وصفه ستروغ بأنّه «متمردٌ أبدي على طبائع الأشياء الراسخة».

ذهب زامياتن لدراسة الهندسة البحرية في معهد سانت بطرسبرج للعلوم الهندسية، لتستقبله مدينة تتنازعها التجمّعات والمظاهرات الثورية. «في تلك السنوات، أن تكون بلشفيًا كان يعني اتّباع مسار المقاومة الأكبر، وقد كنت بلشفيًا في ذلك الوقت»، هكذا كتب. على مدار العقد التالي، اعتقلته شرطة القيصصر ثلاث مرّات. خلال إحدى فترات إجبارة على المنفى خارج المدينة، بدأ يكتب الروايات. قال مازحًا لاحقًا: «إن كنت أحظى بأيّ مكانة في الأدب الروسي، فأنا مدين بها بالكامل لشرطة سانت بطرسبرج السريّة». في أثناء الحرب العالمية الأولى، كان زامياتن متمردًا معروفًا ومواطنًا ذا قيمة لديه مهارات لا يمكن أن تخسرها روسيا. في مارس عام 1916، بُعث إلى بريطانيا لتصميم وبناء كاسحات الجليد للبحرية الروسية. انخرط زامياتن في المجتمع الإنجليزي بشكلٍ جيّد، فهو حليق ووسيم وأنيق ويحب ارتداء البزّات الصوفية وتدخين الغليون، وشعر أصدقائه أنّه يتمتّع باحتياطي عاطفي لا يختلف عن رجل إنجليزي. هناك كتب رواية «سكّان الجزيرة»، وهي هجاء شديد اللهجة لخنوع الطبقة الوسطى. عاد زامياتن إلى بتروجارد قبل أسابيع قليلة من قيام ثورة أكتوبر. شعر زامياتن -الذي لم يعد بلشفيًا- كأن قنبلة أُلقيت في فبراير وظلّت تتدحرج لمُدّة ثمانية أشهر قبل أن تتفجر بالفعل. كتب بعدها: «عندما انقشع دُخان هذا الانفجار الهائل أخيرًا، اتّضح

أن كل شيء مقلوب رأسًا على عقب: التاريخ، والأدب، والرجال، وسيرهم».

كان لزامياتن نظرة جدلية عن التاريخ. «الأمس أطروحة، واليوم نقيض تلك الأطروحة، والغد توليفٌ بينهما»، هكذا كتب في مقال بعنوان «الغد» عام 1919. كان يعتقد أن التوليفة السياسية الروسية، التي تضمن العدالة الاجتماعية وحرية الفرد، لم تأت بعد. أضاف إلى ذلك فكرة العالم الفيزيائي الألماني يوليوس روبرت هون ماير حول الصراع الكوني بين الثورة وقوة الحياة والإنتروبيا التي تميل نحو الركود والموت. كانت الدوجمائية في نظر زامياتن إنتروبيا سياسية. «عدم الرضا الأبدي هو الضمان الوحيد للتقدم الأبدي، هو الضمان الوحيد للخلق الأبدي. لا يحيا العالم إلا بالهرطقة: المسيح المهرطق، كوبرنيكوس المهرطق، تولستوي المهرطق».

وقع زامياتن وسط مجموعة من الكتّاب، بقيادة الناقد رازومنيك إيثنوف رازومنيك، الذين سمّوا أنفسهم الإصقوث، تيمُّنًا باسم قبيلة من الرُّحل كانت تجوب السهوب الروسية قبل ألفي عام. لكن سرعان ما افترق زامياتن عن المجموعة لأنه كان يعتقد أن القول بأن ثورة أكتوبر هي الإجابة النهائية وتحويل البلشفية إلى دين جديد، هو قولاً غير إصقوثي في جوهره. وأصر على أن الإصقوثي الحقيقي هو متمرّد دائمًا «يعمل فقط للمستقبل البعيد، لا المستقبل القريب أو الحاضر على الإطلاق». كانت كلماته مثيرة ومثقلة في الآن ذاته. فوسط حرب أهلية طويلة ودموية لحماية الثورة، لم يرغب معظم الناس في العيش والموت من أجل المستقبل البعيد. ضمن زامياتن بشكل عملي

أن الشرطة السريّة البلشفية الجديدة، الـ «تشيكا»، ستكرهه مثل سالفها القيصرية. أُغلقت المجلّات التي تجرّأت على نشر مقالاته النضالية وقصصه القصيرة الساخرة. في فبراير 1919، اعتُقل زامياتن، لكنه خرج من السجن عن طريق الإقناع، ووجد راعياً متعاطفاً معه هو مكسيم جوركي.

قابل زامياتن جوركي أوّل مرّة عندما عاد إلى بتروجارد في خضم فوضى سبتمبر 1917، لذا ارتبط في ذهنه دائماً بصوت الرصاص. بشاربه المصفر من أثر التبغ وسعاله الصاخب، كان مكسيم جوركي وهو في التاسعة والأربعين عملاق الأدب الروسي. اشتهر بمسرحيته الواقعية الاجتماعية «الحضيض» عام 1902 وبدعمه المبكر للبلاشفة، ممّا أدى إلى سجنه ونفيه. اختلف مع صديقه القديم لينين في عام 1917، لكنه أصلح الجسور بينهما في العام التالي واستخدم نفوذه لدعم الكتاب ذوي الأوضاع الأكثر هشاشة.

خلال الحرب الأهلية، عندما كان الشعب الروسي يعاني لتوفير الخبز والوقود، فما بالك بالكتب، استطاع الكتاب أصحاب العقليات الدعائية وحدهم كسب لقمة العيش. كان الإصلاح في نظر جوركي هو أن يصبح -على حد تعبير زامياتن- «أقرب إلى وزير ثقافة غير رسمي، ومنظّم أشغال عامّة للمثقفين الجائعين الذين خرجوا عن المسار». ولكونه الجسر البشري الوحيد بين الفنانين والبيروقراطيين، أسّس جوركي منظمات تشمل «بيت الفنّون»، وهو قصر حوّله إلى سكنٍ جماعي للكتاب، ودار نشر «الأدب العالمي» التي ترجمت الأعمال الكلاسيكية بمقدّمات جديدة لكتاب روس. غمرته الطلبات من عائلات الرجال الذين اعتقلتهم



شرطة الـ «تشيك»، وكثيراً ما سافر إلى الكرملين لتقديم التماس شخصي إلى لينين لإطلاق سراحهم. في عام 1920، شارك زامياتن في تأسيس اتحاد الكتّاب الروس، أو «الفي إس بي»، وتولّى إدارة المكتب في بتروجارد. «الكاتب الذي لا يستطيع أن يكون (فهلويًا) عليه -إذا أراد البقاء على قيد الحياة- الذهاب يوميًا إلى مكتب وفي يده حقيبة جلدية للعمل»، هكذا كتب. كان (الفهلوية) هم الكتّاب المرنون فكريًا الذين اتّبعوا توجيهات الحزب. «يجب بالفعل أن تكون بهلوانًا»، هكذا قال أليكسي تولستوي، وهو كاتب أرستقراطي أعاد اختراع نفسه بسلاسة ليكون متملّقًا رشيّقًا. رأى زامياتن أن هذا انتحارًا فنيًا: «الأدب الحقيقي لن يُوجد إلّا عندما تبتدعه قرائح المجانين والنُّسّاك والهرطقة والحالمين والمتمردين والمتشكّكين، لا عقول المسؤولين الدؤوبيين ذوي الثقة». كان رجلًا مشهورًا، «سهل الإقناع، وسريع البديهة، ونشط في عمله، وسلسًا»، كما قال أحد زملائه، ومصدر إلهام لمدرسة الكتّاب التجريبيين الشباب المعروفة باسم «الإخوة سيربيون». كان كذلك «بابوتشيك»، أو «رفيق الرحلة»، وهو المصطلح الذي أطلقه تروتسكي على المثقّف الداعم لأهداف الثورة من دون أن يكون عضوًا في الحزب الشيوعي. لم يكن رفاق الرحلة محبوبين، لكن كان يُفضّل الطرف عنهم في ذلك الوقت.

بصفته عضوًا في «مجلس التخطيط التحريري للأدب العالمي»، حرّر زامياتن وقدم عدّة مجلّدات لإتش جي ويلز، لكونه كان يعشق «حكاياته الميكانيكية والكيميائية الخرافية» عن عصر الطائرات والأسفلت. عندما زار ويلز بتروجارد في عام 1920،

ألقى زامياتن كلمة في المأدبة التي أقيمت على شرفه. في مقاله «إتش چي ويلز» المنشور عام 1920، فهم زامياتن -عكس أورويل- أن مواضيع ويلز الكبرى كانت مجرد جسر هش معلق فوق هاوية من الفوضى والعنف. كتب زامياتن: «تحمل معظم تخيلاته الاجتماعية إشارات سلبية لا إشارات إيجابية، إن رواياته الاجتماعية مجرد أدوات تفصح عيوب النظام الاجتماعي الحالي، بدلاً من رسم صورة جنة مستقبلية». وبذلك كان ويلز يستخدم «ألوان جوا المعمة»، وليس «ألوان اليوتوبيات السكرية الوردية» (باستثناء رواية «رجال كالآلهة»).

كشف المقال أيضاً عن معرفته الموسوعية باليوتوبيات والخيال العلمي، من بيكون وسويفت، إلى الأعمال المتأثرة بويلز، مثل كتابات التشيكوسلوفاكي كارل تشاييك (التي سكّت مسرحيته «روبوتات روسوم العالمية»، التي أعجب أورويل بها، لفظة روبوت)، والبولندي جيرزي زولا واسكي والروسي أليكسي تولستوي. ألمح زامياتن باقتضاب شديد في مقاله إلى كتاب لم يكن قراءه ليعرفوه لأنه لم يحظ بعد -لن يحظى أبداً- بموافقة الرقابة السوفيتية، قائلاً: «رواية "نحن"، لكاثر هذا المقال».

\*\*\*

من الصعب تحديد ما إذا كان أورويل استقى أفكاراً مباشرة من زامياتن، أم أنه كان يفكر ببساطة في نفس الاتجاه. إن وصفه لشخصية دي 530 كـ«إنسان تقليدي مسكين، أقرب إلى نسخة

يوتوبية من بيلي براون من لندن تاون»<sup>(30)</sup> يمكن إسقاطه على ونستون سميث، ولكن يمكن إسقاطه أيضًا على فلوري وكومستوك وبولينج. وإذا كانت شرطة الفكر تتشابه مع «الحراس»، أليس ذلك لأن كليهما نسخة متطرّفة من الشرطة الروسية السريّة؟ وفي الوقت الذي كان فيه ستالين يُنعت بـ «العمّ جو»، هل كان أورويل في حاجة إلى «المُنعم» ليكون مصدر إلهام للأخ الأكبر؟ أما آي 330 «الغريبة والمزعجة» التي تدخّن وتشرب وتستمتع بالجنس وتعتقد مواعيد غرامية سرّية تبدو بالفعل سائلة شخصية جوليا. بينما يلعب إس 4711، الأحذب الفامض الذي يبدو كأنه يسبر أغوار عقل دي 530، دورًا شبيهًا بدور أوبراين. كما أن استسلام دي 530 النهائي يعزف على ذات وتر حب ونستون للأخ الأكبر. نذكّر أن أورويل كتب مسوّدّة المخطوطة الأولى قبل أن يقرأ «نحن»، لكن جوليا وأوبراين والأخ الأكبر وشرطة الفكر أتوا لاحقًا جميعًا.

حتّى لو كان أورويل أخذ بعض أجزاء هيكل روايته من زامياتن، فإن محرّكه الفلسفي مختلف تمامًا. عندما يقول «المُنعم» أن الناس طالما أرادوا «شخصًا يخبرهم بمعنى السعادة، ثم يضع في أعناقهم أغلال هذه السعادة»، فهو يبدو مثل مصطفى موند من رواية «عالم جديد شجاع» والمحقّق الكبير من رواية دوستوفسكي «الإخوة كارامازوف»، الذي قال مقولته المشهورة بأن فقدان الحرية هو الثمن الذي سيدفعه الناس مقابل السعادة. رفض

30- «بيلي براون من لندن تاون»: شخصية كرتونية ابتكرها ديفيد لانجدون، وكانت تُرسم على ملصقات هيئة النقل في لندن خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

أورويل تلك الفكرة. عندما يتخيّل ونستون أن أوبراين سيسوّغ قانون الحزب الحديدي بحجة المحقّق الكبير التي تقول إن «خيار البشرية يكمن بين الحرية والسعادة»، يُعاقب على غبائه. مواطنو أوقيانيا ليسوا أحرارًا ولا سعداء. لا مكان للمساواة والتقدّم العلمي في ديكتاتورية أورويل الراسخة التراتبية، لكنهما أمران بالغ الأهمية في رواية «نحن». وبالمثل فإن الخداع الممنهج، وهي التفصيلة الجوهرية تمامًا في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، لم تشغل بال زامياتن.

من رواية أخرى لدوستوفسكي بعنوان «مذكرات من العالم السفلي»، أخذ زامياتن معادلة  $2 \times 2 = 4$  واستخدمها لتمثّل «جدار العقلانية الحجري»<sup>(31)</sup>. يصرّ راوي دوستوفسكي على حرية الاختلاف مع تلك المعادلة: «بعد التسليم بأن ضعف اثنين يساوي أربعة بالتأكيد لن يتبقّى شيء ليس لفعله فحسب، بل حتّى لاكتشافه». مرة أخرى، يتشدّق أورويل بالنقيض تمامًا. في مواجهة الوجد والجنون المتعمّد، يرى أورويل أن «الحرية هي حرية القول بأن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة. إذا صار ذلك أمرًا مفروغًا منه، كل شيء آخر سيتبع». في نظر زامياتن ودوستوفسكي، كانت أبسط المعادلات الحسابية قفصًا فكريًا. لكن في نظر أورويل، هي ركيزة. وجهتا النظر إلى العالم ببساطة لا تتوافقان. أيضًا من

31- استخدم دوستوفسكي رمز الجدار الحجري (أو أحيانًا مجرّد جدار) لتمثيل مجتمع يشبه السجن يريد العقلانيون الأنانيون خلقه. في اليوتوبيا الأنانية العقلانية، تُقيّد الفردية بجدار العقلانية. يقيّد هذا الجدار الفكر والسلوك الفردي وممارسة الإرادة الحرة، وبالتالي يعدّ بشدة من التفكير. (المترجم).

الحقائق الكاشفة أن أورويل ركّز على تفصيـلة صغيرة منفرة تنطوي على غلظة بيولوجية: آلة «المُنعم» التي تحيل أجساد أعداء الدولة إلى سائل في «احتفال عام بالعدالة». اكتشف أورويل في هذا الطقس بعضاً ممّا أثار اهتمامه بچاك لندن: «هذا الفهم البديهي للجانب اللا عقلاني من الشمولية. إن الأضاحي البشرية، وعبادة زعيم له صفات إلهية، وأن تكون القسوة غاية في حد ذاتها، هي الأشياء التي تجعل كتاب زامياتن يتفوّق على كتاب هكسلي».

عن رواية «نحن»، قال أورويل لواربورج: «تبدو لي كحلقة مثيرة للاهتمام في سلسلة الكتب اليوتوبية». لتتوقّف هنيهة إذاً لتتبع هذه السلسلة.

\*\*\*

يصرُّ بعض النقاد أن آين راند كانت ستكتب روايتها القصيرة «النشيد» عام 1938 من دون أن تقرأ «نحن». هؤلاء أتمنى لهم التوفيق. ربّما كانت مصادفة أنها اختلقت شخصية كاتب اليوميات السريّة إكواليتي 7-2521، والمدينة اللامعة الموحّدة، والجدول الزمني الصارم، وتراتيل الدولة، والسعادة الإجبارية، والعلاقة العاطفية الحادّة الصعبة، والهروب إلى «الغابة المجهولة»، والتوتّر بين الأنا والنحن: «الوحش العالق كسحابة سوداء فوق الأرض يحجب ضوء الشمس عن البشر». ربما من سوء الحظ أن يبدو هذا «النشيد» كأنه تقليدًا بدائيًا لأغنية غريبة وجميلة.

فرّت راند من روسيا عام 1926 في سنّ العشرين، وحملت معها إلى أمريكا كرهًا مشتعلًا أبدئيًا للشيوعية. كتبت راند رواية «النشيد» في ثلاثة أسابيع في صيف عام 1937، زاعمة أنها تخيلت

لأوّل مرّة «عالمًا مستقبليًا لا وُجود فيه لكلماتنا» عندما كانت في المدرسة في روسيا. نُشرت الرواية -التي قُوبلت بالتجاهل في الولايات المتحدة- في بريطانيا أولًا، وهناك وصفها مالكوم موجريدج في «ذا ديلي تلغراف» بأنها «رؤية مريضة للمستقبل... صرخة استغاثة من القلب بعد طوفان من التعصّب العقائدي». في رسالة إلى ناشرها، كتبت راند: «إنها عملٌ ذاتي جدًا. إنها -بطريقة ما- بيان رسمي مني، تعبير عن إيماني، جوهر فلسفتي بأكملها». كانت معاداتها الصارخة للشيوعية تعني أن مجتمع القمعي الجماعي لا يمكن أن يكون متقدمًا تكنولوجياً مثل مجتمع زامياتن. يجب أن يكون مجتمعًا استبداديًا بدائيًا هشًا أخرق، يمكن لإكواليتي 7-2521 الاحتيال عليه بسهولة. بهروبه إلى الغابة المجهولة، يعيد البطل تسمية نفسه بروميثيوس ويلقي «النشيد» الذي يخبرنا به عنوان الرواية: وهو نشر متجّع عن استثنائيته وخطته لبناء مدينة أكبر من تلك التي تركها خلفه. هذه بالضبط حبكة رواية «نحن» بعد إعادة كتابتها كأسطورة خلق رأسمالية، الجنة فيها موقع بناء. يختم بروميثيوس كلامه قائلاً: «كي يكون المرء حرًا، عليه التحرُّر من إخوته. تلك هي الحرية، ولا شيء غير ذلك». كان يجب أن يكون عنوان الكتاب «الأنا».

شرعت راند في بيع ملايين الروايات، وأسّست مدرسة للفكر السياسي اسمها «الموضوعية»، وشكّلت أيديولوجيات السياسيين أكثر من أيّ روائي آخر في القرن العشرين، لذا فمن المرجّح أن من اقتبسوا من كتابها كانوا أكثر ممن اقتبسوا من رواية «نحن». في فيلم جورج لوكاس الروائي الأوّل «تي إنش إكس 1138»، يهرب

مهندس يحمل اسمًا أبجديًا/ رقميًا من مجتمع سرّي تحت الأرض شديد التنظيم (شعاره: «اعمل بجد، وزد الإنتاج، وامنع الحوادث، وكن سعيدًا»)، وبرز وحيدًا تحت شمس لا يألُفها. تسببت رغبة لوكاس في تقديم «رؤيته الحالية لمدينة لوس أنجلوس، ربّما مع بعض المبالغة» في جعل الأحداث تأخذ منعطفًا ساخرًا ليس في صالح دولة راند العقيمة: لقد تخلّى ضبّاط الشرطة الآليين عن مهمّة إلقاء القبض على تي إنش إكس لأن فريق تصوير الفيلم تجاوز الميزانية. «تؤكد الفكرة أننا جميعًا نعيش في أقفاص أبوابها مفتوحة على مصارعها، وكل ما علينا فعله هو الخروج». هكذا فسّر لوكاس.

ليس من الصعب معرفة من أين استقت فرقة الروك الكندية راش فكرة ألبوم «2112» الذي طرحوه عام 1976 مع شركة الأسطوانات «أنثوم ريكوردز» وأهدوه إلى «عبقريّة آين راند». الشاعر الغنائي نيل بيرت وصف الألبوم بأنه هجوم على «أيّ عقلية جماعية». في الأغنية الرئيسية الطويلة جدًّا، يكشف مواطن من اتّحاد الطاقة الشمسية الاستبدادي جيتارًا قديمًا، وبالتالي يكشف فن الروك آند رول المفقود. عادت هذه الفكرة إلى الظهور في المسرحية الديستوبية كاسحة الناجح «وي ويل روك يو» التي طُرحت عام 2002. كتب بن إلتون النص الغنائي مستخدمًا أغاني فرقة كوين، ليحكى عن فرقة من متمرّدي موسيقى الروك البوهيميين الذين يواجهون شركة جلوبال سوفت التي تُجرّم التلحين وحيازة الآلات الموسيقية، وتُغرق سكان كوكب الأرض (المعروف أيضًا باسم «آي بلانت») بثقافة استهلاكية

تشمل الموسيقى المولدة حاسوبياً (وهي معادل موسيقى البابلوم التي تُصنع في مصنع الموسيقى الذي تخيَّله زامياتن في روايته). يتَّضح -في النص الخيالي- أن نقطة ضعف جلوبال سوفت هي موسيقى فرقة كوين.

أيضاً من المفارقات الساخرة نوعاً أن تُنتقد الرأسمالية في فيلم «ذا ليجو موفي»، وهو الفيلم المبني على علامة ألعاب تجارية شهيرة. إن المشهد الافتتاحي، الذي يبدأ فيه سكان مجتمع بريكسبيرج الآلي يوماً نموذجياً، هو نسخة من طقس «جدول الساعات» الذي ابتكره زامياتن (كل صباح، وبدقة شديدة، في نفس الساعة ونفس الدقيقة، نهض نحن الملايين كرجل واحد. في نفس الساعة نبدأ نحن الملايين الموحدة عملنا كرجل واحد، وفي نفس الساعة ننهيه)، لكن الروتين هنا يشمل رحلة إلى سلسلة مقاهي عالمية على غرار ستاريكس. إن معادل مجتمع بريكسبيرج لـ «ترنيمة الدولة الواحدة» هي الأغنية الحماسية «كل شيء رائع». مثل رواية «نحن»، يحكي الفيلم عن تقني مطيع يصبح ثائراً بالصدفة هو (إيميت بريكوسكي)، وفتاة ثورية هي (وايلد استايل)، وديكتاتور لقبه (رئيس الأعمال)، وبناء سلاح فائق هو (الكراجل)، في قصة تروِّج لتفوق الخيال الفردي على سعادة الخضوع الزائفة -تفوق الثورة على الإنترنت- عبر استخدام المكعبات البلاستيكية.

يوضح هذا المسار المتعرج من لينين إلى الليجو أن الأدبيات المناهضة لليوتوبيا تتمتع بمرونة وقابلية تحوير الأساطير. وليس من الواضح دوماً من يقرأ ماذا ومتى، وعادةً ما تفوق التغييرات



أوجه التشابه. خذ «تي إتش إكس 1138» على سبيل المثال. يبدو أن لوكاس قد استوحى منحناه السردى من زامياتن أو راند، وأخذ فكرة العقاقير التي تتحكّم في العقل من هكسلي، وشاشات الرصد والحاكم الغامض شبه الإله من أورويل، فضلاً عن أفكار من «متروبوليس» و «الأشياء القادمة» وفيلم الخيال العلمى النوار «ألفا فيل» للمخرج چان لوك جودار، لكنه غرّبل حساء الأفكار هذا عبر غربال ثقافة أمريكا في السبعينيات ومخيّلاته البصرية القوية لإنتاج ديستوبياه الخاصة بنكهته المميّزة. وبالتأكيد كان زامياتن نفسه يعيد صياغة مادة موجودة بالفعل. إن مواطنيه «المرفّمين» الذين يرتدون زيّاً أزرق موحدًا، و «الحراس» المنتشرون في كل مكان، لهم سوابق في أدب ويلز، وعلى الأخص في «صحوة النائم» و «قصة الأيام القادمة». إليك منعطف جدلي آخر: هي حين أنها رفضت الاعتراف بتأثيرها برواية «نحن»، ألمحت راند أن أورويل سرق منها. عندما نَقَحَت راند رواية «النشيد» من أجل طبعتها الأولى في الولايات المتحدة عام 1953، خَفَّفت أهوال الدولة الجماعية خشية أن «تعطي القارئ انطباعًا أن «النشيد» مجرد قصة خيسية أخرى من نوعية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لأورويل (التي -بالمناسبة- كُتِبَت بعد سنوات عديدة من نشر «النشيد» في إنجلترا)».

لذا، بدلاً من التفكير في الأفكار الديستوبية على أنها نتاج قريحة عباقرة فرديين، يمكن للمرء مقارنتها بالأغاني الشعبية التي تتغيّر باستمرار في أثناء انتقالها بين الأفراد وبين السياقات السياسية. يقول إيميت إلى الرئيس في فيلم «ذا ليجو موفي»:

«انظر إلى كل تلك الأشياء التي بناها الناس. قد ترى فوضى... لكنني أرى أناسًا استوحى بعضهم من بعض، ومنك. أناس أخذوا ما بنيتهم وصنعوا منه شيئاً جديداً».

إنه جهد جماعي إذًا، ولو كرهت آين راند.

\*\*\*

لنعد إلى زامياتن الجالس إلى مكتبه في بتروجارد عام 1920. ما الذي كان يحاول قوله؟ في مقال «الحرية والسعادة»، أشار أورويل إلى أن زامياتن -الذي بدأ يكتب قبل صعود ستالين- كان يهجو الآلة وليس البلشفية. أما جليب ستروف فأصرَّ على أن الكاتب كان يتكهن بإمكانية تحوُّل روسيا البلشفية -التي كانت بالفعل ديكتاتورية ذات حزب واحد لديها شرطة سرية نشطة وأداة دعاية هائلة- إلى دولة شمولية: «إنه عملٌ مهمٌ لأنه ببساطة تتبَّؤي أكثر من كونه مرتبط بأحداث جارية». في لقاء معه عام 1932، أشار زامياتن إلى أن كليهما على صواب: «هذه الرواية تحذير من الخطر المزدوج الذي يهدد البشرية: تضخُّم سطوة الآلات وتضخُّم سطوة الدولة».

الارتياح الشديد والاضطهاد الذي اقترن بـستالين في ذهن أورويل كان قد استقرَّ في روسيا بالفعل بحلول الوقت الذي كتب فيه زامياتن «نحن». في مسرحيته «حرائق سانت دومينيك» عام 1922، استخدم زامياتن محاكم التفتيش الإسبانية للتهكُّم على «الإرهاب الأحمر»، وجعل أحد محققيه يلقي خطبة بنكهة أورويلية: «إذا أخبرتني الكنيسة بأنني لا أملك سوى عين واحدة، فسأقرُّ بذلك، بل سأؤمن بذلك، لأنه على الرغم من أنني أعلم

جيداً أنني أمتلك عينيّن، فأنا أعلم أكثر أن الكنيسة لا يمكن أن تخطئ». وفقاً للمنفى الروسي مارك سلونيم فإن «زامياتن لم يستطع تسمية ما رآه حوله من الآتي ثورة: المبادئ المغلفة بحمم التمرد، والإعدامات المتعطّشة للدماء، والنظام الغبي، وخلق الأيديوقراطية بدلاً من الأوتوقراطية».

في نظر الرقباء البلاشفة، قطعاً كانت رسالة رواية «نحن» غير مقبولة. لم تنشر الرواية في بلد زامياتن الأم حتّى عام 1988، بعد نصف قرنٍ من موته. يسخر عنوان الرواية التحريضي من المبدأ الذي لخصه الشاعر البروليتاري ألكسندر إيليتش بيزيمنسكي: «لقد طرد ضميرُ الجمع «نحن» ضميرَ المفرد «أنا»». الأسوأ من ذلك أن زامياتن شكّك في الثورة. في فقرة جريئة، تشرح آي 330 كيف أن فكرة حدوث ثورة أخرى قائمة دائماً عن طريق سؤال دي 530 -بصفته عالم رياضيات- أن يخبرها بالعدد الأخير.

- «لكن يا آي 330، هذا سُخف. الأعداد لا نهائية، أيّ عدد أخير تريدين؟».

- «أيّ ثورة أخيرة تُريد إذا؟ لا توجد ثورة أخيرة. الثورات لا نهائية».

هذا هو زامياتن، الثوري الصقوثي الذي يسأل دائماً: «ماذا بعد؟». لقد اقتبس سطري الحوار ذينك في افتتاحية مقاله «عن الأدب والثورة والإنتروبيا وأمور أخرى»، وهو مقال رائع نُشر عام 1923، طبّق فيه نظريته عن الثورات اللا نهائية على الرياضيات والفيزياء والفن والسياسة. كانت هذه فكرة قوية تماماً، لكنها شكّلت لعنة على حُماة الثورة البلشفية. حتّى جوركي استكرر رواية

«نحن» باعتبارها «بالغة السوء، وعقيمة بدرجة ميؤوس منها. إن غضبها بارد وجاف كغضب امرأة عجوز».

ما تبقى من عشرينيات القرن العشرين، عاشه زامياتن بسيف مُسلَّط على رقبتَه. كثيرٌ من النقاد المتشددين الذين اعتبروه برجوازيًا مُعاديًا للثورة ومذنبًا بـ«بإهانة ثوار أكتوبر السخرية منهم» كانوا يتوقون إلى غرس السيف في عنقه. في عام 1922، كان زامياتن واحدًا من عشرات المثقفين الذين اعتُقلوا بسبب أنشطة غير مرغوب فيها، ووجد نفسه في زنزانة في نفس الممر من نفس السجن الذي سُجن فيه عام 1905. أصيب بخيبة أمل عندما تدخل أصدقاؤه لإنقاذه من الترحيل، إلى درجة أنه طلب الترحيل رسميًا بعد ذلك، لكن من دون جدوى. كان يعلم ما هو قادم. في السنوات القليلة التالية، أدَّى واجباته الرسمية بصفته مترجمًا ومحررًا ومحاضرًا. وانخرط كذلك عبثًا في كتابة سيناريوهات للأفلام السينمائية، وبدأ رواية ملحمة لن يكملها أبدًا، وكتب مسرحية «أتيلا» التي مُنعت من العرض على المسارح. خضعت رسائله للرقابة، ورفضت المجلات الأدبية مقالاته. كانت تفوح منه رائحة الهرطقة.

كانت آفاق الأدب الروسي تضيق بسرعة. بعد وفاة لينين في عام 1924، وحلول ستالين محلَّه وليس تروتسكي، بات يُنظر إلى «رفاق الرحلة» بريبة متزايدة. قضى جوركي معظم العقد خارج البلاد، عاجزًا عن تخفيف الضربات. في عام 1925، شكَّلت مجموعة من المتشددين بقيادة الناقد الماركسي ليوبولد أفرياخ «جمعية الكُتاب البروليتاريين الروسية»، التي عُرفت اختصارًا

بـ«راب»، والتي ازدهر كَتَبَتَهَا متدنُّو الجودة عن طريق مهاجمة غير الموثوق بهم سياسيًا وإدانة الخبث الدعائي، مثل الخنزير مينيموس في رواية «مزرعة الحيوانات». كما كتب أورويل: «تُوجد مواضيع معيَّنة لا يمكن الاحتفال بها بالكلمات، الاستبداد أحدها. لم يؤلَّف أحدٌ كتابًا جيّدًا في مدح محاكم التفتيش». هذه هي العقلية التي سخر منها زامياتن بالفعل في مقاله عام 1921 بعنوان «الجنة»: «جميعهم رماديون أحاديُّو اللون... وكيف لا؟ فبعد كل شيء، رفض الابتذال يعني الانشقاق عن الصف وانتهاك قانون المساواة العالمية. الأصالة جريمة بلا شك». في صيف عام 1928، كان هو وبوريس بيلنياك، الروائي الذي كان يدير فرع «اتِّحاد الكُتَّاب الروس» في موسكو، من بين عدَّة كُتَّاب أُرسِلوا إلى المزارع الجماعية لكتابة روايات ملهمة عن الحاجة إلى تسريع جمع الحبوب. لكن الوحي لم يهبط عليه.

في ديسمبر عام 1928، أعلنت اللجنة المركزية خطة خمسية للأدب. فقط الكاتب الذي كان يحتفل بـ«البناء الاشتراكي» هو المؤهل ليكون كاتبًا سوفيتيًا حقيقيًا، وهذا الكاتب لم يكن زامياتن بالتأكيد. كتب قائلاً: «كل شيءٍ سُويِّ واستُسخ، كل شيءٍ اختفى وسط دُخان المذبحة الأدبية». قال جوركي مازحًا سرًّا: «في الأيام الخالية، كان الكُتَّاب الروس يخشون الشرطي ورئيس الأساقفة فحسب. أيُّ مسؤول شيوعي اليوم هو كلاهما في آنٍ واحد. إنه يريد نشب برائته القذرة في روحك باستمرار». كان أفرياخ، الديماجوجي الماكر الذي يصاهر رئيس الشرطة السريّة المستقبلي جينريك ياجودا، مصممًا على وضع حدٍّ لرفاق

الرحلة» عن طريق النيل من البارزين منهم. في عام 1929، العام الذي نعتته هانا آرنت بـ«العام الأوّل للديكتاتورية الشمولية واضحة المعالم في روسيا»، رأى هذه الفرصة.

نُشرت رواية «نحن» باللغة الإنجليزية والتشيكية والفرنسية، لكن زامياتن رفض جميع الطلبات الخارجية لنشر طبعة باللغة الروسية الأصلية. لكن مجموعة من المهاجرين الليبراليين في براج نشرت مقتطفات باللغة الروسية من دون إذنه في مجلة «فوليا روسي» (إرادة روسيا) في عام 1927. طلب زامياتن من المحررين التوقف، لكنهم تجاهلوه. لم يهتم أحدٌ في روسيا حتّى أغسطس عام 1929، عندما اكتُشف هذا المنشور غير الرسمي (أو أُعيد اكتشافه بالأحرى) بواسطة الـ «راب». كان بيلنيك مهدداً بالمثل لأن روايته «ماهوجني» نشرها مهاجرون في برلين. اتهم الـ «راب» الكاتبين بالتعاون، وطُبعت صحيفة «ذا ليتراي جازيت» برفقات تهاجمهما بوصفهما بورجوازيين معاديين للثورة.

انهار فرع «اتحاد الكتّاب الروس» في موسكو تحت الضغط، وطرد بيلنيك ووجّه اللوم بعنف إلى زامياتن، الذي أشار متهمًا إلى أنهم إذا كانوا يريدون مهاجمة «نحن»، فكان عليهم فعل ذلك قبل ست سنوات، عندما قرأ أجزاء منها في إحدى أمسياتهم الأدبية. في 22 سبتمبر، عقد «اتحاد الكتّاب الروس» في لينينجراد اجتماعاً عاماً بشأن التحقيق في نشر «نحن». اكتظمت القاعة إلى درجة أن كثيرين من غير الأعضاء، الذين أثارت قضية زامياتن فضولهم، أبعادوا. أقنع تفسير زامياتن الذي قُرئ في غيابه الذي يشرح عدم تدخله في حادثة «فوليا روسي» كتأباً لكثيرين ممّن

أحبوه وأعجبوا به لسنوات، ولكن في هذا المناخ المخيف كان من الأسير بكثير إدانته على أي حال. كتب الثوري الروسي والمناهض للاستالينية فيكتور سيرج بازدرء أنهم «صوّتوا ضد رفيقيهم كما هو مطلوب، فقط ليذهبوا ويطلبوا العفو له على انفراد». على الرغم من أن «اتّحاد الكتّاب الروس» برأ زامياتن من تهمة التعاون النشط في النشر، فقد أدان فشله في التّصلّ من «الأفكار المُعبّر عنها في الرواية، والتي اعترف بها رأينا العام على أنها معادية للسوفييت». إذا «فوليا روسي» كانت مجرّد ذريعة، أمّا «نحن» نفسها كانت جريمتها. استقال زامياتن من «اتّحاد الكتّاب الروس» وهو مُشمئز، قبل أن يُطهر هيكل الاتّحاد بالكامل وتُعاد تسميته ويُدمّر بشكل فعال. في خطاب استقالته، كرّر زامياتن تفاصيل القضية بمصطلحات ذات طابع أوروبي: «الحقائق غنيّة، إنها أعند من القرارات. يمكن تأكيد كل حقيقة بالوثائق أو بالأشخاص. أريد أن أوضح هذه الحقائق لقراءتي».

بعد أن دُفع إلى شفا الانتحار، تراجع بيلنيك عن خطاياها المزعومة بشكل فاضح وأهان نفسه بشدة إلى درجة أنه أصبح أحد أغنى الكتّاب في روسيا في الثلاثينيات. لكن زامياتن صمد. كتب الصحفي الأمريكي المعادي للاستالينية ماكس إيستمان في كتابه «فنانون يرتدون الزي الرسمي»: «كانت تهمة زامياتن هي حفاظه على استقلاله الفكري ونزاهته الأخلاقية. رفض بصفته فنّاناً أن يأخذ أوامر من البيروقراطية السياسية».

وقد دفع ثمنًا باهظًا مقابل ذلك. سُحبت كتب زامياتن الحالية من المطابع وأبعدت عن أرفف المكتبات، ورُفضت أعماله

الجديد. وصفت الموسوعة السوفيتية الأدبية «نحن» بأنها «قدح خسيس في المستقبل الاشتراكي». عدّد أحد نقّاد الـ «راب» خطايا زامياتن كالتالي: «كُفّر كامل بالثورة لا يستحي، شكوكية عميقة متواصلة، انفصال عن الواقع، فردية متطرّفة، موقف عدائي واضح تجاه النظرة العالمية الماركسية اللينينية، تسويغ أيّ هرطقة وأيّ احتجاج تحت اسم الاحتجاج، موقف مُعادٍ لعوامل الحرب الطبقيّة».

في يونيو عام 1931، بعد أن زاد التهاب القولون المزمن من إضعاف معنويات زامياتن، أعطى جوركي خطاباً لتسليمه إلى ستالين، يطلب فيه الإذن بمغادرة روسيا. بالنظر إلى موقفه الحساس، كانت رسالته تنطوي على تحدٍّ كبير. قال إنه سيعود إلى روسيا فقط عندما «يصبح من الممكن في بلدنا طرح الأفكار العظيمة في الأدب من دون التذلل أمام صفائر الرجال»، واختتم بأن وضعه على القائمة السوداء بمنزلة «حكم بالإعدام»: إذا لم يستطع الكتابة في روسيا، فلن يتمكن من العيش في روسيا. كان ستالين رجلاً متقلّباً، يعفو عن الناس أحياناً - خاصة الفنانين - لأسباب لا يفهمها إلا هو. قُوبل طلب زامياتن بالموافقة. وفي نوفمبر، غادر وطنه إلى الأبد.

\*\*\*

تمنّى زامياتن الانتقال إلى الولايات المتحدة وكتابة أفلام لسيسيل ديميل، لكن هذا لم يحدث أبداً. بدلاً من ذلك، استقرّ في باريس، حيث عاش هو وزوجته حياة الضيق والوحدة. تجنّب المهاجرين الروس البيض الكُثر في المدينة ورفض أن يصبح شيوعياً سابقاً مشهوراً. كما قال لستالين: «أعلم أنه على الرغم



من اشتهاري هنا بأنني يميني بسبب عادتي في الكتابة وفقاً لما يمليه ضميري وليس وفقاً للأوامر، فمن المحتمل أن أُعلن بلشفيًا إن عاجلاً أم آجلاً للسبب نفسه في الخارج». اشتغل زامياتن في كتابة القصص القصيرة والروايات والمسرحيات والمقالات وسيناريوهات الأفلام بنجاح قليل. بعد تعثر خطة تحويل «نحن» إلى فيلم سينمائي، كانت المعالجة الفرنسية لمسرحية جوركي «الحضيض» التي أخرجها جين رينوار عام 1936 وفازت بجائزتين هي السيناريو الوحيد الذي كتبه ووجد طريقه إلى الشاشة (عن جدارة).

لم ير جوركي الفيلم قط. لقد مات في 18 يونيو عام 1936، ما أصاب كثيرين بخيبة أمل.<sup>(32)</sup> عندما أعاد ويلز التواصل مع جوركي في موسكو قبل عامين، شعر بالقنوط: «لم أحب رؤية جوركي ضد الحرية. شعرت بجرح بالغ». أما زامياتن، في نعي مفعم بالأسى، أصرَّ على أن الرجل العجوز أحاط كثيرًا من الكتاب الضعفاء بمجال طاقة لحمايتهم، هو واحد منهم: «العشرات مدينون له بحيواتهم وحيرياتهم».

في الديار، راح أصدقاء وأعداء زامياتن يتساقطون كقطع الدومينو. أمضى صديقه الصقوثي المُسنَّ إيفانوف رازومنيك سنوات عديدة في سجون موسكو. أغلقت «جمعية الكتاب البروليتاريين الروسية» عام 1932. كتب يوجين ليونز في «دراسة في اليوتوبيا»: «لم يبق شيء للإشارة إلى عهدهم، باستثناء

32- \* ترددت شائعات على نطاق واسع بأن جوركي سُمِّم بأوامر من ستالين استعدادًا للمحاكمة الصورية التي بدأت سنوات «التطهير الكبير» في أغسطس. (المؤلف)

فوضى من التصريحات ورماد الفنانين الذين عذبوهم بالاضطهاد  
ودفعوهم إلى الانتحار». اعتُقل مُعذَّب زامياتن، ليوبولد أفرباخ،  
وأُعدم في عام 1937، وتبعه صهره ياجودا. اتَّهم بيلنيك -الذي  
قال يومًا لفيكتور سيرج «لا يُوجد مفكّر بالغ في هذا البلد لم  
يشعر بأنه قد يُطلق عليه النار» - بأنه جاسوس ياباني وقُتل  
عام 1938. في روسيا الاستالينية، كان هناك دائمًا شخص أذكى  
منك. كان المذهب الأدبي الجديد، «الواقعية السوفيتية»، شكلاً  
من أشكال الأدب اليوتوبي في جوهره. لاحظ الصحفي الأمريكي  
لويس فيشر أن الغرض منه كان «التعامل مع الحاضر كما لو أنه  
غير موجود، ومع المستقبل كما لو كان قد وصل بالفعل».

يبدو أن أورويل لم يعرف إلا قليلاً عن حياة زامياتن. لو  
كان يعرف أكثر، لو كان قرأ «نحن» قبل عقد من الزمن، لربّما  
زار روسيا عندما مر بباريس في طريقه إلى إسبانيا. ربّما لو  
خاض معاهدة معه لسرّعت من فهمه لروسيا واهتمامه بنقائض  
اليوتوبيات. لكن ربّما كان الأوان قد فات بالفعل. أصيب زامياتن  
بذبحة صدرية وصار مريضاً جداً. بعد فجر يوم 10 مارس عام  
1937 بقليل، عندما كان ضوء البزوغ -كما كتب في «نحن» -  
«غريراً وجيَّاشاً»، استسلم قلبه. كان في الثالثة والخمسين. شيع  
جثمانه مجموعة صغيرة من الأصدقاء تحت المطر. في روسيا،  
لم يُحدث خبر وفاته أيّ تأثير يُذكر.

منح زامياتن مواطني دولته الواحدة الاختيار بين الحرية المؤلمة  
الفوضوية وسعادة الطاعة العمياء. في نظره، كما في نظر أورويل،  
لم يكن هذا خياراً مطروحاً من الأساس. كان رجلاً غنيذاً كالحقائقي.

## حقائق مزعجة

أورويل من 1944 إلى 1945

«حين يتوطّد كلٌّ من الخوف والكرهية والغيرة  
وعبادة السلطة، يصبح الإحساس بالواقع مضكّكاً».

جورج أورويل، «ملاحظات على القومية»، 1945.

لم يستمتع أورويل بكتابة كتاب مثلما استمتع بكتابة «مزرعة  
الحيوان» خلال الشتاء الضبابي الموحل بين عامي 1943 و1944. كل  
ليلة في البناية رقم 10 ألف في شارع مورتايمر كرسنت، كان  
يقرأ حصيلة عمل اليوم على مسمع آيلين ويطلب ملاحظاتها. في  
الصباح التالي، كانت تسرد على زملائها في وزارة الغذاء أفضل  
المقاطع وهم ذاهبون لاحتساء القهوة في سيلفريدجز. كانت تقول  
-بفخرٍ له ما يُسوِّغه- إنها أفضل عملٍ كتبه على الإطلاق. تدفّق  
النّص كشلالٍ هادر. لكن كان أورويل يعلم أن المعاناة الحقيقية لم  
تأت بعد. أخبر جليب ستروف: «أكتب عملاً لاذع السخرية قد  
يروق لك عندما ينتهي، لكنه ليس حسناً من الناحية السياسية،  
لذا لست متأكّداً من أن أحداً قد ينشره. ربّما يعطيك هذا لمحة  
عن موضوعه».

ظهرت «مزرعة الحيوانات» إلى الوجود بفضل جدول أعمال  
أورويل الذي صار أكثر ملاءمة. بإيجاز، لقد استقال من هيئة  
الإذاعة البريطانية ومن الحرس الوطني، وانضم إلى مجلة

«تربيون» يوم الاثنين 29 نوفمبر عام 1943، حيث عمل محرراً أدبياً وكاتب عمود «كما يحلو لي» ثلاثة أيام في الأسبوع. أُسست «تربيون» عام 1937 على يدي نائبي حزب العمل ستافورد كريبس وجورج شتراوس، وكانت داعمة لستالين في البداية، ولكن تحت رئاسة تحرير أنورين بيشان الشهير بناي، الذي تولى المنصب في عام 1942، صارت المجلة القلب النابض للأحزاب العمالية اليسارية غير الشيوعية، ووقفت في موقف غير مألوف تنتقد كلاً من ستالين وتشرشل. وصفها أورويل بأنها الصحيفة الأسبوعية الوحيدة التي بذلت «جهداً حقيقياً للجمع بين سياسة اشتراكية راديكالية واحترام حرية التعبير وموقف حضاري من الأدب والفنون». كان بيشان -الابن الذكي والمشاكس جداً لعامل منجم فحم من ويلز- السياسي الوحيد الذي أحبه أورويل وأعجب به حقاً، والاحترام بينهما كان متبادلاً.

كان أورويل ألطف من أن يكون محرراً أدبياً جيداً. لقد أعطى الكتاب المتعثرين أجراً مقابل مقالات لم يكن لديه مساحة لطبعها، وربما لم يكن يظن أنها تستحق الطباعة، لأنه كان يعرف التأثير الذي سيحدثه الأجر في ظل ظروفهم المادية الصعبة. ودافع عن درج مكتبه المليء بمخطوطات غير منشورة باهظة الثمن بقول إن هذا ما يحدث عندما تُحوّل كاتباً مستقلاً إلى محرر: «الأمر أشبه بإخراج محكوم عليه من زنزانه وجعله مأمور السجن».

ومع ذلك، برع أورويل في وظيفة كاتب العمود. بعد سنوات من النزج بهواجسه في المراجعات أو البرامج الإذاعية، تمكّن أخيراً

من نشر كل ما يدور في ذهنه، من العنصرية والدعاية وحرية التعبير، إلى الماكياج ومراقبة الطيور وأسعار الساعات. تناقضت المواضيع القائمة التي كتبها مع النكات والأحاجي وتوافه الأمور. كان لدى أورويل آراء حول كل شيء في الحياة، وكانت جميعها تستحق القراءة حتى إن كنت لا تتفق معها، وهو ما كان قراء «تربيون» يفعلونه كثيرًا وبصوت عالٍ. نعت نائب حزب العمل المستقبلي مايكل فوت، الذي كان يرأس مجلس إدارة «تربيون»، عمود «كما يحلو لي» بأنه «العمود الوحيد في المجلة الذي يكتبه رجل يأتي إلى المكتب كل أسبوع متعمدًا الإساءة إلى أكبر عدد ممكن من القراء».

كان عمود «كما يحلو لي» يعرض أفكار أورويل كما هي من دون تنقية، وهي الأفكار التي كان ينقلها إلى الصفحة بانسيابية مسهبة واثقة. كان يتدرّب على أفكاره في النقاشات أولاً. أصدقاء له مثل توسكو فيشل، زميله السابق في «سيرشلايت بوكس»، كانوا يجدون في عموده بعض العبارات التي سمعوها منه قبل أيام قليلة. بعض هذه الأفكار عاودت الظهور في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، ما يجعل من «كما يحلو لي» ورشة كتابة للرواية تقريبًا. في أحد الأعمدة، وصف الراديو كما لو أنه شاشة رصد: «إنه عالمٌ شمولي في حدّ ذاته، ينهق بالدعاية ليل نهار في آذان أشخاص لا يستطيعون الاستماع إلى أي شيءٍ آخر». وفي عمود آخر، تذكّر لقاء رسّام شاب من دعاة السلام في الليلة الأولى من قصف لندن أصرّ على أنه يستطيع الصمود في وجه الاحتلال الألماني من دون المساس بنزاهته. «المغالطة هي الاعتقاد بأنه

في ظلّ حكومة ديكتاتورية يمكنك أن تكون حرّاً في الداخل... في الشارع، تهدر مكبّرات الصوت، وترفرف الأعلام من فوق أسطح المنازل، وتتجول الشرطة بأسلحتها جيئة وذهاباً، ويحملق فيك وجه القائد -بعرض متر ونصف- من المصققات الضخمة. لكن في الغرف المغلقة، يمكن لأعداء النظام السريين تدوين أفكارهم بحرية تامة». المغالطة أنه سيدحض ذلك بشكل مباشر في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، حيث نرى أن الغرفة التي تعلو حانوت السيّد تشارنجتون هي خلوة يتّضح أنها فخ. يقول أوبراين: «وجود فكرة خاطئة في أيّ مكان في العالم لهو أمر لا يمكن التسامح معه، مهما كانت تلك الفكرة سرّية وبلا قيمة».

\*\*\*

ظهر النفوذ الجديد والوضوح اللذان غلّفا أسلوب أورويل منذ عام 1943 فصاعداً في مقالاته ومراجعاته للكتب أيضاً. انجذب عقله المشاكس إلى الكتاب الذين اعتقد أنهم يستحقون تحمّل عبء جدالهم: إتش جي ويلز، وهنري ميلر، والآن جيمس بيرنام. كان بيرنام -الهادئ المهدّب في الحقيقة، العنيف على الورق- أستاذاً للفلسفة، وكان أحد التروتسكيين الرائدين في أمريكا، إلى أن أدّى الميثاق النازي السوفيتي والخلاف العام المرير مع تروتسكي بتعجيل الانهيار الكامل لإيمانه المترنّح بالماركسية. طالب عقل بيرنام المنهجي بنظام شاملٍ لشرح العالم، لذلك اضطر إلى تشييد نظام بديل. برغم رفضه من عشرات الناشرين وتمزيق النقاد له شر ممزّق، أصبح كتاب بيرنام «الثورة الإدارية: حقيقة ما يحدث في العالم» المنشور عام 1941 من أكثر الكتب مبيعاً

بشكل مفاجئ، ووصفته مجلة «فورتشن» بأنه «بكل المقاييس، الكتاب الأكثر إثارة للجدل الذي نُشر حتى الآن هذا العام». استند الكتاب إلى افتراضين: لن تستطيع الديمقراطية الرأسمالية البقاء بعد أيّ حرب، ولا يمكن أن تحلّ الاشتراكية محلها. بدلاً من ذلك، سيأتي المستقبل في هيئة دولة مركزية ضخمة تديرها طبقة من «المديرين»: فنيين وبيروقراطيين ومديرين تنفيذيين وما إلى ذلك. لم تكن فرضية بيرنام أصيلة تمامًا -قارنها أورويل بكتاب إيلير بيلوك الجدلي «المتبصّر جدًا»، «الدولة المستعبدة»، المنشور عام 1912- لكنها أصابت وترًا حساسًا.

كتب بيرنام كما لو أنه الوحيد الذي يستطيع رؤية الواقع بوضوح، وأن تحليل أيّ شخص آخر كان متأثرًا بالعواطف. كتب يقول بأسلوبه المتحذلق الساخط نوعًا ما: «لا تقتصر نظرية الثورة الإدارية على مجرد توقع ما قد يحدث في المستقبل الافتراضي، فالنظرية، بادئ ذي بدء، هي تفسير لما حدث بالفعل ويحدث الآن». أيّ شخص يعتقد بخلاف ذلك فهو «يعيش في عالم مواز من الأحلام الرائعة وليس على الأرض». حذر إتش جي ويلز شخصيًا بيرنام من تقديم نبوءات مفرطة الثقة (وقد كان خبيرًا، على الرغم من كل شيء)، لكن بيرنام لم يكن من النوع الذي يتقبل النصيحة.

بحلول الوقت الذي كتب فيه أورويل لأول مرة عن بيرنام، في يناير عام 1944، كان أهم تنبؤ قصير الأجل لكتاب «الثورة الإدارية» -وهو أن ألمانيا ستغزو بريطانيا أولًا قبل أن تسحق روسيا- قد تمرّق إلى أشلاء. اعتقد أورويل أن بيرنام أخطأ بشدّة

عندما بالغ في صلابة الشمولية وقتل من قوّة الديمقراطية بسبب «ازدراثة للرجل العادي»: على سبيل المثال، لو كان هتلر مضطراً إلى الاستماع إلى الرأي العام، لما كان سيفزو روسيا أبداً. اتهم أورويل بيرنام «بمحاولة نشر فكرة أن الشمولية لا مفر منها، وبالتالي يجب ألا أن نفعل شيئاً لمعارضتها». بعث بيرنام بشكوى متعجرفة إلى مجلة «تريبيون»، سبقت الدفاع الذي سيقدّمه أورويل لاحقاً عن روايته «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «لم أصرّح قط بأنه "لا مفر من الشمولية". لقد ذكرت -وأنا أومن بذلك- أن الشمولية احتمال قائم الحدوث في جميع الدول الكبرى. هل يفهم السيّد أورويل الفرق بين الأمرين؟». لكنه كان مخادعاً، وقد امتلك أورويل الاقتباسات التي تثبت ذلك. «نستطيع أن نكون جميعاً أنبياء حقيقيين إذا سُمح لنا بتغيير نبوءاتنا بعد الحدث»، هكذا كان ردّ أورويل اللاذع. في سلطة الأخ الكبير أن يأمر بتعديل خطبه القديمة «بطريقة تجعله يبدو أنه تنبأ بالشيء الذي حدث بالفعل»، لكن بيرنام لم يتمكن من محو الدليل على آرائه السيئة.

ظلّ أورويل شوكة في حلق بيرنام طوال السنوات الثلاث التالية، ما جعل الكاتب الأمريكي يشتكي قائلاً إن «شأن أورويل صار بمنزلة وباء عالمي في اعتقادي». لكن أورويل لم يكن ليكلّف نفسه عناء كتابة آلاف الكلمات حول أفكار بيرنام، في «تريبيون» و «بوليمك» و «ذا نيو ليدر» و «مانشستر إيثنينج نيوز»، لو لم يكن مفتوناً بها. فقط كان من الصعب تنقية الشاء من وسط الإهانات. وفقاً لأورويل، كان كتاب بيرنام «الميكافيليون: حماة الحرية» «قطعة



من البذاءة الضحلة»، وأعرب مقاله في مجلة «بارتيزان ريشيو» بعنوان «وارث لينين» عن «نوع من الإعجاب المذهل بستانين»؛ لقد ضلَّ بيرنام مرارًا وتكرارًا بسبب عبادته للسلطة. كتب أورويل في مقاله «إعادة نظر في أفكار جيمس بيرنام» عام 1946 يقول: «يرى بيرنام الاتجاه ويفترض أنه لا يقاوم، مثلما يرى أرنب مفتون بأصلة عاصرة أن الأصله هي أقوى شيء في العالم».

ومع ذلك، استحوذت أفكار بيرنام على مخيلة أورويل حتى عندما رفضها عقله، ولهذا ربط بين كتاب «الثورة الإدارية» بالكوايبس الخيالية لروايات «نحن» و «صحوة النائم» و «العقب الحديدية» و «عالم جديد شجاع».

إن رؤية بيرنام لعالم ثلاثي الأقطاب («ثلاث دول عظمى فائقة قسّمت العالم بالتساوي، وتحافظ على جذوة الحرب مشتعلة بينها، وتُبقي على الطبقة العاملة في حالة خضوع دائم»، كما ورد في ملخص أورويل)، لهي مخطط نموذجي واضح لأوقيانيا وأوراسيا وإيستاسيا. ربّما كان أورويل يرى أن فكرة بيرنام عن «إمبراطورية العبيد الضخمة، الأبدية، التي لا تقهر» مجرد وهم، تمامًا مثل ادّعاءه بأن السياسة لم تكن أكثر من صراع على السلطة، ولكن هذه أوقيانيا بالتأكيد. ربّما يكون جولدشتاين «الخائن الأساسي» في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» قد صُمم على شاكلة تروتسكي (الذي اسمه الحقيقي ليف برونشتاين)، لكنه يدين في «الفصل الثالث: الحربُ سلامٌ» لأفكار بيرنام أكثر مما يدين لكتاب تروتسكي «الثورة المفدورة». كان أورويل يعتقد أن في مجتمع الثوّار «دائمًا ما يختلط التوق إلى مجتمع عادل على

نحو مهلك بالرغبة في تأمين السلطة لأنفسهم». لكن في عالم «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الافتراضي، قُضي على التوق إلى مجتمع عادل. «لا يؤسس المرء ديكتاتورية من أجل حماية الثورة، بل يقوم بالثورة من أجل إقامة الديكتاتورية». لم يتفق أورويل مع بيرنام، لكنه تأكد من جعل أوبراين يفعل ذلك. في بضعة مواضع، فإن الكاتب («لا نظرية ولا وعود ولا أخلاق ولا دين ولا أيُّ قدر من حسن النية سيكبح جماح السلطة») وشخصيته («نحن مهتمون بالسلطة فحسب. ليس الثروة أو الرفاهية أو العمر الطويل أو السعادة: السلطة فقط، السلطة البحتة»)، وجهان لعملة واحدة تقريباً.

عقد أورويل علاقة جوهرية بين فرضية دولة بيرنام العظمى وهوسه طويل الأمد بالكذب الممنهج. أيُّ بيئة أفضل لإعادة كتابة الواقع من دولة مغلقة علاقتها الوحيدة مع جيرانها هي القتال؟ يقول أورويل في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «في الواقع، كلُّ منها كونٌ منفصل يمكن ممارسة أيِّ إفساد للفكر فيه بأمان». في مايو عام 1944، كتب نول ويلميت، أحد قُرَّاء «تربيون»، إلى أورويل يسأله إذا كان يظن أن الشمولية يمكن أن تترسَّخ في بريطانيا. تحت تأثير بيرنام، بدا ردُّ أورويل الرصين كأنه ملخَّصٌ لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «إذا جاء العالم الذي أخشاه، المكوَّن من دولتين أو ثلاث دول عظمى فائقة بعضها غير قادر على التغلُّب على بعض، يمكن أن يُساوي جمع اثنين واثنين خمسة إذا رغب الفوهرر في ذلك... على الرغم من أن العملية يمكن عكسها بالطبع». وبالتالي تأتي أهمية وصف السيناريو الأسوأ:

«إذا صرَّح المرء ببساطة أن كل ما يحدث على أرض الواقع يحدث للأفضل، وأن لا شيء يشير إلى أعراضٍ شريرة، فإن المرء يسهم في جعل الشمولية أكثر قرباً». هذا لا يبعد كثيراً عن رسالة بيرنام الغاضبة إلى مجلة «تريبيون»: «فقط عن طريق التحدُّث بشفافية مطلقة في احتمالية مجيء الشمولية، واتِّجاه تقدمها، سنتمكن من أن نحظى بفرصة التغلب عليها أو تجنبها».

في عام 1944، ازدادت وتيرة التحذيرات بسوء العاقبة. كتب الاقتصادي النمساوي فريدريك هايك في كتابه «الطريق إلى القنانة»، وهو كتاب آخر أثار ضجَّة كبيرة غير متوقَّعة وأصبح نصًّا مقدَّساً للمؤمنين بالسوق الحرة: «فقط إذا أدركنا الخطر في الوقت المناسب يمكننا أن نأمل تفاديه». كان تشخيص هايك للشمولية يقترب بشكل غريب أحياناً من تشخيص أورويل، لكن من المؤكد أن أورويل لم يتفق مع ادِّعاء هايك بأن نسخة حزب العمل من التخطيط الاقتصادي المركزي كانت «مصدر الخطر المميت لكل شيء نقدِّره».<sup>(33)</sup>

كتب أورويل مراجعة له الطريق إلى القنانة مع كتاب «مرآة الماضي، لئلاً تعكس المستقبل» الذي كتبه نائب حزب العمل المؤيد للشيوعية كوني زيلياكوس: «كل كاتب مقتنع بأن سياسة الآخر تؤدِّي إلى العبودية مباشرة. الشيء المقلق هو أن كليهما

---

33- \* خذ هذه الفقرة ذات الطابع الأورويلي مثلاً: «لم يعد لكلمة حقيقة في حد ذاتها المعنى القديم نفسه. لم تعد تصف شيئاً يمكن أن يستشفَّه ضمير المرء وحده، بل صارت شيئاً تقرُّره السلطة، شيئاً يجب التصديق فيه بما يخدم مصلحة الجهد المنظم الموحَّد، شيئاً قد يتعيَّن تغييره عندما تتطلب ضرورات الجهد المنظم ذلك». (المؤلف)

قد يكون على حق». لقد جرى توضيح مخاطر مذهب الجماعة بشكلٍ وافٍ، لكن أورويل قرّر أن أصولية السوق الحرة لدى هايك ستعني «طفياً» ربما يكون أسوأ لكونه أكثر استهتاراً من طفيان الدولة». أسوأ؟ هذا قولٌ خطير عندما يصدر من مؤلف كتاب «مزرعة الحيوانات».

\*\*\*

كان لفيكاتور جولانش حقّ الأولوية في نشر روايات أورويل، لذا حدّره الأخير من أن «مزرعة الحيوان» «غير مقبولة سياسياً من وجهة نظرك (فهي مناهضة لستالين)». طلب جولانش قراءتها على أيّ حال قبل أن يتنازل عنها. قال جولانش -مستخدماً بعناد اسم ميلاد أورويل- لوكيله ليونارد مور: «لديّ اعتراضات كبيرة على كثير من الجوانب السياسية السوفيتية الداخلية والخارجية، لكنني -كما توقّع بليز- لا أستطيع نشر هجومٍ عامٍّ من هذا القبيل». رأت شركة «نيكلسون وواتسون» أنه من قلة الذوق مهاجمة حليف. أحب الناشر جوناثان كيب الكتاب، لكنه شعر بأنه مضطّر إلى تمريره أولاً على صديقٍ له يعمل في وزارة الإعلام لمعرفة ما إذا كان نيل الكتاب من ستالين قد يضر بالجهود الحربية. قرّر المسؤول أن الرواية قطعاً ستحدث ضرراً، وبالتالي انسحب كيب بهدوء. لم يدرك أن «مزرعة الحيوان» تتناول روسيا على وجه التحديد. وهل يجب فعلاً تصويرهم على أنهم خنازير؟ «أظن أن اختيار الخنازير كطبقة حاكمة سيسيء بلا شك إلى كثير من الناس، وبالأخص إلى أيّ شخصٍ سريع الغضب بعض الشيء»، كما هو حال الروس بلا شك». وجد أورويل أن الرفض مضحك،

وأخبر إنز هولدن: «تخيّلِي العم چو العجوز (الذي لا يفقه كلمة واحدة من أيّ لغة أوروبية)، جالسًا في الكرملين يقرأ «مزرعة الحيوانات» ويقول: «هذا الكلام لا يعجبني»».

كان المستلم التالي للمخطوطة التي رثت إلى حدٍّ ما من كثرة تناقلها هو تي إس إليوت من دار «فاربر آند فاربر». قارنها إليوت بشكل إيجابي مع «رحلات جليشر»، لكنه وجيفري فاربر لم يشعرا بأن «هذه هي وجهة النظر الصحيحة التي يمكن من خلالها انتقاد الوضع السياسي في الوقت الحالي». أخذها جورج وودكوك إلى زملائه الأناركيين في «فريدام برس»، لكنهم لم يففروا لأورويل هجماته السابقة على المذهب السلمي. في الولايات المتحدة، رفض عشرات الناشرين النصّ، بما في ذلك أنجوس كاميرون، رئيس التحرير الموالي للشيوعية في دار نشر «ليتل براون». وسط كل هذه الاعتراضات السياسية المتنوعة، كان منطلق الناشر «دايل برس» بسيطًا وممتعًا: قالوا إنه لا يوجد سوق لقصص الحيوانات.

فكّر أورويل، الذي أحبط إلى حدٍّ ما، في نشر «مزرعة الحيوان» بنفسه في صورة كُتِيب بقيمة شلّين عن طريق «ويتمان برس»، وهي دار نشر أناركية منزلية يديرها صديقه الشاعر بول بوتس. حتّى أنه كتب مقدّمة قوية بعنوان «حرية الصحافة» عن القوّة الخفية للرقابة غير الرسمية: «يمكن إسكات الأفكار التي لا تحظى بشعبية وإخفاء الحقائق المزعجة دون الحاجة إلى أيّ حظر رسمي». لكن تلك المقدّمة ستُلفى حتّى عام 1972، لأن فريدريك واربورج، الذي أنقذ سابقًا كتاب «الحنين إلى كاتالونيا»،

تدخل بعربون قيمته 100 جنيه استرليني، بشرط أن يجد ما يكفي من الورق لطباعتها. متجاهلاً اعتراضات زوجته وبعض زملائه، أقنع قرار واربورج الجريء أورويل بالتمسك بالناشر من لحظتها فصاعداً، وصرّح: «علمت أن الشخص الذي قد يخاطر بنشر هذا الكتاب سيخاطر بأي شيء».

في مذكراته، تساءل واربورج بميلودرامية عمّا كان سيحدث لو لم يراهن على الرواية. «ربّما كانت معنويات أورويل ستتصدّع لو فشلت «مزرعة الحيوان». وعندها؟ ربّما لم تكن رواية تُدعى «1984» لتوجد».

\*\*\*

تأخّر نشر «مزرعة الحيوان» لعدة أسباب، أحدها أن غارة جويّة دمّرت مقرّات واربورج في ذلك الصيف. في يونيو، بدأت قوّات اللوفتفافه الجويّة تضرب لندن بصواريخ في-1 المجنّحة، والمعروفة باسم «دودلباج»، انتقاماً لغارات سلاح الجو الملكي البريطاني على ألمانيا. سمّاها إتش جي ويلز «قنابل روبوتية». سمعت إنز هولدن امرأة خائفة تدّعي أن الصواريخ كانت أشباح طيارين اللوفتفافه الذين قُتلوا في معركة بريطانيا. ضربت صواريخ في-1 شقّة أورويل عندما كان هو وزوجته في الخارج، ما أجبرهما على الانتقال إلى منزل هولدن الخالي في مارليبون، قبل أن يستقرّا في منزلهما اللندني الأخير رقم 27 بي، في ساحة كانونبيري بإزلينجتون. استعاد أورويل عشرات الكتب، بالإضافة إلى مخطوطة «مزرعة الحيوان» المقصوفة من تحت الأنقاض. كان قد أصبح أباً مؤخّراً. كان أورويل يعتقد أنه عقيم (غير واضح على أيّ أساس)، وطلب من زوجة أخو

آيلين، جوين أوشوناسي، التي كانت تدير عيادة طبية في نيوكاسل، أن ترتب لهما عملية تبني. كان تكوين أسرة يمثل أولوية لأورويل أكثر من آيلين، لكنهما أصبحا والدين محبين لريتشارد هوريشيو بليز البالغ من العمر ثلاثة أسابيع، والذي سُمي على اسم والد أورويل الراحل. كانا يخططان للانتقال إلى الريف بمجرد انتهاء الحرب. قال أورويل لكاتب الجريمة جوليان سيمونز: «أنا أكره لندن. أودُ الخروج منها حقًا، لكن المرء لا يستطيع المفارقة والناس يُقصفون في كل مكان من حوله».

مع دخول الحرب مرحلتها الأخيرة، بدأ عقل أورويل يتحوّل إلى حقبة «ما بعد الحرب»، ولكن كان عليه أولاً الكشف عن أخطائه: كانت «رسالة لندن» الأخيرة اعترافًا ماسوشيًا دقيقًا بعدم أهليته ككبي. مقتبسًا اثنتي عشرة نبوءة خاطئة له، أوضح أورويل كيف كان «مخطئًا بشكلٍ فادح» بشأن بقاء الميثاق النازي السوفيتي، وسقوط تشرشل، واحتمال دفع الحرب ببريطانيا نحو الفاشية أو الاشتراكية. لقد أدرك أنه لم يعمل بجد بما يكفي للوقوف على تحيزاته والتغلب عليها، وتعهّد بمضاعفة جهوده. «يبدو لي أنه من المهم جدًا إدراك أننا كنا مخطئين، وأن نقول ذلك. معظم الناس في هذه الأيام، عندما يُثبت خطأ تنبؤاتهم، يزعمون بوقاحة أن لها ما يُسوِّغها ويلوون الحقائق وفقًا لذلك... أعتقد أنه من الممكن أن يكون المرء أكثر موضوعية من معظم الناس، لكن ذلك يتطلب جهدًا أخلاقيًا. لا يمكن للمرء الهروب من مشاعره، ولكنه على الأقل يستطيع معرفة ماهية هذه المشاعر وأن يأخذها في الاعتبار».

كانت لندن في أواخر عام 1944 مدينة كثيفة، ساخطة، ممزقة، يقصفها هجوم هتلر اليائس الأخير. صواريخ في-2 الباليستية الجديدة -التي تشبه إلى حد كبير «القنابل الصاروخية» التي ضربت آيرستريب وان- كانت كافية لجعل أهل لندن يشعرون بالحنين إلى أزيار قنابل «دودلباج» الشرير: على الأقل كانت تلك تعطي بعض التحذير. كتب أورويل في عمود «كما يحلو لي»: «في كل مرة ينفجر فيها إحداها أسمع تعليقات يائسة تشير إلى «الحرب القادمة». لكن إذا سألت أحداً من سيحارب من عندما تندلع هذه الحرب المتوقعة عالمياً، فلن تحصل على إجابة واضحة. إنها فكرة مجردة عن الحرب فحسب؛ على ما يبدو أن الفكرة القائلة بأن البشر يمكن أن يحسنوا التصرف قد تلاشت من ذكريات كثير من الناس». لقد صدمه تقرير «المراقبة الجماعية» عام 1943 الذي وجد أن 46 بالمئة من سكان لندن كانوا متأكدين من اندلاع حرب عالمية ثالثة، وأن 19 بالمئة ظنوا أن احتمالياتها ممكنة. توقّع معظمهم أن يحدث ذلك في غضون الأعوام الخمسة والعشرين القادمة.

\*\*\*

في سبتمبر عام 1944، كتب أورويل مقالاً رائعاً في «تريبيون» عن صديقه آرثر كويستلر. إذا كان جيمس بيرنام زوّد أورويل بالهيكل الجيوسياسي العلوي لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، فإن كويستلر زوّده بالمشهد العقلي من خلال تحفته الرائعة «ظلمة في كبد النهار» المنشورة عام 1940. تدور أحداث الرواية داخل سجن، وكويستلر بالتأكيد لم يكن غريباً عن الزنازين.



وُلد كويستلر في بودابست عام 1905، وكان مغامراً لا يهدأ. سُجن لأول مرة في فبراير عام 1937، عندما كتب تقريراً عن الحرب الأهلية الإسبانية لصحيفة «نيو كرونكل». من دون علم أرباب عمله، كان عضواً في الحزب الشيوعي الألماني لمدة ست سنوات، ويعمل لصالح شبكة منظمات الدعاية التي يديرها دعائي الشيوعية الدولية ويلي مونزينبرج. احتجز الفاشيون كويستلر داخل زنزانة حبسٍ انفرادي في إشبيلية لمدة أربعة وتسعين يوماً، عاش خلالها تحت تهديد مستمر بالإعدام. تسبَّب هذا الدنو من الموت في تجربة روحية مزَّقت إيمانه بالشيوعية. أُطلق سراحه نتيجة حملة دولية، واستقال كويستلر من الحزب الشيوعي في العام التالي في اجتماع في باريس، حيث اقتبس من توماس مان: «حقيقة مؤذية خيرٌ من كذبٍ مفيد».<sup>(34)</sup> لاحقاً قارن نفسه بمدمن على الكحول خرج من «عطلة نهاية أسبوع ضالة في المدينة الفاضلة». للتعبير عن تحرُّره من الوهم الشيوعي، بدأ في كتابة «ظلمة في كِبِد النهار» (التي كانت تُسمَّى في الأصل «الحلقة المفرغة»)، مستوحياً مشاهد السجن من تجاربه في إشبيلية، وتجارب صديقه إيفان سترابكر الذي كان معتقلاً في موسكو بتهمة وهمية هي التآمر لاغتيال ستالين. لم يكن مستقبله يخلو من تجارب اعتقال أخرى قادمة.

عندما كان يعيش في باريس وقت اندلاع الحرب، صُنِّف كويستلر على أنه أجنبي غير مرغوب فيه ووُضع في معسكر

34- \* قارن هذا بقول شخصية المخلص للحزب في رواية «ظلمة في كِبِد النهار»: «الحقيقة هي كل ما هو مفيد للإنسانية، والبهتان هو كل ما هو ضار». (المؤلف)

الاعتقال لو فيرنيه. أُطلق سراحه لفترة قصيرة كانت كافية لإنهاء الرواية وإرسال المخطوطة إلى لندن، قبل أن يعتقل مرةً أخرى عندما اجتاحت الفيرماخت فرنسا. هرب إلى إنجلترا في نوفمبر عام 1940، حيث سُجِنَ على الفور باعتباره أجنبيًا بإقامة غير قانونية مرةً أخرى: في اليوم الذي نُشرت فيه «ظلمة في كبد النهار»، كان كويستلر في الحبس الانفرادي في سجن بينتونفيل. في عام 1931، اعتُقل أورويل عن عمد بتهمة السكر كي يرى زنازين الشرطة بنفسه، لكنه سرعان ما أُطلق سراحه، وكانت الذكرى الوحيدة التي أثبتت نفعها له في كتابته «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هي الرائحة النتنة الخارجة من مرحاض مكسور. لذلك كانت أوصاف كويستلر الأصلية للسجن مصدرًا لا يقدر بثمن لمشاهد وزارة الحب. وكذلك كانت أفكاره حول السجن العقلي الذي تفرضه الشمولية.

«من يستطيع أن ينسى المرة الأولى التي قرأ فيها ظلمة في كبد النهار؟ في نظر الاشتراكيين على وجه الخصوص، كانت التجربة لا تُمحى. أستطيع أن أتذكر قراءتها كاملةً في ليلة واحدة وأنا مفزوع ومُكتسح ومفتون»، هكذا كتب مايكل فوت. عرض كويستلر حلًا محتملاً للغز محاكمات موسكو الصورية الجوهري: لماذا وقّع هذا العدد الكبير من أعضاء الحزب الشيوعي على اعترافات بجرائم ضد الدولة، وبالتبعية مذكرات إعدامهم؟ إما أنهم جميعًا مذنبون لأنهم متهمون (وهذا مستحيل)، أو أنهم حطّموهم بالتعذيب (وهذا غير كاف)، أو -كما جادل كويستلر- فإن سنوات ولائهم غير المشروط قد أذابت إيمانهم بالحقيقة

الموضوعية: إذا طلب الحزب منهم أن يكونوا مذبذبين، يجب أن يكونوا مذبذبين إذاً. كما قال بارسونز باكيًا في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «قطعاً أنا مذبذب! لا تظن أن الحزب سيعتقل رجلاً بريئاً، أليس كذلك؟». في أوقيانيا، لا وجود للقوانين، فقط الجرائم، ولا فرق بين التفكير والفعل. ومن ثم يمكن أن يعترف ونستون بتهم ملفقة تتعلق بالتجسس والاختلاس والتخريب والقتل والانحراف الجنسي وما إلى ذلك، مع الاعتقاد نوعاً ما بأنه مذبذب بالفعل. يقول أوبراين في الرواية: «كل الاعترافات التي قُبلت هنا حقيقية. نحن نجعلها حقيقية». وكذلك كان الحال في روسيا السوفيتية. كتب أرويل في مراجعته لـ «ظلمة في كبد السماء» عام 1941 أن في عهد ستالين كان المرء «يُسجن ليس بسبب ما يفعله، ولكن بسبب أنه هو، أو بالأحرى بسبب الاشتباه في كينونته».

روباتشوف، بطل رواية كويستلر، هو مسؤول سوفيتي رفيع اعتُقل خلال حملة تطهير أجبرته على إعادة التفكير في الأوقات التي كان يرسل فيها أعضاء الحزب الأبرياء إلى حتفهم. لقد تحول بين عشية وضحاها من جانٍ إلى ضحية «الرقم واحد» المعصوم من الخطأ، بديل ستالين الغامض الذي يزيّن وجهه كل جدار. لم يكتف ستالين بالقضاء على أعدائه، بل أراد اعترافاتهم وتوبتهم ليقضي عليهم أخلاقياً ويؤكد انتصاره على الواقع. كتب كويستلر: «الرعب الذي ينبثق من «الرقم واحد» يتمثل في المقام الأول في احتمال أن قد يكون على حق. وعلى كل من قتلهم أن يعترفوا، حتّى ولو بمسدسٍ مصوّبٍ إلى مؤخرة أعناقهم، بأنه

ربّما يكون على حق». قال المسؤول السوفيتي جيورجي بايتاكوف، الذي أُعدم في عام 1937، إن البلشفي الحقيقي «سيكون مستعدًا للاعتقاد بأن الأسود أبيض، والأبيض أسود، إذا طلب الحزب ذلك... فلم تتبقَّ ذرّة في جسده ليست متوحّدة مع الحزب، ولا تنتمي إليه».

روباتشوف مُحْتَجَز في سجن تسطع أنواره ليلاً ونهاراً، ويُستجوب فيه بلا هوادة في عملية تُعرف في روسيا باسم «الناقل». يستجوبه في البداية صديقه السابق إيغانوف، ثم الموظف الشاب عضو الحزب الشيوعي جليتكين الأكثر تعصّباً. وصف أورويل الأخير بأنه «نموذج شبه مثالي للجرامافونات البشرية»<sup>(35)</sup> لا تقض تفكيره ذكريات العالم القديم. كتب كويستلر: «هذا الجيل الجديد من أمثال جليتكين لا يملكون ذكريات لمحوها. هم ليسوا في حاجة إلى إنكار ماضيهم، لأنهم لا يملكون ماضياً». في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، أكثر المواطنين تعصّباً هم الصفار: «كان من الطبيعي أن يخاف الأشخاص دون سن الثلاثين من أطفالهم». ربّما كانت ابنة آل بارسونز، التي وشت بأبيها لشرطة الفكر، مستوحاة من بافليك موروزوف، الشيوعي البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، الذي يُزعم أنه قُتل على يد عائلته في عام 1932 بسبب خيانتة لوالده للشرطة السرية، ثم صار يُنعت بـ«الصبي البطل» في الدعاية السوفيتية. في آيرستريب وان، حيث يغني الناس «تحت شجرة الكستناء المورقة،

35- \* يشير هذا التشبيه إلى طريقة الكلام الميكانيكية الأوتوماتية التي ارتبطت على سبيل المجاز بالجرامافون، الذي كان لا يزال اختراعاً جديداً نسبياً وقتها. (المترجم).

وشيتُ بك ووشيتَ بي»، يُروِّج للخيانة على أنها فضيلة. الأسرة  
كيان لا يُقارن بالدولة.

التقى صديق يفعيني زامياتن القديم، إيفانوف رازومنيك، نحو  
ألف سجين خلال السنوات التي قضاها في سجون موسكو، ولم  
يعرف غير اثني عشر شخصًا رفضوا الاعتراف على أنفسهم.  
بخلاف معظمهم، لم يتعرض روباتشوف في الرواية للتعذيب  
الجسدي؛ إن تفكيكه نفسيّ بحت. بسبب ألم أسنانه وحرمانه من  
التبغ وتأنيب الضمير، يفقد روباتشوف تدريجيًا كل أساس أخلاقي  
وفكري للمقاومة. بمنطق الحزب الذي خدمه بإخلاص، لا يوجد  
«أنا»، فقط الضمير «نحن» الجماعي، وهو الحزب الذي يمثل  
التاريخ والذي لا يمكن أن يكون مخطئًا أبدًا. يسأل ونستون سميث:  
«كيف يمكن للعقل الجماعي الخالد أن يُخطئ؟ بأيّ معيار خارجي  
يمكنك التحقق من حكمه على الأمور؟». وإذا كانت الأخطاء غير  
مطروحة، فعلى الحزب أن يحذف باستمرار الأدلة المتناقضة،  
تاركًا فقط مساحات مستطيلة باهتة على الجدران وفجوات في  
أرفف المكتبات لتحدد الفراغ. «قال روباتشوف مازحا لأرلوف إن  
الشيء الوحيد المتبقي هو نشر طبعة جديدة معدلة من أعداد  
جميع الصحف السابقة». أحال أورويل مُزحة روباتشوف إلى  
وظيفة ونستون سميث في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

بالتأكيد يعترف روباتشوف في النهاية، وبالتأكيد يموت.  
ومع ذلك فهو لم يُهزم بالكامل. إن الهدف النهائي للحزب هو  
استعمار العقل والقضاء على ما سمّاه أورويل «جرائم الفكر».  
كتب روباتشوف: «لقد قمعنا بذور الشر ليس في أعمال البشر

فحسب، بل في أفكارهم. لم نسمح بأيّ مساحة خاصة، ولا حتّى داخل جمجمة الفرد». لكنه يلقي حتفه برأس مليء بأفكارٍ مارقةٍ حول فساد الثورة و «الشعور المحيطي» الروحاني الذي يسمو فوق كل شيء. كان كويستلر أرحم من أورويل. لقد منح ضحايا ستالين احتمالية ألا يكونوا قد استسلموا استسلاماً شخصياً نهائياً على الرغم من تحطّمهم العلني. يبدو أوبراين كمن يصف هذا المشهد بالتحديد في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «حتّى ضحايا التطهير الروسي يمكن أن يحملوا تمرّداً محبوباً في عقولهم وهم يسرون في الممر في انتظار الرصاصة». ليس هذا هو الحال في أوقيانيا: «إننا نطهّر العقل ونجعله مثالياً قبل أن نفجّره إلى أشلاء».

في مقالته في مجلّة «تيريون»، وازن أورويل بين امتداح رواية «ظلمة في كبد النهار» والنقد القاسي لكتاب كويستلر الأخير «الوصول والمغادرة»، وهي رواية «ضحلة» عن لاجئ هارب من الفاشية. لقد شعر أن كويستلر جمع بين السخرية كالحة السواد من التقدّم قصير المدى مع «اعتقاد شبه صوفي» بمدينة فاضلة بعيدة، لأنه كان ساعياً دائماً خلف اللذة (وهو عيب فظيع في الشخصية في نظر أورويل)، ما منعه من قبول حقيقة الحياة بأنها مؤلمة وفوضوية وتجربة مُذلّة. قال أورويل: «ربّما يتعذّر استئصال درجة معينة من المعاناة في الحياة البشرية. ربّما تكون الخيارات التي أمام الإنسان دائماً خيارات شريرة، وربّما يكون هدف الاشتراكية ليس جعل العالم مثالياً بل محاولة تحسينه. كل الثورات فاشلة، لكن لكل ثورة فشلها الخاص».

كان أورويل ومعاصروه حفنة قوية مشاكسة. بعقد صلة بين مراسلات أورويل وأسماء الكُتَّاب الذين قدَّم مراجعات لأعمالهم، أو الذين كتبوا مراجعات لأعماله، قد تتوقَّع منهم أن يكونوا قد كَوَّنوا دائرة مريحة تحفُّها المجاملات المتبادلة. لكنهم في الواقع كانوا يتفاخرون بنزاهتهم النقدية ويسدّد بعضهم اللكمات إلى بعض بقوة. إن كان أورويل قد قوبل بفتور من كل من انتقده في مقالاته، لتقلَّصت دائرته الاجتماعية الأدبية كثيرًا.

ومع ذلك، فإن صراحته الزائدة قادته إلى بعض المواقف المحرجة. في عام 1945، دعا كويستلر وشريكه مامين باجيت أورويل لقضاء الكريسماس معهما في ويلز. في اليوم السابق لوصول أورويل، قرأ كويستلر عددًا حديثًا من مجلة «تربيون» وشعر بالفرع لرؤية صديقه يصف مسرحيته الخيالية الجديدة «حانة الشفق» بأنها «ملهاة تافهة». لذلك عندما راح كويستلر لاستقبال أورويل في محطة لاندودنو، كان غاضبًا.

«يا لها من مراجعة نقدية بالغة السوء تلك التي كتبتها، أليس كذلك؟»

أجاب أورويل بفتور: «أجل، ويا لها من مسرحية بالغة السوء، أليس كذلك؟».

فقط بعدها بأسبوع وهو في طريق العودة إلى لاندودنو اعترف أورويل بهدوء أنه ربَّما كان قاسيًا بعض الشيء. ومع ذلك، لم يفسد الاختلاف في الرأي العطلة. ربَّما لأن كويستلر كان يعرف ما مرَّ أورويل به في ذلك العام، لم يرغب في الضغط على هذه النقطة.

\*\*\*

في فبراير عام 1945، حصل أورويل على فرصة ليكون مراسلاً حربياً أخيراً. أرسلته جريدته «ذا أوبزرفر» و«مانشستر إيفنينج نيوز» إلى باريس المُحرَّرة، بينما ذهبت آيلين وريتشارد للإقامة مع جوين أوشوناسي في ستوكتون أون تيز، في مقاطعة دَارِم. في رواية ثورستون كلارك «الساعة الثالثة عشرة» -وهي قصة تشويق نُشرت عام 1984 تحكي عن زوجة عضو في البرلمان الأمريكي تكتشف مذكرات أورويل المفقودة- يقضي أورويل وقته في أوروبا وهو يتتبع أثر الكولونيل الأمريكي الذي خان رفاهه الإسبان وباعهم إلى شرطة ستالين السرية. الحقيقة أقل درامية ولكنها أبعد عن أن تكون مملة. عندما سجَّل الكابتن إريك بلير وصوله إلى فندق سكريب في باريس في 15 فبراير، وجد كثيراً من الكُتَّاب في العاصمة الفرنسية، كما كان الحال في إسبانيا. أصبح صديقاً للفيلسوف آيه جيه آير، وتناول العشاء مع بي جي وودهاوس، وتقاطع طريقه مع مالكوم موجريدج الذي كان يعمل في جهاز الاستخبارات البريطاني، وأعاد الاتصال بقائده الإسباني خوسيه روفيرا، وقَدَّم نفسه إلى أندريه مالرو الذي كان وقتها مستشاراً لشارل ديغول، وادَّعى أنه اصطدم بهمنجواي.\*<sup>(36)</sup> رتب أورويل أيضاً للقاء ألبير كامو في مقهى ليه دوه ماجو، لكن مرض السُّلَّ كان قد اشتدَّ على كامو في ذلك اليوم، ممَّا أحبط ما

36- \* لا تتطابق القُصتان اللتان تسردان هذه الواقعة على الإطلاق. وفقاً لهمنجواي، طلب منه أورويل وهو مذعور استعارة مسدَّسه. أما القُصة التي زعم الشاعر والأناكي بول بوتس أنه سمعها من أورويل فتضمَّنت جلسة شراب صاخبة، لكن بلا ذكر لأسلحة نارية. لم يكتب أورويل نفسه شيئاً عن الأمر. إن عدم الموثوقية في الذاكرة يتضاعف عندما نقف الرغبة في سرد قصة جيدة حائلاً في الطريق. (المؤلف)



كان يمكن أن يكون لقاءً بارزاً بين رجلين متمردين بالسليقة قَدَمَا  
المبادئ على المصلحة السياسية وحوّلاً الكتابة السياسية إلى  
فن. أرسل أورويل لاحقاً نسخة من الترجمة الفرنسية لـ«مزرعة  
الحيوان» إلى كامو.

في أواخر مارس، وافق أورويل قوَّات الحلفاء في مسيرتهم إلى  
كولونيا. «بعد سنوات من الحرب، كان شعوراً غريباً جداً أن تقف  
أخيراً على الأراضي الألمانية»، هكذا كتب في رسالته الوحيدة  
قبل أن يمرض ويدخل المستشفى. وهو هناك، فاقته الرسائل  
العاجلة التي كانت آيلين ترسلها إلى فندق سكريب... رسائلها  
الأخيرة. كان من المقرر أن تجري آيلين عملية استئصال رحم  
طارئة في نيوكاسل في 29 مارس لإزالة عدة أورام تنمو سريعاً  
من رحمها. في رسائلها، كانت ناكرة للذات بطريقة تدمي القلوب  
بشأن تكلفة العملية («لا أظن أنني أستحق هذا المال») وغير آبهة  
باحتمال موتها على طاولة العمليات، لكنها كانت عنيدة بشأن  
المستقبل الذي تريده له. أخبرت أورويل بأن عليه ترك العمل  
في الصحافة والتركيز على كتابة الروايات، والانتقال إلى الريف  
في أسرع وقت ممكن. «لا أعتقد أنك تفهم مدى كابوسية الحياة  
في لندن في نظري... طوال هذه السنوات أشعر كأنني أحياء في  
نوع مخفَّف من معسكرات الاعتقال». عند عودته إلى باريس، قرأ  
أورويل الرسائل وأرسل برقية إلى آيلين، لكن بعد فوات الأوان.  
في اليوم التالي أبلغته برقية من صحيفة «ذا أوبزرفر» بأسى  
بأن زوجته التي دام زواجه بها تسع سنوات ماتت عن عمر التاسعة  
والثلاثين. لقد أصيبت بسكتة قلبية تحت التخدير.

عاد أورويل على متن طائرة عسكرية إلى لندن، وظهر أمام عتبة باب منزل إنز هولدن في حالة يرثى لها، ثم سافر إلى ستوكتون أون تيز لحضور الجنازة. أربك تحفظه العاطفي الأصيل الذي ورثه عن والده بعض الأصدقاء ودفعهم إلى التفكير في أنه كان شديد التماسك أمام خسارته، لكن مشاعره تسرّبت في رسائله، التي بدا فيها أقل اهتمامًا بحزنه وأكثر اهتمامًا بالظلم الذي وقع على آيلين ومستقبلها المسروق. «ما حدث هو أفظع شيء كان يمكن أن يحدث، لأنها قضت خمس سنوات بائسة حقًا بصحّة معتلة وإفراط في العمل، وكانت الأمور قد بدأت بالتحسّن لتوّها»، هكذا كتب لانتوني باول. شعر بذنب كبير لأنه كان غير مخلص جنسيًا، وأنانيًا، وغافلًا عن خطورة مرضها، ولأنه تغيب عنها عندما كانت في أمس الحاجة إليه. طارده الصدمة والوحدة التي تلت ذلك طوال السنوات الأربع التالية. «لا أظن أنه كان يعتني بها كثيرًا، لكنني أظن أنه أحبها. لا أظن أنه كان يعرف كيف يعتني بأيّ شخص، ولا حتّى بنفسه»، هكذا قالت لاتيس كوبر صديقة وزميلة آيلين.

كالعادة، دفن أورويل نفسه في العمل. بعد أيّام قليلة من الجنازة عادة إلى أوروبا. في باريس، حيث استسلمت ألمانيا، شاهد المحتفلين يسدّون الشوارع لمدّة يومين وهم يهتفون «بصحبتنا» ويغنّون النشيد الوطني الفرنسي. زار بعدها شتوتجارت ونورمبج والنمسا، ليرى بنفسه أطلال الديكتاتورية المنهارة. دفعه الدمار إلى الشعور بالرعب والشفقة: «المشي في طرقات مدن ألمانيا المدمّرة يصيبك بشكٍّ حقيقي في استمرار الحضارة البشرية».

كان هذا قولاً سهلاً على رجل لم يختبر الاحتلال النازي من قبل، ولكنه عندما رأى ضباط الشوتزشتافل المهزومين يتعرضون للضرب والإهانة في معسكر أسرى الحرب، شعر بأن «فكرة الانتقام والعقاب برمتها هي حلم يقظة طفولي». كان قلقاً من أن تُصعب محاكمات جرائم الحرب وتقسيم ألمانيا عملية شفاء أوروبا، وأنها لن تُرضي سوى شهوة الانتقام في نفوس الجماهير. شعر أنه لو سيق مجرمو الحرب إلى استاد ويمبلي لتأكلهم الأسود أو تدهسهم الأفيال، ستكتفُ المدرجات عن آخرها. جاءته تلك الصورة الذهنية في يناير عندما زار معرضاً في لندن يُدعى «أهوال معسكرات الاعتقال النازية»، وغادره وهو يشعر أنه شاهد نوعاً ما من الفن الإباحي. في آيرستريب وان، تحولت كنيسة سانت مارتن إن ذا فيلز إلى معرض فظائع، وصار شفق مجرمي الحرب علناً يوم نزهة مبهج لجميع أفراد الأسرة. بعد الحرب، شعر أن عودة مثل هذه الإعدامات في نورمبرج وشاركوف أمرٌ «بريري»، وشجب -مثل ونستون سميث- «الطريقة السلبية التي يشارك بها الشعب...» البريطاني «بمشاهدته للأفلام الإخبارية». كان ذلك مؤشراً بـ«منحى جديد في دوامة الهبوط التي نهبط فيها منذ عام 1933».

\*\*\*

كان التحيز مشكلة أخرى ذهن أورويل في عام 1945. تظهر معاداة السامية في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» فقط من خلال شخصية إيمانويل جولدشتاين، أما العنصرية فلا تظهر على الإطلاق. في الواقع، يصرُّ كتاب جولدشتاين على أنه لا يوجد

تميز عنصري في أوقيانيا، لأن الحزب موحدٌ بالأيديولوجية وليس بالدم. ومع ذلك، فكّر أورويل في جعل العنصرية سمة من سمات حزب الإنجوسك. تتضمّن خطوط الرواية العريضة الأصلية أفكار معاداة السامية و «الدعاية المعادية لليهود». في مسودات الرواية المبكرة، يُستهدف اللاجئون الفارقون الذين يراهم ونستون في شريط إخباري لأنهم يهود، ويحكي لنا عن عملية إعدام متلفزة شنيعة بلا محاكمة في القسم الأمريكي من أوقيانيا.

لذا سيكون من الخطأ استنتاج أن أورويل لم يعتقد أن التحيز العرقي أمرٌ خطير. منذ كتبه الأولى مثل «الطريق إلى رصيف ويجان البحري»، نعت التحيز العرقي بأنه «زائف تمامًا» بجميع أشكاله. في عمود «كما يحلو لي»، استكرر بقوة الإهانات العنصرية وإساءة معاملة الجنود السود في لندن، وهاجم الطريقة التي حُرِم بها الأمريكيون الأفارقة من حق التصويت بعد أن «طُردوا من الوظائف التي تتطلب مهارة، وعُزلوا وأُهينوا في الجيش، واعتدى عليهم رجال الشرطة البيض، ومارسوا القضاة البيض التمييز ضدهم». في «معاداة السامية في بريطانيا»، مقالته في كتاب «السجل اليهودي المعاصر» المنشور عام 1945، كتب أورويل: «تفتقر الحضارة الحديثة إلى شيءٍ ما، إلى نوع من القِيَمَات النفسية، ونتيجة إلى ذلك جميعنا معرّضين بشكل أو بآخر لجنون الاعتقاد بأن أجناسًا أو أممًا بأكملها خيرة بطبيعتها أو شريرة بطبيعتها».

أطلق أورويل على هذا الجنون اسم «القومية»، وهي كلمة شملت في نظره كل أشكال الانحياز السياسي، من الفاشية إلى الصهيونية. بالتأكيد لم يكن يعتقد أنها جميعًا متساوية في

السوء، لكنها جميعاً تظهر أنماط التفكير نفسها. أما الوطنية، فكان يظنُّ أنها فطرية وحميدة إلى حدٍّ كبير: إنها شعور وليست أيديولوجية. أوضح أورويل في مقال «ملاحظات على القومية» الذي كتبه وهو في أوروبا، أن القومية «هي جوع للسلطة يخفّفه خداع النفس. كل قوميٍّ قادر على ارتكاب أكبر قدر من التضليل السافر، لكنه أيضاً -بما أنه يعي أنه يخدم شيئاً أكبر منه- واثق بشكل لا يتزعزع من كونه على حق». أورد أورويل عشرات الأمثلة لأشخاص يؤمنون بأكاذيب مُرضية عاطفياً، ويرفضون الحقائق التي لا ترضيهم، ويطبّقون المعايير المزدوجة الفاحشة، ويعيدون كتابة الأحداث. هذه هي المكونات النفسية للتفكير المزدوج، أو «التحكم في الواقع»، كما عرّفها في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بأنها «القدرة على اعتناق معتقدين متناقضين في عقل الفرد في آن واحد وقبولهما معاً... أن يكذب المرء متعمداً وهو يؤمن بصدق بكذبه، وأن ينسى أيَّ حقيقة باتت غير ملائمة، ثم عندما تصبح ضرورية من جديد، تُستدعى من غياهب النسيان وتستخدم إلى أن ينقضي الغرض منها، وأن ينكر وجود الحقيقة الموضوعية وهو يضع في الحسبان الواقع الذي أنكره».

كانت القومية هي نظرية أورويل الموحدة لعلم النفس السياسي: مفتاح رئيس يفتح كل أنواع التحيزات والمغالطات والظواهر العقلية الخبيثة. كانت أنماط التفكير التي سيدفعها لاحقاً إلى حدودها القصوى في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» تنبثق في كل مكان كأعشاب قاتلة. وكان مبيد الأعشاب الوحيد هو بذل «الجهد الأخلاقي» ليعترف المرء بتحيزاته ويخضع نفسه

لفحص ذاتي عديم الشفقة. جادل أورويل بأن معاداة السامية، على سبيل المثال، يجب أن يُحقَّق فيها «أشخاص يعرفون أنهم ليسوا محصَّنين ضد هذا النوع من المشاعر». شمل ذلك نفسه. في الثلاثينيات، لا سيَّما في كتابه «الفقر والتشرُّد في باريس ولندن»، أدلى ببعض الملاحظات العدائية العرضية عن اليهود، وهي ملاحظات نموذجية لمن هم من جيله ومن طبقته، ولم يبذل جهداً للتفكير في تحيُّزاته المسبقة إلا في أثناء الحرب، على الرغم من أنه أهمل أيضاً إعادة النظر في رهاب المثلية الجنسية اللا إرادي ورفضه للنسوية بلا تفكير. لقد لاحظ أن الإجماع العام على أن معاداة السامية غير مقبولة لم تجبر الناس على تدبُّر تحيُّزاتهم الخاصة كما قد يأمل المرء، ولكنها جعلتهم يعيدون رسم حدود التعريف بطريقة تستبعد تلك التحيُّزات، مع محاولة البحث عن أمثلة على سلوك اليهود السيئ. كتب أورويل: «من الواضح أن هذه الاتهامات تُمنطق بعض التحيُّزات المتجذِّرة فحسب. إن محاولة مواجهتها بالحقائق والإحصائيات عديمة الجدوى، وقد تكون أحياناً أسوأ منذ ذلك».

تخيَّل أورويل التحيُّز العنصري في صورة عصب لا يُلاحظ حتَّى يتعرَّض للوخز. أيديولوجيات مثل النازية نشَّطت هذا العصب لتحقيق غاياتها الخاصة، لكن الديكتاتورية لن تنجح في وظيفتها إلا إذا تماشى معها عامَّة الناس، سواء عن طريق الضغينة أو اللا مبالة أو الخوف. كان إيمان أورويل بالنقد الذاتي على الصعيدين الشخصي والوطني يعني الاعتراف بأن الشمولية لم تكن آفة تنفرد بها ألمانيا وروسيا، بل آفة لديها القدرة على الاستيلاء

على أيّ مجتمع على وجه الأرض. كل إنسان مجبول على الاعتقاد بأنه صالح، ومجبول على الدفاع عن مواقفه بأيّ درجة مطلوبة من النفاق وخداع الذات. في أيرستريب وان، لا يهم ما إذا كان الأخ الأكبر موجوداً بالفعل، أو ما إذا كانت شرطة الفكر تراقب طوال الوقت، ما أن يتمكن الفيروس، لأن أقوى الأكاذيب هي تلك التي يقولها الناس لأنفسهم. في عمودٍ صحفي عام 1944 عن الكُتِيبات، لاحظ أورويل أنه عبر كل ألوان الطيف السياسي «لا أحد يبحث عن الحقيقة، الجميع يطرح "قضيته" بتجاهل تام للعدالة والدقة، ويمكن لهؤلاء الذين لا يريدون رؤية الحقائق الأكثر وضوحاً غض الطرف عنها... إن الاعتراف بأن الخصم قد يكون صادقاً وذكياً في الوقت نفسه أمر لا يطاق».

عند قراءة مقال «ملاحظات على القومية» الآن، يمكنك تطبيق قائمة التحيزات المعرفية التي ذُكرت فيه على تلك التي لم تكن موجودة آنذاك: الانحياز التأكيد، وفقاعات الترشيح، وتأثير النتائج العكسية، والتفكير الجماعي.\*<sup>(37)</sup> كان أورويل مهتماً بالأسباب التي جعلت كثيراً من الناس العاديين يتبعون هتلر وستالين، أكثر من اهتمامه بشخصيتهما (كتب عنهما أقل القليل بشكل يثير الدهشة). أحد تلك الأسباب كان تفسُّخ إجماع الآراء عليهما. وصف كيف أن قراء الصحف، الذين وجدوا أنفسهم

---

37- \* التفكير الجماعي Groupthink: مصطلح صاغه عالم النفس إيرفينج جانيس في عام 1971 لوصف «التدهور في الكفاءة العقلية والأحكام الأخلاقية وعملية اختبار الواقع نتيجة لضغوط الجماعة». أسلوب صوغ المصطلح تحية صريحة للغة الجديدة. (المؤلف).

يواجهون ارتباكاً حقيقياً وخيانةً صريحةً، تخلُّوا عن فكرة أن الحقيقة يمكن بلوغها على الإطلاق: «عدم اليقين العام بشأن ما يحدث على أرض الواقع يجعل من السَّهل التمسُّك بالمعتقدات الجنونية».

\*\*\*

في 4 يونيو عام 1945، كان البثُّ الأوَّل الذي أذاعه ونستون تشرشل لحملة الانتخابات العامة أشبه بمقتطف من رواية ديستوبية عن دولة بوليسية يحكمها حزبٌ واحد. قال تشرشل هادراً: «لا يمكن أن يُوجد شك في أن الاشتراكية مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بالشمولية وعبادة الدولة المُهينة. لا تستطيع أيُّ حكومة اشتراكية تدير كل أشكال الحياة والصناعة في البلاد أن تسمح بتعبير حر وحاد أو عنيف عن السخط العام. لا بُدُّ لها من أن تنتكص إلى شكل من أشكال الجستابو، مهما كانت موجَّهة بطريقة إنسانية في المقام الأوَّل».

أصاب زعيم حزب العمل كليمنت أتلي عندما وصف خطاب تشرشل الإذاعي بأنه «نسخة مستعملة» من كتاب «الطريق إلى القنانة». في تلك الأثناء، وجد الجمهور صعوبة في مواءمة هذا التكهُن الهستيرى مع الرجل الخجول الثابت الصادق غير القابل للإفساد الذي قضى خمس سنوات كتفّاً بكتف تشرشل في الحكومة الائتلافية في زمن الحرب. ربما تكون جمجمة أتلي -كما أشار أورويل- تحمل شَبهاً تشريعياً بجمجمة لينين، لكن مع صوته الجاف الضعيف وسلوكه المتواضع، لم يكن الرجل يثير في عقل أحد فكرة الرجل القوي المتعطِّش إلى السلطة. لم يكن



الشعب البريطاني يتوق بالضرورة إلى الاشتراكية - ففي استطلاع عام 1943، لم يذكرها إلا 3 بالمئة فقط من الأشخاص الذين أرادوا «تغييرات كبيرة» بعد الحرب- ولكنه كان مهتمًا بالمجتمع الأكثر عدلاً الذي كان حزب العمل يعد به في بيانه الرسمي «دعونا نواجه المستقبل الآن».

كانت خطة أورويل في أثناء تغطيته الانتخابات لصالح «الأوبزرفر» بعد عودته من باريس هي نقل آراء رجل الشارع العادي، لكن رجل الشارع العادي لم يكن متعاونًا. في الحانات وفي الحافلات، لم تحقق الانتخابات اهتمامًا يُذكر. «في مواجهة المخاطر المرعبة والفرص السياسية الذهبية، يواصل الناس الماضي قدمًا فحسب، في نوع من فقدان الشعور»، هكذا قال متذمرًا. توقع أورويل، بسبب ضعف المعلومات الآتية من النشطاء المحبطين واستطلاعات الرأي غير الكافية، بأن حزب تشرشل ما زال سيفوز بأغلبية ضئيلة في الخامس من يوليو. لكن بدلًا من ذلك، فاز حزب العمل بـ 393 مقعدًا من أصل 640 مقعدًا، بزيادة تأييد غير مسبقة قدرها 12 بالمئة. «كنت مخطئًا في عدة نقاط»، هكذا اعترف أورويل في تشريحه لـ «بارتيزان ريفيو»، لكن «كل شخص آخر، على حد علمي، كان مخطئًا أيضًا». وشمل ذلك المنتصرين. في صباح اليوم التالي لظهور النتائج، أرسلت السفارة الأمريكية في لندن برقية إلى واشنطن تقول «لم يفاجأ أحد أكثر من قادة حزب العمل». في نهاية «ذلك اليوم الغريب، الدرامي، الشبيه بالحلم»، غطت مراسلة صحيفة «ذا نيويورك ركر» في لندن، مولي بانتر داونز، الاحتفال في قاعة وستمنستر المركزية،

حيث غنى أعضاء حزب العمل نشيد «القدس»، وقدم رئيس الحزب هارولد لاسكي نفسه بمكر على أنه «الرئيس المؤقت لجهاز الجستابو الاشتراكي».

يمكن مسامحة أورويل عن فشله كخبير انتخابات. لكن خيبة الأمل الأكبر كانت حماسته الخافتة لحكومة استمرت في بذل مزيد من الجهود لجعل الاشتراكية الديموقراطية حقيقة واقعة أكثر من أي إدارة عمالية قبل أو بعد ذلك. كانت اشتراكية أتلي وطنية وبراجماتية ومناهضة للإمبريالية ومعادية للاستالينية، تركز على «الآداب الأساسية للحياة» وإلى يوتوبيات وليم موريس وإدوارد بلامي الودّية التي قرأها في شبابه. لقد تردّد صدى إصرار أتلي على ضرورة إعادة تشكيل الاشتراكية «وفقاً للعبقريّة المحلية لشعب ذلك البلد» في مقال «الأسد واليونيكورن»، وتداخل جدول أعمال حزب العمل إلى حدّ كبير مع برنامج النقاط الست لهذا المقال.

ومع ذلك، كان أورويل قريباً من اليسار العمالي وشاركه وجهة نظره القاتمة عن حُكّة أتلي السياسية. قال بيثان، الذي كان يشغل منصب وزير الصحة، إن أتلي «يجلب إلى صراع السياسية العنيف، الحماس الفاتر لمباراة كريكيت صيفية كسول». أطلقت عليه مجلة «تربيون» -في تحية إلى إتش جي ويلز- لقب «الرجل الخفي». شبّه أورويل نفسه ذات مرة زعيم حزب العمل بـ«سمكة ماتت حديثاً ولم يُتَح لها الوقت للتصلب»، لذلك كان دمثاً نسبياً الآن وهو يصف أتلي بأنه «باهت» ويفتقر إلى «الكاريزما التي

يحتاج إليها رجل الدولة في الوقت الحاضر».<sup>(38)</sup> لكن حتى مع قلقه بشأن قدرة الحكومة على حلّ المشكلات الهائلة في الديار وخارجها، فقد اعتقد أن انهيار الحزب المفاجئ كان دليلاً مُرحّباً به على أن الشعب البريطاني لم يفقد عقله. كتب أورويل في المجلة الأمريكية «كومنتراري»: «كدليل على حيوية الديمقراطية، وقوّة الشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية على التعايش من دون فوهرر، فإن نتيجة هذه الانتخابات يجب أن تثير الابتهاج، حتى لو فشل الرجال الذين جاءت بهم إلى السلطة فشلاً ذريعاً». لاحظ أورويل أن ملصقات وجه تشرشل الانتخابية كانت صغيرة إلى حدٍ مطمئن مقارنةً بملصقات ستالين أو ديجول.

\*\*\*

بينما كان لا يزال في أوروبا، قدّم أورويل طلباً في اللحظة الأخيرة إلى «سيكر آند واربورج» لتغيير كلمة واحدة في «مزرعة الحيوان» تصف الخنزير الأوتوقراطي نابليون، لعكس حقيقة أن ستالين لم يفر من موسكو عند تقدّم الألمان. كتب قائلاً: «أدركت لتوّي أن التعديل سيكون عادلاً لحي إس». ربّما كان جوزيف ستالين طاغية مجرماً، لكن هذا ليس سبباً كافياً لنعته بالجبان. قال واربورج: «في نظري، تلقي هذه الجملة الواحدة قدراً من الضوء على شخصية أورويل أكثر من أيّ جملة أخرى».

زعم أورويل بعد ذلك بعاميين أن الدافع وراء تأليف الكتاب

38- \* ومع ذلك، أصبح أتلي من محبّي أورويل. بعد وفاة تشرشل في عام 1965، كتب: «كان بعض الجنرالات في الميدان يظنون أنه مثل الأخ الأكبر في كتاب أورويل، يحملهم فيهم من الجدران طوال الوقت».

يعود إلى الوقت الذي قضاه في إسبانيا الذي جعله مقتنعاً بأن «تدمير الأسطورة السوفيتية ضروري إذا أردنا إحياء الحركة الاشتراكية». والعكس صحيح. بعد أن رأى أورويل المثالية الثورية محطمة في برشلونة، اعتقد أنه من الضروري ابتكار بديل عملي للاستالينية. كان يعتقد أن المهمة ستتطلب كتاباً يمكن استيعابه عالمياً بأي لغة.

على الرغم من بعض الحرية الإبداعية في السرد الزمني، فإن «مزرعة الحيوان» قصة رمزية دقيقة للتاريخ الروسي من الثورة إلى مؤتمر طهران. كل حيوان في الرواية يمثل فرداً أو نوعاً شائعاً من التفكير: نابليون هو ستالين، وسنوبول هو تروتسكي، والسيد فردريك هو هتلر، وهكذا. ومع ذلك، ففي الوقت نفسه، وعلى الرغم من طرافتها الكبيرة، فالقصة قادرة على إبكاء القارئ الذي لا يعرف شيئاً عن روسيا. كتب عنها جرهام جرين قائلاً: «إنها حكاية رمزية حزينة، وهي مؤشر على أن موهبة السيد أورويل الرفيعة بئسة حقاً وليست مجرد صدى منفصل عن الواقع لأخطاء البشر». عندما يُرسل بوكسر -الحصان الساذج المجتهد- إلى ساحة الموهوبين، فإن القارئ يبكي بوكسر ذاته، وليس رمزية البروليتاريا الروسية الذكية.

وصف أورويل مزرعة الحيوانات بأنها «نوع من الحكايات الخرافية... قصة رمزية بمدلول سياسي». كان يحب القصص الخرافية، وقد قدّم معالجتين إبداعيتين لكل من «ملابس الإمبراطور الجديدة» و «ذات الرداء الأحمر» في الراديو، وفكر ملياً في تقديم «سندريلا»، التي كان يُعدها «الأروع». المأساة

في «مزرعة الحيوان» يمكن أن يستشعرها الأطفال بعمق: تحطّم الآمال، وخيانة الخير، والكذب بلا عقاب. كانت مارجريت آتوود -في سنّ تسع سنوات- واحدة من هؤلاء الأطفال. قالت متذكّرة: «إذا قلت إن الكتاب أصابني بالذعر سيكون بخساً له. كان مصير حيوانات المزرعة بئساً جداً. كانت الخنازير لثيمة وكاذبة وغادرة، والخراف حمقاء. يتمتّع الأطفال بحسّ عالٍ تجاه الظلم، وهذا أكثر ما أزعجني. لم تكن الخنازير عادلة على الإطلاق».

يمكن قراءة «مزرعة الحيوان» على أنها مقدّمة تمهيدية لموضوع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: في البداية عُذر بالثورة، ثم انتصر الطغيان. على الرغم من وجود إشارات عابرة إلى حدوث ثورة وحرب أهلية في أوقيانيا بعد حرب نووية محدودة، لا يُوجد وصفاً واضحاً لكيفية استيلاء حزب الإنجسوك على السلطة وتوطيد نفسه، لكن مزرعة الحيوانات تشير بقوة إلى كيفية حدوث الأمر، بافتراض أن سنوبول هو نسخة أصغر من «الساحر الشرير» جولدشتاين، الذي تحوّل بفعل الارتياح الشديد إلى «كيانٍ خفي يملأ الأجواء من حولهم ويهدّدهم بكل أنواع الأخطار». في الواقع، ألمحت مسوّدّة مبكّرة من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إلى «مزرعة الحيوان» عن طريق جعل أوبريان يعقد مقارنة بين عدم احتمالية حدوث انتفاضة عوام و«الاحتمال النظري بأن الحيوانات قد تثور في يوم من الأيام ضد البشرية وتحتل الأرض».

يتشارك الكتابان أيضاً في الهوس بتآكل الذاكرة وفسادها. تظهر كلمة «تذكّر» 110 مرّة في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وكلمة «ذاكرة» 47 مرّة، وكلمة «نسي» أو «طلي النسيان» 46 مرّة. وفي

حين أن التلاعب بالماضي في أوقيانيا عملية صناعية مدروسة، ففي مزرعة الحيوانات يوصف الأمر بغموض غريب كما لو كان تعويذة سحرية: «كلهم تذكروا، أو ظنوا أنهم يتذكرون...»، وحده القارئ يستطيع أن يرى بجلاء كيف تُمحي ذكريات الحيوانات بالتدريج.

أولاً، بتزوير الأدلة. عُدلت وصايا الثورة السبع تدريجيًا، واختزلت في النهاية إلى عبارة شهيرة تناقض نفسها: «جميع الحيوانات متساوية، لكن بعضها أكثر مساواة من غيرها». عندما احتجّت الحيوانات الأخرى، يسأل ملازم نابليون، سكوير: «هل أنتم متأكدون من أن هذا القول لم يكن شيئًا توهّمتموه أيها الرفاق؟ أليكم أيُّ وثيقة لهذا التصريح؟ هل هو مُدوّن في أيِّ مكان؟». بالتأكيد ليس مُدوّنًا، وبالتالي يجب أن يكونوا مخطئين. وإن كان لدى سكوير إحصائيات «تثبت» أن الحياة صارت أفضل الآن، فلا بدّ من أنها كذلك. يتذكّر ونستون سميث أن الطائرات كانت موجودة في طفولته، لذلك لم يكن بوسع الحزب أن يخترعها، «لكن لا يمكنك إثبات أيّ شيء». لا يوجد أيُّ دليل على الإطلاق». ثانيًا، بعصمة القائد من الخطأ. عندما أقسم بوكسر أن سنوبول كان بطل حرب وليس خائنًا طوال الوقت، يخبره سكوير بأن نابليون هو المرجعية المطلقة. يقول بوكسر نادمًا: «آه، هذا مختلفا إذا قال الرفيق نابليون ذلك، فلا بدّ أنه صحيح». الشاعر الدعائي، الخنزير مينيوس، يمجّده باعتباره شخصية إلهية (أو مثل الأخ الأكبر): «أنت تسهر لمراقبة الجميع، أيا الرفيق نابليون». ثالثًا، باللغة. وحدهم الخنازير، «المفكّرون»، يستطيعون الكتابة،

لذلك يتحكمون وحدهم في السرد. عندما يختزلون المفردات اللغوية (كما في عبارة «ذوات الأربع صالحة، وذوات القدمين طالحة»، وهو شكل بدائي من اللغة الجديدة)، فهم يضيّقون أفق التفكير. الأفكار الأخرى تختنق بشعارات الخراف غير المفهومة، أو تستعصي على التعبير. تعرف الفرسة كلوفر أن هذا ليس ما حاربت الحيوانات وعملت من أجله «رغم افتقارها إلى الكلمات للتعبير عن ذلك». وبالمثل في اللغة الجديدة، لا يمكن التلّفظ بالمعارضة لأن «الكلمات الضرورية لم تكن متاحة».

وفي النهاية، بالزمن. يرحل الثوار القدامى أو يموتون، بينما تولد حيوانات جديدة أو تُستَرى: جيل جديد من من ذوات الأربع أشباه جليتيكين من رواية «ظُلْمة في كِبِدِ النهار» ليس لديه ما ينسأه. يتنبأ ونستون سميث بأنه في غضون عشرين عاماً «لن تعود هناك إجابة على السؤال الهائل واليسير «هل الحياة قبل الثورة كانت أفضل مما هي عليه الآن؟»». ستكتمل الحرب على الذاكرة.

\*\*\*

في يونيو عام 1945، أخبر أورويل واربورج بأنه كتب 12 صفحة من روايته الجديدة ووظّف مدبّرة منزل لمساعدته في الاعتناء بابنه ريتشارد. أحبّت سوزان واتسون ربّ عملها الجديد، وأشاد هو بحيويتها التي أعادت الضوء إلى منزل كان مليئاً بالغبار بالحزن. كما أنه استمتع بكعكة الشوكولاتة التي تخبّزها. تذكرت سوزان قائلة: «في مرّة هبطت الكعكة من المنتصف، لكنه كان يحبّها هابطة. كان يحب الأشياء التي تكون معيبة قليلاً».

بالتأكيد كان كذلك. في قرارة نفسه كان أورويل يرى أنه فاشل

ومهزوم داخليًا. لاحظ واربورغ أنه «لم يحب قط أن يكون مرتبطًا بأي شيء قوي جدًا أو ناجح جدًا». ومع ذلك، كان كثير من أصدقاء أورويل يعتقدون بأنه جاء الدنيا ليكون عظيمًا. في سبتمبر عام 1941، حضرت إنز هولدن غداء «مؤتمر القلم العالمي» مع آرثر كويستلر وسيريل كونولي وستيفي سميث، وراهن كويستلر بخمس زجاجات نبيذ عُنَّابي أن أورويل سينشر أحد أكثر الكتب مبيعًا في غضون خمس سنوات.

ربح كويستلر الرهان قبل عام من انتهاء مهلة الرهان. باعت «مزرعة الحيوان: حكاية خرافية» المنشورة في 17 أغسطس جميع النسخ التي امتلكت دار «سيكر آند واربورج» الورق الكافي لطباعتها: ما يقرب من عشرين ألف نسخة. شعر أورويل بالفخر لأنه تمكّن أخيرًا من دفع الفاتورة بعد تناول الغداء مع واربورج. لقد صُدم مسرورًا -نظرًا لمعاناته في العثور على ناشر- من عاصفة المديح والثناء من النقاد، باستثناء «ديلي وركر» و «ذا نيو ستيتسمان» بالتأكيد. جلبت الترجمات الأجنبية مزيدًا من الإشادة، حتى لو كانت الكلمات الوحيدة التي استطاع أن يفهمها من بعض المراجعات هي سويفت وجليشر. «فوجئت بردود الفعل غير الودية التي لم تنلها الرواية»، هكذا قال لمؤسس مجلة «بارتيزان ريفيو»، فيليب راهف. كان مصدر شكوى أورويل الوحيد هو أن بعض المكتبات أخطأت بوضعها في قسم الأطفال، لذا أخذ على عاتقه مهمة نقل النسخ إلى مكانها الصحيح.

نجحت «مزرعة الحيوان» أيضًا مع أشخاص لم يسع قط إلى إثارة إعجابهم. استعار ابن تشرشل، راندولف، نسخة، وقيل إن



الملكة قرأتها، ودعاه اللورد بيثريوك، قطب الصحافة اليميني المحارب الذي وصف أورويل سلوكه في عبارة مشهورة بأنه «أشبه بلعبة القرد الهائج على العصا إلى درجة لن تصدِّق أنها ممكنة من شخص لا يفعل ذلك عن عمد»، إلى العشاء. سرعان ما أُجبر أورويل على تذكير معجبيه بأنه كان في الواقع اشتراكيًا. عندما دعته دوقة أثول للتحدُّث في اجتماع «رابطة الحرية الأوروبية» ذات الميول اليمينية، أوضح أنه لا يستطيع احترام منظمة تدافع عن الحرية في أوروبا ولكن ليس في الهند. كتب إليها يقول: «أنا أنتمي إلى اليسار ويجب أن أعمل في إطاره، بقدر ما أكره الاستبداد الروسي وتأثيره السام على هذا البلد».

كان أورويل قد أخبر آيه جيه آير في باريس بأنه قلق بشأن إرضاء أعدائه السياسيين. أعرب وليم إمبسون عن مخاوف مماثلة في رسالة ودية: «يكمن خطر هذا النوع من الإلتقان في العمل في أنه قد يعني أمورًا مختلفة جدًا لقراء مختلفين. أعتقد أن الأمر يستحق تحذيرك. عليك توقُّع أن «يُساء فهمك» على نطاق واسع بسبب هذا الكتاب. الكتب بطبيعتها وسيط يحوي أكثر مما يقصده المؤلف، عندما يتعامل معها المؤلف بشكل جيد». كان مؤلف كتاب «سبعة أنواع من الغموض» محقًا تمامًا مرتين: لأن كل ما قاله عن «مزرعة الحيوان» سيكون قابلاً للتطبيق بشكل مضاعف على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

أثارت الإشادة بالرواية من التيار اليميني دهشة التيار اليساري، ويرجع ذلك في الغالب إلى عدم اليقين حيال ما كان

أورويل بقوله عن الثورة.\*<sup>(39)</sup> اعتقد بعض أصدقاء محرر «بارتيزان ريفيو» السابق، دوايت مكدونالد، في نيويورك أن رسالة الرواية تقول: «تبًا لهذا، وليحيَ الوضع الراهن». اتهم كينجسلي مارتن، خصم أورويل القديم، الأخير بأنه «بلغ استفاد المثالية، واقترب من تفاهة السخرية»، ورأى المؤلف مجسّدًا في شخصية بنيامين، الحمار العجوز العنيد الذي تشكّل الحياة في نظره «جوعًا ومشقة وخيبة أمل» أيًا كان الشخص المسؤول. لكن بنيامين أشبه بأحد المحافظين المتشائمين أكثر من أورويل، الذي أوضح في مقاله عن كويستلر أنه يمكن للمرء أن يرفض إمكانية تحقيق الجنة على الأرض، من دون التخلي عن فكرة أنه يمكن تحسين الحياة.

جدير بالذكر أنه لا يوجد تجسيد للنين في «مزرعة الحيوان». من خلال وضع أفضل صفات لنين في الخنزير المتبصّر أولد ميچور وأحقرها في نابليون، ترك أورويل تقديره للأمور غامضًا، على الرغم من أنه كتب بعد وقت قصير من نشر الكتاب أن «كل بذور الشر كانت موجودة منذ البداية، ولم تكن الأمور لتختلف إلى حدّ كبير لو ظلّ لنين أو تروتسكي مسيطرين». ومع ذلك، فإن قراءة «مزرعة الحيوان» على أنها معادية للثورة لهو ببساطة تصوّر أن أورويل كان يفضّل السيّد جونز. إن خطاب ميچور ملهم حقًا، ونشوة الحيوانات بعد الثورة لها ما يُسوِّغها. كتب أورويل عام 1948: «أكثر حقيقة مشجّعة بشأن النشاط الثوري هي أنه على الرغم من فشله دائمًا، فهو يستمر دائمًا. رؤية عالم يحيا

39- \* اختلقت آين راند بطريقة ما أنها أساءت قراءة الرواية على أنها «أكثر تبشير جيّاش العاطفة ومفرط في المشاعر قرأته عن الشيوعية منذ وقت طويل». (المؤلف)

فيه البشر أحرارًا ومتساوين في حالة من الأخوة لا تتجسّد أبدًا، لكن الاعتقاد بها لا يبدو أنه يفنى».

من منظور أورويل، تأتي نقطة اللا عودة في القصة عندما تسمح الحيوانات الأخرى للخنازير باحتكار الحليب والتفاح، وهي واقعة تمثّل سحق تمرّد كرونشتادت عام 1921، آخر صمود للاشتراكية الديمقراطية في روسيا. «إذا ظن الناس أنني أَدافع عن الوضع الراهن»، هكذا أخبر مكدونالد، «فهذا في رأيي لأنهم أصبحوا متشائمين ويفترضون أنه لا يوجد بديل غير الديكتاتورية أو رأسمالية الحرية الاقتصادية الكاملة». لم تكن «مزرعة الحيوان» لتكون بنصف الأسى الذي يغلفها من دون معرفة أن الأمور كان يمكن أن تكون مختلفة.

\*\*\*

نُشرت «مزرعة الحيوان» -بأعجوبة- في عالم ما بعد الحرب. كان أورويل قد كتب إلى ديفيد أستور من باريس في أبريل، متطوِّعًا للسفر إلى بورما في نوفمبر لتوثيق المراحل النهائية للحرب مع اليابان لصالح «ذا أوبزرفر»، لكن النهاية أتت أقرب ممّا كان يتوقع. في 14 أغسطس، قبل ثلاثة أيّام من نشر «مزرعة الحيوان»، كان أورويل في شارع فليت عندما انتشرت الأخبار بأن اليابان على وشك الاستسلام. مرّق موظفو المكتب الأوراق، وأمطروا على المحتفلين في الشارع قصاصات ورق ملوّنة. كان ردُّ فعل أورويل محتدًا على نحو معاكس: «في إنجلترا لا يمكنك الحصول على ورق لطباعة الكتب، ولكن من الواضح أنه دائمًا ما تُوجد وفرة منه لهذا النوع من الأشياء».

لم يدم الابتهاج طويلاً. عززت خطة الترشيد، والنقص الحاد في المساكن، والتوقف المفاجئ للأموال المقترضة من الولايات المتحدة، إحساساً واسع النطاق بالإحباط والكآبة. وجدت دراسة استقصائية أجريت في شهر يونيو أن واحداً فقط من كل سبعة لندنيين كان «سعيداً أو مبهتجاً» بنهاية الحرب، وأن 40 بالمئة يعانون القلق أو الاكتئاب. كتب أورويل في أحدث رسالة من «رسائل لندن»: «يبدو لي مزاج البلد العام أقل ثورية وأقل مثالية وأكثر يأساً مما كان عليه في عام 1940 أو 1942». كان محرراً من اصطحاب إنياتاسيو سيلون، الذي جاء لزيارته من إيطاليا، لتناول طعام الغداء في مثل هذه المدينة المليئة بالضياء، حتى أشار سيلون إلى أن الحال هنا أفضل كثيراً من الحال في روما. في «ذا نيويوركركر»، كتبت مولي بانتر داونز أن البريطانيين متصالحون مع حقيقة حدوث «قصيف اقتصادي هائل»: «الشيء الوحيد الذي يبدو أنهم متأكدون منه تماماً حالياً هو أن الحياة في وقت السلم ستكون بنفس صعوبة الحياة في وقت الحرب». أيضاً لوُثِّت آثار القنبلتين الذريتين اللتين ألقتهما الولايات المتحدة على هيروشيما وناجازاكي طعم النصر بالمرارة. كتبت بانتر داونز: «في إنجلترا، كما في كل مكان آخر، سقط ظل الطاقة الذرية على أعلام ورايات النصر وأرجف معظم القلوب، وصار مثل مسخ فرانكشتاين هائلاً محتملاً».

ظنَّ أورويل أن هذا التطور الصادم جعل رواية سي إس لويس الجديدة «تلك القوة الشنيعة»، التي تحكي عن طائفة شريرة من العلماء يتآمرون لاستعباد العالم، «محورية تماماً»، وجعل كتاب

إتش چي ويلز الأخير «العقل المستنزف» أكثر مصداقية مما كان يمكن أن يكونه لولا ذلك. كتب أورويل في مراجعته: «ليست هذه لحظة يمكن للمرء فيها ببساطة تجاهل القول بأن البشرية محكوم عليها بالهلاك. قد يكون هذا مصيرها إلى حد كبير». في مقال بعيد النظر نشرته «تريبيون» بعنوان «أنت والقنبلة الذرية»، اقترح أورويل أن هذا هو السلاح الذي قد يثبت أن بيرنام كان على حق في نهاية المطاف، عن طريق وضع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (بمجرد أن يطور قنبلته الخاصة) في مأزق طويل تتنازعه الريبة. صار الآن قادراً على تصوّر «النظرة إلى العالم والمعتقدات والبنية الاجتماعية التي من المحتمل أن تسود في دولة لا يمكن أن تُقهر، وفي الوقت نفسه تحيا في حالة "حرب باردة" دائمة مع جيرانها». إن المواجهة النووية الطفيفة في خلفية أحداث «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لأقل إقناعاً بكثير من وجهة نظر أورويل بعدها بعامين، التي رأت أن «الخوف المُستوحى من القنبلة الذرية والأسلحة الأخرى القادمة سيكون هائلاً إلى درجة ستمنع الجميع من استخدامها». بعد أن ابتكر مصطلح «الحرب الباردة»، توقّع أورويل أيضاً عقيدة الدمار المتبادل.

في خضم ضائقة ما بعد الحرب، شعر أصدقاء أورويل أنه بدا أكثر هزلاً وضعفاً من المعتاد. كان في أمس الحاجة إلى تغيير. طوال خمس سنوات وهو يحلم بأن ينعزل على إحدى جزر أرخبيل هبريدس. اقترح عليه ديفيد أستور ذو العلاقات الجيدة جزيرة جورا ضمن جزر هبريدس الداخلية، حيث كان يمتلك ضيعة. كان لورد جورا، روبن فليتشر، وزوجته مارجريت، يمتلكان مزرعة نائية

اسمها بارنهيل كانت بحاجة إلى مستأجر لإنقاذها من الخراب. كان أورويل يخطط للانتقال إلى هناك بينما كانت آيلين لا تزال على قيد الحياة. في شهر سبتمبر من ذلك العام، قطع أورويل الرحلة الطويلة إلى الشمال بمفرده، وأمضى أول أسبوعين له في المنزل الذي سيكتب فيه «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

## الفصل الثامن كل الكتب فاشلة

أورويل من 1946 إلى 1948

«كان تسويد الورق فعلاً حاسماً».

جورج أورويل، «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

قال أورويل ذات مرّة: إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لم تكن لتكون قاتمة جداً لو لم أكن مريضاً جداً». تشير الأدلة إلى خلاف ذلك. في أيّام عام 1945 الأخيرة، فوجئ قراء «تربيون» بمقال مُحبط بعنوان «تقويم جورج القديم». صُمم العنوان ليكون تنويعاً شبه هزلية على توقّعات أورويل لعام 1946، التي تضمنت حدوث كارثة اقتصادية، وعودة الفاشية، «وحروب أهلية، واعتداءات بالقنابل، وإعدامات علنية، ومجاعات، وأوبئة وصحوات دينية». سنة جديدة سعيدة! أنهى أورويل كلامه: «قد يكون هناك اعتراض على أن توقّعاتي قاتمة جداً. لكن أهي كذلك؟ أتخيّل أنه سيتضح أنني كنت مفرطاً في التفاؤل وليس العكس». بعد أن أنهى غداءً مع أورويل في نفس تلك الفترة تقريباً، صاح الشاعر والناقد هيربرت ريد، الذي لم يكن متفائلاً هو نفسه: «يا إلهي، إن أورويل لنذير شؤم!». تعطي الطرفة انطباعاً بأن أورويل كان أتعس رجل في لندن، لكنه لم يكن يحتكر التشاؤم. في مقدّمته لطبعة عام 1946 من رواية «عالم جديد شجاع»، تنبأ ألدوس هكسلي بتفشّي الشمولية في جميع أنحاء العالم، وبأنها ستستدرج الشعوب إلى

العبودية بالمخدرات والتحرُّر الجنسي والهندسة الوراثية. وقرَّر أن العدَّ التنازلي في روايته لتحقيق الديستوبيا -الذي يصل إلى ستمئة عام- كان وريثاً جدياً: «اليوم يبدو من الممكن جداً أن يحلَّ الرعب علينا في غضون قرن واحد. هذا إذا لم ندمر حضارتنا إلى شظايا خلال هذه المدة». في نفس العام، كتب ألبير كامو: «قرننا العشرين هو قرن الخوف».

وهذا يعني أن أورويل كان يضحّم إحساس القلق واسع الانتشار من الحرب الذرية أكثر من كونه يُسقط عذابه الشخصي الغريب على العالم. أو كما كتب في إحدى «رسائل لندن» عام 1946: «لا أعرف شخصاً ذا عقل يحمل أيَّ صورة متفائلة للمستقبل». بسبب كل ذلك، ظلَّ رفيقاً ممتازاً. وصفه مايكل ماير، أحد رفاقه في الغداء، بأنه «أكثر متحدِّثٍ سياسيٍّ اطلاعاً وتنويراً التقيت به على الإطلاق». كانت محادثاته أشبه بكتاباته؛ غير متأثرة وواضحة وذكية وإنسانية». وتذكَّر كاتبٌ آخر، هو كريستوفر سايكس، أنهما كلَّما التقيا «كنا نتحدَّث في موضوعات سوداوية، وكان يُحلِّي يومي».

\*\*\*

اتَّسم نشاط أورويل بعد الحرب بنوع من الجنون. ربَّما كانت هذه آخر عريضة له بصفته صحفياً متفرِّغاً ولندنياً، أو ربَّما كان يملأ أليامه إلى حافتها حتَّى لا يترك مساحة للحزن. انكبَّ على العمل كالعبيد وانخرط في المجتمع بشكل لم يسبق له مثيل: راح يشرب الشاي في ساحة كانونبيري مع أصدقاء قدامى مثل فيثل وبوتس، ويتناول الغداء في شارع هليت مع معارف أدبيين مثل



مالكوم موجريدج وچوليان سيمونز وأنتوني باول: أوّل مجموعة من الأصدقاء تعرفه باسم جورج فقط، دون معرفة اسمه الحقيقي إريك قط. على الرغم من أنه كان يعلّي من شأن رجل الشارع العادي دائماً، قضى أورويل معظم وقته مع رجال غير عاديين. تذكّر موجريدج مائدة غداء مفعمة بالحياة مع أورويل وسيمونز وكاتب آخر قائلاً: «كنا جميعاً مناهضين للشيوعية، ولكن لأسباب مختلفة، ومن المثير للاهتمام كيف كنا نختلف في اتفاقنا».

على الرغم من كرهه للمجموعات واللجان، وافق أورويل على أن يصبح نائب رئيس لجنة «الدفاع عن الحرية» التابعة لجورج وودكوك، والتي شتّى مؤيّدوها المتوّعون سياسياً، ومنهم إي إم فورستر وتي إس إليوت وبرتранد راسل وفكتور جولانش، حملة تطالب بالعضو عن أيّ شخص أُدين بموجب قوانين زمن الحرب الوحشية، سواء كانوا أناركيين أو شيوعيين أو فاشيين. اتّهم أحد قُرّاء «تريبيون» أورويل بأنه يعاني «انجذاباً قهرياً نحو القضايا التي لا تحظى بشعبية لمجرّد افتقارها إلى الشعبية»، لكنه تمسّك لسنوات بالرأي القائل بأن بعض الممارسات صحيحة أو خاطئة في المطلق بغض النظر عمّن يفعلها. كان يعتقد أنك إذا قمعت حقوق أعدائك السياسيين، فتأكّد من أنهم سيقمعون حقوقك في يوم من الأيام. لذلك كان فخوراً بقول إنه في أثناء الحرب دافع عن حقوق كلٍّ من أوزوالد موزلي (بمجرّد ما انعدمت خطورته) وجريدة «ذا ديلي ووركر» على الرغم من كرهه الشديد لكليهما. أو كما قال لوودكوك: «لا ينبغي اضطهاد أحدٍ بسبب تعبيره عن

آرائه مهما كانت معادية للمجتمع، ولا قمع أيّ منظّمة سياسية ما لم يكن من الممكن إثبات أنها تشكّل تهديدًا كبيرًا على استقرار الدولة». (40)

حاول أورويل أيضًا ملء الفجوة العاطفية التي خلفها موت آيلين بسلسلة من عروض الزواج غير الملائمة لنساء أصغر سنًا: سيليا باجيت، الأخت التوأم لشريكة كويستلر مامين وابنة عم إنز هولدن؛ سونيا براونيل، تلميذة سيريل كونولي المفضّلة في مجلة «هورايزون»؛ وآن بوبام، المؤرّخة الفنية التي تعيش في الطابق السفلي. «المشكلة أنني أشعر بوحدة مريضة أحيانًا»، هكذا أخبر بوبام وهو يعتذر عمّا سبّبه لها من إحراج. «لديّ مئات الأصدقاء، لكن لا يوجد بينهم امرأة تهتم بأمرى وقادرة على تشجيعي». إذا كان هذا القول يبدو أنه يفترق إلى الرومانسية، فهو في غاية الرقة عند مقارنته بطلب الزواج الواقعي الكئيب في رسالته التالية: «ما أطلبه حقًا هو ما إذا كنت ترغبين في أن تكوني أرملة أديب». غني عن القول أن بوبام لم تقع في شرك هواه.

حسنًا، لنستأنف العمل. كان أورويل ينشر في المتوسّط مقالين أو ثلاثة في الأسبوع في أكثر من ستّة مطبوعات. تطلّب الأمر أن يسعل دمًا بسبب مرض السّل غير المشخص بعد كي يأخذ إجازة لمدة أسبوع في فبراير. احتوت معظم رسائله على بعض الشكوى

---

40- \* كان أورويل أقل صرامة بشأن العقوبات غير الرسمية. عندما شوّهت سمعة عزرا باوند بسبب بثوّه الإذاعية الشرسة المعادية للسامية والموالية للفاشية في وقت الحرب، لم يقفز أورويل للدفاع عنه: «ليست معاداة السامية معتقدًا راشدًا. يجب على من يعتقدون مثل هذه الأفكار تحمّل العواقب». (المؤلّف)

من أعباء العمل («أخترت بالصحافة»، على حدّ تعبيره)، وتضمّنت أيضاً تعهّداً بالتخلي عن كل شيء والتركيز على كتابه. عند قراءة كل ما كتبه أورويل بين أكتوبر 1945 ومايو 1946، تُراود العقل خاطرتان، الأولى هي أن أسلوبه قد نضج إلى درجة أن كتابات قليلة جداً له تُظهر علامات على الإجهاد أو التسرّع. والأخرى هي أن كل شيء تقريباً، عند التفكير بأثر رجعي، يبدو بطريقة أو بأخرى وثيق الصلة بـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وصولاً إلى عبارات وصور بعينها. لم يكن يستحي من استخدام الجملة الجيدة مرّتين.

كان الكتاب قد احتل موقعاً دائماً في رأسه. قال جورج وودكوك متذكّراً: «في مختلف مناسبات الغداء والعشاء ومجالس الشاي وجلسات الشراب السريعة في الحانات والصالونات، سمعت منه شروحات لكل فكرة ظهرت في "ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون" تقريباً. ورغم ذلك، لم أملك أدنى فكرة عن حبكة الرواية إلى أن رأت النور».

لم يستطع أورويل منع نفسه من الإسهاب في شرح التداعيات السيئة لأيّ تطوّر اجتماعي جديد. كان قلقاً من أن تتحوّل المجمّعات السكنية التي يحتاج إليها المجتمع بشدّة والتي بدأت تظهر في جميع أنحاء البلاد إلى «مستعمرات لتوفير العمالة سيفقد فيها [الناس] جزءاً كبيراً من خصوصياتهم»، ووصف مخيّمات العطلات مثل مخيّم بوتلين كأنها دول بوليسية توفّر نوعاً من الاستجمام الجماعي القسري والتمارين الصارمة مثل التي يعاني منها ونستون في آيرستريب وان. «لا ينفرد المرء بنفسه

على الإطلاق»، هكذا اشتكى الرجل الذي رأى أن الخصوصية والعزلة حقًا من حقوق الإنسان الأساسية. في مقال «منع الأدب»، وهو خلاصة رائعة لأفكاره حول الفن والسياسة وحاجة الشمولية الأساسية إلى الأكاذيب، استخدم أفلام الرسوم المتحركة التي تنتجها ديزني كمثال لتوضيح «عملية التصنيع» التي يمكن من خلالها إنتاج الترفيه الجماهيري بعملية ميكانيكية في المستقبل. قد يكون المثال غير عادل لرسمي الرسوم المتحركة، لكنه قاده إلى ابتكار إدارة الخيال في وزارة الحقيقة.

وعلى العكس من ذلك، فإن مقالاته الصغيرة الأنيقة حول فتجان الشاي المثالي والحانة المثالية وسحر تأمل عملية تزاوج الضفادع، عبّرت كلها عن قيم تستحق الانتزاع من بين فكّي السياسة: «تتراكم القنابل الذرية في المصانع، ويجوب رجال الشرطة المدن، وتتدفّق الأكاذيب من مكبّرات الصوت، لكن الأرض ما زالت تدور حول الشمس، وليس في استطاعة الطفافة ولا البيروقراطيين تقييد تلك العملية لاختلافهم معها». يبدو وصف أورويل لمتجر خردة نموذجي في العمود الصحفي الذي يكتبه لجريدة «إيفنينج ستاندارد» كأنه مخطّط تفصيلي لحانوت السيّد تشارنجتون، ويتضمّن ثقالة الورق المرجانية التي يحتفظ بها ونستون سميث -مثل قلم الحبر أو اسم شكسبير أو أغنية «برتقال وليمون» - كدليل دامغ على شكل الحياة قبل حزب الإنجوسك. كانت كل الخيوط تتجمّع. شهد مقال «أمام أنفك» رسم أورويل لخارطة عملية التفكير المزدوج، أو «الفصام» السياسي: «إنه القدرة على التمسّك بمعتقدين يلغي كل منهما الآخر في

الآن ذاته، وترتبط بها بشكل وثيق القدرة على تجاهل الحقائق الواضحة وغير القابلة للتغيير التي يجب مواجهتها عاجلاً أم آجلاً». حتى أن أورويل لاحظ أنه عند ثبوت خطأ الشخص، فهو يميل إلى لوي ذراع الحقائق، أو دفن آرائه السابقة، للإيعاء بأنه كان على حق طوال الوقت. «إن رؤية ما هو أمام أنف المرء لهو جهاد مستمر». كان أورويل يدرس الطرق التي يكذب بها الناس على أنفسهم بالفعل، من دون الحاجة إلى دولة شمولية لإجبارهم على ذلك. يحتاج الطغيان إلى متواطئين.

لاحظ وودكوك أن اهتماماً آخر من اهتمامات أورويل كان «الطريقة التي ضعف بها الاهتمام بالحرية والحقيقة في الوجدان الجمعي». في مقال «حرية الحديقة»، لفت أورويل انتباه قُرَّاء «تربيون» إلى اعتقال خمسة أشخاص بتهمة عرقلة سير العدالة لبيع صحف سلمية خارج حديقة هايد بارك، وهي واقعة يسيرة لكنها تذكير ينذر بسوء يميل مواطنو الديموقراطيات الناضجة إلى نسيانه: «الفكرة المهمة هي أن الحرية النسبية التي نتمتع بها تعتمد على الرأي العام. القانون لا يمثل حماية». إن الحجّة القائلة بأن الناس لن يتمتعوا بحرية التعبير -أو أيّ حرية أخرى- إلا إذا كانوا مهتمين بما يكفي للمطالبة بها، هي الفلسفة التي استند إليها مفهوم العوام في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، الذين تحت أيديهم قوّة هائلة لكنهم يفشلون في استخدامها.

إذا كانت حرية التعبير حقاً أصيلاً، فإن جودة ذلك التعبير مهمة أيضاً. نُشر مقال أورويل «السياسة واللغة الإنجليزية» في مجلة «هورايزون» لتعليم أجيال من التلاميذ كيفية الكتابة

بوضوح. كي نكون صادقين، فإن المقال مشوّش إلى حدٍ ما، ويخلط بعض الأمثلة القوية على «الغش والانحرافات» في النشر الأدبي السيئ مع مجموعة متنوعة غريبة من العقد النفسية. حتى العلاقة بين تدهور السياسة وفساد اللغة ليست بهذه البساطة كما يقول: فيمكنك الكذب بكلمات تتكوّن من مقطع لفظي واحد (مثل «الحربُ سلامٌ») وإلقاء الضوء على حقيقة عظيمة بصيغة مستهلكة. لكن الشيء المفقود من المقال هو تواضع أورويل غالباً. إنه يعترف بأن «قواعده» -أو بالأحرى تطلّعاته- ليست مُلزمة، وعلى أيّ حال فهو يخالف بعضاً منها في نفس المقال. ومع ذلك، لا يوافق سوى قلة قليلة على أن «الالتزام بالارثوذكسية -بجميع معانيها- يبدو كأنه يتطلّب أسلوباً منحولاً بلا روح»، أو أن التفكير بعمق في الكلمات التي تستخدمها سيصقل أفكارك، فقط بإزالة الحطام اللفظي، يمكنك أن تفهم بوضوح ليس فقط ما تفكّر فيه ولكن كيف تفكر. الهدف هو أن تكتب بطريقة لا يمكنك أن تكذب بها على نفسك من دون أن تدرك تماماً أنك تفعل ذلك.

بشكل مفيد، بلور مقال «لماذا أكتب؟» -الذي كتبه بطلب من مجلة «جانجرل» الأدبية صاحبة العمر القصير- أولويات أورويل عندما كان يستعد لكتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». احتجّ أورويل بأن أربعة محرّكات رئيسية تتنافس على السيادة في ذهن كل مؤلف: الأنا، والحسّ الجمالي، والدافع التاريخي، والهدف السياسي. ووصل إلى أن أفضل أعماله منذ عام 1936 قد حفّزها رابع هذه المحرّكات. إنه يكتب لأن «ثمة بعض الأكاذيب التي

أرغب في كشفها، وبعض الحقائق التي أريد أن ألفت الانتباه إليها، واهتمامي الأولي هو أن أجد من يسمع». من دون رسالة تشحذ قلمه، أصبح كتاباته هُراء لا حياة فيه، وهو يعد أن روايته التالية تحمل رسالة. «حتمًا ستفشل، ففي النهاية، كل الكتب فاشلة، لكنني أعرف ببعض الوضوح طبيعة الكتاب الذي أريد كتابته».

كشف آخر عمليْن صحفيين قدَّمهما أورويل قبل توقُّفه عن رغبة في التغيير. مقالان جميلان عن إيلاء اهتمام بالغ بالطبيعة تناقضا مع مقال سخريته مريرة عن روتين مراجعة الكتب الطاحن. في الرسالة الأخيرة من «رسائل لندن»، ألمح إلى أنه على الرغم من قدوم الربيع، فإن لندن تبدو «رثة وقذرة أكثر من أي وقت مضى». كان الوقت الذهاب قد حان.

\*\*\*

تأخَّرت رحلة أورويل إلى چورا بسبب وفاة أخته الكبرى مارچوري غير المتوقعة نتيجة لمرض في الكلى في الثالث من مايو. في ما يزيد قليلاً عن ثلاث سنوات، فقد والدته وزوجته وأخته. وصل أورويل أخيراً برفقة أخته الصغرى أفريل إلى الجزيرة في نهاية الشهر.

كانت چورا هي المكان الذي ترسَّخت فيه أسطورة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: تلك الصورة القاهرة لرجل حزين ومريض حبس نفسه على صخرة مهجورة في بحر مضطرب، وعاش في حالة من اليأس المعبِّد بشأن مستقبله ومستقبل العالم، حيث كتب الكتاب الذي قتله. من بين أمور أخرى، تسيء

هذه الصورة المبتذلة إلى چورا التي تتمتع بمناخ معتدل (لكن رطب) وجمال بكر مذهل. تقع بارنهيل في الطرف الشمالي من الجزيرة التي يقل عدد سكانها عن ثلاثمئة نسمة، وكانت بالتأكيد بعيدة: تبعد أحد عشر كيلومترًا وعزًا من أردلوسا أقرب القرى إليها، واثنين وثلاثين كيلومترًا آخر من مستوطنة كريجهاوس الرئيسية. لم يكن بيت المزرعة المجهّز في عجالة والمكوّن من أربع غرف نوم مزوّدًا بهاتف أو خدمة بريدية، وكانت إمدادات المياه والوقود لا يمكن الاعتماد عليها. كان أقرب مستشفى في جلاسكو، والوصول إليه يتطلّب سيّارة أجرة وقارين وحافلة ورحلة قطار؛ ما جعل چورا اختيارًا أرعن لرجل مريض. ومع ذلك أحبها أورويل، خاصةً بعد وصول سوزان واتسون مع ريتشارد. بالنسبة إلى شخصية زاهدة كهذه، كانت شدّة المحنة بالتأكيد جزءًا من الفتنة. كانت چورا توفّر الحياة التي طلبتها بها آيلين في رسائلها الأخيرة: الهواء النقي والعائلة والأدب.

لم يرغب أورويل في أن يصبح ناسكًا، وقد وجّه دعوات زيارة إلى عددٍ من أصدقائه. كان من بين الذين قاموا بالرحلة الطويلة، الكاتب الهندي مُلك راج أناند، الذي كان يعرفه من هيئة الإذاعة البريطانية، وإنز هولدن، التي جاءت مباشرةً بعد تغطية محاكمات نورمبرج. عقد أورويل صداقة مع مالك المنزل روبن فليتشر، الذي أخبره عن تجاربه في معسكر اعتقال ياباني. مكث بول بوتس -الشاعر الذي كان رفيقًا منتظمًا له في حانات إزلينجتون- لبضعة أشهر، قبل أن يغادر غاضبًا بعدما استخدمت سوزان واتسون بطريق الخطأ أحدث مخطوطاته لإشعال النار. كان عشيق



واتسون ضيفاً آخر صعباً، وهو جندي سابق وشيوعي شاب يُدعى ديفيد هولبروك، وجد أورويل «عجوزاً تافهاً وبائساً... كان من المزعج رؤية هذا الرجل يتصل من الإنسانية ويتدفق منه هذا القنوط المرير».

لكن هذا ليس الانطباع الذي تأخذه من رسائل ومذكرات أورويل، التي كتب فيها عن استمتاعه بدور ابن الطبيعة الجديد الذي يلعبه: زراعة الفاكهة والخضروات، واصطياد الأرانب، وتربية الإوز، وصيد الماكريل والبولوك والكركد. حتى أنه ربي خنزيراً في مرحلة ما، على الرغم من أنه أكد أنه الوضع في «مزرعة الحيوانات» بأنها «حيوانات مزعجة وتخريرية تماماً، يصعب منعها من الخروج إلى أي مكان لأنها قوية وماكرة جداً». أخبر أورويل أصدقاءه بأن موقعه البعيد واستقلاليته الغذائية ستكون مفيدة في حالة الحرب النووية، لأن جورا «لا تستحق ثمن القنبلة». لم يكن يبدو كأنه يمزح.

أما بخصوص الرواية التي كان يحترق شوقاً للبدء فيها، فبعد تحرره من مطحنة الصحافة، وجد أورويل أنه لا يريد أن يكتب شيئاً على الإطلاق. لا شك أن المصابين بداء المماثلة المزمّن سيستمعون بسلسلة الرسائل التي يشرح فيها أورويل بسعادة لماذا لم يبدأ بعد في الرواية وأنه أجل تاريخ الانتهاء منها إلى نهاية عام 1947 على أقرب تقدير. لم يكشف حتى نهاية سبتمبر، في رسالة إلى رئيس تحرير مجلة «بوليمك» همفري سلاتر، أنه وضع الحبر أخيراً على الورق: «لقد بدأت روايتي التي تحكي عن المستقبل أخيراً، لكنني كتبت نحو 50 صفحة فقط، ووحده

الرب يعلم متى سأنتهي منها. على أي حال، إنها بداية شيء على الأقل». عندما كان يشعر بتحسُّن ويكون الطقس لطيفاً، كان يعمل في غرفة الجلوس. عدا ذلك، كان يكتب في غرفة نومه وسط ضباب دخان السجائر وأبخرة شمع البارافين. من المحتمل أن يكون أوَّل من قرأ شذرات من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هما واتسون وهولبروك، اللذان كانا يتسلَّان إلى غرفته لقراءة بضع صفحات. «بدت أنا تفتقر إلى الأمل بشكل محبط، مثل نظرته إلى كل شيء»، هكذا كان تقييم هولبروك الحاسد. على الأرجح، تضمَّنت تلك الصفحات الأولى مسوِّدة كتاب جولدمشتاين الأولى. قد يجد بعض القراء هذا الجزء طويلاً إلى درجة عسيرة الهضم، لكنه يفسِّر الأسباب التي دفعت أورويل إلى كتابة الرواية في المقام الأول. كانت الأفكار، وليس الحبكة، مدخله.

المقال الوحيد الذي تمكَّن أورويل من إكماله في ذلك الصيف يشير إلى أنه كان يتعامل مع مشكلات نشأت بسبب الرواية. جاء عنوان مقال «السياسة مقابل الأدب: تدبُّر "رحلات جليقر"» من التناظر بين خلاف أورويل الأساسي مع سوفيت والمتعة التي استمدَّها من «رحلات جليقر». كان يراه كارهاً للبشر ورجعياً، وقال إنه «واحد من أولئك من الناس الذين يميلون إلى نوع منحرف من التقليدية المحافظة بسبب حماقات القطاع التقدُّمي من الحركة». كان كتاب أورويل «المقالات النقدية» الذي نُشر في أوائل عام 1947 مولعاً بهذه الفكرة. ظلَّ أورويل يرى أن حقيقة كون كيبلينج إمبريالياً فظاً، وكون بيتس مؤيِّداً للفاشية، وكون دالي مجنوناً، لم تقلل من جودة أعمالهم. لكن مثل هذه الحقائق لا

يمكن إهمالها في الوقت نفسه: «ينبغي للمرء أن يكون قادرًا على التمسك في عقله بحقيقتين: أن دالي رسامٌ جيّد وإنسانٌ مثير للاشمئزاز في الوقت نفسه. وإحدى تينك الحقيقتين لا تبطل أو تؤثر على الأخرى في المجمال». كتب أورويل لاحقًا أنه عندما تتعارض القيم السياسية أو الأخلاقية مع الأحكام الأدبية، فمن المغري قول: «هذا الكتاب في صفّي، وبالتالي يجب أن أجد مزايا فيه». وعلى العكس من ذلك، يجب التقليل من مزايا الكتاب الذي ليس في صفّك. حاد أورويل عن الصراط ليفعل العكس. كان واجبه النقدي هو التصريح بحكمه الأخلاقي والجمالي بصراحة لا تستحي، وعدم الخلط بين الاثنين. خلص أورويل إلى أن سوفيت ينجذب إلى الجانب المظلم من الطبيعة البشرية الذي يميل إلى الظنّ بأن البشرية غارقة في مستنقع من الفساد والحمافة والقذارة، ويسعده تعرّضها للأسوأ، ما دام أن ذلك الأسوأ مؤقت فقط. ما وصفه سوفيت كان بعيدًا عن الحقيقة الكاملة لكنه لم يكن كذبًا. هذا ما كان عالقًا في ذهن أورويل في أوّل صيف له في جورا: الأسلوب الساخر المتمثّل في «انتقاء حقيقة مخفية واحدة ثم تضخيمها وتشويهها». نعم، هذا يمكن أن ينجح.

\*\*\*

مات إتش چي ويلز وحيدًا في منزله في 13 أغسطس عام 1946، قبل بضعة أسابيع من عيد ميلاده الثمانين. في مقاله المرح «نعيي الذاتي» قبل سنوات قليلة، تخيّل نفسه يُعامل بخشونة من الفاشيين في عام 1948 وتسجنه «الديكتاتورية الشيوعية الوجيزة لعام 1952» قبل أن يموت في عام 1963. لكن مرّة أخرى، كان للتاريخ رأيٌ آخر.

في اليوم التالي، نشرت جريدة «مانشستر إيفنينج نيوز» نعيًا قدّمه أورويل قبل تسعة أشهر. على الرغم من أن النعي كان أشبه بإعادة تصحيح مخيِّبة للأمال لأحكامه السابقة بأن العقود التي قضاها ويلز في التبشير بدولة عالمية طمست روعة رواياته المبكرة، فقد كشف عن دماثة واحترام لم يتعكّر بعلاقته المؤسفة بويلز: «كان شخصية هائلة لعبت دورًا عظيمًا في تشكيل رؤيتنا للعالم، إلى درجة أننا -في خضم اتفاقنا أو اختلافنا مع أفكاره- نميل إلى نسيان إنجازاته الأدبي البحت».

في مقدّمته الكوميدية القصيرة لطبعة عام 1941 من رواية «الحرب الجوّية»، اقترح ويلز الكلمات التي يريد أن تُوضع على شاهد قبره: «سبق أن حدّرتكم، أيها الحمقى الملاعين».

\*\*\*

عندما عاد أورويل إلى لندن لقضاء فصل الشتاء، ابتسم له إله المال أخيرًا عبر المحيط الأطلسي. «يوجد في الولايات المتّحدة كثير من المال وكثير من الأوراق وكثير من أوقات الفراغ»، هكذا كتب لاحقًا في دراسة استقصائية للأدب الأمريكي، وكان ذلك خبرًا جيدًا للطبعة الأمريكية من «مزرعة الحيوان». طُبِع من الطبعة الأولى 50 ألف نسخة، وهذا أكثر بعشرة أضعاف من طبعة واربورج. وطُبِع «نادي كتاب الشهر»، الذي اختار الرواية في سبتمبر عام 1946، ما مجموعه 540 ألف نسخة. وصفها أحد أعضاء لجنة النادي بأنها «المعادل العصري لرواية "كوخ العم توم"»، وهذه مجاملة متباينة في نظر أورويل الذي قال عن رواية ستو إنها «كتاب سيئ جيّد» مثير للمشاعر والسخرية في الوقت

نفسه. قارنها إدموند ويلسون في «ذا نيو يوركر» بشكل إيجابي بكتابات فولتير وسويفت، على الرغم من أن جورج سولي في «ذا نيو ريبابليك» اعتقد أن أورويل كان كالسمكة خارج الماء: «لا تتعامل السخرية في الرواية مع شيءٍ اختبره المؤلف، بل مع أفكار نمطية مقولبة عن بلدٍ ريمًا لا يعرفه جيدًا... يجب أن يحاول مرّةً أخرى، وهذه المرة بأجواء أقرب إلى الديار». لم يتفق الشعب الأمريكي مع هذا الرأي، فقد احتلت «مزرعة الحيوان» رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعًا طوال ثمانية أسابيع.

اعتاد أورويل على كسب أقل القليل إلى درجة أنه لم يكلف نفسه عناء فتح الخطابات الواردة من إدارة الإيرادات الداخلية، وأصبح الآن على أورويل الأمّي ماليًا أن يقلق بشأن ضريبة الدخل لأول مرة في حياته. في عام 1947، أسّس شركته الخاصة، «جورج أورويل للإنتاج المحدودة»، بناءً على نصيحة مُحاسبيه من مكتب «هاريسون وسون وهيل وشركاؤهم» (كتب ذات مرة: «لا يُوجد شخصٌ وطني عندما يتعلّق الأمر بالضرائب»). تسببت هذه المكاسب المفاجئة في إصابته بصداغٍ ضريبي شديد أطلق عليه اسم «ذهب الحوريات» (نسبةً للحكايات الخرافية)، لكنه ظلّ لديه ما يكفي من المال لتقديم تبرّعاتٍ سخية للجنة «الدفاع عن الحرية» ومساعدة عديدٍ من الكتاب في ظروفٍ أقل حظًا. جلبت إليه السمعة التي اكتسبها في أمريكا عروضًا من مطبوعات مثل «ذا نيو يوركر»، واهتمامًا من والت ديزني، الذي أراد أن ينتج فيلمًا مأخوذًا عن «مزرعة الحيوان»، وكتب عنه لمحة موجزة عنه في مجلة «فوج». «إن اليساري الكبير جورج أورويل مدافعٌ صلد عن

الحرية، على الرغم من أنه في معظم الأوقات يختلف بشدة مع الأشخاص الذين يقاتل في صفهم»، هكذا كتبت آيلين تالمي. ليس وصفاً وجيزاً سيئاً.

وهكذا تغيّرت حياة أورويل بسبب دولة لم يزرها قط (عندما سنحت له الفرصة بذلك في عام 1948، كان مريضاً إلى درجة لم يستطع معها السفر) وكان ينظر إليها بعين التعالي والريبة. في كتاباته، صوّر أورويل الولايات المتحدة الأمريكية باستمرار على أنها مراهق مفعم بالحيوية، لكنه فجّ وغير منضبط، ويُحتمل أن يكسر الأغراض الثمينة. في رواية «دع الدريقة تطير»، يقول كومستوك: «ينجذب الأمريكيون أكثر من غيرهم إلى أي نوع من أنواع البهيمية، سواءً كان ذلك آيس كريم الصودا أو الابتزاز أو الديانة الثيوصوفية»، وقد أظهر أورويل بضع علامات على تخفيف حدة هذا الرأي خلال العقد التالي.

كانت أمريكا أكبر بقعة عمياء لأورويل. اعتقد سيريل كونولي أنه كان «معادياً للأمريكيين، باستثناء التروتسكيين من مجلة بارتيزان ريفيو». على الرغم من أنه كان قادراً على الكتابة بحسّ مرهف عن الثقافة الشعبية البريطانية (مثل البطاقات البريدية المثيرة، والقصص المصورة، وألغاز الجرائم، وقاعات الموسيقى)، لم يكن أورويل مهتماً بموسيقى الجاز أو البلوز أو برودواي أو تين بان آلي، وحافظ على اشمئزازٍ متزمّت من الأدب الشعبي والقصص المصورة الأمريكية، وكان له وجهة نظر تزدرى هوليوود. لم يول إلا اهتماماً زهيداً بإنجازات برنامج روزفلت الاقتصادي «نيو ديل»، أما عن تأثير أمريكا على اللغة الإنجليزية

فقال: «يجب أن ندرك أن التأثير الأمريكي سيئ بشكل عام، وقد شوّه اللغة بالفعل».

على الرغم من أنه كان يحب مارك توين، إلى درجة أنه عرض فكرة كتابة سيرة ذاتية للمؤلف في عام 1934، نادرًا ما تعامل أورويل مع الكتاب الأمريكيين الأحياء، باستثناء هنري ميلر وريتشارد رايت، وقد قال عن رواية الأخير «الولد المحلي» إنها «كتاب رائع حقًا وواجب القراءة لكل شخص يريد أن يفهم طبيعة الكراهية على أساس العرق». في حين أنه لم يكن يجهل مشكلة العبودية أو ذبح الأمريكيين الأصليين، شعر أورويل أن أمريكا القرن التاسع عشر التي ظهرت في كتابات ويتمان وتوين مثّلت -بشكل خيالي على الأقل- عالمًا من الديمقراطية والفرص والمغامرة والبراءة أصبح ممكنًا بفضل الموارد غير المستغلة الوفيرة لم يعد موجودًا الآن. «إن الروائي الأمريكي يعيش في عالم من الفوضى الأخلاقية والمادية كذلك. لا أحد يحمل شيئًا من روح الجماعة أو أي مبدأ آخر باستثناء النجاح، الذي يتكرّر عادةً في صورة تعبيرٍ عن الذات... لا يُوجد عمق عاطفي، وكل شيء مباح، وبالتالي لا شيء مهم»، هكذا كتب عام 1940. لم يصدر أورويل مثل هذه التعميمات السخيفة غير لأنه لم يعرف غير عدد قليل جدًا من الأمريكيين. يبدو أن مقابلة بعضهم لم تساعد. أحد أعمدة «كما يحلو لي» في عام 1943 كان عدائيًا جدًا تجاه القوّات الأمريكية المتمركزة في بريطانيا («من الصعب الذهاب إلى أي مكان في لندن من دون الشعور بأن بريطانيا صارت بلدًا محتلًا») إلى درجة أن كثيرًا من القراء اشتكوا. كتب أورويل تعقيبًا على

خطاب أحدهم: «لقد صُدم عاشق الثقافة الإنجليزية هذا عندما اكتشف أن جورج أورويل لا يعرف عن الأمريكيين أكثر مما كان في الماضي».

عجز معظم نقاد «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الأمريكيين عن رؤية انعكاس لبلدهم في أوقيانيا، على الرغم من استخدام أورويل للدولارات واسم النشيد الوطني «أوقيانيا، لك أغني». تدين ملصقات وشعارات مقاطعة آيرستريب وإن الخيالية بقدر كبيرة للدعاية الأمريكية، كما كانت تدين لها الدعاية الشمولية في عالم الواقع. «تعلم النازيون (دون الاعتراف بالأمر) من منظمات العصابات الأمريكية، بقدر ما تعلمت دعايتهم من الدعاية الأمريكية التجارية (باعتراف الجميع)»، هكذا كتبت هانا أرنت. لكن بعد الحرب، بدا أن أورويل يميل إلى انفتاح فكري مع الولايات المتحدة، تمامًا مثلما أصبح أغلب اليسار البريطاني أكثر عدائية معها. «من الواضح أنه فيما يتعلق بالمسائل الأكثر تأثيرًا على بريطانيا اليوم، فإن الولايات المتحدة معادية لتطلعات بريطانيا الاشتراكية بالقدر نفسه الذي تعادي به الاتحاد السوفيتي»، هكذا زعمت مجلة «ذا نيو ستيتسمان».

في أثناء سباحته عكس التيار كالمعتاد، تحسّر أورويل على عداء «تربيون» المتزايد («أن تكون معاديًا لأمريكا في الوقت الحاضر يعني الهتاف مع الفوغاء»)، واتهم المؤرخ الاشتراكي دوجلاس جولدرينج بـ«رهاب الأمريكيين». كان يرى أنه من النفاق شيطنة البلد الذي يعتمد عليه التعافي الاقتصادي البريطاني، واعتقد أن الحرب الباردة فرضت خيارًا بين بديلين لا ثالث لهما.



كتب إلى فيكتور جولانش: «يشهد الرب أنني لا أريد اندلاع حرب، ولكن إذا اضطرُّ المرء إلى الاختيار بين روسيا وأمريكا، وأفترض أن هذا هو الخيار الذي قد يتعيَّن على المرء أن يتَّخذه، سأختار أمريكا دائماً».

قرب نهاية ملحق «مبادئ اللغة الجديدة» في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، فإن المقطع الذي أختير من اللغة القديمة لتوضيح اللغة الأكثر أناقة والمُثل الأنبل التي سادت في عصر ما قبل الشمولية هو مقدمة إعلان الاستقلال الأمريكي.

\*\*\*

كان شتاء عامي 1946 و1947 ضارياً. ابتداءً من شهر يناير، رُوِّعت بريطانيا بسبب الثلوج الكثيفة ودرجات الحرارة السيبرية. تجمَّدت إمدادات الفحم في المناجم أو قبعَت في المستودعات لأن كثيراً من الطرق والسكك الحديدية غطَّها الثلج؛ ما أدى إلى تقنين الوقود وإغلاق المصانع. انخفضت الحصص الغذائية إلى ما دون مستويات الحرب مع تجمُّد الخضاروات في التربة ونفوق آلاف الدجاج من البرد، وقُيِّدت حصص الخبز لأول مرة في التاريخ. ارتفع معدل البطالة من 400 ألف إلى 1.7 مليون في أربعة أسابيع فقط. أجبر نقص الوقود والورق الناشرين -بما في ذلك مجلة «تربيون» - على إيقاف المطابع. علَّق البث التلفزيوني. خلال شهر فبراير -أسوأ شهر في الأزمة- كانت الكهرباء تنقطع لمدة خمس ساعات في اليوم. تضرَّرت الحكومة كذلك من ضربة الصقيع. وصفت صحيفة «فاينانشيال تايمز» أزمة الوقود بأنها المكافئ المحلي للأحداث التي أسقطت تشامبرلين في عام 1940. «كان الجميع

في بريطانيا يرتجفون»، هكذا لاحظ الروائي البريطاني المُغترب كريستوفر إيشروود، الذي أتى في زيارة من منزله في هوليوود. أخبره بعض الأصدقاء في لندن بأن الوضع أسوأ ممّا كان في أثناء الحرب.

لاحقًا أرجع أورويل فترة اعتلال صحته الأخيرة إلى هجوم ذلك الشتاء على رئتيه. بخلاف عودته القصيرة إلى بارنهيل في رأس السنة الجديدة لزراعة الأشجار وتعليق المصابيح، أمضى أورويل الفترة من نوفمبر إلى أبريل في لندن، التي كانت في الواقع أبرد وأشح في الوقود من جورا. يمكنك أن تتذوّق بعضًا من طعم الشتاء الأخير «الذي لا يطاق» الذي قضاه في لندن مقصورة الظهر المقصوفة بالقنابل في الفصول الافتتاحية من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: انقطاع التيار الكهربائي المتكرّر، الاقتصاد المتداعي، المبانى المرقّعة، شفرات الحلاقة الثلثة، الطعام السيئ، قسائم الملابس، ركاب الأنقاض، الغبار في الهواء. كان على أورويل أن يصعد ستّة طوابق على الأقدام ليصل إلى شقّته رقم 27 بي في ساحة كانونبيري. في الرواية يصعد ونستون لاهنًا إلى الطابق السّابع في «قصور النصر». إن مقاطعة العوام في الرواية، «الواقعة شمال شرق ما كان يُدعى سابقًا بمحطّة سينت بانكراس»، هي إزلينجتون.

استأنف أورويل الكتابة في عمود «كما يحلو لي». تطرّق مقاله الأوّل إلى مجلّات الموضوعة والخدمة العامّة في هيئة المحلّفين وتقنين الخبز والسلامة على الطرق، قبل أن يكتب مقالين من آخر مقالاته العظيمة: «كيف يموت الفقراء» و «لير، وتولستوي،

والأحمق». بدأ أيضًا يهتم بمسيرته الأدبية، التي كانت تسير بصورة حسنة. تشاور مع واربورج بشأن خطط إعادة طبع مجموعة من أفضل كتبه الأولى في طبعة موحّدة، وأقنع جولانش بالتخلي عن حقّه التعاقدى في نشر «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كانت ترجمات «مزرعة الحيوان» مزدهرة ومطلوبة بشدّة (تنافس ثمانية وأربعون ناشرًا في اليابان للحصول عليها)، وظهرت معالجة لها لأول مرة في الراديو في برنامج «بي بي سي» الثالث الجديد، بسيناريو لأورويل، حرّره زميل سكنه القديم راينر هيبستول. «كان لديّ شعور بأنهم أفسدوا الرواية، لكن هذا تقريبًا ما يحدث دائمًا عندما يكتب المرء أيّ معالجة للإذاعة»، هكذا أخبر مامين باجيت.

في مارس عام 1947، تفقّد أورويل حال جيمس بيرنام، الذي كانت رحلته من اليسار إلى اليمين مستمرة بوتيرة سريعة. في كتابه «الصراع على السلطة»، اختزلت الدول الإدارية الثلاث العُظمى على نحو متوقع إلى دولتين، تمثّلان الشيوعية والديموقراطية. وفي حين ما وضعت عقيدة ترومان الجديدة سياسة لاحتواء الشيوعية السوفيتية، اعتقد بيرنام أن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت بالفعل، وأن أمريكا يجب أن تكون مستعدة للقيام بضربة وقائية قبل أن يتمكن الروس من تطوير قنبلتهم الذرية، وهو اقتراح قاد أحد أعضاء الكونجرس لمقارنة الكتاب بكتاب «كفاحي». كتب أورويل: «إنه مفرم بشدّة بالرؤى المروّعة، ومستعد تمامًا للتصديق في أن عمليات التاريخ الفوضوية ستحدث فجأة وبشكل منطقي». ولكون أورويل قارئًا جيّدًا عن روسيا (في خطاب أرسله

إلى دوايت ماكدونالد عام 1947، أوصاه بنحو عشرين كتابًا)، رأى أن دعوة بيرنام لقمع الأحزاب الشيوعية في الغرب كانت مبنية هي الأخرى على خيال شاطح: «جيش سرّي ضخّم من المحاربين المتعصّبين، لا يعرف الخوف أو التردد، وليس في رؤوسهم أيّ فكرة سوى العيش والموت من أجل أرض الآباء».

بصفته اشتراكيًا ديموقراطيًا، شعر أورويل بأنه «طبيبٌ يعالج حالة ميؤوس منها». كان «المرض العقلي» الذي أصاب العالم في الثلاثينيات لم يُشخّص بعد، فضلًا عن الشفاء منه. مثل أتلي، الذي تحدّث عن الجمع بين «الحرية الفردية والاقتصاد المُخطّط، بين الديموقراطية والعدالة الاجتماعية»، كان أورويل يبحث عن طريق ثالث لا تهيمن عليه أمريكا أو روسيا. كان يأمل في وجود كيان اشتراكي يُدعى الولايات الأوروبية المتّحدة: إذا كان بإمكان المرء أن يعرض في مكان ما مفهوم الأمن الاقتصادي دون معسكرات الاعتقال، فإن حُجّة الخوف من الديكتاتورية الروسية ستختفي، وستفقد الشيوعية كثيرًا من جاذبيتها». لكن العوائق كانت هائلة، وكان المستقبل «مظلمًا جدًّا».

باستقراء ما حدث بعد ذلك، نجد أن أورويل كان متشائمًا جدًّا. إن كان قد قُدّر له العيش، كان سيرى في غضون سنوات قليلة أن الاقتصاد البريطاني يمكن أن يتعافى حتّى في أثناء تفكيك الإمبراطورية، ويرجع الفضل في ذلك جزئيًا إلى خطة مارشال، وأن فرنسا وألمانيا يمكن أن يجتمعا معًا لوضع أسس أوروبا الغربية الموحّدة، حتّى لو لم يكن ذلك اتّحاد الجمهوريات الاشتراكية الذي كان في ذهنه. لكن الخراب الشديد هي «ألف

وتسعمئة وأربعة ثمانون» كان استراتيجية بقدر ما كان تعبيراً عن مخاوفه الخاصة. في مراجعته كتاب فيكتور جولانش «في أحلك أيام ألمانيا» عن عالم ما بعد الحرب، أعرب عن قلقه من أن قصص المعاناة لم تعد تحرك الرأي العام البريطاني. «مع مرور الوقت وتراكم الأهوال، يبدو أن العقل يفرز نوعاً من الجهل ليحمي نفسه، وهو ما يتطلب صدمة أقوى كل مرة لاختراقه، تماماً مثلما يكتسب الجسم مناعة من دواء ما ويتطلب جرعات أكبر وأكبر». لإحداث تلك الصدمة العاتية التي لا سبيل للتحصن منها، رأى أنه «يجب تطوير تقنية أدبية جديدة».

\*\*\*

عاد أورويل وأهريل وريتشارد إلى چورا في الحادي عشر من أبريل، تزامناً مع ذوبان الثلوج وقدم الربيع. كانت الحديقة في بارنهيل مترعة بأزهار النرجس البري. بحلول نهاية شهر مايو، كان قد كتب نحو ثلث روايته، حتى لو كانت «فوضى شنيعة». كتب إلى واربورج يقول: «لا أحب الحديث عن الكتب قبل كتابتها، لكنني سأخبرك الآن بأن هذه رواية تحكي عن المستقبل، أي أنها فانتازية بشكل أو بآخر، لكن في هيئة رواية عادية، وهذا ما يجعلها مهمة صعبة. بالتأكيد بصفتها كتاباً تخمينياً، سيكون من السهل كتابتها نسبياً». على مدار الأشهر القليلة التالية، أرسل كل ما كتبه بالبريد - باستثناء الفصل الأخير والملحق - إلى ميراندا كريستين، صديقة أنتوني باول التي كانت تستأجر شقته في ساحة كانونبيري، وتطوّعت لكتابة مخطوطة نظيفة لها. بعد أن أمضت فترة الحرب في جأوة تحت الاحتلال الياباني، قالت

كريستين عن مهمتها: «كنت متحمسة منذ البداية. رأيت فيها تشابهات مع ماضي القريب». قالت إن الغزاة اليابانيين الذين أعادوا تسمية البلدان المحتلة باسم «مجال ازدهار شرق آسيا الكبرى المشترك»، «كانوا سيجسّدون وزارة الحقيقة في أرض الواقع على أكمل وجه».

ازدحمت مزرعة بارنهيل في ذلك الصيف الحار بالزوّار. جاء ريتشارد ريس، المدير الأدبي لأورويل، إلى جورا كي يرسم، ومكث عدّة أسابيع. عادت إنز هولدن وبقيت لفترة طويلة. ساعد بيل دن -وهو جندي سابق مصاب أتى حديثاً إلى الجزيرة- في إدارة المزرعة، وأقام علاقة مع أفريل أدت -بعد وفاة أورويل- إلى الزواج وتبني ريتشارد. جاء همفري داكين، أرمل مارچوري، مع أطفاله الكبار لقضاء عطلة كادت أن تنتهي بمأساة. سُحب قارب أورويل البخاري، وعلى متنه أورويل وهنري وجين داكين وريتشارد، في الدوامة الشهيرة في خليج كوريفريكن، أحد أخطر المسطحات المائية في بريطانيا، وتمكّنت المجموعة من الهروب بأعجوبة. كانت تلك أكثر مرّة اقترب فيها أورويل من الموت منذ إسبانيا، لكن هنري ذكر أنه لم يظهر أيّ بادرة هلع: «بدا كأنه يستمتع بالأمر».

هل كانت هذه اللا مبالاة علامة على الشجاعة أم التهور أم الإيمان بالقدر؟ هل كان قد اعتاد احتمال الموت المبكر؟ ساءت صحته في الخريف، ما جعله يهذي بالتفكير في مشروع واعد عن تقديم تقرير عن الحياة في الجنوب الأمريكي، كما فكّر في قبول تكليف من جريدة «ذا أوبزيرفر» لقضاء ثلاثة أشهر في كينيا وجنوب

إفريقيا. لم يكن ليذهب إلى أي مكان. قال لفايثل إنه ظل مريضاً طوال العام وخسر وزناً كبيراً، لكن «مثل الأحمق» قرّر مواصلة روايته بدلاً من رؤية الطبيب الذي ظنّ أنه سيجبره على الراحة وترك الكتابة. أنهى مسوّد الأولى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في فراشه في السّابع من نوفمبر. قبل الكريسماش بقليل، استسلم للمشورة الطبية، وسافر إلى مستشفى هيرمايرز في شرق كيلبرايد بالقرب من جلاسكو لتلقّي العلاج. لن يتمكّن من العودة إلى جورا، أو إلى روايته، لمدة سبعة أشهر أخرى. قال لاحقاً لسيلا باجيت معترفاً: «شعرت في تلك المرحلة بأنني انتهيت».

\*\*\*

بدأ أورويل يحلم بالموت. لازمته الكوابيس لبقية حياته، خاصة عندما كان يشعر بضيق في رئتيه ويستيقظ لاهثاً لالتقاط أنفاسه، خائفاً من أنه لن يسترد صحّته مرة أخرى. كان يسير في أحلامه على البحر، أو بين مبانٍ شاهقة ضخمة، لكنه كان دائماً تحت أشعة الشمس، ودائماً يغمره «شعور غريب بالسعادة»، كما كتب في كرّاس ملاحظاته في المستشفى. لم يخش أورويل الموت نفسه، فقط كان يخشى الألم الذي يسبق الموت. كان يعتقد أنه من الأفضل أن يموت المرء «بعنف وليس عجوزاً على الفراش» كما كتب في «كيف يموت الفقراء». سيكون البديل بالضرورة «بطلياً ومؤثماً ورائحته كريهة».

تكمّن مشكلة النظر إلى رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على أنها الوصية الأخيرة البائسة لرجل يحتضر في أن أورويل لم يؤمن قط أنه كان يحتضر، أو على الأقل ليس أكثر من المعتاد.

لقد عانى من مشكلات في الرئة منذ الطفولة، وكان مريضاً على فترات متقطعة لفترة طويلة حتى أنه لم يكن لديه سبب للاعتقاد بأن هذه المرة ستكون الأخيرة. في مستشفى هيرمايرز، شُخص بأنه مصاب بالسُّلّ اللبني المزمن في الجزء العلوي من كلتا رئتيه، وخاصة اليسرى. وفقاً لـجيمس وليمسون، أحد أطبائه، «قد يكون أورويل قد نسي الشعور بتمام الصِّحة تقريباً»، لكنه لا يزال يستطيع العيش لفترة طويلة.

وبالمثل، يحلم ونستون سميث بالمياه العميقة والأطلال التي تستحم تحت نور الشمس، وهو أيضاً لا يخشى الموت أيضاً. ما لا يستطيع تحمُّله، وما سوف يهزمه في النهاية، هو الألم، «لأن الجسد»، في غرفة التعذيب أو ساحة المعركة «يصبح أهم من أي شيء آخر في الكون». يجسّد ونستون رعب أورويل من تدهوره الجسدي. إن ونستون في التاسعة والثلاثين من عمره فحسب، لكنه يشعر بالفعل بأنه رجل عجوز. وهو في المستشفى، عدّد أورويل أعراض الانهيار: ضيق في الصدر، وألم في الظهر، وركبتان ضعيفتان، وألم في اللثة، وشيب في الشعر، ودموع في العينين، وقشعريرة لا تزول. بفضل علاقات ديفيد أستور، تمكّن أورويل من الحصول على بعض الستريتومايسين، وهو عقار جديد لمرض السُّلّ من الولايات المتحدة، ولكن ردّ الفعل التحسّسي الحاد وغير المتوقع الذي أصابه أجبر الأطباء في النهاية على تعليق العلاج. بدأ يفقد أجزاءً من الجلد والشعر والأظافر. طفق جلده بالحساسية والقرح والبثور. في الليل، كان الدم الخارج من بثور حلقه يتصاعد في فقاعات مع الزفير ويتخثّر على شفثيه



إلى درجة إنه لم يكن يتمكّن من فتح شفتيه قبل أن يغسلها . كتب إلى جولييان سيمونز يقول: «أعتقد أن حالتي مع كل تلك الأدوية تُشبه إغراق سفينة للتخلص من الفئران».

الفارق الجوهرى بين أورويل وونستون هو أن ونستون كان يعرف -منذ اللحظة الأولى التي بدأ يكتب فيها في مفكرته- أنه محكوم عليه بالهلاك . لكن أورويل لم يلمح قط إلى أنه يظن أنه لن يتعافى . وحتى أيامه الأخيرة، لم يفقد الثقة بالمستقبل .

\*\*\*

ما كرهه أورويل حقًا في مرضه هو تأثيره على دماغه . كان قادرًا على التفكير والتحدّث والقراءة بشكل طبيعى، ولكن كلّما حاول نقل أفكاره إلى ورق، خرجت لغته عقيمة، وحججه غير مكتملة . تساءل عمّا إذا كان يُوجد تفسيرٌ طبّي لهذا: ربما كان هناك ما يكفى من الدماء لدماعى كي تنتج أدبًا باهتًا ومباشرًا، ولكن يُوجد ما يكفى منها للإيحاء بأيّ شيء يستحق العناء؟ في نظر شخصٍ لم يكن يشعر باكتمال ذاته إلا عندما يكتب، كان ذلك عذابًا .

لكنه تمكّن بطريقة ما من إنهاء مقال واحد ذي مضمون حقيقى . أجاب مقال «الكتاب وليفيثان» السؤال الذى أعجزه في مقال «داخل الحوت»: كيف يمكن للكاتب الانخراط في السياسة من دون المساس بنزاهته؟ قبل ثماني سنوات، دعا أورويل إلى التقوقع داخل نوع من الحجر الصحى الفكرى . الآن كان يصرّ على أنه «من المستحيل ومن غير المستحسن» الاختباء داخل الحوت، وأن على المرء أن يكون ناشطًا سياسيًا بصفته مواطنًا ما دامت

كتابته لا يلوّثها النفاق والرقابة الذاتية. كانت هذه حجّته الأخيرة عن فكرة قوّة الوعي الذاتي الصارم الوقائية: في عصر تلوّث السياسة فيه كل ما يقرؤه المرء أو يكتبه، تنشأ الأفكار المتناقضة لا محالة، ويكون من الضروري مواجهة هذا التناظر بصراحة بدلاً من «ترك السؤال قابلاً دون إجابة في ركنٍ من أركان عقل المرء». إن الخطوط العريضة في كرّاس ملاحظاته تقتصر جوهر الأمر في تسع وعشرين كلمة: «الخلاصة: يجب الانخراط في السياسة. يجب عدم الخلط بين القضايا. على المرء عدم الانخراط في السياسة الحزبية بصفته كاتباً. تمييز التحيزات المسبقة هو الطريقة الوحيدة الصالحة لإبقائها تحت السيطرة».

بحلول شهر مايو، تحسّن أورويل بما يكفي لاستعادة آله الكاتبة واستئناف العمل بحماس. بالإضافة إلى تدوين ملاحظات لعملية مراجعة الرواية، كتب مقالات نقدية قصيرة عن وايلد وأتلي وجراهام جرين، ومقال لائق عن جورج جيسينج، صديق إتش جي ويلز المقرّب الذي تُوفي -مثل أورويل- بسبب مرض الرئة في السّادسة والأربعين. في ملاحظاته للمقال كتب أورويل: «روايات جيسينج من بين الأشياء التي تجعل المرء يشعر بأن العالم قد تحسّن (تأكيد على الكآبة)». لم يكن المرء ليعتقد أن أورويل احتاج أبداً إلى تذكير نفسه بالتأكيد على الكآبة. من الممكن استشعار اقتراضه من جيسينج -الذي وصفه بـ«مؤرّخ السوقية والقذارة والفضّل» - في مقاطع الوصف البغيضة في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

تمكّن أورويل أيضاً من إنهاء مقاله الطويل «كم شعرنا من مسرّات» عن ذكرياته الممزقة عن أيّام دراسته في «سانت

سيبريان». كان قد بدأ يفكر فيه (وربما يكتبه) قبل عشر سنوات، وأرسل إلى واربورج مسودة أولى في عام 1947، لكنه استغرق كل هذا الوقت لإكمالها. لقد كان مقالاً تشهيريًا ضارياً إلى درجة أنه لم يُنشر إلا بعد وفاته، وحُتَّى عندما نُشر، ظهرت المدرسة فيه باسم «كروس جيتس» المستعار.<sup>(41)</sup> صوّر أورويل «سانت سيبريان/ كروس جيتس» على أنها «عالمٌ من القوّة والاحتياال والسريّة» يُعذّب الأطفال فيه بـ«أهوال غير منطقية ومغالطات غير معقولة».

لا شكّ في أن أورويل كره المدرسة حقًا، لكن زملاءه القدامى وجدوا أن مقال «كم شعرنا من مسرّات» مبالغ فيه وغير عادل. يبدو الأمر كما لو أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» تسرّبت إلى ذكريات أورويل وحوّلت مدرسة إعدادية بغيض نوعًا ما إلى كابوس شمولي من القسوة والظلم. يُقارَن أوبراين مرارًا وتكرارًا بمدير مدرسة، وفي سطر محذوف من مسودة أورويل الأولى، يُوصف بارسونز في وزارة الحب كـ«تلميذ سمين متضخم ينتظر الضرب بالعصا». على العكس من ذلك، عندما وصف أورويل تعرّضه للضرب بالعصا بسبب تبوّله في الفراش، فإنه يبدو مثل بارسونز الذي اعتُقِل بسبب هزيانه بكلام مارق في أثناء نومه: «من الممكن إذا ارتكاب خطيئة من دون معرفة أنك ارتكبتها، ومن دون الرغبة في ارتكابها، ومن دون أن تكون قادرًا على تجنبها». لذا فإن احتمالية أن تصيب الرواية الذاكرة بعدوى أمر منطقي:

41- \* لم يُنشر المقال إلا في الولايات المتحدة. منعت السيّدّة ويليكنس -التي كانت تدير مدرسة «سانت سيبريان» مع زوجها- نشره في المملكة المتحدة حتّى وفاتها عام 1967. (المؤلف)

أما النقيض فيؤدي إلى تحليل نفسي مُدَّع مَرُوع. كتب أنتوني وست (ابن إتش جي ويلز وريبيكا وست) مقالاً مؤثراً في صحيفة «ذا نيويوركر» بعد وفاة أورويل يقول فيه: «سواء كان يعرف ذلك أم لا، فإن ما فعله أورويل برواية «1984» هو إرسال كل شخص في إنجلترا إلى كيان خيالي هائل أشبه بـ «مدرسة كروس جيتس» ليخرج منه بائساً كما كان هو». كان هذا مبالغاً فيه بشدة. لم يكن أورويل بأي حال الكاتب الوحيد الذي وصف مدرسة داخلية على أنها طغيانٌ مصفّر. فعلى سبيل المثال، وصفت سونيا براونيل، المتعلمة في دير راهبات، الكاثوليك بأنهم «شموليون» يريدون «التحكم التام في كل فكرة وشعور». لم يكن أورويل ليصبح كاتباً ذا شأن لو كانت روايته الأخيرة مجرد هجاء انتقامي من مدرسته الإعدادية.

غادر أورويل مستشفى هيرمايرز في 28 يوليو. ظننتُ أنه كان بإمكانه التعافي تماماً إذا انتقل إلى مصحة، لكن نداء الرواية كان قوياً جداً. عاد أورويل إلى چورا بصحبة ريس وأفريل وبيل وأعاد كتابة الرواية سطرًا بسطر بين شهري أغسطس ونوفمبر. كان جيرانه سعداء برؤيته يعود إلى المنزل، وهَيَّؤوا الحديقة له. قال أحد صيَّادي الكركند متذكراً: «أصابني اندهاش كبير في المرأة الأولى التي قرأت فيها رواية «1984». لم أصدق أن كاتب هذا الكلام هو إريك بليز الذي أعرفه. لم أتمكن من تخيل أن الرجلين شخص واحد على الإطلاق».

\*\*\*

من وجهة نظر أورويل «لا يُعدُّ الكتاب موجوداً حتى تتم كتابته». لم يشارك مسوداته مع أصدقائه ولم يناقش المحتويات على

الإطلاق إلا بأكثر المصطلحات غموضاً، وأصدر تعليمات إلى ريس بتمير المسوَّدة الأولى للرواية التي كانت لا تزال تُسمَّى «آخر رجل في أوروبا» في حال وفاته في المستشفى. إما أن ينهي كتابتها أو يلقي بها إلى «حفرة الذاكرة» وتحوَّل إلى رماد. مع الأخذ في الاعتبار خوف أورويل من رؤية أيِّ شخصٍ لعمله وهو قيد التحضير، فمن المدهش أن النسخ الأولى من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» نجت من الأساس. انتهى الأمر بمجموعة صفحات من أربع مسوِّدات مختلفة -تصل إلى 44 بالمئة من الرواية- في حوزة دانيال جي سيج، وهو جامع من ماساتشوستس وافق على نشر نسخة طبق الأصل منها في عام 1984. حتَّى مثل هذه المجموعة من المقتطفات تعطي انطباعاً جيِّداً عن عملية أورويل الإبداعية وألوياته. لقد كان محرراً ذاتياً لا يرحم، يعيد كتابة الفقرات عدَّة مرَّات -على صفحات تفصُّ بالتعديلات إلى درجة جعلها غير مقروءة تقريباً- للتخلُّص من الصياغة المترهِّلة وتعزيز الأفكار الأساسية. على سبيل المثال، كان السطر الأوَّل الشهير المريك يقول في الأصل: «كان يوماً بارداً وعاصفاً من أيَّام أبريل الأولى، وكان مليون مذياع يُعلن أنها الواحدة بعد الظهر». كان هذا هو الكتاب السَّادس من كتبه الذي يُفتتح بإعلان التوقيت.

حدَّدت الملاحظات التفصيلية التي دوَّنها أورويل في مستشفى هيرمايرز أولويَّاته: توضيح دور العوام، والتركيز على تزوير التاريخ وقمع الجنس في أوقيانيا، وكتابة الفصل الأخير. لم يحذف إلا القليل. اختُصرت الزيارة إلى شقَّة أوبراين؛ ما قلَّ من دور خادمه

الشرير مارتن، وحذف لقاء أوبراين اللاحق مع جوليا. اختزل أورويل بشكل كبير التلميحات إلى المواقع الجغرافية في العالم الحقيقي، والتلميحات إلى التحيز العرقي (بما في ذلك مشهد الإعدام خارج نطاق القانون)، والمفارقات التي شعرت بأنها مُبالغ فيها. تُوجد فكاهة جافة في الرواية، نراها في «المظاهرات العفوية» المخطّط لها و «الاشتراكات الطوعية» الإجبارية في الواقع، لكن يفترض أن أورويل كان ينظر إلى «المسيحيين المسالمين»، الذين يطالبون بدفن عشرين ألف سجين من أوراسيا وهم أحياء، باعتبارهم متحجّري القلوب تمامًا. لم يغيّر أيّ من هذه التعديلات بشكل جذري السرد القصصي للرواية أو مخطّطها. على العكس من ذلك، تكشف المسوّدات المبكّرة عن مدى اتّساق وتركيز أورويل خلال تلك السنوات الثلاث.

تلاشى تعافي أورويل مع قدوم الصيف. تدهورت صحّته بشكل كبير إلى درجة أنه صار واثقًا بحلول أكتوبر أنه سيحتاج إلى دخول مصحّة، لكنه واصل العمل بدلاً من ذلك. حتّى أنه استطاع خلق وقت لكتابة مقالات قصيرة عن جان بول سارتر وتي إس إليوت، بالإضافة إلى مقال آخر طويل أوضح فيه ما لا تدور حوله روايته. بعد فوات الأوان، ربما يكون أورويل قد ندم على الاسم الذي اختاره لنظامه الشمولي. مثلما يلمح الاختزال القبيح في اللغة الجديدة، لم يكن حزب الإنجوسك أكثر اشتراكية من الاشتراكية القومية (النازية). في رواية كُرّست فيه وزارات الحقيقة والحب والسلام والوفرة لقيم معاكسة تمامًا، سيكون من الغريب تفسيرها حرفيًا على أنها اشتراكية إنجليزية. لم يعد

حزب العمل موجوداً، ويوضح كتاب جولدشتاين الكذبة المضمنة في اسم الإنجوسك: «وهكذا يرفض الحزب ويشوّه كل مبدأ قامت من أجله الحركة الاشتراكية في الأصل، ويختار أن يفعل ذلك باسم الاشتراكية». ومع ذلك، فإن كثيراً من محبّي أورويل الأمريكيين -كما سنرى- سيفترضون أنه كان يسخر من حكومة أتلي. إن الطريقة التي استخدم بها الأثاث المادي في لندن ما بعد الحرب لإعطاء مقاطعة آيرستريب وإن مصداقية معيشية ضاعفت من هذا الانطباع الخاطئ. حتّى واربورج فسّر الكتاب في البداية على أنه «هجوم متعمّد وسادي على الاشتراكية والأحزاب الاشتراكية بشكل عام» قبل أن يدرك خطأه. في تقريره عن الرواية، أشار واربورج إلى أنها ستُسعد تشرشل والصحافة اليمينية و «ستساوي مليون صوتٍ رائعٍ لحزب المحافظين». هذا كلام صادر عن رجل كان يعرف أورويل بشكل شخصي. كيف إذاً لن يرتكب القراء الذين لا يعرفون شيئاً عن الرجل ومعتقداته الخطأ نفسه؟

في أعين الأمريكيين، ربّما بدت بريطانيا كابوسية تحت حكم حزب العمل. وصف أنتوني باور مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» في لندن مواطنيها بأنهم «يعانون نقصاً في التغذية وبيدون منهكين ومقيّدين ومحجّمين تماماً، ويكافحون بشدّة لتحقيق الانتعاش الاقتصادي». أظهر استطلاع للرأي في ربيع عام 1948 أن 42 بالمئة من البريطانيين يفكّرون في الهجرة. ومع ذلك، ظلّ أورويل مؤيداً لحكومة حزب العمل حتّى النهاية، وإن كانت حكومة مُرهقة. منزعجاً من فشل حزب العمل في التخلص الفوري

من مجلس اللوردات ونظام التكريم والتعليم الخاص - الرموز الثلاثة الكبرى للامتياز الطبقي - وشاعرًا بالملل من الإصلاحات البيروقراطية، كان أورويل قد عرض سابقًا كتابة مقال لصالح توسكو فايفل في «تربيون»، يشكو فيه أن أنورين بيقان قد أصبح مشتتًا بيناء المنازل والخدمة الصحية الوطنية، وبالتالي رفض ما سيصبح اثنين من أعظم إنجازات الحكومة. لحسن الحظ، رفض فايفل عرضه.

رسم مقال «حكومة حزب العمل بعد ثلاث سنوات» الذي نُشر في مجلة «كومنتاري» عام 1948 صورة لحكومة تكافح لحلّ مشكلات هائلة، لا لديكتاتورية في طور التكوين. أكّد أورويل فيه قائلاً: «حتى الآن، وعلى الرغم من صرخات العذاب الصادرة من صحافة اللورد بيثربروك، لم تتعدّ الحكومة على الحرية الفردية إلا بأقل القليل. بالكاد استخدمت الحكومة سلطاتها، ولم تنزلق إلى أيّ فعل يمكن وصفه بشكل معقول بالاضطهاد السياسي». لكنه تساءل بالفعل عمّا إذا كان حزب العمل سيتخذ منعطفًا استبداديًا في النهاية إذا ظلّ الاقتصاد راكعًا على ركبتيه بعد عدة سنوات، لكنه لم يلاحظ أيّ ميول شمولية في حكومة أتلي المؤلفة من رجال عمليين. ولو كان هناك شيء مقلق، فهو اعتقاده بأنهم شديدو الحذر، خاصّة عندما يتعلق الأمر بالرسائل المتبادلة. ثم كتب أن التمشّط والهجرة البولندية «تسبّبًا في استياء أكثر مما ينبغي لو كانت الحقائق الأساسية قد شُرحت بشكل صحيح». شعر أورويل بالفرع من عدااء الشعب تجاه اللاجئين البولنديين واليهود، وقال: «ثمّة شك في أن نتمكّن من حل مشكلتنا من دون



تشجيع الهجرة من أوروبا». <sup>(42)</sup> لكنه ظلّ يأمل في الأفضل، وظلّ يرى أن الحكومة الاشتراكية الديموقراطية الناجحة هي أفضل ترياق ممكن للاستالينية.

كان مقال أورويل المهم الأخير هو «خواطر حول غاندي»، وهو تقييم معقّد للرجل الذي كان قد اغتيل في وقت سابق من ذلك العام، بعد بضعة أشهر فقط من استقلال الهند الذي جاهد كثيرًا جدًا لتحقيقه. كان أورويل معجبًا بشدة بشجاعة غاندي وانفتاحه وصدقته الفكري، لكنه لم يتقبّل تقشّفه وتدينه. بدت الحياة بلا جنس ولحوم وكحول وتبغ غير إنسانية على نحو مبهم في نظر أورويل. من يريد أن يكون قديسًا؟ «إن جوهر الإنسانية هو ألا يسعى المرء إلى الكمال، وأن يكون على استعداد لارتكاب الخطايا أحيانًا في سبيل الولاء، وألا يصل بالزهد إلى نقطة تجعل الجماع الجنسي مستحيلًا، وأن يكون مستعدًا في نهاية المطاف أن تهزمه الحياة وتكسره، وهو الثمن الحتمي الذي يجب دفعه للشعور بالإخاء الإنساني بين البشر». كان ذلك بلا شك جوهر طبيعة أورويل.

\*\*\*

هل أفسد أورويل صحّته بشكل يتعدّر إصلاحه بسبب عدم وجود كاتب آلة كاتبة؟ يعتقد هريديريك واربورج ذلك. عندما أنهى أورويل المسوّدة النهائية في نوفمبر، طلب من ناشره أن يجد

---

42- \* عندما كان أورويل يعيش في إيزلنجتون، لاحظ هو وبول بوتس إعلانًا في نافذة بائع جرائد يقول: «غرف للإيجار، نرحّب بجميع الجنسيات». التفت أورويل إلى بوتس وقال: «هذا مطلع قصيدة جيّد لك». (المؤلف)

له شخصًا يستطيع القدوم إلى بارنهيل لإعادة كتابة المخطوطة، التي كانت فوضى من الشطب والشخبطة والكتابة المتعجّلة، لأنه لم يكن يعتقد أن أحدًا سيفهمها إلا إذا كان إلى جواره. لكن كريستين كانت قد عادت إلى الشرق الأقصى، ولم يعثروا سريعًا على كاتب آلة كتابة يوافق على السفر إلى چورا، وكان أورويل نافذ الصبر. بدأ يكتب بنفسه بمعدلٍ قاسٍ يبلغ نحو أربعة آلاف كلمة في اليوم، على مدار سبعة أيّام في الأسبوع، مستندًا إلى الفراش ما دام يستطيع تحمّل نوبات الحمّى والسعال الدموي. في الأسبوع الأوّل من شهر ديسمبر كتب الكلمات الأخيرة، ونزل بعدها إلى الطابق السفلي وتقاسم آخر زجاجة نبيذ في المنزل مع أهّريل وبيل، ثم عاد إلى الفراش مُضني من المجهود الذي بذله.

في الثاني من يناير عام 1949، غادر أورويل بارنهيل للمرة الأخيرة للذهاب في رحلة طويلة إلى مصحّة كوتسوولد في كراناام في جلوستيشاير. ألمه أن يغادر مكانًا مفعّمًا بالحياة كهذا. قال لأستور بأسى: «كل شيء هنا يزدهر إلا أنا».

مكتبة

t.me/soramnqraa

## تعلن الساعات الواحدة بعد الظهر

أورويل من 1949 إلى 1950

«كتابي الجديد يوتوبيا في صورة رواية. لقد أفسدتها في حقيقة الأمر، يعود ذلك جزئياً إلى مرضي الشديد في أثناء كتابتي لها، لكنني أظن أن بعض الأفكار الواردة فيها قد تثير اهتمامك. لم أستقر على العنوان بشكل نهائي بعد، لكنني أظنها ستدعى ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

جورج أورويل، خطاب إلى جوليان سيمونز، بتاريخ 4 فبراير عام 1949.

لماذا إذا سمّاها «1984»؟

توجد نظرية شهيرة جداً - شهيرة إلى درجة أن كثيراً من الناس لا يدركون أنها نظرية - تقول إن العنوان الذي اختاره أورويل كان مجرد عكس رقمي ساخر لعام 1948، لكن لا دليل على ذلك بالمرّة. تبدو تلك الفكرة - التي اقترحها ناشر أعمال أورويل الأمريكي - لطيفة جداً إلى درجة لا تلائم كتاباً يمثل هذه الجدية، فضلاً عن أنها نكتة مُقَيَّدة أحادية البعد. أثار الباحثون احتمالات أخرى. كتبت آيلين قصيدة للذكرى المئوية لمدرستها القديمة عنوانها «نهاية قرن: 1984». تفتتح رواية الهجاء السياسي «نابليون من نوتينج هيل» التي كتبها جلبرت شيلسترتون عام 1904 - والتي تسخر من فنّ التنبؤ - في عام 1984. التاريخ أيضاً ذو

أهمّية في رواية «العقب الحديدية». لكن كل تلك الصلات يتّضح أنها محض مصادفات بالرجوع إلى مسوّدات الرواية المبكّرة التي كان أورويل ما زال يسمّيها «آخر رجل في أوروبا». في البداية كتب: 1980، ثم 1982، ثم 1984. جاء التاريخ الأكثر شؤماً في الأدب في هيئة تعديل في اللحظات الأخيرة.

الشيء المهم أن التاريخ لم يكن لمستقبل قريب جداً. تميل الروايات الديستوبية إلى أن تكون إما على بُعد قرن على الأقل وإما قاب قوسين أو أدنى. إنه قريب بما يكفي من عام 1949 ليكون ملموساً، ولكنه بعيد بما يكفي ليكون ذا مصداقية. التاريخ الذي وقع عليه اختيار أورويل يحقّق نفس غرض الموقع الذي اختاره للأحداث (لندن)، ليقول إن الأمر ممكن أن يحدث هنا، وقريباً. تُفتتح الرواية بونستون في سنّ تسعة وثلاثين عاماً، الذي يعلم أنه ولد إما في عام 1944 وإما في عام 1945، ما يجعله معاصراً لريتشارد بليزر. ربّما كان أورويل يتخيّل العالم الذي سيبلغ فيه ابنه منتصف العمر. يمكن أن تحدث أمور كثيرة في غضون خمسة وثلاثين عاماً. قبل خمسة وثلاثين عاماً من نشر الرواية، عندما أتى صيف عام 1914 المجيد، كان الأرشيديوق فرانز فرديناند لا يزال على قيد الحياة، وكان أورويل على وشك بلوغ الحادية عشرة، وكانت معسكرات الموت والقنابل الذرية خيالاً علمياً.

إحدى النكات القاتمة في الرواية هي أن العام الذي تدور فيه الأحداث قد لا يكون عام 1984 من الأساس. عندما شرع ونستون في كتابة مذكراته، أدرك أنه غير متأكّد من التاريخ لأنه «لم يكن من الممكن هذه الأيام تحديد أيّ تاريخ مضى عليه أكثر

من عام أو عامين». لهذا فإن السطر الأول الذي كتبه قد يكون غير صحيح. يخبر أورويل القارئ في وقت مبكر بأن هذا كتاباً لا يمكنك أن تثق فيه بأحد أو بشيء، ولا حتى بالتقويم.

\*\*\*

خلال الأشهر التي سبقت النشر، تحدث أورويل باستخفاف عن الرواية. في رسائل إلى أصدقائه، وصفها بأنها «كتاب بغيض»، و «كتاب شنيع حقاً»، و «فكرة جيّدة خُربت». كتب إلى واربورج: «لست مسروراً بالكتاب وفي الوقت نفسه لست مستاءً تماماً منه... أعتقد أن الفكرة جيّدة ولكن التنفيذ كان ليكون أفضل لو لم أكتبها تحت تأثير مرض السُّل». كان أورويل قلقاً بشأن عدم قدرته على كسب المال (اعتاد أن يشير بسخرية إلى أن مرض السُّل «هواية باهظة الثمن»)، وتوقع أن يُدرّ الكتاب نحو 500 جنيه استرليني: «ليس هذا كتاباً سأراهن عليه أن يبيع كثيراً».<sup>(43)</sup>

إلى أي مدى يجب أن نتعامل بجديّة مع ادّعاء أورويل بأنه «أفسد الكتاب»؟ لطالما قلّ من شأن رواياته. يرجع ذلك إلى مزيج من التواضع وعدم المغالاة في التوقعات والشكّ الحقيقي في الذات. قال عن «أيّام بورما»: «جعلتني أتقيّاً»، وعن «ابنة القس»: «كانت فكرة جيّدة، لكنني أخشى أنني لطّختها بالوحل»، ووصف «من أجل استنشاق الهواء» بأنها «فوضوية». الرجل الذي أكّد أن كل الكُتُب -مثل كل الثورات- فاشلة، كتب أيضاً أن «أيّ حياة عند النظر إليها من الداخل هي مجرد سلسلة من الهزائم».

43- \* على سبيل المقارنة، أكسبته إصدارات مختلفة من «مزرعة الحيوان» 12 ألف جنيه استرليني حتّى وفاته، أي ما يعادل 400 ألف جنيه استرليني اليوم.

في كُرَّاس ملاحظاته في المستشفى، تأمَّل في الماضي ملقياً نظرة على واحد وعشرين عاماً من الوقت الضائع وعدم الوفاء بالوعود. حتَّى في انشغاله -وقد كان كذلك عادةً- كان يخشى نفاد طاقته وموهبته، كان يخشى من «كوني عاطلاً عن العمل، ومتأخراً في الوظيفة الحالية، وكون مجمل إنتاجي ضئيلاً بشكل بائس». في نظر أورويل، كانت حياة الكاتب عبارة عن حلقة مفرغة عصبية. في الواقع، لم يرَ أحدٌ أن أورويل فاشل، باستثناء الصوت في رأسه، والذي لولاه لما كان لينجز ما أنجزه.

بينما كان مستلقياً في الفراش بعد صراع مرهق دام ثلاث سنوات لكتابة الرواية، ليس من المستغرب أنه شعر أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كان من الممكن أن تكون أفضل. لكن إذا غضضنا النظر عن بعض الخلط في إطار فترة اعتقال ونستون الزمني في النص، لم يجد المحرِّر روجر سينهاوس من «سيكر آند واربورج» أيَّ أخطاء بارزة في مرحلة التدقيق والمراجعة. الندم الوحيد الذي أقرَّ به أورويل يتعلَّق بمشهد الغرفة 101، وقد أخبر جوليان سيمونز بأنه كان محقاً في اتِّهامه بأنه «مبالغة صبيانية». في الواقع، يحمل هذا المشهد نفس النكهة القوية الموجودة عند إم آر جيمس وإدجار آلان بو، الكاتبين اللذين أحبَّهما أورويل وهو تلميذ. قد لا تكون الرواية مثالية، لكنها لا تنطوي على عيوب خطيرة يمكن نسبها إلى المرض أو التسرُّع. إن تشاؤمها قويٌّ ومكثَّف، وليس باهتاً.

صدمت المخطوطة واربورج وأخذت بلبُّه. امتلأ تقريره عن الرواية -المُصمَّم لإرشاد فريق الترويج للكتاب- بالثناء المشدود:

«هذا من بين أكثر الكتب المرعبة التي قرأتها في حياتي... ليس لدى أورويل أي أمل، أو على الأقل لا يترك لقارئه أي أمل، ولا حتى بصيص ضوء شمعة ذابلة. هذه دراسة لا تستحي في التشاؤم، إذا استثنينا فكرة أنه إذا كان في استطاعة رجل تخيل عام 1984 بهذه القتامة، فيمكنه أيضًا أن يعمل على تجنبه». أول قارئ للرواية هو أول من أساء فهمها. وضع واربورج افتراضين خاطئين ظلَّ يرددهما من بعده كثير من القراء اللاحقين. الأول -كما رأينا- هو استنتاجه أن أورويل تخلى عن الاشتراكية. والثاني هو نسب نهاية الرواية الكثيبة إلى مرض أورويل: «لا يسعني سوى الاعتقاد أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكتبه غير رجل فقد الأمل هو نفسه، ولو مؤقتًا». ومع ذلك، لم يضعف حماس واربورج، واتَّفَق معه زميله في الدعاية ديفيد فارر: «فعل أورويل ما لم يفعله ويلز، وخلق عالمًا خياليًا يبدو حقيقيًا بشكل مرعب يجعلك تهتم لما يحدث للشخصيات التي تعيش فيه». كان على يقين من أن الرواية قد تصير من الكتب الأكثر مبيعًا، وأنهم إن لم يتمكنوا من بيع ما لا يقل عن خمسة عشر ألف نسخة «يجب أن يُقتلوا رميًا بالرصاص».

تحركت دار «سيكر آند واربورج» سريعًا. قبل أن يغادر أورويل جورا، كان لديه وقت لرفض المقدمة الدعائية التي اقترحها سينهاوس، والتي جعلت الرواية تبدو «كما لو كانت قصة مثيرة مختلطة بقصة حب» لا محاولة جادة «لكشف التدايعات الفكرية للشمولية من خلال طرحها بصورة مبالغ فيها». قطعًا، كانت الرواية كل هذه الأشياء في الوقت نفسه وأكثر. من حسن الحظ

أن المخطوطة لم تتطلب إعادة كتابة، لأن أورويل لم يكن قادرًا على مثل هذا العمل. كل ما كان يستطيع فعله هو مراجعة نسخة الطبع التي أتت إليه خلال شهري فبراير ومارس، وإعداد قوائم بالأصدقاء والكتاب المعاصرين الذين ينبغي لهم أن يتلقوا نسخًا مسبقة، ومن ضمنهم ألدوس هكسلي وهنري ميلر. اقترح على واربورج أن برتراند راسل قد يكون على استعداد لكتابة نبذة ترويجية موجزة، وقد كان كذلك بالفعل. من غير المحتمل أن أورويل كان سيوافق لو علم أن ناشريه الأمريكيين هاركورت وبريس سعيًا للحصول على كلمة تصديق على الفلاف الخلفي من جيه إدجار هوفر، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي مكارثي النزعة: «نأمل أن تكون مهتمًا بالمساعدة في لفت انتباه الجمهور الأمريكي إلى هذا الكتاب، وبالتالي -ربما- المساعدة في درء الشمولية». لكن لأنه إنسان دائم الشكوكية، رفض هوفر الطلب، وبدلاً من ذلك فتح ملفًا لأورويل في المخابرات.

قاوم أورويل أي محاولة «للتلاعب» بالكتاب. رفض بشكل قاطع السماح لـ«نادي كتاب الشهر» في الولايات المتحدة بنشر طبعة من الرواية من دون الملحق و فقرات كتاب جولدمشتاين، حتى مع المخاطرة بخسارة نحو 40 ألف جنيه استرليني حسب تقدير واربورج. أي شخص ظن أن هذه المقاطع المقالية في النص يمكن التخلص منها لأنها لا تساهم في تحريك الأحداث إلى الأمام لم يستوعب هدف أورويل على الإطلاق. حتى قبل أن يظهر «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إلى النور، بدا أن الناس يصرون على إساءة فهمها.

\*\*\*



كانت المصححة الخاصة كارنام القابعة فوق أعالي تلال كوتسوولد بيئة أفضل بكثير من مستشفى هيرمايرز. في شاليه أورويل، لم تكن الضوضاء السمعية المزعجة آتية من دوي المذياع المستمر، ولكن من نهيق مرضى الطبقة العليا السخيف من الشاليهات المجاورة. «لا عجب أن يكرهنا الجميع»، هكذا علّق. كان أكثر ما يحزنه هو افتقاده ابنه ريتشارد، فقد أبقى الصبي بعيداً عنه لفترات طويلة خوفاً من إصابته بالعدوى. بدأ أورويل يقبل -على مضض- أن الإقامة العلاجية في هذه المصححة مختلفة: لن يُخرجوه في الوقت المناسب لقضاء صيفٍ آخر في جورا. ومع ذلك كان يأمل في البقاء حياً من خمس إلى عشر سنوات أخرى، وطلب من واربورج أخذ رأي طبيّ آخر يخبره بصدق عن الوقت المتبقي له: «لا تظن أنني أحسم أمري للمفادرة. على العكس، لدي أسباب قوية للبقاء على قيد الحياة».

أخبر الدكتور أندرو مورلاند -صديق واربورج وأحد المختصين في شارع هارلي ستريت<sup>(44)</sup>- أورويل بأنه إذا أراد البقاء على قيد الحياة، فسيُتعيّن عليه تجنب العمل لمدة عام على الأقل. كانت تلك أخباراً مؤلمة لهذا الكاتب المجتهد، إذ تركته بلا شيء لفعله سوى القراءة وحل الكلمات المتقاطعة وكتابة الرسائل المليئة بالفتنة والقيّل والقال والتحليلات، التي لم تجد جميعها أيّ مصرفٍ آخر. انتهت حياته المهنية في الصحافة المستقلة بمراجعات قصيرة لسيرة تشرشل الذاتية وسيرة ديكنز. أشار

44- شارع في حي مرليبون في لندن اشتهر منذ القرن التاسع عشر بعدد كبير من عيادات الأطباء الخاصة. (المترجم).

المقال الأخير إلى النظرية الشهيرة التي تقول بأن جولة القراءة الأخيرة «استنزفت ديكنز بشكل كارثي»، وبالتالي يُعدُّ «قد انتحز في الواقع» بالعمل الشاق. هل يستطيع أورويل أن يكتب عن ديكنز في أيِّ مرّة من دون أن يصف نفسه؟

تطلّع أورويل إلى المستقبل. ورسم في ذهنه خطة جديدة. كان يفكر في قضاء الشتاء في مكان جميل على البحر، ربّما في برايتون، وقضاء الصيف في جورا. عندما صار قادراً على العودة إلى العمل في عام 1950، خطّط لإنهاء مجموعة مقالات جديدة بعنوان «مقالات ورسومات»، ستضمّن مقالاً عن إقطين ووه (الذي وصفه بأنه «روائي كأفضل ما يكون... يتمسّك بآراء يتعذّر الدفاع عنها») وآخر عن أدب جوزيف كونراد (وبالأخص روايته السياسيتين «العميل السريّ» و «في العين الغربية»). كان يرى أن كونراد، وهو كاتب مغامر آخر مفتون بعلم النفس القومي والسلطة والمثالية التي انحرفت، يتمتّع بـ«نوع من النضج والفهم السياسي يستحيل وجودهما تقريباً في أيِّ كاتب آخر في ذلك الوقت». مثل رواية «الرجل الذي كان الخميس» لـجيه كي شيسترتون، فإن رواية «العميل السريّ» حرّكتها موجة المؤامرات والتفجيرات والاغتيالات الأناركية التي اجتاحت أوروبا في مطلع القرن، ويمكن اكتشاف آثار كلتا الروايتين في أجزاء من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عندما يُجنّد أوبراين ونستون قبل أن يخونه. هذا العالم السريّ القابض، الذي يُجرى فيه تبادل الرموز والحقائق والعهود، في مسوّدّة الرواية الأولى، تخيل أورويل أن ونستون وجوليا صارا إرهابيين: «سيأتيان بخمسة كيلوجرامات من الديناميت وبمفجّر،

ويشقّان طريقهما بين حشدٍ من أعضاء الحزب الداخلي ويفجّران الجميع إلى أشلاء، بما في ذلك أنفسهم».

كانت هناك روايتان أخريان تتخمّران في ذهن أورويل في عام 1949، كلتاهما لا علاقة لها بأوقيانيا. كان من المفترض أن تدور واحدة في عام 1945، والأخرى في العشرينيات. قال واريورج عن الأخيرة: «إنها رواية مدفوعة بالشخصيات أكثر من الأفكار، وتدور أحداثها على خلفية بورما». لم ينج إلا نبذة قصيرة كتبها أورويل تقول إنها «قصة غرفة تدخين». تشير تلك النبذة الحيوية والمرحة -مثل صفحات مذكراته- إلى أنه كان قد أخرج شحنة الشمولية أخيراً من جسده، وأن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كان من المفترض أن تختتم إحدى مراحل عمله، لا حياته المهنية بالكامل.

بينما كان أورويل مستلقياً في فراشه، تبلور النظام العالمي السائد بعد الحرب. في أبريل، شكّلت عشرات الدول الغربية حلف الناتو. وفي أغسطس، فجّرت روسيا بنجاح أوّل قنبلة ذرية لها في سهوب كازاخستان. وفي أكتوبر، أسّس ماو تسي تونج جمهورية الصين الشعبية.

أوقيانيا وأوراسيا وإيستاسيا.

\*\*\*

لم يفقد أورويل الرفقة في مصحّة كارنام. بالإضافة إلى المشتبه بهم المعتادين (واريورج وموجريدج وياول وفايقل وبوتس وهولدن وكونولي)، تلقّى زيارات من إيثلين ووه وآرائه التي يتعذّر الدفاع عنها، والمؤرّخ الاشتراكي آر إتش تاووني، وتشارلز كوران

المحاور اللجوج من جريدة «إيفنينج ستاندارد»، الذي أرقهه بالجدل السياسي والشكوى من «سجائره المخيفه». أما أكثر من تردّد عليه فكانت داعمته ومشجّعته الدائمة سونيا براونيل البالغة من العمر تسعة وعشرين عامًا، التي عادت دخول حياته في شهر مايو. كانت تشتهر بأنها رفيقة جيّدة.

ستعيش سونيا مع رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» واحدًا وثلاثين عامًا. كانت امرأة معقّدة، تدين بسمعتها أحادية البعد كمتعالية باحثة عن الثراء ووكيلة غير جديرة بممتلكات أورويل للعديد من كُتّاب السير والمنتجين وكُتّاب السيناريو الذين عوّقت جهودهم، وبالتالي لم يكن لديهم أيُّ حافز ليكونوا طيبين معها. حكم عليها هوسها العصابي بحماية إرث زوجها الراحل بحياة مليئة بالأعداء.

مثل أورويل، ولدت سونيا في الهند، حيث كان والدها تاجرًا، وترعرعت في إنجلترا. التحقت بمدرسة كاثوليكية داخلية كانت تكرهها بشدّة ربّما أكثر ممّا كان أورويل يكره «مدرسة سانت سيبريان». رأى أحد المعجبين بها أن تمرّدها ضد تنشئتها كان أشبه بـ«وقود صاروخي لا ينضب». بعد أن تركت المدرسة، قضت تسعة أشهر رائعة في كلية في سويسرا، لكن الحلم تحطّم بسبب حادث قارب لقي فيه صديقٌ سويسري -كانت قد أبعدته عنها من قبل- حتفه. في خضمّ يأسه، مات وجرّها معه إلى أسفل، وتركها تعاني شعورًا مأساويًا بالذنب.

ألقت سونيا بنفسها بعد ذلك في أحضان لندن البوهيمية الصاخبة، وصارت صديقة وملهمة -وأحيانًا عشيقة- لرسّامي

«مدرسة يوستون رود». وصفها ستيشن سبندر متذكراً كما يلي:  
«كانت ربّة جمال «مدرسة يوستون رود»، بوجهها الرينواري  
الدائري وعينيها الرائقتين وثرها الكيويدي وشعرها الأشقر.  
ربّما كانت شاحبة بعض الشيء، وتبدو كشخص يجاهد دائماً  
للانسلاخ من ذاته والهروب من طبقته الاجتماعية والدير الذي  
تعلّمت فيه إلى عالم من الجمال الوثي يسكنه الفنانون وعابرة  
الأدب الذين سينقذونها». فتّ الرجال بضحكتها اللعوب الساطعة،  
والحزن البادي فيها الذي لم تستطع إخفاءه. على الرغم من  
ذكائها الشديد، وفطنتها الحادة اللامعة، كانت تشكّك في موهبتها  
وتشعر بالانجذاب إلى ألمعية الآخرين، وخاصةً الرجال الأكبر  
سناً. كتبت لاحقاً: «تُوفي والدي وسنيّ ستّة أشهر، وكان زوج أمّي  
مجنوناً، ولم يكن هناك أيّ شخص يعتني بي في حياتي».

عندما أطلق سيريل كونولي وجامع الأعمال الفنية بيتر  
واتسون مجلّة «هورايزون» في أبريل عام 1940، سرعان ما  
أصبحت سونيا فرداً لا غنى عنه ضمن الفريق، وهكذا تقاطع  
طريقها مع طريق أورويل أوّل مرّة. كانت صريحة جداً وماهرة،  
ولا تتقبّل على الهُراء، وتعرف كيف تنجز الأمور. أمضت معظم  
فترة الحرب في وزارة النقل الحربي وعادت إلى «هورايزون» في  
عام 1945 بشخصية أقوى بكثير. تعرّفت أورويل بشكل أفضل في  
تلك الفترة، خلال أيّام الوحدة اليائسة، ونامت معه مرّة واحدة  
على الأقل: كان الأمر عملاً خيراً نوعاً ما من جانبها. التقيا مرّة  
أخرى في لندن خلال عامي 1946 و1947 وأعطته زجاجة براندي  
ليأخذها معه إلى جورا. رسالته اللاحقة التي دعاها فيها لزيارة

الجزيرة (وهي رحلة لم تقطعها قط) كانت عملية وفاترة، لكنها تضمّنت جملة واحدة تدلُّ على المودة: «في هذه الأثناء اعتني بنفسك وكوني سعيدة».

حاولت سونيا بالفعل أن تكون سعيدة. كانت تمضي الوقت في باريس بصحبة الوجوديين السّامين المثيرين للجنون سارتر وبوهوار وكامو، والفاتن الخلاب المتزوّج مورييس ميرلو بونتي. كان بونتي ماركسيًا مثل سارتر. عرض مقالاً على سونيا للنشر في «هورايزون» دون جدوى، مهاجمًا فيه «ما يسمى بإنسانية» أورويل (من جانبه، كان أورويل يرى أن سارتر «جمعاً بلا طحن»). انخرطت سونيا وميرلو بونتي في علاقة طويلة مضطربة تركتها محطّمة عندما أنهاها الأخير في أواخر عام 1948. لذا عندما عاود كلٌّ من سونيا وأورويل التواصل، كانا شخصين ضعيفين ومجروحين، يُدرك أحدهما مخزون الحزن العميق في جملة الآخر. أو كما قالت جوليا لونستون في الرواية: «أنا بارعة في اكتشاف اللا منتمين».

يدعم عنوان السيرة المتعاطفة التي كتبتها هيلاري سبيرلينج لسونيا بعنوان «الفتاة من إدارة الخيال» النظرية الشائعة بأن سونيا هي التي ألهمت أورويل لكتابة شخصية جوليا. تقول سبيرلينج: «إنها هي بشبابها وجمالها وصلابتها، وفوق كل شيء بحيويتها المشرقة». كلتا المرأتين نشيطتان وصريحة وعملية جدًا أيضًا. لكن هل يكفي هذا للربط بين الاثنتين؟ كان أورويل مقرّبًا من سيليا باجيت وإنز هولدن أيضًا، وكان يراهما في أثناء تأليف «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أكثر ممّا يرى سونيا. لا تبدو

سونيا وجوليا ذات الشعر الداكن متشابهتين، وبالتأكيد لا تتشابهان في التفكير.

في الظاهر، جوليا مواطنة نموذجية تنتج قصصًا ومواد إباحية رخيصة ليستهلكها العوام، وتشارك بحماس في «رابطة مكافحة الجنس» و«دقيقتي الكراهية»، وتفوح منها رائحة «ملاعب الهوكي والحمامات الباردة والنزهات المجتمعية» إلى درجة أن ونستون ظنَّ في البداية أنها جاسوسة لشرطة الفكر وتخيل تحطيم مجتمعتها بحجر. أما في السرِّ، فهي محتالة أكثر من كونها مهرطقة، وتكرس دهاها الكبير لتأمين متع السوق السوداء وإغواء أعضاء الحزب. ولأنها بارعة ولكن غير مثقفة (فهي لا تحب القراءة)، فهي «متمردة من الخصر إلى الأسفل فحسب». وقبل كل شيء، هي امرأة واقعية تتمتع بمهارات بقاء عبقرية، وقد توصّلت إلى كيفية لعب اللعبة دون التشكيك في القواعد قط. يوضّح أحد السطور من مسوِّدة أوّلية الفرق الواضح: «بينما كان ونستون من يحلم بإسقاط الحزب بتمرّدٍ عنيف، كانت جوليا من تعرف كيف تبتاع القهوة من السوق السوداء».

من الناحية الفلسفية، تمثل جوليا طريقة ثالثة للعيش في ظلِّ حكم الإنجوسك. يدّعي أوبراين أنه لا يوجد شيء اسمه حقيقة موضوعية، ويصرُّ ونستون على وجودها، بينما تؤكد جوليا أن هذا لا يهم. لأنها لا تستطيع تذكر الماضي ولا تهتم بالمستقبل، فهي تعيش بالكامل في الحاضر، وهذا ما يريده الحزب. في الواقع، إنها لا تُبالي بالمجتمع الذي تعيش فيه إلى درجة أنها غفت في أثناء ما كان ونستون يقرأ كتاب جولدشتاين بصوت

عالٍ. من بعض النواحي، هي أذكى من ونستون، وتشعر بحدسها أن جولدشتاين وجماعة «الأخوية» الثورية على الأرجح وهما ن اختلفهما الحزب. لكن ذكاءها ساخرٌ، بل وعدمي. لقد تفوّهت بأمور عديدة لا تصدّقها إلى درجة أنها لم تعد تؤمن بأيّ شيء لا تستطيع لمسه. عندما يجبرها ونستون على تذكر أن أوقيانيا كانت في حالة حرب مع أوراسيا، لم تستطع فهم أهمية الأمر، وردّت بصبرٍ نافذ: «من يهتم؟ نحن نعيش في حربٍ دموية تلو الأخرى، والجميع يعرف أن كل الأخبار أكاذيب على أيّ حال».

اعتمدت الدول الشمولية على وجود أمثال جوليا. بعد فترة وجيزة من الحرب، وفي جدالٍ مع أورويل على صفحات «بوليمك»، استشهد الكاتب الشيوعي راندال سوينجلر بالنتائج التي توصّلت إليها القوَّات الأمريكية التي أجرت مقابلات مع أنصار النازية السابقين في ألمانيا المحتلة: «أوضح النازيون لشعبهم أنه بما أن كل الحقائق نسبية، فمن المستحيل معرفة أو فهم أيّ شيء... لقد أعفت الرجل العادي من محاولة الفهم، وأعطته في الوقت نفسه وعياً بالصدق خائب الرجا».

أكّدت هانا آرنت هذا الانطباع في كتاب «أصول الشمولية»: «المواطن المثالي في نظر حكم الشمولي ليس النازي المقنَّع أو الشيوعي المقنَّع، ولكن الأشخاص الذين لم يعودوا يميّزون بين الحقيقة والخيال (أي واقع التجربة)، أو بين الصواب والخطأ (أي معايير الفكر)». خلصت آرنت إلى أن الألمان كانوا مهَيَّئين بالفعل للشعور بهذه الطريقة بسبب حالة عدم اليقين الفوضوية التي سبقت صعود هتلر:



في عالم دائم التغيُّر ومُستعصٍ على الفهم، وصلت الجماهير إلى النقطة التي سيصدِّقون فيها -في الوقت نفسه- كل شيء ولا شيء، وسيؤمنون أن كل شيء جائز، وأنه لا تُوجد حقيقة... اكتشفت البروباغندا الجماهيرية أن الناس مستعدون في جميع الأوقات لتصديق الأسوأ، بغض النظر عن مدى سخافته، ولا يعترضون بشكل خاص على الخداع، لأنهم يعتبرون أن كل البيانات كاذبة على أيِّ حال.

ها هو شعارٌ حزبي جيّد كأَيِّ شيءٍ آخر توصِّل إليه أورويل: كل شيء جائز، ولا تُوجد حقيقة.

\*\*\*

من اللافت للنظر كم الأفكار المبدئية التي كتبها أورويل في عام 1943 أو 1944 التي ظهرت في المخطوطة النهائية: الإنجوسك، واللغة الجديدة، و«معيّار التفكير المزدوج»، وثلاث الدول العُظمى، وشعارات الحزب المتناقضة، وتزييف التاريخ، ودقيقتا الكراهية، والخائنون الثلاثة، والعوام. كلها موجودة في دفتر ملاحظاته. أيضًا عناصر الحبكة الرئيسية. «الكاتب» (ونستون) يخوض محادثة خطيرة مع «س من الناس» (أوبراين غالبًا)، ويقيم علاقة قصيرة مع «ص من الناس» (جوليا). كان الهدف من النصف الثاني من الكتاب أن يشمل الاعتقال والتعذيب والاعتراف من البداية، ومثل جميع رواياته «الوعي الأخير بالفشل».

ومع ذلك، أجرى أورويل بعض الإضافات المهمة. إحداها كانت شاشات الرصد المُستقبلة والمُرسلَة. مثل معظم الشعب، لم يكن أورويل يملك جهاز تلفاز. بحلول يونيو عام 1948، كان هناك خمسون ألف جهاز تلفاز فقط في بلدٍ يبلغ تعداد سكَّانه خمسين مليون نسمة (على الرغم من أن هذا العدد كان يتزايد بأطراد)، ولم يكن يُوجد سوى القليل جدًا لمشاهدته.<sup>(45)</sup> شعر بعض الناس بالخوف من أن الجهاز الجديد سيشاهدهم كما يشاهدونه. عندما أعلن مدير مكتب البريد، السير كينجسلي وود، وصول التليفزيون في عام 1935، شعر بأنه مضطّر لأن يضيف: «أود أن أطمئن أيّ مستمع متوتّر أنه على الرغم من روعة التلفاز فلا يمكن استخدامه بهذه الطريقة لحسن الحظ». لكن كان من المنطقي افتراض أن التكنولوجيا ستتطوّر يومًا وتلحق بالرغبات السياسية للدول البوليسية. تفاخر المسؤول النازي روبرت لي ذات مرة قائلاً: «الشخص الوحيد الذي لا يزال يتمتّع بفرديّة خاصة في ألمانيا هو الشخص النائم». في آيرستريب وان، وبين شاشات الرصد وشرطة الفكر والمخبرين وحوّمات المراقبة والميكروفونات المخفية وحِدّة نظرة الأخ الأكبر المخيفة، يشعر المواطنون أنهم مراقبون «في اليقظة والنوم»، ويتصرفون وفقًا لذلك.

---

45- \* من قبيل المصادفة أن المتحكّم في خدمة تليفزيون «بي بي سي» من عام 1947 إلى عام 1950 كان الروائي نورمان كولينز، الذي حرّر أعمال أورويل عندما كان يعمل في مؤسسة جولانش (المح الرجل إلى أن أورويل كان يعاني «نوعًا من عدم الاستقرار العقلي»). وتقاطعت مساراتهما مرّةً أخرى في قسم المحادثات الخارجية. كانت وسائل الإعلام البريطانية وقتها عالمًا صغيرًا جدًا. (المؤلف).

كان الأخ الأكبر «المعصوم من الخطأ، مطلق القوة» ابتكاراً آخر أتى لاحقاً. إن حاكم أوقيانيا المعنوي الغامض مطلق الوجود هو مزيج من «الرقم واحد» الذي ابتكره آرثر كويستلر و «المنعم» الخاص بزامياتن وهتلر، وقبل هؤلاء «العم جو» أو ستالين، الذي كتب عنه أندريه جيد: «صورته تُرى في كل مكان، واسمه على شفاه الجميع، ولا يخلو خطابٌ عام من الثناء عليه. هل ينبع هذا من عبادة أم حب أم خوف؟ من يعرف؟». غالباً ما كان يُنعت ستالين بـ «اللفز المستعصي على الحل»، أو «الغامض»، أو «أبو الهول الشيوعي»، الذي تحجبه دائرته الداخلية عن الجماهير. فكلّما بدا أنه أقل واقعية من البشر الذين يفتقرون إلى الكمال صار أقوى. كتبت آرنست: «أصبح مؤهل الزعيم الجماهيري الرئيسي هو العصمة الأبدية من الخطأ. لا يجوز أن يعترف بأي غلطة... يهتم الزعماء بشيء واحد يطفئ على جميع الاعتبارات النفعية الأخرى: جعل توقعاتهم تتحقق».

لا أحد يعرف أين يعيش الأخ الأكبر في أوقيانيا، ولا إن كان يعيش من الأساس؟ «أهو موجود كما أنا موجود؟»، هكذا يسأل ونستون أوبراين، فيجيب أوبراين: «أنت غير موجود»، متجنباً السؤال بنقضه. تمتلئ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بمثل هذه الأسئلة. هل الأخ الأكبر شخصٌ حقيقي؟ هل جولدشتاين كذلك؟ من كتب «الكتاب»؟ هل «الأخوية» موجودة بالفعل؟ هل الصواريخ التي تمطر على أيرستريب وان تُطلق من أوقيانيا نفسها حقاً؟ هل المعجوز في وزارة الحب والدة ونستون؟ هل كانت جوليا عضوة في شرطة الفكر بعد كل شيء؟ أيُّ عام هذا حقاً؟ وكم من الوقت يمر

خلال الأحداث؟ ليس من المستغرب أن يكون للرواية أتباع من المصابين بجنون الارتياب، لأنها تصف عالمًا غير مستقر تكون فيه نظريات المؤامرة مقبولة تمامًا. كما أخبر أوبراين ونستون، متجنبًا طرح سؤاله حول «الأخوية»: «ما دمت على قيد الحياة، سيظل هذا اللغز في ذهنك بلا حل». معظم ما يعرفه ونستون عن طريقة عمل العالم يأتي من كتاب جولدشتاين، الذي قد يكون خدعة من تأليف الحزب. وكل ما يقوله أوبراين له في أثناء الاستجواب قد يكون غير حقيقي، بما في ذلك الادعاء بأن كتاب جولدشتاين خدعة من تأليف الحزب. يُوجد أقل القليل مما هو حقيقي بشكل قاطع.

هذا الالتباس المستمر هو ما يجعل من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عملاً خياليًا رفيع المستوى، لا مقال سياسي رُكبت له حبكة. إن سمعة أورويل كمثال على الشفافية، بأسلوبه الصريح وحبّه للحقائق القاسية، تحجب براعته الفنية، وتغري الناس بفهم الكتاب بالمعنى الحرفي، حتّى عندما يطالبهم النص نفسه بعدم فعل ذلك. إن الرواية المليئة بالأحلام والهوسات والذكريات المهترئة والمعلومات المزيفة والتلميحات إلى المرض العقلي، فهي حكاية غير مستقرة تمامًا. كان هذا موجودًا في الخطوط العريضة الأصلية التي كتبها أورويل: «تأثير البلبلة على الرؤوس، وإعادة صياغة الأحداث، وتغيير التواريخ، وما إلى ذلك... وشك المرء في سلامته العقلية». بهذا التشتت ومع وجود تهديد مبهم يتعدّر فهمه، يبدو الكتاب ككابوس حقيقي ومحاكاة مقبولة في الوقت نفسه للحياة في ظلّ حكم دولة شمولية. يرى ونستون أن

«كل شيء تحول إلى ضباب» أو «تلاشى في عالم الظلال».

ثمّة شيء واحد فقط يعرفه ونستون على وجه اليقين. قد لا تكون «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» نبوءة، لكنها تحتوي على نبوءة: على تبصّر بالهزيمة والموت. كل أبطال أورويل فشلوا في مساعيهم، لكن وحده ونستون الذي كان يعلم أنه سيفشل. قبل سبع سنوات، أخبره أوبراين في المنام بأنهما سيلتقيان «في مكان لا يوجد فيه ظلام»، وقد تبين أنه يعني وهج المصابيح الكهربائية التي لا تُطفأ في وزارة الحب. «لم يكن ونستون يعرف ما يعنيه الحلم، لكنه كان يعلم أنه سيتحقّق بطريقة أو بأخرى». هذه المعرفة المسبقة تطارده وتقضّ مرقده. في اللحظة التي يبدأ فيها مذكراته، يعلم ونستون أن شرطة الفكر ستعثر عليه في النهاية. توجد إشارات عديدة إلى «الرعب المحتوم» و «الموت الوشيك» و «تحقّق عملية بدأت منذ سنوات». إنه يختبر هواجس الغرفة 101 قبل أن يدخلها، بل يختبر أيضًا الحجج التي سيقدمها أوبراين نفسها. في عقل ونستون، الفرق بين الذاكرة والنبوءة وبين الماضي والحاضر والمستقبل متذبذب وغير واضح. «احتويت النهاية في البداية».

لذا فإن المنعطف الشهير في الرواية، عندما يكشف السيّد تشارنجتون وأوبراين عن طبيعتهما الحقيقية، لم يكن منعطفًا مفاجئًا في الواقع الأمر على الإطلاق. هذا ما كان سيحدث من البداية، بطريقة أو بأخرى. كتب أورويل عدّة مرّات أن أفعال ونستون «لم تحدث فرقًا». الرواية بأكملها تأريخٌ لموت مُتنبأ به - بل ما هو أسوأ من الموت: التبخير، والتلاشي - على الرغم من

أنها تنتهي قبل أن يتلقّى ونستون الرصاصة التي لا مفرّ منها. ما إذا كان عزم ونستون على المضي قدماً يُظهر شجاعةً هائلةً من جانبه أو قضاءً وقدراً لا يد له فيه، فهو تفصيلة تُركت مفتوحة للتأويل، لكنه يعلم ويتقبّل عواقب أفعاله. «في هذه اللعبة التي نلعبها، ليس في مقدورنا الفوز»، هكذا أخبر جوليا، ممهداً لجملة أورويل الجوهريّة التالية: «بعض أنواع الفشل أفضل من الأخرى، هذا كل شيء».

يقول أوبراين لُونستون في وزارة الحب: «لا تخدع نفسك، أنت تعرف ذلك بالفعل، لطالما عرفته». لكن كيف عرف أوبراين أن ونستون يعرف؟ من أوبراين هذا؟ يصفه أورويل بأنه ضخم لكن رشيق، قبيح لكن ساحر، ويفوح منه عبق الذكاء الهائل والسخرية الماكرة والصلابة الغامضة. بصفته أداة لسلطة الدولة، فهو أكثر جاذبية وتعاطفاً من جليتيكين بارد الدم الذي ابتكره كويستلر، وبالتالي هو أكثر خطورة. «كان الجَلَّاد، وكان الحامي، وكان المحقّق، وكان الصديق».

تشير لفظة محقّق (Inquisitor) إلى الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك اسمه، أوبراين، ونسخته الملتوية من التعاليم المسيحية والقربان المقدس. في شقّة أوبراين، يشعر ونستون «بموجة من الإعجاب، تقترب من التقديس» تجاه هذا «الكاهن المهيمن». كان لأورويل علاقة معقدة بالدين. كان ملحدًا، ومع ذلك كان يعتقد بأن الشمولية لا يمكن أن تزدهر إلا في وسطٍ من الفراغ الروحي، وكان يشعر بميل وجداني نحو البروتستانتية. في آيرستريب وان، صارت إحدى الكنائس السابقة مكانًا لممارسة الجنس المحرّم أو

لعرض البروباجندا، أو هي مجرد اسم في تلك الأغنية القديمة الغريبة «برتقال وليمون». لكنه كان منتقداً راسخاً للكاتوليكية، وكثيراً ما قارنها بالفاشية والشيوعية بوصفها مثلاً بارزاً على العقيدة القمعية. بل يمكن حتى رؤية الخلط بين الفكر والقول والفعل في صلاة الاعتراف بالذنب على أنه الأساس المنطقي الذي أقام عليه مفهوم «جريمة التفكير».

ربّما يتمتّع أوبراين أيضاً بقدرات إلهية. نحن نعلم أنه قرأ مذكرات ونستون -ومن هنا استعمل معادلة  $2 + 2 = 5$  كسلاح ضده- لكنه استخدم كذلك عبارات أخرى مثل «حُذِفَت من مجرى التاريخ» و «نحن في عداد الموتى»، التي لم يدونها ونستون قط. إنه يبدو كأنه يعرف كل فكرة في عقل ونستون، وكمن يتحدث إليه في أحلامه. في المرّة الأولى التي يراه فيها ونستون يشعر «كما لو أن عقليهما انفتحا وأن الأفكار تتدفّق من أحدهما إلى الآخر عبر أعينهما». في وقتٍ لاحق، يأتيه انطباع بأنه «يكتب اليوميات من أجل أوبراين، وإلى أوبراين». أوبراين هو الشخص الوحيد الذي يثق به تماماً من الوهلة الأولى، وآخر شخص يجب أن يثق به. إنه شخصٌ حقيقي وجزء من ونستون في الوقت نفسه: إنه ظله. «لا توجد فكرة خطرت على باله، أو قد تخطر على باله، لم يعرفها أوبراين ويختبرها ويرفضها منذ فترة طويلة. كان عقله يحتوي على عقل ونستون». بمجرد دخول ونستون إلى وزارة الحب، من المستحيل أخذ الرواية حرفياً. حتى لو كنت تعتقد أن أوبراين متخاطراً ذهني بالفعل (يُقال إن علماء الإنجسوك يعملون على «اكتشاف ما يفكر فيه الآخر رغماً عن إرادته»)، فلماذا

يبدأ بمراقبة عامل نكرة من عمال الحزب الخارجي قبل سبع سنوات من تمرده؟ وحتى في هذه الحالة، فإن عصيان ونستون لا يعدو كونه حفنة سطور زهيدة في يوميات مشوشة (تستخدم في الغالب كمثال على عقل شوّهته البروباجندا) وبعض الممارسات الجنسية في الهواء الطلق. إنه لا يكلف نفسه سوى عناء قراءة فصل ونصف من كتاب جولدشتاين ويتركه في منتصف الجملة التي تعد بشرح دوافع الحزب الحقيقية. يا له من ثوري همام. لذا فإن ونستون ليس «آخر رجل» حقًا. إنه فقط آخر ضحية رمزية يُجرى تفكيكها وإعادة بنائها. «هذه التمثيلية التي مثلتها معك على مدار سبع سنوات سيعاد تمثيلها مرارًا وتكرارًا، جيلًا بعد جيل، ودائمًا بأشكال أكثر دهاءً»، هكذا يقول أوبراين. كان يُوجد من هم أمثال ونستون من قبل، وسيأتي من هم أمثاله من بعد. ومثل نظام ستالين خلال «التطهير الكبير»، لا يخشى الحزب الهراطقة. إنه يحتاج إليهم، لأن قوّته تتجدّد بسحقهم. أطلق مالكوم موجريديج على ذلك اسم «استعراض القوّة المستمر»: «إن الحكومة القائمة على الإرهاب تحتاج باستمرار إلى إظهار قوّتها ورسوخها».

انتقد أرويل الاستالينيين لقولهم إن الغاية تُسوِّغ الوسيلة، لكن في أوقيانيا تُسوِّغ الوسائل نفسها. الهدف في حدّ ذاته هو ذبح الأضاحي، لكن ليس تقرُّبًا إلى شيء. المواطن المثالي لا خوف منه، التحديّ هو تمزيق العقل الحر إلى أشلاء. بهذه الطريقة فقط يمكن تحقيق «النصر بعد النصر» في دهاليز وزارة المحبة: الانتصار على الماضي، وعلى الفرد، وعلى الواقع نفسه. أو كما



كتب أورويل في مقال «منع الأدب»: «رَبِّمَا تَتَطَلَّبُ الشَّمُولِيَّةُ عَلَى المَدَى الطَّوِيلِ عَدَمَ الإِيْمَانِ بِوُجُودِ مَا يُسَمَّى بِالْحَقِيقَةِ المَوْضُوعِيَّةِ مِنَ الأَسَاسِ».

الآن نأتي إلى أعظم إنجاز ساخر لأورويل: المرحلة الأخيرة المنطقية لحرب الشمولية على الواقع. عندما يدَّعي أوبراين أنه يمكن أن يبرز من الأرض مثل فقاعة الصابون، أو يُطفئ النجوم كأنها شموع، أو يُثبت أن الشمس تدور حول الأرض، فهو ليس مجنوناً بل فيلسوفاً. في مواجهة ذاتية أوبراين اللا محدودة، نجد أن اعتراضات ونستون بأنه تُوجد أشياء صحيحة وأشياء خاطئة لا تعدو كونها قلاع من رمال تواجه موجاً عاتياً. يقول أوبراين: «نحن نتحكَّم في المادة لأننا نتحكَّم في العقل»، وهو بهذا يأخذ فكرة «التلاعب بالعقول» إلى حدِّها الأقصى. «يكمن الواقع في جمجمة الإنسان». قبل أن يتمكن من إقناع ونستون بقول إن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة، عليه أن يلغي حقيقة أن للرقمين أربعة وخمسة أي وجود مستقل. الرقم لا يكون خمسة إلا لأن أوبراين يقول إنه خمسة. إذا قال إنه  $1 - \sqrt{}$ ، فسيكون  $1 - \sqrt{}$ .

- «كم إصبعاً ترى في يدي يا ونستون؟».

- «لا أعرف. لا أعرف. سوف تقتلني إذا فعلت هذا من جديد. أربعاً، خمساً، ستاً، حقاً لا أعرف».

- «هذا أفضل».

بمعنى آخر، كل شيء جائز، ولا شيء حقيقي.

يظلُّ الهجاء بلا ضحك هجاءً، والغاية كلها هي المبالغة. ليس أوبراين رجلاً، إنه تجربة فكرية، ومقترح متواضع. بشكل عام،

يشرح الثشان الأولان من الرواية بكثير من المبالغة ما حدث في أوروبا بالفعل، بينما يُلَمِّح الثالث الأخير إلى ما يمكن أن يحدث إذا أُزيل كل حدٍّ يمكن تصوُّره. يصف ستيقن سبندر السرد بأنه: «متوالية هندسية من الرعب». أوبراين هو الجواب على سؤال: «ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث؟». إنه هتلر وستالين بعد تجريدهما من الخطب المُسوَّغة لأفعالهم. إنه الحذاء الذي يعلو الوجه. «لا هدف من الاضطهاد غير الاضطهاد. ولا هدف من التعذيب غير التعذيب. ولا هدف من السلطة غير السلطة».

لم يكن الدافع الذي حثَّ أورويل على صوغ مثل هذا السيناريو بالغ التطرُّف هو اليأس، لكنه لم يكن الأمل أيضًا. أوضح أورويل في بيانٍ صحفي بعد صدور الكتاب: «العبرة التي يجب استخلاصها من هذا الموقف الكابوسي الخطير يسيرة: لا تسمح بحدوث ذلك. الأمر يعتمد عليك».

\*\*\*

نُشرت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عن دار «سيكر آند واربورج» في 8 يونيو عام 1949. في مدينة بلاكبول، عقد حزب العمل اجتماعه السنوي، في باريس، وصل وزراء الخارجية إلى طريق مسدود بشأن مستقبل ألمانيا. في واشنطن، أكَّد الرئيس ترومان دعم الولايات المتحدة لكوريا الجنوبية. نشرت صحيفة «تايمز» اللندنية في عددها الصباحي تقريرًا على الصفحة الأولى عن مؤتمر صحفي للجنرال چان سموتس، رئيس الوزراء السابق لجنوب إفريقيا والداعم البارز للأمم المتحدة: «كانت البشرية تعيش في حالة من الشَّقْ رُوحِي، ولم يكن أحد يعلم ما إذا كان القادم فجرًا أم غروبًا».

من المؤكد أن أورويل قدّم العلاج بالصدمة الذي تحدّث عنه في مراجعته لكتاب جولانش «أحلك أيام ألمانيا». ذكر ملحق مراجعة الكتب في صحيفة «نيويورك تايمز» أن رد الفعل النقدي لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كان إيجابيًا بأغلبية ساحقة، وقد «غطّت صيحات الرعب على صوت التصفيق»، وقارن الملحق «حالة التوتّر» بالضجّة التي أحدثتها معالجة أورسون ويلز الإذاعية لرواية «حرب العوالم». قُورن الكتاب بهزّة أرضية وبحزمة من الديناميت ومُلصق على زجاجة سم. «قرأتها وأنا تعتريني قشعريرة باردة لم أشعر بمثلا منذ أن قرأت عن الياهو لسويفت وأنا طفل»، هكذا كتب جون دوس باسوس إلى أورويل، معترفًا بأن كوايبسًا عن شاشات الرصد راودته. أخبر عددٌ من بائعي الكتب واربورج بأنهم لم يتمكّنوا من النوم بعد قراءة نسخهم المبكّرة. في نظر إي إم فورستر، كانت الرواية «فضيحة جدًّا إلى درجة تحول دون قراءتها دفعة واحدة».

وصل الشاء إلى أورويل في مصحّة كارنام من آرثر كويستلر في باريس («كتاب مجيد»)، ومن ألدوس هكسلي في كاليفورنيا («شديد الأهميّة»)، ومن مارجريت ستورم جيمسون في بيتسبرج («رواية ستقف شاهدة على عصرنا»)، ومن لورانس داريل في بلجراد («إن قراءتها في بلدٍ شيوعي لتجربة حقيقية لأنه يمكن للمرء أن يراها في كل مكان من حوله»). في غضون أسابيع قليلة، ذكر النائب المحافظ هيو فريزر الرواية في البرلمان، الذي رأى في أوروبا الشرقية «الدولة التي وصفها السيّد أورويل مؤخرًا في كتابه «1984»». لم يكن جميع القراء الأوائل معجبين. شعرت

جاسينثا بوديكوم، التي كانت قد علمت مؤخرًا فقط أن الكاتب الشهير جورج أورويل وصديق طفولتها إريك بليز هما الشخص نفسه، بالرعب إلى درجة أنها قطعت اتصالها بها. قالت متذكّرة: «كانت «1984» في نظري كتابًا مخيفًا وبائسًا وانهزاميًا. لم أستطع فهم لماذا كتبه، لذلك لم أرسله على الإطلاق».

كان أكثر النقاد ذكاءً هم الذين فهموا رسالة أورويل التي تقول إن جرثومة الشمولية موجودة فينا كما هي موجودة فيهم. في كتاب جولدشتاين، «بالكاد يمكن التمييز» بين أيديولوجيات الدول الثلاث العظمى التي يُفترض أنها متناقضة، أما الفروق بين البنى الاجتماعية فيها فمطموسة بالكامل. كتب فورستر: «يستتر الأخ الأكبر خلف ستالين، وهو ما يبدو مناسبًا، لكن الأخ الأكبر يستتر أيضًا خلف تشرشل وترومان وغاندي وأي زعيم تستخدمه البروياجندا أو تختبره». لخص جولو مان من صحيفة «فرانكفورتر روندشاو» الألمانية تيمة أورويل على أنها «الخطر الشمولي الذي يكمن داخلنا». لاحظ دانيال بيل في مراجعته الفلسفية في مجلة «نيو ليدر» أن «أورويل لم يكتب مقالاً عن السياسة، بل أطروحة عن الطبيعة البشرية».

لكن لم يدرك كل ناقد هذه الحقيقة الجوهرية. لقد كانت الرواية عملاً يضغط بشدة على أعصاب القراء السياسية ويكشف عن تحيزاتهم. اعتقد النقاد المحافظون أن الكتاب لم يكن إدانة قاطعة للاتحاد السوفيتي فحسب، بل لجميع أشكال الاشتراكية بما في ذلك اشتراكية أتلي. أفردت مجلة «لايف» المعادية للشيوعية بشدة التي يرأس تحريرها هنري لوس ثماني

صفحات برسوم كاريكاتورية لأبتر دين، وكتبت: «يعزز الكتاب الشكوك المتزايدة في أن بعض الداعمين البريطانيين لحزب العمل يستمتعون بالتقشُّف ويودون الحفاظ عليه». أما جريدة اللورد بيثريوك «إيفنينج ستاندارد» اقترحت بخبث أن الرواية يجب أن تكون «واجبة القراءة» للنائبين وهم في طريقهم إلى مؤتمر حزب العمل في برايتون.

قرأ النقاد الشيوعيون بدورهم الرواية على أنها تشويه مباشر للاشتراكية. كتب صمويل سيلين، رئيس تحرير مطبوعة «ماسز أند مينستريم»، مستكراً بشكل هستيري «مرض» أورويل، مدفوعاً إلى حد كبير باشمئزاه من رواج الكتاب. كتب أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لم تكن مجرد «عفونة ساخرة» بل بروباجندا للسوق الحرة مثلها مثل كتابات فريدريك هايك. وصفت صحيفة «براهدا» الكتاب بأنه «قذر» وبأنه كُتِبَ «بأوامر وتحريض من وول ستريت». دفع هجوم الروائي والشيوعي آرثر كالدر مارشال على أعمال أورويل وشخصه في جريدة «رينولدز نيوز» نائب حزب العمل وودرو وايت إلى الاتفاق معه على أن أورويل «رجلٌ أجوف ميووس منه» لا يتوافق مع «أهداف ومعتقدات حزب العمل».

سخر أورويل من مراجعة كالدر مارشال («إذا كنت أبتغي تشويه أحد الأشخاص لفعلتها أفضل من ذلك»)، لكنه أصيب بالجزع من الكاريكاتور المحافظ الذي أظهره كيساري سابق محبط يلوح بعلم الرأسمالية غير المقيدة. من المحتمل أن يكون هذا ما قصده -في رسالته إلى ريس- بعبارة «تشهير مخز تماماً». عندما زاره واربورج في كرانام في 15 يونيو، أملاه أورويل بياناً يؤكد ويشرح

حُجَّةُ الرواية بأن الشمولية يمكن أن تنشأ في أيِّ مكان، وأن الدول الكبرى المتنافسة «ستتظاهر بأنها تعارض بعضها أكثر ممَّا تفعل في الواقع».

ثم كتب بيانًا ثانيًا في اليوم التالي بعد أن طالب فرانسيس إيه هنسون، وهو مسؤول من اتِّحاد عمَّال السيارات في ديترويت، بتوضيح أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كتاب مناسب لأن يُوصَّى به لأعضاء النقابة. ردُّ أورويل بأنه «لم يكن المقصود من الرواية الهجوم على الاشتراكية، أو على حزب العمل البريطاني (الذي أنا مؤيِّدٌ له)»، ولكنه تحذير من أن «الشمولية - إذا لم تُحارب - يمكن أن تنتصر في أيِّ مكان». كان التوضيح ضروريًا. «لا أعتقد أن المجتمع الذي وصفته سيتحقَّق بالضرورة، لكنني أعتقد - مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أن الكتابَ ساخرٌ - أن مجتمعًا شبيهًا قد يتحقَّق». ما أثار غضبه، أن النقابة أخطأت في أثناء طباعة خطابه المكتوب بخط اليد واستبدلت «سيتحقَّق» بـ«قد يتحقَّق»، لذلك عندما هاتفته مجلة «لايف» لتطلب إذنه بإعادة طبع الخطاب، أصر على عدم تكرار الخطأ. حتَّى توضيحه احتاج إلى توضيح.

لم يقل أورويل غير القليل جدًّا عن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» قبل وفاته، إلى درجة أن هذين التصريحين دليلان لا يقدَّران بثمن على نِياتِه، لكن واريبورج ظنَّ وقتها أنهما «لم يفعلًا خيرًا يذكر». الحقيقة هي أن الغموض المحيط بآراء أورويل السياسية رفع من مبيعاته. في غضون ستَّة أشهر باع الكتاب أكثر من ربع مليون نسخة في المملكة المتَّحدة والولايات

المتحدة، وكان الكتاب يتحرّقون شوقاً لتحويله إلى وسائط أخرى. تمّت مراسلات بين أورويل والسيناريسست والكاتب المسرحي سيدني شيلدون الحائز على جائزة الأوسكار بخصوص كتابة نسخة مسرحية (لم تكتمل أبداً) كان من شأنها أن تمنح النص ميلاً مناهضاً للفاشية. قدّم مارتن إيسلين، زميل أورويل السابق، معالجة للرواية لصالح «بي بي سي»، بينما كتب ميلتون واين نسخة رصينة منها للعرض في برنامج «مسرح» «إن بي سي» على الهواء» أدّى فيها ديفيد نيثن دور ونستون سميث، وتخلّلتها استراحة أكاديمية قدّمها الروائي جيمس هيلتون: «بعد قراءة رواية 1984 للسيد أورويل، قد لا تشعر برغبة في مقابلة أيّ من شخصياتها، لكنك قد تشعر برغبة في مقابلة السيد أورويل، ولو لمجادلته فحسب».

ربّما كانت حُمّى الرغبة في تقديم معالجات مختلفة له ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» قد نشأت من افتراض أن هذا الكتاب كتابٌ وفتيّ فحسب، وليس كتاباً سيفيش لأجيال طويلة. في ملحق مراجعة الكتب في صحيفة «نيويورك تايمز»، اقترح مارك شورر أن عبقرية الكتاب المتّقدة «قد تعني أن عظمتة لحظية فحسب، وأن تأثيره سيشملنا وحدنا، في الوقت الحالي، في هذا الجيل، وهذا العقد، وهذا العام، وأنه محكومٌ عليه بأن يصير عبداً للتاريخ». مرّة أخرى، ربّما لا.

\*\*\*

بعد زيارته إلى مصحّة كارنام في 15 يونيو، كتب واربورج تقريراً مؤلّماً عن حالة أورويل «الصادمة». رأى واربورج أنه إذا لم

يتعاف في نفس الوقت من العام المقبل، فلن يتعافى أبدًا، ولكن  
تفاؤل أورويل كان معديًا.

في يوليو، طلب أورويل يد سونيا للزواج بطريقته الخجولة  
المعهودة. وبخلاف سيليا باجيت وآن بويام، وافقت سونيا. وجد  
بعض أصدقائه الفكرة مروعة. قال ديفيد أستور: «لم يكن أورويل  
مناسبًا للزواج بأي امرأة. كان بالكاد على قيد الحياة». رأى  
موجريدج أن فكرة الزواج «مرعبة بعض الشيء وغير مفهومة»،  
لكن أورويل كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن هذا سيمنحه سببًا ليعيش  
من أجله. أو كما يقول ونستون عن جوليا: «بدا أن جسدها يصبُّ  
بعضًا من شبابه وحيويته في جسدي».

لم ير أحد أن سونيا أحبته حقًا. قال بعض الذين عرفوها  
إنها كانت امرأة أنانية وقاسية تزوجته من أجل المال والسمعة  
لأن مجلة «هورايزون» كانت في آخر أيامها، ولأنها كانت ستفقد  
وظيفتها قريبًا. رأى البعض الآخر أن زواجها به كان تضحية  
نبيلة بالنفس بدافع الشفقة والاحترام. «قال إنه سوف يتحسن  
إذا قبلت الزواج به. لذا لم يكن أمامي خيار كما ترين»، هكذا  
قالت لهيلاري سبيرلينج بعد عشرين سنة. من المحتمل أن تكون  
دوافع أورويل وسونيا متداخلة: كان يحتاج إليها، وكانت تحتاج إلى  
احتياج شخص إليها. قبل سنوات عديدة، في أثناء كتابته عن  
حياة توماس كارليل العاطفية، تأمل أورويل في «الأنانية المدهشة  
التي ينطوي عليها الحب الصادق».

في الثاني من سبتمبر، انتقل أورويل من مصحة كرانام إلى  
غرفة خاصة في مستشفى كلية لندن الجامعية. شك الأصدقاء



في أنه سيفادر تلك الغرفة حيًا. من المحتمل جدًا أن أوان شفائه كان قد فات بالفعل عندما تزوج في 13 أكتوبر بسونيا في غرفته بالمستشفى، أمام ستة ضيوف فقط. ذكر مظهره صديقه أستور بفاندي: «كان جلدًا على عظم». أقيمت مأدبة غداء الزفاف في فندق ريتز من دون العريس.

نشط الزواج صحّة ومزاج أورويل -قال إنه يفكر في تأليف خمسة كتب أخرى ولا يمكن أن يموت حتّى يكتبها- لكن الأمر لم يستمر لفترة طويلة. بالنسبة إلى الأصدقاء الكثر الذين زاروه في أواخر العام، بما فيهم سيمونز وسبندر وفايقل وبوتس، كان من المحتمل أن يكون كل لقاء معهم هو الأخير. كان لا يزال يستمتع بالحديث عن الكتب والسياسة، لكنه كان يحن بشكل متزايد إلى الماضي، ويسترجع كثيرًا ذكريات إيتون وبورما وإسبانيا والحرس الوطني بطريقة لم يألفها أصدقاؤه منه من قبل. عندما أتى موجريدج لزيارته في يوم الكريسماس، لم ير في وجه أورويل إحساسًا بالتقبّل أو السلام: «كان في ملامح وجهه نوعًا من الغضب، كما لو أن اقتراب الموت يجعله حصبًا».

كانت خطة سونيا هي تولّي مراسلات أورويل وأمور العمل، واستضافة أصدقائه، والاعتناء به وهو يكتب؛ لكن حالته استدعت حدوث تغيير جذري في المشهد، لذا خطط الزوجان للانتقال إلى منتجع مونتانا فيرمالا في جبال الألب السويسرية. حُجزت له طائرة إسعاف في 25 يناير 1950، وانضم إليه الرّسام لوسيان فرويد، صديق سونيا المقرب، للعمل على ترميمه. قبل سبعة أيّام من الرحلة، راجع أورويل وصيته، جاعلاً سونيا وارثته

الوحيدة، ورئيس الوصي على تركته الأدبية. لم يكن يملك أدنى فكرة عن إلى أي مدى سيكون صعباً على زوجته أن تكون «أرملة رجل أدبي»، كما أخبر آن بوبام.

طلب أورويل جلب صنارة الصيد الخاصة به معه، أملاً في أن يخرج لصيد السمك في بحيرات جبال الألب. كانت الصنارة تستند إلى ركن غرفته في الساعات الأولى من يوم 21 يناير، عندما انفجر وعاء دموي في رثته، وسرعان ما نزف حتى الموت.

\*\*\*

كان جورج وودكوك يحضر حفلة في فانكوفر عندما أخبره ضيف آخر بأن خبر وفاة أورويل أُذيع منذ لحظات في الراديو. يتذكّر وودكوك: «حلّ الصَّمْتُ على الغرفة، وأدركت أن هذا الرجل اللطيف المتواضع الغاضب قد صار بالفعل شخصية أسطورية عالمية».

كان لأورويل أصدقاء ومحبون فصحاء، وكان لعباراتهم الرنانة تأثيرٌ هائلٌ وفوريٌّ على سمعته بعد وفاته، خاصة على آذان القراء الذين عرفوه فقط من روايتيه الأخيرتين.

في مجلة «ذا نيو ستيتسمان»، كتب الناقد وكاتب القصّة القصيرة في إس بريشت مبلوراً صفات أورويل في بضع مئات من الكلمات: نزاهته، واستقلاله، وغرابة أطواره، وتمردّه، وتقشُّفه، وخطاياها، و «أسلوبه الأدبي الرشيق الواضح». كان «ضمير جيله اليقظ... وكان أشبه بقديس». في «ذا أوبزرفر»، زعم كويستلر أن «عظمة ومأساة أورويل تمثّلت في رفضه التام للمساومة»، وادّعى أنه كان يُوجد «توافق استثنائي بين الرجل وأعماله». بقراءة

الأنعية، لاحظ موجريدج «كيف تُنشأ أسطورة واحد من البشر». ولدت أسطورة القديس المتمرد الذي لم يستطع أن يكذب، وكذلك ولدت مغالطة أن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت عواء احتضار. لم تذكر أي من المراجعات السابقة حالة أورويل الصحيّة، لكن حقيقة وفاته صبغت عمله الأخير إلى الأبد. شكرت سونيا كويستلر على نعيه لأن «كل الآخرين -وأولهم بريتشيت- كتبوا كلامًا فارغًا كثيبًا تمامًا».

كان حزن سونيا قاسيًا ومتفجّرًا إلى درجة أنه أقنع المشكّكين فيها أنفسهم. وفقًا لاناتاشا زوجة ستيفن سبندر فإنها «أقنعت نفسها بأنها أحبّت عقله بسبب كتاباته، لكنها اكتشفت أنها أحبّته هو حقًا». وافقها ستيفن: «لقد ألقيت باللوم على نفسها وظنّنت أنها أخطأت فيما فعلت، وبالتالي تولّت الدفاع عن قضية جورج أورويل لبقية حياتها، ولم تتعاف من هذا أبدًا».

رتّب موجريدج الجنازة في كنيسة المسيح في شارع ألباني هي كامدن، حيث جاء المشيّعون من كل أركان حياة أورويل غريبة التفاوت: من إيتون، وإسبانيا، وحزب العمل، وهيئة الإذاعة البريطانية، والحرس الوطني، ومجلّة «تريبب يون»، ولندن الأدبية، والشتات الأوروبي، وشوارع إيزلنجتون، ودوائر زوجتيه الاجتماعية. على الرغم من كونه ملحدًا، كان أورويل تقليديًا بما فيه الكفاية ليرغب في الدفن في فناء كنيسة ريفي، واستخدم ديفيد أستور نفوذه للمرّة الأخيرة لتأمين قطعة أرض له في كاتدرائية جميع القديسين في سوتون كورتني، في بيركشاير. فقط هو وسونيا كانا حاضرين عندما أنزل جسد أورويل إلى الأرض ليتمدّد تحت

شاهد قبرٍ نمطي معتاد، يحمل اسمه وتاريخي الميلاد والوفاة  
فحسب. كان الاسم لا يزال إيريك آرثر بلير؛ لم يتسنَّ له تغييره  
قط.

لم يعيش أورويل بعد ظهور روايته الأخيرة إلى النور سوى 227  
يومًا فقط.

مكتبة  
[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

## الجزء الثاني

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» والحرب الباردة

«لو كان هذا ما سيؤول إليه العالم، ربّما من الأفضل أن نضع رؤوسنا في أفران الغاز الآن».

شكوى مشاهد لـ«بي بي سي»، ديسمبر 1954.

كانت ليلة 12 ديسمبر من عام 1954 ليلة سيئة لجورج أورويل، الموظّف في شركة شحن من جنوب لندن. في الثامنة والنصف مساءً، وبعد برنامج المسابقات الشهير «واتس ماي لاين؟»، جلس أكثر من سبعة ملايين بريطاني لمشاهدة معالجة «بي بي سي» لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» التي بطول ساعتين. كان هذا أكبر جمهور تليفزيوني منذ تتويج الملكة إليزابيث الثانية في يونيو الماضي. في الواقع، قال الأمير فيليب لاحقًا أنه والملكة شاهدا الحلقة وأعجبا بـ«الإنتاج والرسالة». باثتين وعشرين ممثّلًا، وثمانية وعشرين موقع تصوير، ولقطات مبتكرة مصوّرة مسبقًا، كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أكثر حلقة تليفزيونية بريطانية طموحة وأكثرها تكلفة حتّى ذلك التاريخ. كانت أيضًا، على حدّ تعبير صحيفة «ذا نيويورك تايمز»: «محلّ الجدل الأكثر حدّة في سجلّات التليفزيون البريطاني». ونتيجة لذلك، أمضى الشخص الوحيد الذي يحمل اسم جورج أورويل في دليل الهاتف ليلته في الردّ على مكالمات من مشاهدين غاضبين من هذه

«التمثيلية الكريهة». طلبت زوجته إليزابيث من جريدة «ذا ديلي ميرور» تصحيح الأمور: «من فضلكم أخبروا الناس بأن زوجي لم يكتب ذلك الفيلم التلفزيوني».

كان كاتب السيناريو نايجل نيل والمخرج رودولف كارتييه قد سبق لهما التعاون في فيلم الرعب الخيال العلمي «تجربة كواترماس»، وقد أتت نسختهم الذكية الوثائق من رواية أورويل، التي لعب بطولتها بيتر كوشينج في دور ونستون سميث، أكثر ضغطاً على الأعصاب، بجوِّها المرعب المخيف ونهايتها المروعة داخل وزارة الحب. رأى كارتييه أن الجمع بين العرض التلفزيوني وفكرة شاشات الرصد جعلها فريدة من نوعها، وعلّق قائلاً على المشاهدين الذين شاهدوا الأخ الأكبر: «حدّقت عينان باردتان من الشاشة الصغيرة في المشاهد مباشرةً، وألقت في قلبه نفس الخوف الذي كانت شخصيات الفيلم تشعر به كلّما سمعت صوت الأخ الأكبر يخرج من شاشات الرصد الخاصة بهم».

اشتكى مئات المشاهدين لـ«بي بي سي» وللجرائد من كمّ العنف والجنس في المعالجة التلفزيونية. «كانت بغيضة جداً إلى درجة أنني شعرت برغبة في تحطيم التلفاز بمطرقة»، هكذا احتدّ أحدهم. وادّعى آخر: «لم يسبق أن ظهر على شاشة التلفاز عملٌ يمثل هذه الحقارة والتقزير، أو على أيّ شاشة أخرى». اتَّفَق بعض نقّاد الصحف مع تلك الآراء، ووصفوا العمل بأنه «قصّة غثّة لا تحمل أيّ أمل في المستقبل» و«صورة لعالم لا أريد رؤيته مرّةً أخرى». عنونت صحيفة «ديلي إكسبريس» تغطيتها بـ«مليون كابوس». أيضاً أدت خطّة إذاعة عرضٍ ثانٍ يوم

الخميس التالي إلى استمرار الجدل. عيّنت «بي بي سي» حارسًا شخصيًا لكارتييه بعد أن تلقى تهديدًا بالقتل، بينما فصل كوشينج هاتفه لتجنّب المكالمات المسيئة. في برنامج الشؤون الجارية «بانوراما»، تجادل مالكوم موجريدج مع عضو مجلس محلي من تونبريدج ويلز، ادّعى أن مثل هذه الأعمال ستؤدي إلى موجة من الجرائم. عندما وصلت حالة الجدل إلى البرلمان يوم الأربعاء، قدّمت مجموعة من أعضاء البرلمان المحافظين -مستفيدة من الذعر الأخلاقي الحالي بشأن كتب الرعب المصورة- اقتراحًا يدين ميل «بي بي سي» إلى «إرضاء الأذواق الجنسية والسادية»، بينما عارضت مجموعة أخرى وقالت إن العمل هُدم نظرة متعمّقة مهمة في الأساليب الشمولية.

جعل العرض التليفزيوني كلاً من الرواية والمؤلف مشهورين على صعيد وطني. طوال معظم ذلك العام، باعت دار «سيكر وأند واربورج» للنشر 150 نسخة بغلاف مقوّى في الأسبوع. في الأسبوع الذي تلى العرض، قفز الرقم إلى ألف، بينما باعت طبعة «بنجوين» الورقية الجديدة ثمانية عشر ألف نسخة. صارت القصة فجأة معروفة جيّدًا إلى درجة أن الكوميديانات في «ذا جوون شو» صنعوا محاكاة ساخرة تسمّى «ألف وتسعمئة وخمسة وثمانون»، أدّى فيها هاري سيكومب دور ونستون سيجون الذي يكدح في شركة الأخ الأكبر، أي «بي بي سي». أعلن سيكومب لاحقًا من صوت المذيع: «أيّها المستمعون! احذروا! هذا البرنامج لا ينبغي الاستماع إليه!». ربّما كان أورويل كان سيمنّ للسخرية من بيروقراطية مكان عمله السابق المثيرة للجنون ووجباته الرديئة.



خرج العديد من المشاهدين بعد فيلم «بي بي سي» التلفزيوني بانطباع مشوّع عن أعمال أورويل، ما دفع أحد النقاد إلى توقّع أنه «ربما سيكتسب سمعة غير مستحقة كأوّل من جيلٍ جديدٍ من دعاة الرعب الأدبيين». لكن كما قال كارتية لصحيفة «إكسبرس»: «إذا افترضنا أن شخصاً كتب رواية في عام 1910 وأطلق عليها اسم "1954" وتنبأ بوجود الحكومات الشمولية، و"غسل الدماغ"، ومعسكرات الإبادة، والعمل الاسترقاقي، وأهوال القنابل الذرية والهيدروجينية، لربّما اتُّهم بالمبالغة الجامحة والتفكير الملتوي المريض».<sup>(46)</sup>

عزّز الفيلم الأهميّة السياسية للرواية. بدأت صحيفة «إكسبرس» نشر نسخة مختصرة مسلسلة منها، بينما أشادت صحيفة «ذا ديلي ميل» بكشفها عن «وحشية الشيوعية». امتزج التصفيق من اليمين بالصراخ من اليسار، الذي بدأ بعضه مبكراً على نحوٍ مريب. قال مصدر في «بي بي سي» للصحافة إنهم بدؤوا يتلقّون مكالماتٍ هاتفية بعد دقائق فقط من العرض، مشيراً إلى أنها «ربّما نجمت عن التحيّز السياسي». تحوّلت صفحة المراسلات في جريدة «ذا مانشستر جاردين» إلى معركة جارية بين مُحبّي أورويل والمتشدّد في الحزب الشيوعي البريطاني، آر بالم دوت. زعم دوت أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت «أحط أنواع البروباجندا المبتذلة المناهضة للاشتراكية، كتبها رجل شرطة استعماري سابق من إيتون»، وتلذّذ بالرد بعنف: «لقد حاولت السلطة إطعام أورويل

46- \* دخل مصطلح غسل الدماغ Brainwashing القاموس في عام 1950 بسبب الحرب الكورية، وطُبّق بأثر رجعي على تحوّل ونستون النفاثي في الرواية. (المؤلف).

قسراً للجمهور، فلفظه الجمهور». اختلف معه مرسلو الخطابات في الأسبوع التالي بالإجماع، واقترح أحدهم أن تأثير العمل تأكد من خلال «رسالة غسل أدمغة نموذجية كتبها «الأخ الأكبر» البريطاني نفسه، السيد آر بالم دوت».

عبّر هذا التناقض بإيجاز عن مصير رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» خلال عقد الحرب الكورية والمجر وماو تسي تونج ومكارثي. في مثل هذا السياق المحموم، كافح الاشتراكيون والليبراليون للدفاع عن نيات أورويل الأكثر تعقيداً، بينما هلل اليمين للرواية واستنكرها اليسار المتشدد واصفاً إيّاها بأنها دعاية للحرب الباردة. في نظر المؤرخ الماركسي آيزك دويتشر، تحولت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إلى «سلاح أيديولوجي خارق»، سواء أحب أورويل ذلك أم لا.

\*\*\*

وصفت جريدة «لندن تايمز» التأثير الثقافي لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» قبل معالجة «بي بي سي» التليفزيونية بأنه «هامشي». قد يكون هذا صحيحاً عند مقارنته بسبعة ملايين مشاهد، لكن الكتاب كان كاسح النجاح بالفعل بأيّ معيار آخر. باعت طبعة «سيكر آند واربورج» ذات الغلاف المقوى 50 ألف نسخة في أوّل عامين لها، وسرعان ما هُزمت طبعة «بنجوين» ورقية الغلاف هذا الرقم. في الولايات المتحدة، ظلّت الرواية على قائمة أفضل الكتب مبيعاً لـ «نيويورك تايمز» لمدة عشرين أسبوعاً، وباعت 170 ألف نسخة من الغلاف المقوى، و190 ألفاً أخرى من طبعة «نادي كتاب الشهر»، و596 ألف نسخة من طبعة

«كتب ريدرز دايجست الموجزة»، ومليون و120 ألف نسخة من طبعة «المكتبة الأمريكية الجديدة». ليس هذا نجاحًا هامشيًا بأيّ حال.

كان أحد مفاتيح شعبية الرواية هو براءة أورويل في ابتكار التعابير المستحدثة اللاذعة. كتب أورويل في عام 1942 أن «كيبلينج هو الكاتب الإنجليزي الوحيد في عصرنا الذي أضاف عبارات إلى اللغة الإنجليزية»، لكن الآن كان من الممكن أن يضيف نفسه. يحبُّ الصحفيون إيجاد كلمات جديدة للهوبها، خاصة تلك التي تبسط الظواهر المعقدة. أو كما كتب نايجل نيل في «راديو تايمز»: «بعض المصطلحات التي صاغها أورويل -مثل جريمة التفكير، والتفكير المزدوج، والتلاشي، وجريمة الوجه، واللغة الجديدة، وغيرها- انتقلت إلى اللغة المستخدمة في الخمسينيات بغرض التحذير».

وفقًا لقاموس أوكسفورد الإنجليزي، ظهر مصطلح «اللغة الجديدة» لأول مرة بشكل مستقل عن الرواية في عام 1950، ومصطلحا «الأخ الأكبر» و «التفكير المزدوج» في عام 1953، و «جريمة التفكير» و «التلاشي» في عام 1954. وفي عام 1950، صاغت ماري مكارثي لفظة «أورويلي» -لك أن تتخيل- في مقال عن مجلّات الأزياء.<sup>(47)</sup> في عام 1950، اتّهم وزير الخزانة هيو جيتسكيل معارضة حزب المحافظين بـ «ما سمّاه الراحل جورج أورويل في كتابه الذي ربّما قرأه أو لم يقرأه الأعضاء المحترمون،

47- «تُعتبر مجلّة "فيلير" فقرة إلى المستقبل الأوروبي: إنها مجلّة بلا مُناقضة أو وجهة نظر تتعدّى إعلانها عن نفسها». (المؤلف).

بازدواجية المعنى». في الواقع، لم يظهر هذا المصطلح في الرواية، لكنه دخل منذ ذلك الحين قاموس مفردات السياسة. أعلن ونستون تشرشل نفسه أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» «كتابٌ رائع جدًا».

أثبتت شخصية «الأخ الأكبر» شعبيتها بشكل خاص. خلال حقبة الخمسينيات، طُبِّق الاسم في البرلمان على أهداف متنوعة مثل حكومة المحافظين، واليسار العمالي، والرئيس أيزنهاور، واللورد بيفربروك، وماو تسي تونغ، والخلافة العُمانية، ومجلس اللوردات، والقيادات النقابية، ومجلس الفحم، ومكتب البريد. لم يفهم الجميع الإحالة. عندما اعترض أحد أعضاء البرلمان -خلال نقاش في عام 1956 حول سياسة الوقود- على وصفه بالأخ الأكبر، لم يرتبك المتحدث باسم مجلس العموم: «ظننت أنه مصطلح يعبر عن المودة».<sup>(48)</sup>

الاقتباس من أورويل يعني أن تُسلم -سواء أكان ذلك مستحقاً أم لا- ولو بجزء من سمعته الأخلاقية. الكاتب الذي لم يرق للدخول في منشورات «هو إيز هو»<sup>(49)</sup> السنوية حتى عام وفاته، وفاز بجائزة واحدة فقط (جائزة أدبية بقيمة ألف دولار من مجلة «بارتيزان ريثيو»)، سرعان ما أصبح مرادفاً للأمانة والكياسة. كلما أُعيد

48- \* من دون منازع، كان أكثر قول لأورويل اقتبس وأُسيء اقتباسه في البرلمان هو: «جميع الحيوانات متساوية، لكن بعضها أكثر مساواة من غيرها». أيضاً بعض الإحالات كانت أدق من غيرها. أشار اللورد بلفور من إنشري إلى «الكتاب الذي كتبه الراحل السيد جورج أورويل بعنوان "1980"». (المؤلف).

49- «Who's who»: دورية تُنشر سنوياً منذ عام 1849، وتُعدُّ مصدرًا للسير الذاتية لأكثر من 33 ألف شخص مؤثر في الحياة البريطانية من جميع أنحاء العالم. (المترجم).

نشر أحد كتبه، يعترف النقاد بمحدوديته كروائي وناقد ومفكر سياسي، لكنهم يصفوه بأنه عبقرى أخلاقى، خرج من زمنٍ قذرٍ بيدين نظيفتين. «كان شخص أورويل هو ما يتظاهر مئات غيره بأن يكونوه. كان غير طبقى بالفعل، واشتراكياً حقيقياً، وصادقاً حقاً»، هكذا زعم ستيفن سبندر فى عددٍ خاص من مجلة «وورلد ريفيو». فى مقدّمته المؤثرة للطبعة الأمريكية من كتاب «الحنين إلى كئالونيا» عام 1952، رَسَخ ليونيل تريلينج أورويل فى أذهان العديد من القراء الأمريكيين كنموذج يحتذى به مثل مارك توين ووالث وبتمان وهنرى ديفيد ثورو: «الرجل الذى يقول الحقيقة». بوجه خاص، كان هناك شعور بأنه قال الحقيقة عن الشمولية. لم يكن أورويل عالماً سياسياً. وبغض النظر عن الأيام القليلة التى قضاه فى برشلونة تحت سيطرة الشيوعية، لم يختبر النظام الشمولى بشكل مباشر. كان مجرد صحفى يقرأ كثيراً. لذا فمن اللافت للنظر أن الثوب النظرى التى رتّقه من ذكريات وسير ذاتية ومقالات وروايات وتقارير، أكّده بصورة عامّة دراسات صارمة مثل «الديكتاتورية الشمولية والأوتوقراطية» لكارل جيه فريدريك وزيجنيو بريزينكسي، و«أصول الشمولية» لهانا آرنت. على الرغم من أن آرنت كانت أكثر دراية بألمانيا وأن أورويل كان أكثر اهتماماً بروسيا، فقد توصّلا إلى استنتاجات عديدة مماثلة: أن الشمولية هى نقطة تقاطع غير مسبقة بين الأيديولوجيا والبيروقراطية والتكنولوجيا والإرهاب. جادلت آرنت بأن الشمولية تهدف إلى تحقيق الفانتازيا، وأن الفجوة بين الأسطورة والواقع لا يمكن سدّها إلا عن طريق الخداع المستمر والقسوة غير المسبوقة.

وتحديدًا في سبيل هذه الغاية الفائقة، وفي سبيل تحقيق الاتساق الكامل، من الضروري أن تدمر الشمولية كل أثر لما نسميه عادةً بالكرامة الإنسانية، وبناءً عليه، فإن ما تهدف إليه الأيديولوجيات الشمولية ليس تغيير العالم الخارجي أو التغيير الثوري للمجتمع، ولكن تغيير الطبيعة البشرية نفسها.

ردّد هذا صدى أسوأ مخاوف أورويل، تلك التي عبّر عنها منذ عام 1939: «في الماضي، أُطيح بكل طغيان في نهاية المطاف، أو على الأقل تعرّض للمقاومة، بسبب "الطبيعة البشرية"... لكن لا يمكننا أن نكون متأكدين على الإطلاق من أن "الطبيعة البشرية" ثابتة لن تتغيّر». حظي الكتابان بنفس المحرّر الأمريكي، روبرت جيرو، وقد تشابكا منذ ذلك الحين. أما الكتاب المصاحب الآخر فكان «الإله الذي فشل»، وهو مختارات نائب حزب العمل ريتشارد كروسمان عام 1949 لمقالات التحرّر من الوهم الشيوعي، للشيوعيين السابقين آرثر كويستلر وستيفن سبندر وإينياتسيو سيلون وريتشارد رايت وأندريه جيد ولويس فيشر. استقطب الكتاب كثيرًا من قراء «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، وتضمّن بعض الملاحظات المماثلة. كتب سبندر -الذي أشار صراحةً إلى التفكير المزدوج في مقاله- أن الشيوعيين «شوّهوا معنى الصفات دون أدنى إدراك منهم أن إساءة استخدام الكلمات ينتج عنها التباس كبير. السلام في لغتهم يمكن أن يعني الحرب، والوحدة القومية يمكن أن تعني الخيانة من الداخل، والفاشية يمكن أن

تعني الاشتراكية». ومع ذلك، كان أورويل يعرف أنهم كانوا يدركون ما يفعلونه بالضبط.

فرق آخر جوهري بين أورويل ومجموعة مقالات كتاب «الإله الذي فشل»، وهو الفرق الذي منحه سلطة أخلاقية استثنائية، هي أنه لم ينخدع أبداً. في الواقع، رفض بعض معجبيه قبول أنه انتمى إلى اليسار في يوم من الأيام. عندما كتب أورويل أن «ديكنز هو أحد الكُتّاب الجديرين بالسرقه. لقد سرقه الماركسيون والكاثوليك وقبل كل شيء المحافظون»، كان يبصر مصيره الخاص عن غير قصد. زعم كلٌّ من كريستوفر هوليس الكاثوليك المحافظ، ودعاة الحرية اليمينيون في صحيفة «فريمان»، أن أورويل في صفّه؛ بينما ادّعى النائب المحافظ تشارلز كوران (الصحفي السابق في جريدة «إيفنينج ستاندارد» الذي تسبب في تفاقم حالة أورويل في كرانام) ادّعاءً سخيّاً بأن تأثير الرواية على البريطانيين عامّة «ربّما كان له علاقة أكثر من أيّ عاملٍ آخر بهزيمة الاشتراكيين في الانتخابات العامّة عام 1951». يستطيع المرء تخيّل ردّة فعل أورويل على هذا الادّعاء. في هذه الأثناء، ومن أقصى اليسار، اختتم مؤرّخ الحزب الشيوعي إيه إل مورتون تأريخه للأدب اليوتوبي، كتاب «اليوتوبيا الإنجليزية»، بانهام أورويل بكتابة تشهير مغرض عن الاشتراكية: «لم يُكتب مثل هذا الافتراء الشنيع من قبل، ولم تُوجد أداة بمثل هذه القذارة: إن «1984» -بالنسبة إلى هذا البلد على الأقل- هي الكلمة الأخيرة حتّى الآن في الأفكار المضادة للثورة». تبع مورتون هذه الإدانة بإشادة كبيرة على «تحقيق اليوتوبيا» على يد

ستالين. وفي حاشية محدّدة بالمثل اتّهم جيمس والش في مجلّة «ذا ماركسيست كوارترلي» أورويل بالركض «صارخاً إلى أحضان الناشرين الرأسماليين بكتابين هزليين مرعبين جلبا إليه الشهرة والثروة». تشارك والش ومورتون في نبرة الاشتمّزاز المتزمّنة التي كان أورويل قد حدّدها في عام 1944 على أنها نبرة «الإنجليزية الماركسية، أو إنجليزية المنشورات»، وسخر منها في رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بشخصية المتعصّب في ركن الخطباء الذي يندّد بالسياسيين العمّاليين ويصفهم بأنهم أتباع وضباع. لم يكن أورويل ليتفاجأ بمثل هذا التشويه.

بجانب هذه الاتّهامات التي ترغي وتزيد، كان مقال عام 1955 «تصوّف القسوة» لأيزك دويتشر بمنزلة اغتيال أنيق لأورويل، وأضفي إنصافاً لامعاً زائفاً على سلسلة من المزاعم المهزوزة تماماً. اتّهم دويتشر أورويل ظلماً بالسرقّة الأدبية من زامياتن وتروتسكي، ورفض الاشتراكية. وعلى أساس لقائهما في ألمانيا عام 1945، اتّهمه بأنه مريض بالبارانويا وبأن رؤيته للعالم عبارة عن «تسام فرويدي لجنون الاضطهاد». وفي النهاية اتّهم دويتشر أورويل بكتابة ميلودراما صارخة حثّت على الذعر والكرهية والغضب واليأس:

ليست «1984» في الواقع تحذيراً بقدر ما هي صرخة تصمّ الآذان تعلن قدوم الألفية السوداء، ألفية العذاب... لقد علّمت «1984» الملايين أن ينظروا إلى الصراع بين الشرق والغرب من منظور الأسود والأبيض، وقد أرتهم وحشاً مخيفاً وكبش فداءٍ مشوّهاً لكل العلل التي تصيب البشرية.



كان هناك بالفعل جهود متضافرة لجعل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كتابًا عن روسيا وحدها، وبالتحديد في دولة ألمانيا الغربية الوليدة. في مراجعته، جادل جولو مان بأن الألمان «ربما أكثر من أيّ دولة أخرى، يستشعرون ثقل احتمالية تحقُّق يوتوبيا أورويل». لكن بحلول عام 1949، طغت معاداة الشيوعية على اجتثاث النازية كسياسة رسمية، وتلاقت مع توق الألمان لنسيان الماضي القريب. جُسّد هذا في مجلة «دير مونات»، وهي مجلة شعبية جديدة تموّلها الولايات المتّحدة كانت موضع تقدير أورويل باعتبارها قديسة مناهضة للاستالينية، بنشرها كلٍّ من «مزرعة الحيوان» و «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» سلسلة على صفحاتها. استبعد القراء الألمان ذهنيًا النازية من الرواية ووجّهوا أنظارهم نحو الشرق. ولكن ذلك لم يكن يعني أن المسؤولين والمثقفين وراء الستار الحديدي اختلفوا. وفقًا للكاتب البولندي تشيسلاف ميلوش فإنه «نظرًا لصعوبة الحصول على الرواية وخطورة حيازتها، لم تكن معروفة إلا لبعض أعضاء الحزب الداخلي... لقد ذُهلوا من حقيقة وجود كُتاب غربيين يفهمون طريقة عمل الآلة استثنائية الصنع الذين هم أنفسهم جزء منها». عندما حكم قاضٍ من ألمانيا الشرقية في عام 1958 على مراهقٍ بالسجن ثلاث سنوات لقراءته الكتاب ومناقشته، وصّف أورويل بأنه «أكثر كاتب مكروه في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية».

\*\*\*

خلال الحرب، روّجت حكومتا المملكة المتّحدة والولايات المتّحدة ستالين على أنه «العمّ جو» و «حليفنا الشجاع». في عام

1943، خُصِّصَت مَجَلَّةُ «لايف» عددًا كاملاً لروسيا شجعت فيه القراء على «التسامح مع بعض أوجه القصور، مهما كانت مؤسفة»، بينما جُمِلَت شركة «وارنر براذرز» صورة فيلم «ستالين في مهمة إلى موسكو»، وهو فيلم دعائي هاجمه أورويل بسبب تشويبه للتاريخ. أورويل نفسه أُجبر على الاحتفال بالبراعة العسكرية الروسية في نشراته الإخبارية في هيئة الإذاعة البريطانية. الآن، مع بزوغ فجر الحرب الباردة، كان الغرب حريصًا تمامًا على تفكيك تلك الصورة البطولية. «إن أوقيانيا في حالة حرب مع أوراسيا: لطالما كانت أوقيانيا في حالة حرب مع أوراسيا».

في فبراير عام 1948، شكّل وزير الخارجية البريطاني إرنست بيثفين «إدارة أبحاث المعلومات»، التي أطلق عليها المؤرّخ فرانسيس ستونور سوندرز اسم «وزارة الحرب الباردة السريّة». على الرغم من أن أساليبها قد تدهورت تدريجيًا إلى أن صارت حيلاً قذرة خلال حقبة الخمسينيات، كانت أولوية «إدارة أبحاث المعلومات» هي مواجهة البروباجندا السوفيتية بالتقارير والمقالات التي شجّعت الوزارة سرًا المفكرين الودودين على تمريرها عن طريق عملهم. كما رُوِّجت للترجمات الأوروبية لمجموعة من الكتب المعادية للسوفييت مثل «مزرعة الحيوان» و «الإله الذي فشل» و «ظُلْمة في كِبِد النهار». اثنان من مستشاري «إدارة أبحاث المعلومات» الأساسيين كانا من أصدقاء أورويل، وهما مالكولم موجريدج وأرثر كويستر.

عندما أمضى أورويل كريسماس عام 1945 مع كويستر، جلس الرجلان بجوار النار يصمّمان حركة سياسية لتشجيع

حقوق الإنسان وحرية التعبير. من خلال الأمم المتحدة المنشأة حديثاً، ستشجّع «رابطة حقوق الإنسان» هذه الحوار بين الشرق والغرب بمختلف الأشكال: السفر والإذاعة والكتب والصحف. كما كتب أورويل في مقاله «ملاحظات على القومية»: «يزداد عدم الاكتراث بالحقيقة الموضوعية عن طريق عزل جزء من العالم عن الآخر». كان يأمل أن يؤدي «نزع السلاح النفسي» هذا إلى ثقب تلك الفقاعة. فشلت خطتهما لأسباب مختلفة، ولكن في نظر كويستلر، الفكرة لم تمت.

في عام 1948، سافر كويستلر في جولة لإلقاء محاضرات في الولايات المتحدة نيابةً عن لجنة الإنقاذ الدولية، والتقى في جولته كل الأمريكيين المناهضين للشيوعية تقريباً ممن لهم أهمية: صقور التروتسكية السابقين جيمس بيرام وسيدني هوك وماكس إيستمان؛ والمثقفين الليبراليين أمثال دوايت ماكدونالد وماري مكارثي وليونيل تريلينج؛ ومؤسسي وكالة المخابرات المركزية. بصفته شخصاً أمضى ست سنوات في الثلاثينيات يعمل لدى ويلي مونزينبرج دعائي «الكومنترن»، كان كويستلر يعرف قواعد لعب العدو أفضل من أيٍّ منهم.

إن لفظة «كومنترن»<sup>(50)</sup> هي إحدى الأمثلة البدائية للغة الجديدة الواردة في ملحق رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «كلمة يمكن نطقها دون تفكير تقريباً». كان الكومنفورم (مكتب الإعلام الشيوعي) هو خليفة الكومنترن بعد الحرب بصفته منتدئ

---

50- «كومنترن» أو الشيوعية الدولية، وتُعرف أيضاً باسم «الأممية الثالثة»: منظمة دولية تدافع عن الشيوعية العالمية.

للأحزاب الشيوعية الأوروبية. في عام 1949، رعى الكومنفرم مؤتمرات الفنانين والعلماء والمفكرين في باريس ونيويورك للترويج لروسيا كقوة للسلام ولتصوير الأمريكيين على أنهم دعاة حرب إمبرياليون. بالتشاور مع كويستلر، وضعت وكالات الاستخبارات الأمريكية خطة لهجوم ثقافي مضاد: إذا زعم الروس أحقيتهم في السلام، فستكون الحرية من نصيب الغرب. في يونيو عام 1950، توافق مفكرون من جميع أنحاء الولايات المتحدة وأوروبا الغربية إلى برلين لحضور «المؤتمر الافتتاحي للحرية الثقافية»، برعاية سرية من وكالة المخابرات المركزية. شملت قائمة المدعوين الأصلية -التي أُعدت قبل أشهر- أورويل. بعد أربعة أيام من المناقشات وحفلات العشاء وحفلات الكوكتيل، اختتم المؤتمر بمسيرة حاشدة، قدّم خلالها كويستلر بياناً من أربع عشرة نقطة بناءً على الأفكار التي تناقش فيها مع أورويل في ويلز، واختتم المؤتمر بشعار حماسي: «يا أصدقائي، لقد أخذت الحرية زمام المبادرة!».

بدعم من وكالة المخابرات المركزية، أصبح «مجلس الحرية الثقافية» هيئة دائمة لها لجان وطنية تابعة. وعلى مدار الأعوام السبعة عشر التالية، أشرفت الهيئة على عديد من المؤتمرات والمهرجانات والحفلات الموسيقية والمعارض الفنية والندوات والمجالات في أكثر من ثلاثين دولة. اعتمد نجاح الهيئة على المجموعة غير الرسمية التي صنفها وزارة الخارجية بـ«اليسار غير الشيوعي»، على أساس أن الاشتراكيين والليبراليين يمكن أن يقوضوا هيبة الشيوعية بشكل أكثر فاعلية من أحد المتشددتين

مثل بيرنام. «لقد جلب "اليسار غير الشيوعي" مقدار الأمل المتاح إلى حياتنا السياسية اليوم»، هكذا كتب آرثر ماير شليزنجر في كتابه المنشور عام 1949، «المركز الحيوي»، الذي كان مانيفستو فعلياً للمجموعة. اقترح شليزنجر قائمة من «الأنبياء» تتضمن كوستلر وسيلون وجيد و «جورج أورويل، بحسّ السليم القوي، وكراهيته للرئاء».<sup>(51)</sup>

انتهى الأمر بمعظم الكُتّاب الذين صادقوا أورويل أو نشروا له أو حرّروا له أو تقابلوا معه أو نقدوه بشكل إيجابي خلال الأربعينيات بلعب دورٍ ما في هذا الصراع الثقافي الجديد. ظلت مجلّتا «تربيون» و «بارتيزان ريفيو» طافيتين في البحار الهائجة لاقتصاد ما بعد الحرب بتمويلٍ من «إدارة أبحاث المعلومات» ووكالة المخابرات المركزية على التوالي. ترأّس اللجنة البريطانية للحرية الثقافية مالكولم موجريدج وفريدريك واربورج وتوسكو فايشل: الرجال الثلاثة أنفسهم الذين التقوا سونيا بعد جنازة أورويل لمناقشة تركته الأدبية. عندما اشترك مجلس الحرية الثقافية عام 1953 في تمويل مجلّة جديدة تسمّى «إنكاونتر»، وهي المعادل الأنجلو أمريكي لمجلّة «دير مونات» الألمانية، كان ناشرها هو واربورج ومحرّرها البريطاني المشارك هو سبندر. أما

---

51- \* يجدر الاقتباس من مقدمة شليزنجر، لما يتردّد فيها من أصدااء قوية من كتابات إدوارد بلامي في ثمانينيات القرن التاسع عشر وأعمال إنش جي ويلز في القرن العشرين: «إن الرجل الغربي في منتصف القرن العشرين متوتّر ومتردّد وضال. نحن ننظر إلى عصرنا على أنه عصر الاضطرابات وزمن القلق. إن أسس حضارتنا وقيمتنا يتفكّكان تحت أقدامنا، وتتلاشى الأفكار والمؤسسات المألوفة عندما نبلغها مثلما تتلاشى الظلال في الفسق». ربّما كل جيل يخالجه نفس الشعور في وقتٍ ما. (المؤلف).

مجلة «تمبو بريزنتيه»، المعادل الإيطالي، فكان محررها المشارك هو سيلون. بينما كان رئيس تحرير صحيفة «كوادرنوس» الإسبانية عضواً سابقاً في حزب العمال الماركسي.

بعد أن اعتاد أعضاء «اليسار غير الشيوعي» على أن يكونوا منبذين، صاروا الآن محلّ طلبٍ ويسبحون في أموال الحكومة. قال عنهم كويستلر «تلك المجموعة من اليساريين المشرّدين الذين يسمّهم الاستالينيون تروتسكيين، ويسمّهم التروتسكيون إمبرياليين، ويسمّهم الإمبرياليون شيوعيين دمويين». علّم بعضهم بالأمر، ولم يعلم الآخرون، ورفض معظمهم التفكير فيه. عندما كشفت مجلة «رامبارتس» بشكل قاطع عن تمويل وكالة المخابرات المركزية السريّة عام 1967، ظل بعض المشاركين يؤكّدون أنهم لم يشكوا في شيء. اعترض دوايت ماكدونالد قائلاً: «لقد أصبحت متواطئاً في أعمال وكالة المخابرات المركزية القذرة عن غير قصد. لقد ضحكوا عليّ». يمكن للمرء أن يجادل بأنه ضحك على نفسه بعدم طرح الأسئلة.

هل كان أورويل، الفارس الغائب عن اليسار غير الشيوعي، سيُضحك عليه بدوره؟ أم أكان سيكون مشاركاً متحمّساً؟ لم يكن مولعاً بالمؤتمرات واللجان، ولكن لربّما ظهر اسمه على الرغم من ذلك على ترويسة مجلة «إنكاونتر». ومع ذلك، اعتقد الراديكالي الأيرلندي كونور كروز أوبراين أن أورويل كان سيثور ضد هذه العقيدة الجديدة المعادية للشيوعية، تماماً كما رفض كل الزُمر المهيمنة الأخرى. كتب أوبراين لصالح مجلس الحرية الثقافية -بعد إهشاءات مجلة «رامبارتس» - يقول: «من حسن

الحظ أن أورويل مات عندما مات. لو كان قد عاش، ربّما لم يكن من السهل أن يدّعي فصيل أحقيته فيه، لكن كان من الممكن أن تتّخذ بعض الطفيليات عائلاً وتستغلّ وجاهته لخدمة بعض الأنشطة المشبوهة».

تضمّنت تلك الأنشطة العبث بروايتيه العظيمتين.

\*\*\*

في ديسمبر عام 1951، وقّع الزوجان رسّاما الرسوم المتحرّكة چون هالاس وچوي باتششر عقداً مع المنتج لوي دو روشموننت لصنع النسخة الفيلمية من «مزرعة الحيوان». طمأن هالاس «ذا نيويورك تايمز» أن الفيلم «لن يحيد إلا قليلاً عمّا كتبه أورويل» و «سيحافظ على روح الكتاب». ما لم يعلمه الزوجان أن مصدر تمويل روشموننت الأساسي، والقوّة المحرّكة وراء الفيلم، كان «مكتب تنسيق السياسات» (أوه بي سي)، وهو إدارة في وكالة المخابرات المركزية مكرّسة للعمليات السريّة.

لم يعترض أورويل على مبدأ استخدام القصص لأغراض سياسية. عندما كان ناقداً، أوصى بأن يُروّج لكلّ من «الديكتاتور العظيم» و «استعد حريتك» على أنهما بروياجندا مناهضة للنازية. ولاحقاً، كان سعيداً جداً باستخدام «مزرعة الحيوان» في الترويج لمناهضة الاستالينية. كما تنازل عن حقوق ترجماتها في أوروبا الشرقية، ودفع من جيبه الخاص لإصدار طبعة باللفة الروسية، وكتب مقدمة الطبعة الأوكرانية في عام 1947 لتوزيعها على الاشتراكيين المناهضين للاستالينية الذين يعيشون في معسكرات النازحين في ألمانيا، على الرغم من أن معظم نسخ تلك الطبعة

اعترضها الجيش الأمريكي بناءً على طلب الروس. كان الدافع وراء إصدار تلك الطبعة هو الكاتب الأوكراني إيهور شيفتكو، الذي كتب ليخبر أورويل بأنه قرأ فقرات من الرواية على مسمع اللاجئين السوفيت ووجد أنهم تأثروا بشدة: «يبدو أن حالة الكتاب تتوافق مع حالتهم النفسية الراهنة».

لكن فكرة أن تعيد الوكالات الحكومية كتابة الكتب لأغراض الدعاية مسألة مختلفة. في كل مرة قدّمت فيها جوي باتشler مسوّد جديدة من سيناريو «مزرعة الحيوان»، طالب «المستثمرون» بإجراء تغييرات. ربما يمكن أن يكون لنابليون وسنوبول نفس شكل شعر وجهي ستالين وتروتسكي؟ هل يمكن التقليل من تفصيلة المزارعين لتركيز اللوم على الخنازير (ولتجنّب الإساءة إلى الصناعة الزراعية)؟ سنوبول عطوف جدًا: لِمَ لا نجعله «مفكرًا متطرّفًا»؟ وهلم جرا. أعريت إحدى المذكرات عن أسفٍ «لاستنتاج أورويل الواضح أن الشيوعية جيّدة في حد ذاتها، لكن ستالين وشركاه خانوها». رفض لوثار وولف -الذراع اليمنى للمنتج روشمونت- بعض الاقتراحات الأكثر سخافة، لكن المستثمرين كانوا متعنّتين، وغالبًا ما نفّذوا تعديلاتهم.<sup>(52)</sup> علاوة على ذلك، أدّت محدودية الميزانية إلى محو كثير من الشخصيات ونقاط الحبكة الجوهرية في حكاية أورويل الرمزية.

كانت مشكلة «مكتب تنسيق السياسات» الأكبر مع «مزرعة

---

52- \* كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ. اقترح سيناريست الفيلم الأوّل إدخال مشهد يرسل فيه نابليون خنزيرًا إلى المكسيك لاغتيال سنوبول، على أمل أن ينال إعجاب المشاهدين التروتسكيين. (المؤلف).



الحيوان» هي النهاية. من المعروف أن الخنازير والبشر شكّلوا علاقات ودّية متوتّرة حول طاولات البيرة وبطاقات اللعب، ولم تعد الحيوانات الأخرى قادرة على التمييز بين الثّوار والظالمين. لكن وفقاً لحسابات الحرب الباردة، فإن أيّ تركيز على غدر الديموقراطيات الرأسمالية لم يكن مفيداً. في الفيلم، رحل المزارعون وحفّز انحطاط الخنازير الحيوانات على القيام بثورة ثانية. يمكن القول إن أورويل ترك هذا الاحتمال مفتوحاً في الفقرة الأخيرة من الكتاب: لأوّل مرة، تدرك الحيوانات جيّداً أن الثورة خينت، لذا قد تفعل شيئاً حيال ذلك. لكن تكاتف الحيوانات الأخرى من المزارع المجاورة لسحق نابليون ورفاقه حتّى الموت جعل من نهاية أورويل الكثيبة مهزلة. بحلول الوقت الذي حلّت فيه صيغة الحرب الباردة الشكلية المتداولة محل تعليق باتشler الصوتي المدروس المشتق من أورويل، قطعاً كان هالاس وباتشler قد توصّلا إلى هوية المستثمرين المتدخلين.

ومع ذلك، عندما عُرض «مزرعة الحيوان» لأوّل مرة في نيويورك في 29 ديسمبر 1954، اتّضح أن كل الجهود المضنية التي بُذلت لضمان أن يُرسل الفيلم الرسالة الصحيحة التي وافقت عليها وكالة المخابرات المركزية لم تكن ذات نفع في مواجهة تحيّزات النّقاد الشخصية. لم تمنع كل هذه المحاولات أن يُفسّر بعض النّقاد الفيلم على أنه معادٍ للفاشية، أو مؤيّدٌ للشيوعية على نحوٍ هدام، أو أنه «هجاءٌ لاذع لدولة الرفاهية»، أو غير مُسيّس على نحوٍ أكثر من اللازم. بينما ادّعى ملف أورويل في مكتب التحقيقات الفيدرالي أن الفيلم «ربح اليناصيب»، لم يكن الجمهور

مهتمًا على أيّ حال. لقد فشل فيلم «مزرعة الحيوان»، ولم يصل إلى جمهور عريض إلا لاحقًا عندما بدأ يُعرض في المدارس. حكم ديفيد سيلفستر على الفيلم في مجلة «إنكاونتر» بأنه «إخفاق من النواحي الجمالية والخيالية والفكرية»، غير مدرك على ما يبدو أن كلاً من الفيلم والمجلة مدعومٌ من وكالة المخابرات المركزية. ربّما لم يُطرح الفيلم في التوقيت المناسب. لقد طُرح بعد أسابيع قليلة فحسب من معالجة «بي بي سي» له ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وما صاحبها من جدل: وهو الحديث الذي طُغى على فيلم «مزرعة الحيوان» في المقابلات الترويجية التي أجرتها سونيا مع الصحافة الأمريكية. سألت مجلة «تودايز سينما»: «هل أعجبك تأويلهم للرواية؟». ردّت سونيا قائلة: «يجب أن أكون مخلصمة لشجاعة «بي بي سي»، لكن كلا، لم تعجبني حقًا». في بريطانيا، حاول الاستوديو المنتج لـ «مزرعة الحيوان» استغلال نجاح معالجة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» التلفزيونية، من خلال الشعار الترويجي: «الخنزير الأكبر يراقبك».

بحلول ذلك الوقت، كان بيتر راثقون، الرئيس السابق لشركة «آر كي ه أو»، قد حصل على حقوق رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وعلى مئة ألف دولار من «وكالة المعلومات الأمريكية» للمساعدة في صنع «الفيلم المناهض للشيوعية الأكثر فتكًا على الإطلاق»، وذهب لطلب مشورة سول شتاين من لجنة «الحرية الثقافية الأمريكية» في أمر السيناريو، الذي حاول أن يفعل بهذه الرواية ما فعله «مكتب تنسيق السياسات» بـ «مزرعة الحيوان». اعترض شتاين بالمثل على استنتاج أورويل المتشائم: «أعتقد

أنا نتفق على أن هذا الوضع يمثل وضعًا بلا أمل، في حين أن هناك بعض الأمل في الواقع... لا يمكن أن تُغيّر الشمولية من الطبيعة البشرية، ويستطيع الحب والطبيعة النجاة حتى في ظل انتهاكات الأخ الأكبر المروعة». اقترح شتاين نهاية بديلة رقيقة بشكل شنيع يهرب فيها ونستون من مقهى شجرة الكستناء إلى القرية الذهبية، حيث يعيد اكتشاف إنسانيته التي لا تُقهر. لحسن الحظ، ألقى راثفون هذه الفكرة.

كان سيناريسست الفيلم المرشح للأوسكار وليم تمبلتون قد كتب من قبل معالجة لمسلسل مقتطفات من شبكة «سي بي إس» بعنوان «استديو وان في هوليوود»، لكن افتتاحية المسلسل (التي تُعلن أنه «مقتبس بتصرف من رواية «1984» لجورج أورويل») حذرت من أن مزيدًا من الحرية ستؤخذ هذه المرة. لكن هذه الحرية لم تكن دعائية. بدا تمبلتون والمخرج مايكل أندرسون أقل اهتمامًا بالسياسة وأكثر اهتمامًا بالرومانسية بين البطلين غير المناسبين لدوريهما (الذين كانا أمريكيين لسبب غير مفهوم): نجم أفلام العصابات قوي البنية إدموند أوبراين في دور ونستون، والمتألقة المبتهجة جان ستيرلنج في دور جوليا. قبل أن تعقل شرطة الفكر العاشقين في الرواية، يقول ونستون مهزومًا: «نحن في عداد الموتى». أما في الفيلم، تقول جوليا برعشة صوتية: «من الرائع أن يكون المرء على قيد الحياة!». ربّما تكون وكالة المخابرات المركزية قد أُعجبت بالتعليق الصوتي المحذّر («هذه إذا قصة عن المستقبل. يمكن أن تكون قصة أطفالنا إذا فشلنا في الحفاظ على ميراثهم من الحرية»)، لكنها بالتأكيد

لم تُعجب بملصق الفيلم، الذي صوّر ونستون وجوليا في لحظة تقبيل حميمية حارّة، بينما يتجسّس عليهما ضابط من «الرابطة المناهضة للجنس» (التي لا تظهر في الرواية) من خلال شاشة رصد. «هل ستكون النشوة جريمة في عالم المستقبل المرعب؟ شاهدوا عجائب الفد المدهشة في فيلم لم يُصوّر مثله من قبل!». صوّر أندرسون نهايتين مختلفتين. شاهد الجمهور الأمريكي ونستون يحب الأخ الأكبر، لكن المشاهدين البريطانيين فوجئوا برؤية ونستون وجوليا يصيحان بتحدٍّ: «يسقط الأخ الأكبر!». قبل أن يُعدما بالرصاص. أن تكون النهاية «السعيدة» هي تلك التي يُقتل فيها البطلان بالرصاص دون أن يحقق شيئاً لهي علامة على مدى سوداوية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». احتجّت سونيا، التي غضبت إلى درجة أنها رفضت حضور العرض الخاص، قائلة: «يُظهر تغيير النهاية أنهم لم يفهموا الكتاب على الإطلاق. إنه أمرٌ بغيض». كان لدى راثون الوقاحة الكافية لادّعاء أن هذه النهاية كانت هي «النهاية التي سيكتبها أورويل على الأرجح إذا لم يكن يعلم أنه يحتضر». مثل «مزرعة الحيوان»، فشل الفيلم في إثارة إعجاب النقاد والجمهور في أيٍّ من البلدين مع إصداره في عام 1956. حتّى حكومة الولايات المتحدة لم تستطع جعل أورويل يحطّم شبّاك التذاكر.

رأى العديد من أصدقاء أورويل ومعجبيه أن استيلاء التيّار اليميني عليه هو نوع من استلاب الجثث، بينما واصل منتقدوه التأكيد على أنه جلب ذلك إلى نفسه. بعد عقود من وفاته، أُعيد فتح النقاش بعد اكتشاف مشاركة أورويل السريّة في خداع الحرب الباردة.

\*\*\*

في 29 مارس 1949، تلقى أورويل زيارة في كرانام من صديقه السابقة سيليا باجيت، التي أخبرته عن وظيفتها الجديدة في «إدارة أبحاث المعلومات». وفقًا لرواية باجيت، فإن أورويل «عبر عن موافقته الصادقة والحماسية على أهداف الإدارة»، وأوصى ببعض أسماء الكُتّاب المناسبين للانضمام. بعد أسبوع، أرسل متطوعًا خطابًا إلى باجيت يخبرها بأنه سيرسل «قائمة بالصحفيين والكتّاب الذين هم في رأيي شيوعيين مستترين، أو رفاق رحلة، أو يميلون إلى هذا، وبالتالي لا ينبغي الوثوق بهم كدعاة». كان أورويل يحتفظ بدفتر أزرق شاحب يضم أسماء الشخصيات العامة التي يعتقد أنها متعاطفة مع الاتحاد السوفيتي، تمامًا كما توقع ذات مرة من قد ينقلب خائنًا في حالة الغزو النازي (كان مولعًا بإعداد القوائم). على مدار العام الماضي أو نحو ذلك، استولى الاتحاد السوفيتي على تشيكوسلوفاكيا، وتسَلَّط على يوغوسلافيا، وحاصر برلين، واضطهد الكُتّاب اليهود، وكان أورويل يستشيط غضبًا لأن ستالين مع كل ذلك لا يزال يتمتع بمدافعين بارزين. ردت باجيت بحماس على خطاب أورويل، فأرسل لها قائمة مختصرة من ثمانية وثلاثين اسمًا انتقاهم من دفتر ملاحظاته الذي يضم 135 اسمًا. كتب لها: «القائمة ليست مذهشة جدًا، ولا أعتقد أن تلك الأسماء ستخبر أصدقاءك بأي شيء لا يعرفونه بالفعل».

لا يُظهر كُرّاس ملاحظات أورويل صاحبه في أفضل حالاته. العديد من التدوينات فيه تافهة ونمّامة وخسيسة وواهية، وكثيرًا ما يخونه عدم يقينه في هيئة علامات استفهام ونجوم وخطوط متقاطعة كثيرة تجعل الصفحات داكنة. إذا كان قد سلّم دفتر

الملاحظات إلى «إدارة أبحاث المعلومات»، لكان تصرفاً متهوراً رديئاً. لكنه أبقاه في السرّ، وأولى اهتماماً كبيراً وهو يُحرّر ويعدّل قائمة باجيت. «تكمن الصعوبة الشديدة في تحديد موقف كل شخص، وعلى المرء أن يتعامل مع كل حالة على حدة»، هكذا أخبر ريتشارد ريس. كان من «الصعوبة بمكان» معرفة ما إذا كان الشخص مؤمناً حقيقياً أو انتهازيًا أو متعاطفًا تعوزه الحماسة أو مجرد أحمق.

من المشروع الشعور بخيبة أمل من إرسال أورويل مثل هذه القائمة إلى وكالة حكومية (حتّى لو كانت عمّالية)، لكن النسخة المعدّلة كانت دقيقة إلى حدّ كبير على الأقل. كان أورويل قلقاً بشكل خاص ممّن يُسمّون رفاق الرحلة داخل حزب العمل البرلماني مثل كوني زيلياكوس وچون بلات ميلز: الرجلان اللذان هاجمهما بالفعل في الجرائد ووصفهما أنهما «عميلا دعاية للاتّحاد السوفيتي». كان هذان هما ما يفكّر فيهما عندما كتب بيانه حول رسالة رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «أعضاء الحكومة البريطانية الحالية لن يمهدوا الطريق عن طيب خاطر للعدو، لكن جيل الشباب مشكوك فيه، وربّما تكون بذور الفكر الشمولي منتشرة بينهم». كل من ذكره بالأشخاص الذين لاحقوه في إسبانيا، أو حاولوا منع كتابته لأسباب سياسية، أثار غضبه. في عام 1946، اشتكى من جريمة انتقاد ستالين التي اتُّهم بها: «اضطّرت أحياناً إلى تغيير ناشري، والتوقّف عن الكتابة للصحف، وهو العمل الذي كان يُمثّل جزءاً من دخلي، تعرّضت كُتبي للمقاطعة في صحفٍ أخرى، وطُوردت بالرسائل والمقالات المهينة... بل وتلقّيت تهديدات بدعاوي تشهير».

من المهم تذكُّر أن أورويل كان ينصح باجيت فقط بشأن من ينبغي تجنبه لغرض محدّد هو: الكتابة لصالح «إدارة أبحاث المعلومات». بخلاف ذلك، لا يُوجد دليل على أن القائمة أضرت بوظائف أيّ شخص في القائمة، ولا أنه كان مقصوداً منها أن تفعل ذلك. حقيقة أن الممثل مايكل ريدجريف الموجود في القائمة أدّى دور شخصية أوبراين في فيلم عام 1956 تُثبت أنها لم تستخدم كقائمة سوداء، وكذلك حقيقة أن الشخص الوحيد الذي أشار إليه أورويل بأنه «عميل روسي من نوع ما»، وهو الصحفي نمساوي المولد بيتر سموليت، لم يُكتشف أنه جاسوس سوفيتي إلا بعد وفاته في عام 1980. من شبه المؤكّد أن سموليت هو الرجل الذي نصح جوناثان كيب بالتخلّي عن نشر «مزرعة الحيوان» عندما كان رئيس العلاقات السوفيتية في وزارة الإعلام.

يجب أيضاً الحكم على نيّات أورويل في ضوء دعمه لحرية التعبير. وصف أورويل أيّ محاولة لقمع الأحزاب الشيوعية الغربية بأنها «كارثية»، وحشد أعضاء لجنة «الدفاع عن الحرية» ضد جهود الحكومة لتطهير الخدمة المدنية من الشيوعيين. أيضاً أخبر وودكوك بأنه في حين أن للحكومات الحق في مكافحة التجسّس، فإن الطريقة التي انتهجها حزب العمل كانت «مقلقة في غموضها، وتبدو لي الظاهرة برمتها جزء من الانهيار العام للتوقعات الديمقراطية». ومن المفارقة أن أورويل نفسه كان يخضع لمراقبة الحكومة البريطانية منذ أن كان صحفياً في باريس عام 1929. ذكر رقيب شرطة كان يراقبه في هيئة الإذاعة البريطانية أنه يحمل «وجهات نظرٍ شيوعية متقدّمة»، مع أن

الضابط المسؤول عن ذلك الرقيب -بعد أن قرأ مقالات أورويل- خلص على نحو صائب إلى أنه «غير ملتزم بأفكار الحزب الشيوعي، ولا هم يعتنقون أفكاره».

ومع ذلك، عندما نُشرت رسالة أورويل إلى باجيت في عام 1996، تلذذ منتقدوه من التيار اليساري بمفارقة «القديس جورج الذي يقوم بدور شرطي الفكر».<sup>(53)</sup> هنا هو الدليل الدامغ (الضعيف جداً) الذي استُخدم لتسويغ عقود طويلة من العداء. قال المؤرخ الماركسي كريستوفر هيل: «لطالما عرفت أنه بوجهين. كان هناك شيء مريب حول أورويل... وهذا يؤكد أسوأ شكوكي حول الرجل». لم يستطع الصحفي ألكسندر كوكبيرن إخفاء فرحته: «أتضح أن الرجل يقظ الضمير شكاً، وواشٍ بلا أدنى شك، ومخبر للشرطة السرية، وابن عرس مقيم في «مزرعة الحيوان»». محزوناً أكثر منه غاضباً، أعرب مايكل فوت زميل أورويل السابق في «تربيون» عن خيبة أمله، بينما قال ابن أخيه بول فوت، صحفي الحملات الانتخابية: «أنا من أشد المعجبين بأورويل، لكن علينا أن نقبل أنه اتخذ موقفاً مكارثياً في نهاية حياته».

مكارثياً؟ كلا، لسنا مضطرين إلى تقبل ذلك على الإطلاق.

\*\*\*

---

53- نُشرت قصة القائمة ببطء. في عام 1980، كشف كاتب سيرة أورويل، برنارد كريك، عن وجود كُرّاس الملاحظات في سطر واحد في سيرته، لكن يبدو أن أحداً لم ينتبه إليه. في عام 1996، أصدر مكتب التسجيلات المأمة أول خطاب أرسله أورويل إلى باجيت. في عام 1998، نُشرت القائمة الواردة في كُرّاس ملاحظاته. لم تصدر وزارة الخارجية قائمة أورويل المعدلة حتى عام 2003، بعد وفاة باجيت. هذا يعني أنه على مدى سنوات عديدة، كان منتقدوه والمدافعون عنه على حدٍ سواء يطلقون أحكاماً متسرعة. (المؤلف).



بعد تسعة عشر يومًا من موت أورويل، ادّعى جوزيف مكارثي، عضو مجلس الشيوخ الجديد ذو الواحد والأربعين عامًا، على مسمع ملأ من النساء الجمهوريات في مدينة ويلنج بفيرجينيا الغربية، أنه يمتلك قائمة تضم أسماء عشرات الشيوعيين الذين يعملون في وزارة الخارجية، وهكذا بدأ واحدة من أكثر حلقات الحرب الباردة خزيًا.

كان مكارثي أحد تلك الوحوش التي تنفث النيران التي تظهر على السطح من أعماق الهوية الأمريكية من وقت إلى آخر لإفساد القيم الديمقراطية التي تدّعي الدفاع عنها. بجمعته ونرجسيته وتعطّشه للسلطة وعدم نزاهته المرضية، يبدو مكارثي كأنه صُمِّم في مختبر بهدف محدّدٍ هو الإساءة إلى أورويل. «أختلف دائمًا عندما يقول الناس إنه لا يمكننا محاربة الشيوعية والفاشية وما إلى ذلك إلا إذا طوّرنا مذهبًا متعصبًا مماثلًا. من وجهة نظري، يهزم المرء التعصب بآلًا يكون متعصبًا».

وهو طالب قانون، استمتع مكارثي بلعب القمار والملاكمة، وطبّق كلتا المهارتين في السياسة. بحلول الوقت الذي بدأ فيه حملته الصليبية، كان الجواسيس السوفييت أمثال ألجير هيس قد انكشفوا، وجرى تطهير النقابات العمالية الرئيسية، وانخفضت أسهم عضوية الحزب. كان الخوف من الاختراق الشيوعي أكبر بكثير من الخطر نفسه، وخلق ذلك فرصة لتاجر خوف محترف. في غضون أشهر، صار مكارثي نجمًا على أغلفة المجلات، ومتحدثًا مشهورًا يستطيع جمع تبرّعات تصل إلى ألف دولار يوميًا. عرّف المؤرخ تيد مورغان المكارثية بأنها «استخدام معلومات كاذبة

في السعي غير العقلاني وراء عدو وهمي». باستخدام وصف أورويل، كانت المكارثية عرضاً وهمياً، وقد دمّرت حياة الأبرياء. في هوليوود، ضُمَّت قائمة ضحايا المكارثية السوداء اثنين من ممثلين فيلم «استديو وان»، «1984». النجم إيدي ألبرت والراوي دون هولنبيك، الذي انتحر بعد بضعة أشهر من عرض الفيلم. اعتبر المخرج بول نيكيل معالجته نقداً ضمنياً لأساليب مكارثي. المكارثية، التي وصفها السناتور بأنها «الهوية الأمريكية وقد شَمَّرت عن ساعديها»، كانت لعنة على كثير من أعضاء «مجلس الحرية الثقافية». وصف أحد رجال الدعاية الأمريكية في روما مكارثي بأنه «ثغرة في درعنا اللامع، وتجسيد دحض كل ما أتفوّه به». لذلك قُسمت لجنة «الحرية الثقافية الأمريكية» إلى قسمين. الأعضاء الليبراليون: دوايت ماكدونالد، وأرثر شليزنجر، وماري مكارثي (التي لا علاقة لها بمكارثي). هؤلاء استكروا عدم نزاهة السناتور وسلوكه العدواني. بينما اعتقد الجناح المحافظ -جيمس بيرنام، وماكس إيستمان، إيرفينج كريستول- أن تهديد الاختراق الشيوعي يُسوِّغ الإجراءات المتطرفة. كان كتاب بيرنام «شبكة التخريب: الشبكات السريّة داخل حكومة الولايات المتّحدة» مكارثية مقنّعة؛ هادته حدّته إلى ترك اللجنة وترك عمله في «بارتيزان ريفيو» وكذلك وظيفته الاستشارية مع «مكتب تنسيق السياسات». كان أورويل محقّاً بشأنه على طول الخط: «يفكر بيرنام دائماً من زاوية متطرّفة بدائية... في نظره، يجب أن يحدث كل شيء فجأة وعلى أتم وجه. إما أن يُدرك الأمر كله وإما يُترك كله. إما المجد وإما الانهيار».

كان المكارثيون مثلاً بارزاً على ما سمّاه المؤرخ ريتشارد هوفستاتر فيما بعد «عقيدة الشك»، وكانوا مهوَّسين بفكرة «وجود شبكة تآمرية دولية واسعة وشريرة وكُفأة تماماً، تهدف لارتكاب أفعال ذات طابع شيطاني». لاحظ هوفستاتر أن معاداة الشيوعية تدهورت بسرعة وصارت نسخة من الأرثوذكسية تختلف فقط في الدرجة. معظم المجرمين المكارثيين الأكثر شراً كانوا شيوعيين سابقين سُمح لهم بحق الارتداد عنها. هؤلاء اللاجئون من خداع التفكير المزدوج، الذين صُدموا من أكاذيبهم وأعدائهم القديمة، تحوّلوا إلى ما سمّاه أورويل «الوطنية المنتحلة». شخصّ لويس فيشر هذا النوع من البشر ببراعة في كتابه «الإله الذي فشل»: هذا الشخص يتخلّى عن الشيوعية فكرياً، لكنه يحتاج إلى بديل عاطفي عنها. ولأن هذا الشخص هش من الداخل، ويرغب في الأمان وعقيدة مطمئنة وجماعة منظّمة كبيرة، ينجذب إلى نقيض آخر يتّسم بالعصمة من الخطأ والاستبداد واليقين العقائدي... وعندما يجد شمولية جديدة، فإنه يحارب الشيوعية بعنف ويتعصب يشبه الشيوعية. إنه «شيوعي» مناهض للشيوعية.

لم يستحوذ هذا الإيمان شبه الديني بالشيوعية على أورويل قط، الإيمان الذي تحوّل في رؤية الكثيرين إلى صورتها السلبية، ولم يكن أورويل أيضاً مدفوعاً «بالتقدّم الجماعي والاحتكار الثقافي» الذي اعتقدت ماري مكارثي أنه حرّك المتعصبين. ولأنه غير مهتم بحياسة السلطة، لم يتّق قط إلى أن يكون عضواً في

القبيلة الفائزة. كتب أورويل في عام 1946: «في غضون خمس سنوات، قد يكون مدح ستالين خطراً مثل مهاجمته. لكن لا ينبغي أن أعدّ هذا تقدُّماً. لا نفع يعود من تعليم بيِّغاء كلمة جديدة. المطلوب هو الحق في نشر ما يرى المرء أنه حقيقي، دون الخوف من التسلُّط أو الابتزاز من أيِّ طرف».

انتهت مسيرة مكارثي المهنية بالعار لأنه نجح في تنفير البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية والجيش وزملائه في الكونجرس. لكن الفكر المكارثي، الذي عاش من بعده، كان من النوع الذي وصفه أورويل في بيانه عن أهمية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» واسعة النطاق: «في الولايات المتحدة، يحمل مصطلح «الهوية الأمريكية» أو «الأمريكية الخالصة» -وهو مصطلح يرجع تاريخه إلى أوّل خوفٍ أحمر في عام 1919- «الطابع الشمولي الذي قد يأمله أيُّ شخص».

أحد ابتكارات مكارثي الخبيثة هو التجاهل شبه الشمولي للحقيقة عن طريق استغلال نقاط ضعف الديمقراطية. ظاهرياً، كان هو والصحافة عدوَّين لدودين. لقد قارن مجلة «تايم» بمجلة «لايف» وب«ذا ديلي ووركر»، وخصّ مراسلاً بتهمة الإساءة إليه أمام حشدٍ هازئ، وتحدّث بغضب ذات مرّة عن كيف أساءت الصحافة معاملته أمام جمهورٍ من تلاميذ المدارس المذهولين. ومع ذلك، فقد أحبّه الصحفيون، وطاردوه، ودعّموه في نهاية المطاف، لأنه كان مادّة يمكن الاعتماد عليها لكتابة عنوان جذاب رائع. وعلى الرغم من أن كثيراً ممّا قاله لا أساس له من الصحة، كان مكارثي يعرف -مثل أيِّ سياسي من قبله- الطريقة المثلى اختراق

الصحافة الأمريكية. كان يزخرف القصص على مدار عدة أيام لزيادة التغطية الصحفية، ويعقد مؤتمرات صحفية قبل ساعة من مواعيد تسليم المراسلين النهائية لأخبارهم، كي لا يترك لهم أي وقت للتحقق من صحة تصريحاته، ولم يحاول كثيرٌ منهم ذلك. في عام 1952، اعترفت صحيفة «نيويورك تايمز» بأنها ضلّت قراءها بطباعة مزاعم مكارثي من دون تمحيص، لكنها أبرأت ذمتها من تعمّد الخداع: «من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، تجاهل الاتهامات التي وجهها السناتور مكارثي لمجرّد أنها عادةً ما يثبت مبالغتها أو زيفها. يقع الإنصاف على عاتق القارئ». عن طريق التلاعب بالنظام، صنع مكارثي نطاقاً فريداً خاصاً به وراء أراضي الحقيقة يستطيع فيه قول أي شيء. بعد عقود من الزمن، أوضح مراسل مجلة «تايمز» جيمس ريستون الشهير باسكوتي أسباب نجاح مكارثي: «كان يعلم أن الأكاذيب الكبيرة تتصدّر عناوين الصحف، وكان يعلم أيضاً أن معظم الصحف ستطبع أيّ تهمة شائنة ينشرها سناتور أمريكي علناً... عرف مكارثي كيف يستغل «طائفة المتحليّن بالموضوعية» هؤلاء». ثم أضاف أن الجميع تقريباً «خرجوا من الحقبة المكارثية بشعورٍ غامض بالذنب».

\*\*\*

إحدى أبشع الأعمال التي فعلها مكارثي في عام 1953، هي إرسال مساعديه الشابين المتعصبين روي كون وديفيد شين في جولة في مكاتب «وكالة المعلومات الأمريكية» في أوروبا، وهناك عقداً الأمور مع كل من التقوهما، ووضعاً قائمة بالكتب «الحمراء» المُراد إزالتها، بما في ذلك العناوين التي كانت في السابق مسيئة

لهتلر وستالين وماو. أحرق بعض أمناء المكتبات الألمان الكتب المدرجة في القائمة السوداء، وقد كان المشهد صادمًا تمامًا إلى درجة أن الرئيس أيزنهاور كسر صمته أخيرًا بخصوص مكارثي. قال أيزنهاور أمام دفعة خريجين في كلية دارتموث: «لا تنضموا إلى مُحَرِّقِي الكتب. لا تعتقدوا أنكم ستخفون العيوب بإخفاء الدليل على وجودها من قبل».

تزامنت الواقعة مع موضوع رواية صارت -على الصعيدين الثقافي والسياسي- المعادل الأمريكي نوعًا ما لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: رواية الخيال العلمي «451 فهرنهايت» لراي برادبوري. كتب برادبوري: «لا أستطيع التنبؤ ما إذا كانت أفكارني حول الرقابة التي يفرضها قسم الإطفاء ستتقدم بحلول الأسبوع المقبل أم لا. عندما تهب رياح مناسبة، تتبعث رائحة كيروسين خافتة من السناطور مكارثي». تحكي رواية برادبوري التي تهجو وسائل الإعلام العامة عن موظفٍ منبوذ في نظام شمولي، وعن قمع المعرفة ومحو الذاكرة، وعن ظل الحرب المستمر، وعن «التلفزيون»، وعن منطلقٍ معكوس أورويلي الطابع جدًّا: في عالم أبنيته مضادة للحريق، تصبح وظيفة رجال الإطفاء إشعال النيران بدلًا من إخمادها، وهؤلاء يصرون على أن الأمر لم يكن مختلفًا من قبل قط.

ربما كان هذا التقارب مصادفة. عندما سُئِلَ عما إذا كان تأثر بأورويل، أطلق برادبوري على «ظلمة في كبد النهار» لقب «الأب والأم والأخ المجنون الحقيقيين» لرواية «451 فهرنهايت». لكن من الآن فصاعدًا، ستكون المقارنة مع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»

هي الثمن الذي يتحتم على أي شخص يكتب أدباً ديستوبياً دفعه. إبان الحرب الكورية وأزمة الصواريخ الكوبية، شمل هذا الضرب من الأدب روايات «البيانو الآلي: أمريكا في عصر الإلكترونيات القادم» لكيرت فونيجوت، و «الحب بين الأطلال: قصّة رومانسية من المستقبل القريب» لإيثلين ووه، و «واحد» لديفيد كارب، و «عدالة الملامح» لإل بي هارتلي، و «صعود الميروتوقراطية: 1870 - 2033» لمايكل يونج، و «النشيد» لآين راند (التي نُشرت أخيراً في الولايات المتحدة)، بالإضافة إلى كثير من الأعمال المنحولة التي غفل عنها الزمن غير ظالم. «في حين أنه قبل عشرين عاماً، كان الكاتب البليد العادي يضع مجتمعه الاستبدادي على كوكب الزهرة أو في المستقبل البعيد جداً، فإنه في الوقت الحاضر -على ما أظن- يضع الكاتب نصب عينيه على الأرض خلال مئة العام القادمة أو نحو ذلك»، هكذا كتب كينجسلي آيمس في كتابه الاستقصائي عن أدب الخيال العلمي «خرائط جديدة للجحيم». بخلاف الاستثنائيين البارزين المتمثلين في «مشروع والدين الثاني» لبني إف سكينر، وآخر أعمال ألدوس هكسلي «الجزيرة»، فقد الكتاب شهيتهم لليوتوبيات.

في الولايات المتحدة، حيث ملأت رواية «النشيد» صفحات عددًا كاملاً من مجلة «فيموس فاناستيك ميستريز»، توارى ضرب الأدب الديستوبي داخل سحابة الخيال العلمي. بغلافها المثير المستقبلي الذي يقول: «رؤية مفزعة للحياة في عام 1984. حبّ مُحَرَّم، خوف، خيانة»، غازلت طبعة دار «سيجنيت» من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عشاق آيزك أزيوف وروبرت آيه

هينلين. لكن آيمس أشار إلى أن الأدباء المتغطرسين رفضوا قبول فكرة أن كتاب أورويل ينتمي إلى ضرب من الأدب يروونه أدنى من أن يُنظر إليه بجدية. من زاوية التصنيف الأدبي والسياسي، كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» تستحق القتال من أجلها، مثل المنطقة المُتَنَازَع عليها على أطراف أوقيانيا.

\*\*\*

في مقاله في مجلة «ذا ماركسيست كوارترلي» الذي نُشر في يناير 1956، تتبأ جيمس والش بأن «1984» في طريقها إلى الزوال. نحن الآن بحاجة إلى دفعة إضافية للتخلص منها إلى الأبد. في الواقع، ما كان في طريقه إلى الزوال هو مصداقية الشيوعية السوفيتية في الغرب.

في يونيو، نشرت الصحف النصَّ المسرَّب «حول عبادة الحاكم وتبعاتها»، وهو خطاب فبراير الذي استكرر فيه الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف كثيرًا من جرائم ستالين. بعد خمسة أشهر، حطَّم خروتشوف آمال نهاية شتاء الحرب الباردة بإرسال الدبَّابات لسحق انتفاضة شعبية في المجر. تسبَّب الحدثان في سيلٍ من الارتداد، وهجر أعضاء الحزب الشيوعي حزبهم في مختلف أنحاء الغرب بعشرات الآلاف. حتَّى أنه زُعم بأن ترجمة مجرية لمنشور ساميزداتي<sup>(54)</sup> لـ «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت نصًّا مقررًا على متمردي عام 1956.

وهذا يفسِّر أهمية قائمة أورويل اللاحقة لمنتقديه من التيار

---

54- ساميزدات: نوع من الكتابة والنشر مارسه المنشقون في الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية تحدُّيًا للرقابة المفروضة على الكتابات المعارضة. كانت المطبوعات المحظورة تُكتب باليد وتُمرَّر من قارئ إلى آخر، وكان من يُدان بنشر أو تداول مثل هذه المنشورات يواجه عقوبات قاسية. (المترجم) ..



اليساري. بعد المجر، كان على العديد منهم قبول أنهم كانوا مخطئين بشأن طبيعة الشيوعية السوفيتية، وأنه كان محققًا بشكل يثير الغيظ. كان أورويل -أكثر المفكرين الاشتراكيين اطلاعًا في الخمسينيات- معاديًا نزيهًا للشيوعية، والأكثر من ذلك أنه كان ميئًا ومحاطًا بهالة من الاستقامة الأخلاقية. وبالتالي كان يبت في النفوس نوعًا من الإعجاب الحانق. في بعض الأحيان كان الحق يبتلع الإعجاب. في نظر الناقد الماركسي رايموند وليمز، فإنه بتأمل الماضي بعد سنوات، تجد أن أورويل كان عقبة سياسية: «إذا حدث وانخرطت في أي جدال اشتراكي، كان هناك تمثال ضخّم لأورويل يحذرك للعودة. حتّى الستينيات، كانت المقالات الافتتاحية السياسية تنصح الراديكاليين الأصغر سنًا بقراءة أعمال أورويل ورؤية إلى أين أدّى كل ذلك».

من المؤكّد أن المرحلة الأولى من الحرب الباردة مكّنت اليمين من السطو على أورويل بشكل عام، وعلى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بشكل خاص، لكن ذلك لم يستمر. مضى التاريخ قدمًا، مثلما يمضي ضوء الشمس عبر غرفة، وألقى بظلالٍ مختلفة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

## الفصل الحادي عشر

### هذا الذعر اللعين

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في السبعينيات

«من الصعب تخيُّل فترة سابقة ظهر فيها مثل  
هذا اليأس المتفشّي في جميع أصعدة الحياة  
البريطانية».

ستيثن هاسلر، «موت الديمقراطية البريطانية»، 1975.

في يوم مشرقٍ بارد من أيّام أبريل عام 1973، صعد ديفيد بوي وعازف الإيقاع جيف ماكورماك على متن القطار العابر لسيبيريا في خاباروفسك. كان المفنّي المصاب برهاب الطيران في طريق عودته الطويلة إلى دياره في لندن من جولته اليابانية. الرحلة التي استغرقت أسبوعاً إلى موسكو كانت مرحلة في البداية، لكن مع اقترابهما من العاصمة، زادت أجواء التوتر والريبة. في موسكو، شاهد بوي عرضاً عسكرياً استمرّ يوماً كاملاً من نافذة فندقه في الميدان الأحمر. قال لاحقاً: «في ارتحالي عبر روسيا، شعرت أن هذا بالتأكيد ما تبدو عليه الأنظمة الفاشية. كانوا يسيرون مثلهم، ويؤدّون التحية العسكرية مثلهم». وعندما كان القطار المتّجه إلى باريس يمرّ عبر المنطقة الخالية بين برلين الشرقية والغربية، صُدم الرجلان من مشهد الانقراض المقصوفة الخاوية. تذكّر ماكورماك: «بدا أن البقايا المؤسفة الشاهدة على أخطاء البشرية تستمرّ إلى الأبد مع مضي القطار قدماً. لم ينبس أحداً ببنت شفة».

ضاعفت هذه الرحلة الثقيلة من شعور بوي المتزايد بالجنون والذعر. في المحطة الأخيرة من رحلته إلى الديار، تحدّث إلى روي هولينجسورث من «ميلودي ميكر» عن كيف أثّرت فيه وغيّرت. قال وهو يدخّن بشراهة: «أتعلم يا روي، لقد عرّكت الحياة، وأظن أنني أعرف من يسيطر على هذا العالم اللعين. وبعد ما رأيته من حالة هذا العالم، لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا الذعر اللعين في حياتي».

لم يكن المرء بحاجة إلى السفر عبر روسيا في عهد بريجنيف لينتابه الخوف في بريطانيا في السبعينيات. كانت قنابل الجيش الجمهوري الأيرلندي إحدى سمات الحياة اليومية وقتها، مثلها مثل القنابل الصاروخية في آيرستريب وان. كان الاقتصاد يسيطر عليه الركود التضخّمي، وهو مصطلح قبيح يصف ظروفًا قبيحة تجمع بين التضخّم والركود الاقتصادي. في أكتوبر 1973، تأمر إضراب عمال المناجم مع حظر النفط العربي لإنتاج أسوأ نقص في الوقود منذ فبراير 1947. مع رجوع انقطاعات التيار الكهربائي، وتقنين الوقود، وتقليل ساعات البث التلفزيوني، والمصاعد المعطلة، بدأت بريطانيا تبدو كتلك الموصوفة في الصفحات الافتتاحية من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كتب نائب حزب العمل توني بين: «ثمّة شعور كبير بالأزمة في كل مكان»، مستخدمًا الكلمة المنتشرة وقتها. في استراحة الاحتفال بالكريسماس، قال عضو مجلس الوزراء المحافظ جون ديفيز لعائلته أن يستمتعوا بوقتهم، «لأنني كنت أعتقد بشدّة وقتها أن ذلك كان آخر كريسماس من نوعه سنستمتع به».

بحلول ليلة رأس السنة الجديدة، اختُصرت أيام العمل في البلاد إلى ثلاثة أيام في الأسبوع لجميع الأعمال غير الأساسية لتوفير الوقود. أدى انخفاض الإنتاجية إلى الكشف بقسوة عن الضعف الكامن في الاقتصاد، ما دفع محافظ بنك إنجلترا إلى توقُّع الدخول في عقدٍ من التقشف، وهو بذلك ينتهي في عام 1984. ركود وإرهاب واضطرابات صناعية وشعور بتدهور وطني لا رجعة فيه: بحر من المشكلات بدا أن رئيس الوزراء المحافظ إدوارد هيث غير قادر على الإبحار فيه. لاحظت جريدة «ذا نيويورك تايمز» وجود «قشعريرة متزايدة محسوسة، خوف من أمور مروعة قد تحدث».

ظهر أحد تلك الأمور المروعة، وهو احتمال حدوث انقلاب عسكري مثل الانقلاب الذي قام به مؤخراً الجنرال بينوشيه في تشيلي، في مقالٍ بقلم المحرِّر السياسي باتريك كوسجريف في عدد الكريسماس من مجلة «ذا سبيكتاتور». «إن الدولة التي تمرُّقها فصائل متحاربة، والتي لا يحتفظ أيُّ فصيلٍ منها بدعم الجمهور لموثوقيتها أو كفاءتها، هي بالفعل دولة جاهزة للانقلاب»، هكذا توقَّع كوسجريف. كان الحديث في حانات وأروقة وستمنستر محموداً. هل يمكن أن يحدث الأمر هنا؟ أجل، هكذا خلص. يمكن أن يحدث بالفعل. «لا شيء حتمي بالتأكيد. لكن إن استمر نهج الإحباط والفشل والتخريب الذي وصفته، سواء بوعي أو دون وعي، فلن يكون له إلا نتيجة واحدة فقط».

قطعاً لم يشعر الجميع في بريطانيا أن الديمقراطية تحتضر على فراش الموت. أصابت هذه الأزمة الاقتصادية، بخلاف

معظم الأزمات، الأغنياء أكثر من الطبقة العاملة، لذلك لم يكن السياسيون والصحفيون والروائيون من الطبقة الوسطى يعرضون الصورة كاملة. واصل ملايين البريطانيين الاستماع إلى فرقة سليد وفرقة ذا أوزمنذرز، وذهبوا لمشاهدة فيلم «عش ودعهم يموتون» و «الحياة التي كنا نعيشها»، واسترخوا أمام مسلسلي السيت كوم «آر يو بينج سيرفد؟» و «بوريدج»، واستمتعوا بأيام الراحة الإضافية، واهتموا بشؤونهم بشكل عام. لكن مزاج ديفيد بوي كان منسجماً مع ترددات أكثر حدة. بحثت أغنيته «الحياة على المريخ»<sup>5</sup> عن طريق للمضي قدماً وسط حطام الستينيات، وقدّمت أغنية «خمس سنوات» عدداً تنازلياً لنهاية العالم، أما التاريخ المنذر بالسوء في عنوان أغنية «علاء الدين سين (1913 - 1938 - 197?)» فقد حدّد العقد الذي ستدلع فيه الحرب العالمية الثالثة. اعترف بوي في مجلة «نيو ميوزيكال إكسبرس» قائلاً: «أنا متشائم بغيض. هذا أحد الأشياء التي تؤخذ عليّ. أتشاءم من البدع المستحدثة والمشاريع الجديدة والأفكار الجديدة التي تتعلق بالمجتمع. أعتقد أن كل شيء انتهى. أعتقد أن نهاية العالم حدثت قبل عشر سنوات. تلك هي المشكلة». لم يكن من المستغرب على الإطلاق أن يتّجه عقله إلى كتابة أغنية روك مستوحاة من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كما أن بوي لم يكن الشخص الوحيد صاحب الرؤية الأوروبية. أعلنت المجلة الألمانية «ميركور» في مطلع عام 1974: «بدأ العد التنازلي لعام 1984». بالتأكيد بدأ. باستعارة أحد تشبيهات أرويل نفسه، فإن تاريخه الذي ينذر بشؤم مارس نفس الجاذبية

المنوِّمة على العقول القلقة كما تفعل الأصللة العاصرة بالأرنب. كتب ريتشارد فارمر في كتابه «عالم 1984» الحقيقي: نظرة على المستقبل المنظور: «من الصادم أن ندرك أنه لم يبق على العام سوى عقد من الزمان. لم يعد العام قابلاً في مستقبل ضبابي بعيد؛ كثيرٌ منا سيعيشون لرؤية كيف سيكون عام 1984 حقاً». أو كما كتب الليبرالي جيروم توسيل في كتابه «من يخاف عام 1984؟»: «لم يسبق في التاريخ أن حمل عامٌ واحد مثل هذه الدلالات المشؤومة لقطاع عريض من البشرية». \* (55)

\*\*\*

بحلول عام 1973، تخطت مبيعات «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مليون نسخة في المملكة المتحدة، وعلى الأقل عشرة ملايين في الولايات المتحدة. لم تعد الرواية موجزاً لمستقبل قائم فحسب، وإنما خلاصة لحاضرٍ غير مؤكد. كتب الروائي أنتوني بרגس: «تُلصق لفظة أورويلي على أي شيء هذه الأيام»، مشيراً إلى أن الكلمة صارت تُستخدم أحياناً في غير معناها. في البرلمان، ظهر اسم «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في مناقشات حول الصين وكمبوديا والحريات المدنية والخصوصية. وصفت صحيفة «واشنطن بوست» الرواية بأنها «الأشهر والأكثر اقتباساً من بين جميع الأعمال التي كُتبت في الأعوام الخمسة والعشرين الماضية».

55- \* كلا الكتّابين كان مناهضاً بشدة لأورويل في الواقع: رؤيتان شبه يوتوبيتين لمستقبل أنظف وأكثر حرية وثراءً. لقد استغلاً تاريخ أورويل الشهير كحيلة ترويجية مفيدة، تماماً مثلما فعل كتاب «في منتصف الطريق إلى عام 1984» للورد جلادواين، وكتاب «بريطانيا عام 1984: توقعات يونيليفر» لرونالد بريك، اللذان نُشرا في الستينيات. (المؤلف).

كان استدعاء شبح أورويل هو السمة السائدة في تلك الأيام. أدى نشر كتابي «المقالات المجمعة» و «صحافة ورسائل جورج أورويل» في أربعة مجلدات عام 1968 إلى إثراء فهم القراء بشكل كبير عن شخصيته وأفكاره، ما أدى إلى جولة أخرى من تساؤلات: «ما الذي كان سيفكر فيه أورويل اليوم؟». تساءل العديد من النقاد عما كان سيقوله بشأن قضايا ملحة مثل ريتشارد نيكسون وهارولد ويلسون وأدولف آيخمان وفيتنام وإسرائيل وربيع براج وحملة نزع السلاح النووي. لا أحد يستطيع الإجابة بثقة. اختتمت ماري مكارثي مقالتها في «ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس» بملاحظة جافة وقاسية: «لو كان قد عاش، لفضّل العيش في جزيرة صحراوية، ولربما كان موته راحة له». شعرت سونيا بالإهانة إلى درجة أنها كتبت ردًا منهجيًا من ست صفحات لمجلة «نوها»، تقول فيها إن زوجها الراحل بدا كأنه يخيب آمال مكارثي لكونه لم يحدّد أفكاره بشأن الأحداث التي وقعت بعد وفاته. كان تخمين آراء أورويل مسألة أكثر صعوبة من الوقوف على ما تعنيه «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» الآن. بالنسبة إلى معظم القراء غير الراغبين في تمشيط الرسائل والمجلات، كانت الرواية أشبه بعالم كامل. في السنوات التي تلت وفاة ستالين عام 1953، كانت قد حطمت أغلال ربطها ببروباجندا الحرب الباردة وأصبحت كتابًا يستطيع أيّ فصيلٍ سياسي تقريبًا أن يزعم أنه في صفّه؛ وهذا ما فعله اليسار بشكل متزايد. وفي حين ما جعلت «جمعية جون بيرش» فائزة المكارثية الأرقام 1984 آخر أربعة أعداد لرقم هاتفها، أضافت حركة بلاك بانثرز أعمال أورويل إلى

منهج «مدرسة مجتمع أوكلاند». في رواية سول بيلو «كوكب السيد ساملر» التي نُشرت عام 1970، يُخبر طالبٌ ساخطٌ يساريًا مُسنًا من الثلاثينيات بأن أورويل كان «بغيضًا ومريضًا معاديًا للثورة. لحسن الحظ أنه مات عندما مات»، ومن ناحية أخرى وضع فيليب روث اقتباسًا من مقال «السياسة واللغة الإنجليزية» في مقدّمة روايته المسرحية الهجائية المعادية لنيكسون «عصابتنا». سخر مفكر حركة اليسار الجديد بروس فرانكلين قائلاً: «هذا الهراء لا يستطيع أن يصمد أمام عواصف الثورة المتصاعدة. على سبيل المثال، كيف يمكن زعم أن القادة الثوريين مجرد خنازير، كما فعل أورويل، في ظل وجود مالكولم إكس وهو تشي منه؟». لكن نعوم تشومسكي، اليساري بالقدر نفسه، أكّد أن أورويل انحاز إلى «الرجل العادي» ضد «القوى القمعية»، لذا فإن «فكرة استخدام كتاباته لمصلحة الأيديولوجيات المناهضة للشيوعية كانت ستكون مرعبة في نظره. على الأقل أنا أجدها مرعبة». كان الراديكاليون الواقعيون في مجلة «إنترناشونال تايمز» سعداء جدًا بقبول هدية سونيا، وهي آلة أورويل الكاتبة، بينما راقب مكتب التحقيقات الفيدرالي مجتمعات الحرم الجامعي التي سمّيت تيمناً بأورويل تحسباً لأن تكون واجهات للتخريب الاشتراكي.

استوعبت فرق الروك الرواية ودمجتها في صرخاتها الحاشدة للثقافة المضادة. سألت فرقة «اسبيرت» في أغنياتها المنفردة «1984» التي صدرت في أسابيع الستينيات الأخيرة: «أين ستكون عندما تهلك حريتك بعد أربعة عشر عامًا من الليلة؟»، وصرخ جون لينون (الذي اسمه الأوسط ونستون) في أغنية «أونلي



بيبول: «لا نريد دولة الأخ الأكبر». قرب نهاية أغنية «أيها الأخ الأكبر»، حذّرت فرقة السول البيضاء «رير إيرث» المستمعين: «إن لم نتكاتف معًا، سيراقبنا الأخ الأكبر». وفي أغنية ستيقي واندر «الأخ الأكبر» الرائعة المُحقّره، مثل الأخ الأكبر إدارة نيكسون. أصبح ديكتاتور أورويل الآن اسمًا آخر للحكومة.

يبدو أنه من الملائم أيضًا أن تكون «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أحد الكتب المحبّبة إلى قلب لي هارفي أوزوالد. كان أوزوالد ضحية لجنون الارتياب ومرّوجًا له في الآن نفسه، وهي حالة ازدهرت في الستينيات وانتشرت في السبعينيات. تبخّر السحر السوفيتي إلى حدّ كبير، وبالمثل تآكلت الأسطورة المنافسة التي تصف أمريكا كقلعة للحرية والإنصاف، بسبب الحروب والفضائح والدسائس والتجسّس والاغتيالات في الداخل والخارج. مُفدّاة بخوف أورويل الشخصي من الخضوع للمراقبة، صارت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» نصًا ضروريًا عن جنون الارتياب لا غنى عنه، سُوّغت فيه أسوأ المخاوف: أجل، هم يكذبون عليك. أجل، هم يراقبونك. أجل الشخصيات الأبوية الحاكمة ستخون ثقتك بأكثر الطرق رعبًا. تناغمت الأجواء الأوروبية مع روح الستينيات كأفضل ما يكون في مسلسل باتريك ماكجوهان التليفزيوني الرائع «السجين».

كان ماكجوهان كاثوليكيًا أيرلنديًا ذا سلوكٍ صارمٍ وساخِرٍ، ما أعطى انطباعًا بأنه يعرف أكثر ممّا يفصح عنه، وكان يجد ذلك مسليًا على نحوٍ قاتم. كان من الممكن أن يؤدّي شخصية أوبراين ببراعة على الشاشة، على الرغم من أن آراءه السياسية كانت مختلفة

تمامًا. أرجع ماكجوهان كراهيته الشديدة للسلطة إلى التعليم الكاثوليكي الذي يذكرنا بالتعليم في «مدرسة سانت سيبريان»: «كان من المستحيل تقريبًا فعل أي شيء لا يندرج تحت بند الخطيئة». في عام 1966، استخدم ماكجوهان نفوذه بصفته بطل مسلسل الجاسوسية «رجل خطر» عن الحرب الباردة للتفاوض على ميزانية غير مسبوقة والمطالبة بالتحكم الإبداعي الكامل لإنتاج قصة رمزية مسهبة عن «الطريقة التي نتحول بها إلى محض أرقام».

في مسلسل «السجين»، يلعب ماكجوهان دور عميل سرّي يستقيل من الأجهزة الأمنية، وبعدها يفقده شخص ما وعيه بالغان، ليستيقظ في دولة بوليسية صغيرة تسمى «القرية»، ويكتشف أنه لم يعد لديه اسم. لقد صار يُعرف بـ «رقم ستّة» فحسب. ما كتبه أورويل حول أن المستقبل ينتمي إلى «مخيّمات الاعتقال وقنابل دودلباج والشرطة السرية» يمكن أن يكون مخطئًا للنظام الشمولي الإنجليزي القُح الموجود في «القرية»، الذي يداري عنفه القمعي بصورة مبهجة. يبدو الشعار ذو الطابع الأوروبي في المسلسل «الأسئلة عبء على الآخرين، والإجابات سجن للمرء» أشبه بنصيحة خارجة من كتاب عن آداب السلوك. أن تكون متمرّدًا -أو «غير متعاون» - ليس جريمة بقدر ما هو إساءة أدب. عندما يودّع الناس بعضهم في «القرية» -حيث كل حركة مراقبة بالكاميرات- يقولون: «سوف أراك». بين محاولات هروبه، يحاول «رقم ستّة» إيقاف القرويين من حالة تهذيب الزومبيين هذه. يصيح فيهم: «ما زلتُم تملكون الاختيار! ما زال بإمكانكم إنقاذ حقكم في أن تكونوا أفرادًا! حقكم في الحقيقة وحرية التفكير! ارفضوا عالم «رقم اثنان» الزائف هذا!».

في حين أن «رقم واحد» -مثل الأخ الأكبر- يظل خفيًا وغير محدد الهوية، تبذل سلسلة من الأشخاص الذين يحملون رقم اثنين كل جهودهم لمعرفة سبب استقالة «رقم ستة»، لا من أجل المعرفة، بل للرغبة في كسره. وللوصول إلى هذه الغاية، فإنه يتعرّض للتعذيب والخداع والإغواء والضرب والصدمات الكهربائية وغسل المخ والتلاعب بعقله مرارًا وتكرارًا. يقول له أحدهم: «إذا ظلت مصرًا على عيش الحلم، قد تصاب بالجنون». يكمن جوهر المسلسل الفلسفي في الحوارات الملعّزة بين السجين والسجّان، التي يتهرب فيها الأخير من الأسئلة أو يراوغها أو يقلبها رأسًا على عقب. إن عملية الشد والجذب في افتتاحية المسلسل («من «رقم واحد»؟» أنت «رقم ستة»») لها إيقاع مراوغ مشابه لمحادثة ونستون وأوبراين عن الأخ الأكبر. يشير أحد الحوارات في الحلقة الثانية إلى أن موقع القرية وولاء حكامها غير مرتبطين، مثل الاختلافات بين أوقيانيا وأوراسيا وإستاسيا:

رقم اثنان: لا يهم أي طرف يدير «القرية».

رقم ستة: لكنها تُدار من طرفٍ أو آخر.

رقم اثنان: بالتأكيد، لكن الطرفين أصبحا متطابقين. ما أنشئ في الواقع هو مجتمع دولي. مخطّطٌ مثالي للنظام العالمي. متى يدرك الطرفان فجأة أنهما ينظران في مرآة، سيرون أن هذا هو نمط المستقبل.

رقم ستة: الأرض بأكملها ستكون «القرية»؟

رقم اثنان: هذا ما آمله.

لم يكن ماكجوهان الأخلاقي الصارم هيبياً، ولكن الغرابة المهلوسة التي ميّزت أجواء مسلسل «السجين» - تلك المشبعة بالهجاء والشك في كل أشكال السلطة: البيروقراطية، والدين، والتعليم، والإعلام، والعلوم- تناغمت مع الثقافة المضادة. أوضحت الحلقة الأخيرة هذا الارتباط من خلال تقديم الأناركي رقم ثمانية وأربعين المولع بالسخرية للمحاكمة كممثل عن الشباب غير الموقر، الذي بشرت بقدمه أغنية البيتلز المتفجرة المرححة «كل ما تحتاج إليه هو الحب».

في فيلم بيتر واتكنز «بريفيلدج»، الذي صدر أيضاً عام 1967، يسير الفاشيون وشباب الروك آند رول جنباً إلى جنب. من وجهة نظر واتكنز الغاضب والمتشكك، لم تكن موسيقى البوب تعد بالتحرُّر، بل بالخضوع. يحكي الفيلم الوثائقي الوهمي -الذي يعلّق عليه واتكنز وتدور أحداثه في منتصف السبعينيات- عن ستيفن شورتر، نجم البوب الذي استغلته حكومة الوحدة البريطانية لـ«تحويل عنف الشباب إلى ما ينفع» من خلال روتينه المتمرد الزائف: «أبقهم سعداء: بعيداً عن الشوارع وبعيداً عن السياسة». لعب دور شورتر نجم البوب الفعلي بول جونز بأداء اتسم بذهول حائر ربّما كان أو لم يكن متعمّداً. في الفيلم، يُعلن أن شورتر قد وُلِد من جديد وصار داعية للرب والعلم، ويؤدي ترانيم الروك الشعبي في الاستاد الوطني، حيث يهتف محبّوه «سنمتل!» وسط لافتات حمراء وسوداء وصلبان مشتعلة. عندما يثور شورتر أخيراً، يصبح هو ومسيرته المهنية في خبر كان، وذلك «لضمان ألا يُسيء استغلال شعبيته مرّة أخرى لقلقة راحة بال العامة».

ينتهي الفيلم بوعدٍ واضح من الراوي: «سيكون عامًا سعيدًا في بريطانيا، هذا العام في المستقبل القريب».

لم يكن واتكنز الشخص الوحيد الذي شاهد حفلات موسيقى الروك ورأى محاكمات نورمبرج. في أكتوبر 1973، قارن فيلم وثائقي على قناة «آي تي في» بعنوان «الرُّسل» مغني الجلام روك، مارك بولان، بأدولف هتلر: «نجمان كل في عصره، مختلفان تمامًا ولكن كلاهما يخضع للتملق الجماعي». وبالنظر إلى زيجي ستارداست، الأنا الفضائية التي استخدمها ديفيد بوي لشق طريق نجوميته، نجد أن الأخير كان يملك أفكارًا مماثلة. قال بوي لمجلة «رولينج ستون»: «أظن أنني كنت لأشكّل هتلرًا دمويًا جيدًا. كنت لأكون ديكتاتورًا ممتازًا غريب الأطوار ومجنونًا جدًا».

\*\*\*

في عام 2013، وضع بوي رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في قائمة كتبه المئة المفضلة، مع «داخل الحوت ومقالات أخرى» و«ظلمة في كبد النهار». كان مهووسًا برواية أورويل منذ نشأته في بروملي بعد الحرب، في منزل على بعد أقل من ميل من مسقط رأس إتش چي ويلز. قال بوي: «لطالما كنت أشعر بأنني في عام 1984. هذا مثال على المجتمع الكئيب الجامد الذي شعر كثير منا أننا ترعرعنا فيه... لقد كان مكانًا مثبطًا بشكل رهيب».

في نوفمبر عام 1973، أخبر بوي الروائي وليم بوروز بأنه يصنع معالجة تليفزيونية موسيقية للرواية، وفي نفس التوقيت أعطى العرض الموسيقي الذي أذاه لصالح قناة «إن بي سي» عنوانًا مفرضًا هو: «برنامج 1980 الترفيهي». خلال العرض، ظهرت

أغنيته الجديدة «1984/دودو» لأول مرة، وكانت واحدة من عشرين أغنية ادّعى أنه لحنها من أجل المعالجة التليفزيونية، على الرغم من أن محاولات كتابة نص فعلي مع الكاتب المسرحي الأمريكي توني إنجراسيا لم تثمر شيئاً. لذا غضب بشدة عندما رفضت سونيا أورويل منحه الإذن لصنع معالجته الموسيقية. قال لكاتب مجلة «سيركس» بن إدموندز: «بالنسبة إلى امرأة تزوّجت اشتراكياً ذا ميول شيوعية، فسونيا أكبر متفطرة من الطبقة العليا قابلتها في حياتي. لقد صاحت قائلة في وجهي: «يا للهول، ستجعلها غنائية»<sup>56</sup>. هذا ما حدث بالضبط». لا شك أن سونيا كرهت الفكرة، لكنها أيضاً لم توافق على أي معالجة تقريباً في أي وسيط منذ الفشل الذريع لفيلم عام 1956، وبالتأكيد لم تقابل بوي شخصياً، لذلك يجب أخذ روايته بكثير من الشك.<sup>(56)</sup> يمكننا الجدال حول ما إذا كان نجم موسيقى الروك مفرط الحداثة مزدوج الميول الجنسية سيحظى بحظ أفضل لو كان تفاوض مع أورويل وهو في سنّ سبعين عاماً، خاصة إذا أخبره بأن لديه ميولاً شيوعية.

ألبوم بوي الثامن، الذي كان عنوانه في البداية «نحن في عداد الموتى»، كان أشبه بعملية إنقاذ إذاً. أخبر بوي إدموندز: «لأكون صادقاً معك، الألبوم برمته كان يتمحور في الأصل حول رواية "1984" اللعينة. كان سيكون المعالجة الموسيقية للرواية،

56- \* الاستثناء، حدث عام 1965، عندما جدّد نابجل نيل معالجته مع «بي بي سي» لصنع مواد أخرى معتمدة على أورويل، منها نسخة إذاعية جديدة من الرواية قام ببطولتها باتريك تروتون في دور ونستون، قبل أن يصبح الأخير اسماً مألوفاً بعد تجسيده شخصية الدكتور في مسلسل «الدكتور هو». من قبيل المصادفة أن تروتون ظهر في دور مذيّع شاشة الرصد في فيلم عام 1956 من دون ذكر اسمه في التترات. (المؤلف).

لكنها أوقفت المشروع برفضها. لذا غيّرت فكرته في اللحظات الأخيرة إلى ألبوم جديد اسمه «دايموند دوجز». لم أرغب في تقديم «دايموند دوجز» في هيئة مسرحية موسيقية، أردت تقديم 1984».

كان ألبوم «دايموند دوجز» مزحة مريضة من عقلٍ على حافة الجنون، يتخطّفه الانحطاط والمرض والرغبة. وصفه بوي بأنه «نظرة على الستينيات والسبعينيات»، وقال إنه «ألبوم سياسي جدًا»، و «إنه احتجاجي». رُفِّت أجزاء الألبوم من مشروعات مهجورين («ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ومسرحية موسيقية من بطولة شخصية زيجي ستاردست)، وهو يحكي قصّة زاهية نصف ناضجة عن مكان يُدعى «مدينة الجوع». في الأغنية الرئيسة وخطبة المقدّمة التي بعنوان «أسطورة المستقبل»، تبدو «مدينة الجوع» كديستوبيا سبعينية الطباع جدًا، حيث يقرفص فتية أبدون فوق ناطحات السحاب المهجورة، ويجوبون الشوارع على أحذية تزلّج (بسبب أزمة الوقود) لنهب الجواهر والفضاء. شرح بوي مفسّرًا: «في رأسي، كان هذا العالم مزيجًا بين «1984» و«الأطفال المتوحشون»، مضيفًا أن أعضاء العصابة «خرجوا من فيلم «البرتقالة الآلية» أيضًا».<sup>(57)</sup> كان للشبان الهمجيين في رواية أنتوني برجس المنشورة عام 1962 وفيلم ستانلي كوبريك الذي صدر عام 1971 تأثير مستمر: وميض متوهج لم يجده بوي في

---

57- \* كان بوي يقصد المصابة التي تجوب عالم ما بعد الكارثة في رواية وليم بوروز «الصبية الجامحون: كتاب الموتى» التي نُشرت عام 1971. جمع مظهر شخصية زيجي ستاردست التي ابتكرها بوي بين «الصبية الجامحون» و «البرتقالة الآلية». (المؤلف).

آيرستريب وان. قال لاحقًا: «كان ذلك عالمنا، لا تلك الحركة الهييية اللعينة». على الرغم من أن برجس قال: إن «البرتقالة الآلية» ليست رواية جيدة جدًا من وجهة نظري»، فقد قدّم الكتاب أكثر مجتمعات المستقبل القريب إقناعًا وأصالة منذ مجتمع أورويل، محدثًا الصراع بين الحرية والسيطرة إلى عصر حركتي الـ «مودز» والـ «روكرز»، وساردًا الرواية بلغة النادسات، وهي عامية خيالية أنجلو روسية يستخدمها المراهقون. مثل ونستون، تدمّر الدولة عقل بطل رواية برجس العنيف، ألكس، في سبيل خلق مواطن مطيع. أوضح برجس وجهة نظره قائلاً: «من الأفضل أن تكون شوارعنا موبوءة بقتلة مجرمين عن أن يُحرّم الفرد من حرية الاختيار».

أمّا بخصوص تأثير أورويل على ألبوم «دايموند دوجز»، فقد يكون من التوهّم تخيّل أن التشبيه التالي: «جرذان بحجم القطط»، المجسّد في أغنية «أسطورة المستقبل» مأخوذ من أغنية الجيش القديمة التي اقتبسها أورويل في كتاب «الحنين إلى كتالونيا» (التي تقول «جرذان كبيرة مثل القطط»)، ولكن كل شيء ممكن، بما أن بوي صار مهووسًا بتقنية «التقطيع في الكتابة» التي أكسبها وليم بوروز شعبيتها. تألّف ألبوم بوي السابق «بين أبس» من أغاني مُعاد غناؤها لفرق أخرى، أمّا ألبوم «دايموند دوجز» فيمكن القول إنه كان إعادة غناء لـ ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون، أو استخلاص عيّنات منها، جمع فيه بوي ما يؤرّقه، بشذرات من الرواية، لصنع تأثير خيالي ساحر. كان بوي أوّل شخص تعامل مع الكتاب على أنه كنز من الأفكار والصور القابلة للتبديل، والمشهورة بما يكفي إلى درجة تسمح العبث بها.



بعض تلك الشذرات الجوهرية: الأغنية القوطية الهستيرية «نحن في عداد الموتى» تعيد تخيل لحظات جوليا وونستون الأخيرة قبل اعتقالهما: «ارتد ملابسك أيها الفتى الأبدي، لأنني أسمع وقع خطاهم على الدَّرَج». أما أغنية «دودو» التي لم تُدرج في الألبوم لكنها صدرت لاحقاً فتبدو كأنها تُصوِّر ونستون وهو يستيقظ من حلم داخل وزارة الحب، وتشير إلى المخبرين والمذكرات والملفات و «الضوء الساطع»، وهي تحكي حكاية دقيقة بشكل لافت للنظر عن خيانة ابنة بارسونز له. في حين ما تبدو أغنية «الأخ الأكبر» كشيد أشبه بابتهاال للسلطة: «شخص ما يُطالب بنا، شخصٌ جديرٌ بأن يُتبع...». كان چون لينون وستيفي واندر يكرهان الأخ الأكبر كما هو متوقَّع. فقط بوي يستطيع أن يتخيل أنه يحبه. كانت هناك أيضاً إحالات عابرة أخرى. كم مُستمعاً لاحظ الإشارة إلى العام الذي اعتُقل فيه خونة أورويل المزعومين چونز وآرونسون ورزرفورد في عبارة «بحثاً عن الخيانة التي عرفتُها في عام 65»، أو لاحظ أن الإشارة إلى «غرفة للإيجار» في أغنية «روك أند رول ويز مي» قد تسمح بتفسير الأغنية التي تبدو ظاهرياً أنها تحكي عن علاقة بوي بجمهوره، بأن تكون أغنية حبٍّ يائسة عن ونستون وجوليا؟ وعندما غنَّى «أنا أبحث عن "بارتي"» في «1984»، فليس بالضرورة أنه كان يقصد بـ«بارتي» حفلة، بل ربّما قصد حزياً. بدا الأمر كما لو أن بوي كان يترك خلفه فتات خُبِرَ ليعقبه هواة أورويل.

الأغنية الختامية «تشانس أوف ذا إيفر سيركلينج سكيليتال فاميلي» هي أشبه بطقس «دقيقتي الكراهية» وقد تحوّل إلى رقصٍ شيطاني محموم. إنها تُختتم (أو تفشل أن تُختتم) بالتكرار

المتلثم «برو برو برو» الذي يبدو كأنه لن ينتهي. مثل الحذاء الذي يطاء وجه الإنسان إلى الأبد.

\*\*\*

وفقًا لعازف البيانو مايك جارسون، اصطبغت جولات ألبوم «دايموند دوجز» في يناير وفبراير 1974 بأجواء «ثقيلة الوطء». وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى بريطانيا التي خيَّمت عليها البطالة وحملة انتخابات عامَّة استثنائية الذعر. في تقريره الانتخابي «معركة بريطانيا، 1974»، شخَّص الكاتب ريتشارد إيدر في صحيفة «نيويورك تايمز» أزمة البلاد بأنها نفسية في الأساس. كتب أن الأوقات كانت صعبة، لكنها لم تكن صعبة بما يكفي لتسويغ «تحذيرات اليمين واليسار في الصحف وعلى شاشات التلفاز من أن نسيج المجتمع البريطاني على وشك التمزُّق». ولأنه زائرٌ من بلدٍ حطَّمته فضيحة ووترجيت والركود الاقتصادي، تساءل إيدر كيف فقدت هذه الدولة التي تشتهر بالرشد عقلها: «من الصعب جدًّا الوثوق بالمستقبل في هذا المناخ البريطاني الغريب الذي يمزج الهستيريا بالفكاهة باليأس بالتفاؤل».

تلك الشروط الأربعة نفسها أسهمت في ألبوم «دايموند دوجز» عسير الهضم الذي طُرِح في 24 مايو، والذي وُصِف بأنه «يضع تصوُّرًا لعالم المستقبل بصور عن التدهور والانحيار الحضاري». كانت كلمة انهيار، مثل كلمة أزمة، على شفتي كل معلق. لا أحد يبحث عن الاتِّساق السياسي في ألبوم روك، لكن هناك تناقضًا جوهريًا بين آيرستريب وإن ومدينة الجوع. إحداهما دولة تملك سيطرة مطلقة، والأخرى لا تملك سيطرة على الإطلاق. بدا بوي منتشياً ومنزعجاً من الشمولية وفوضى ما بعد نهاية العالم بالقدر نفسه، لكن حقيقة أن «الأخ الأكبر» هي أكثر أغاني الألبوم إثارة

وبهجة، كانت دليلاً مقلماً على إلى أين يتَّجه.

في جولة ألبوم «دياموند دوجز»، أعطى بوي مصمّم المناظر مارك راهيتز ثلاثة تلميحات: «السلطة، ونورمبرج، وهيلم «متروبوليس» لفريتز لانج». رسم المغنّي أيضاً استكشاث ونماذج لفيلم «مدينة الجوع» الذي لم يخرج إلى النور، والذي كان سيُفتح بمشهد لطوابق «مبنى مجلس العالم» السفلية، حيث ينغمس حثالة المدينة المتطفرّين في عالم من القمار واستهلاك المواد الإباحية والمواد الغذائية المصنّعة التي تُسمّى «وجباكيين». كانت الكلمة وصفاً مناسباً لنظام بوي الغذائي في ذلك الوقت. منذ أن بدأ تعاطي الكوكايين في الخريف الماضي، صار شاحباً ونحيفاً جداً: أشبه بخيط أبيض بشري. بالنسبة إلى رجل مصاب بجنون العظمة بالفعل، لم يكن ذلك خياراً حكيماً.

كان بوي يعيش في أمريكا الآن. لقد اكتفى من إنجلترا ومن موسيقى الروك أند رول. استكشف ألبومه التالي، «الشباب الأمريكيون»، لوناً جديداً متأثراً بالسود أطلق عليه «الروح البلاستيكية». أكثر أغاني الألبوم إثارة للقلق «سام بودي أب ذير لايك مي» هي تأمل مُوح وبارع في السُلطة ترويه شخصية تجمع بين أدوار نجم موسيقى الروك المخلص، والسياسي الديماغوجي، ومبتكر الإعلانات.\* (58)

شرح بوي: «أنا بالفعل شخصٌ لم يجد عن مساره. ما قلته لسنوات بطرقٍ مختلفة هو أن «احترسوا، لسوف يظهر هتلر آخر في الغرب!». لقد قلتها بألف طريقة مختلفة». ومع ذلك بدأ

58- \* عمل بوي لفترة لصالح وكالة إعلانية مثل شخصية كومستوك في رواية «دع الدريقة تطير»، واعتاد أن يتعها بال«شيطانية». كان مفتوناً بدراسة فانس باكارد عن التلاعب النفسي لصناعة الدعاية في كتاب «المقنعون المستترون». (المؤلف).

يتخلَّى عن عبارة «احترسوا!» في المقابلات مع تحوُّل هواجسه طويلة الأمد بالسلطة ووسائل الإعلام ورجال نيتشه الخارقين والسحر الأسود والغموض النازي إلى شيء بشع. قال بإعجاب إن هتلر كان «فنانًا إعلاميًا» استطاع أن «ينظِّم دولة». لقد أصبحت الديمقراطية الليبرالية في نظره ضعيفة ومنحلة، وتحتاج إلى إحياء «وعي ذكوري إلهي شديد الصلابة من العصور الوسطى. علينا أن نخرج ونعيد تصحيح العالم مرَّةً أخرى». سيتطلَّب الأمر ديكتاتورية فاشية مؤقتة. قال بوي، الذي بدا مثل إتش جي ويلز في أسوأ حالاته: «يجب أن تصعد جبهة يمينية متطرِّفة وتكتسح كل شيء وترتَّب بعدها كل شيء. عندها يمكننا الحصول على نوع جديد من الليبرالية».

عند قراءة هذه الحوارات في ضوء سياسات بوي الليبرالية واليسارية اللاحقة، فإن التفسير الواضح هو أنه كان رجلًا مصابًا بجنون العظمة، ومدمنًا على الكوكايين، ومحرومًا من النوم، ومرتبكًا بشدة، ويسمى خلف إجابات في مناطق خطيرة، ويسلِّي نفسه بصدم الصحفيين الموسيقيين الهيببيين باستفزازات حادَّة غير متَّسقة. سرعان ما خرج بوي من هذه المرحلة عندما انتقل إلى برلين، حيث كانت الشمولية حقيقة ماضية وحاضرة، لا مجرد حلم يقظة لنجم موسيقى روك. عندما نظر إلى الوراء بعد سنوات عديدة اعترته رجفة وقال: «ستحوِّل حياتي كلها إلى العالم الخيالي العدمي الغريب هذا، عالم دنو الهلاك والشخصيات الأسطورية والشمولية الوشيكة. إنه الأسوأ».

حقيقة أن كثيرًا من أعضاء المؤسَّسة البريطانية الذين

لم يسبق لهم أن لمسوا مخدراً في حياتهم كانوا يفكرون في نفس الاتجاه، تخبرنا بما يملأ مجلّدات كاملة عن مناخ منتصف السبعينيات المتقلّب. في مرحلة ما، حاول بوي تسويغ تعليقاته الشاذّة على أنها «ملاحظات مسرحية لما أراه قد يحدث في إنجلترا». في الواقع أنه لأوّل مرّة منذ الأربعينيات، كان الأشخاص الأقوياء يتحدثون بجديّة عن الديكتاتورية.

\*\*\*

بدأ يطفو على السطح حديث هامس عن حدوث انقلاب لأوّل مرة ديسمبر عام 1973، في مقال باتريك كوسجريف في مجلة «ذا سبيكتاتور». بعد شهرين، بينما كان بوي منغمساً في صنع ألبوم «دايموند دوجز»، صعد مرشّح حزب المحافظين اليميني المتطرف ونائب الاستخبارات البريطانية السابق جورج كينيدي يونج الأمر بتسريب أخبار عن «لجنة يونيسون للعمل» إلى تشابمان بينشر، المراسل الأمني لصحيفة «ذا ديلي إكسبريس». كتب بينشر تقريراً أن كبار رجال الأعمال والجنود السابقين وعملاء المخابرات السابقين شكّلوا «مجموعة أهلية كبيرة للمساعدة في حماية الأمة من استيلاء الشيوعيين على السلطة»، واقتبس كلام يونج دون ذكر اسمه: «لسنا فاشيين. نحن بريطانيون ديموقراطيون نضع مصالح الأمة فوق مصالح روسيا وعملائها السياسيين». نعت يونج اللجنة فيما بعد بـ«منظمة لمناهضة للفوضى».

كان يونج يُظهر مشاعر أكثر إفراطاً من التي كان المحافظون يعبرون عنها علانية خلال حملة الانتخابات العامّة في فبراير. زعم بيان حزب المحافظين أن حزب العمل الذي يتزعمه هارولد

ويلسون قد اخترقه متشدّدون «ملتزمون ببرنامج يساري أخطر وأكثر تطرّفًا من أيّ وقت مضى في تاريخه». نشرت مجموعة اللوبي اليميني «أهداف الصناعة» إعلانات صحفية على صفحات كاملة -تذكّر بالملصقات المناهضة لحزب الـ «بوم» في عام 1937- تُظهر قناعًا مبتسمًا نصف ممزّق يكشف عن وجه ستالين أسفله. كان بعبعهم هم نوّاب حزب العمل اليساريين بقيادة توني، وزعماء نقابيين مثل ميك مكجاي، نائب رئيس «الاتحاد الوطني لعمّال المناجم» الشيوعي. كان الخوف يأكل الطرفين. طلب كثيرٌ من قادة النقابات -بعد أن سمعوا شائعات عن مؤامرات اغتيال- أن يُعيّن لهم حراسٌ مسلّحون. بعد كل ذلك، أسفرت الانتخابات عن برلمانٍ مغلّق وعاد ويلسون -الذي شغل منصب رئيس الوزراء بين عامي 1964 و1970- إلى مبنى حكومة المملكة المتّحدة على رأس حكومة أقلية. كان ويلسون الذي يشتهر بذكائه وتفاؤله معتلاً ويعاني جنون الارتياب وضال الطريق، تمامًا مثل بلاده بين انتخابات فبراير وأكتوبر.

قارن بعض المحافظين بريطانيًا بألمانيا في فترة جمهورية فايمار، بينما تحدّث آخرون عن تشيلي قبل الانقلاب. إن استحواذ بينوشيه على السُلطة في تشيلي، و «العلاج بالصدمة» الذي أوصى به الخبير الاقتصادي ميلتون فريدمان، كان يحمل إغواءً شيطانيًا: تحدّث الأخ الأكبر في تشيلي عن ضرورة «تنظيف عقولنا». بعد زيارته لتشيلي في شهر مايو بتكليفٍ من صحيفة «ذا ديلي تلغراف»، نصّح الصحفي بيرجرن ورستورن القرّاء بأن يكونوا «أكثر انفتاحًا»، لأنّه على الرغم من عمليات القتل والتعذيب

والاختفاء، لم تكن طُفمة بينوشيه العسكرية بهذا السوء. «حسنًا، الديكتاتورية العسكرية قبيحة وقمعية»، هكذا كتب متحنجًا، ثم واصل: «ولكن إذا سمعت حكومة الأقلية الاشتراكية البريطانية -بالدهاء أو الرثاء أو الفساد والإرهاب والأسلحة من الخارج- إلى تحويل هذا البلد إلى دولة شيوعية، أمل وأدعو أن تتدخل قوّاتنا المسلحة لمنع حدوث مثل هذه الكارثة بكفاءة مثلما فعلت القوّات المسلحة في تشيلي». ذهب فريدمان إلى حد قول إن هذه كانت «النتيجة الوحيدة التي يمكن تصوُّرها».

كان هذا هو نوع التفكير المحموم الذي دفع الجواسيس المنشقّين والنبلاء المستائين إلى التجمّع في غرف مفروشة جيّدًا للتفكير في الخيانة ومناقشة الشائعات القائلة بأن هارولد ويلسون نفسه جاسوس للمخابرات الروسية، ويدير خلية شيوعية في مبنى الحكومة البريطاني. أثارت المخاوف من حدوث إضراب عام حديثًا عن نزول قوّاتٍ خاصةٍ محمولة جوًّا بالمروحيات فوق صفوف الاعتصام. في رواية روبن موم عن زمن الحرب «1946 إم إس»، يسوِّغ الجنرال بوينتر إعلان حالة الطوارئ في البلاد قائلاً: «اليوم، بسبب الاضرابات في جميع أنحاء بلاده، انعدم الأمن والثقة... أنا متأكّد من أنكم بالتالي ستوافقوني على أنه يجب علينا اتّخاذ كل الإجراءات الممكنة لاستعادة الأمن في هذا البلد». في يوليو 1974، بدا تصريح الجنرال السير والتر ووكر -قائد حلف الناتو في شمال أوروبا حتّى وقتٍ قريبٍ- مشابهاً على نحوٍ غير مريح في رسالته إلى «ذا ديلي تلجراف» التي ناشد فيها أن يظهر رجلٌ قويٌّ فعّالٌ لإنقاذ بريطانيا من «حصان طروادة

الشيوعي الذي بين جنباتنا». وادّعى أن الاستجابة كانت إيجابية تمامًا. وعندما سُئل عما إذا كان الشعب يرغب في معادل بريطاني لليونشيه، أجاب بسلاسة: «ربما تختار البلاد أن تُحكم بالسلاح بدلاً من الفوضى». ظهر أوزوالد موزلي، شبح الفاشية الماضي، على شاشات التلفزيون ليؤيد خيارًا ثنائيًا مشابهًا. لخص اللورد تشالفونت -وهو شريف سابق من حزب العمل كان مغرمًا باقتباس أورويل في مجلس اللوردات- هذه المناورات البغيضة في مقال في صحيفة «التايمز» بعنوان: «هل يمكن أن تكون بريطانيا في طريقها انقلاب عسكري؟»، مبيّحًا كلاً من «نشطاء اليسار الماركسي الجديد وبلطجية اليمين الفاشي الجديد».

أصبح ووكر -الثعبان المتعصب الذي يتهم خصومه بالشيوعية- قائدًا لحركة «المساعدة المدني»، التي دمجت فصلاً منشقًا عن «يونيسن» مع حركة «ريد ألتر» المشابهة في التفكير. أطلق العقيد ديفيد ستيرلنج، مؤسس القوة الجوية الخاصة، منظمة أخرى من «الوطنيين القلقين» تُسمّى «جيه بي 75». عندما سُرّبت خطط ستيرلنج إلى مجلة «بيس نيوز»، تكهّن توني بن بأهدافها الحقيقية: «على الرغم من أنني لا آخذ أيًا من أهدافها على محمل الجد، فلا شك في أنها تهدف إلى خلق شعور بأن الفوضى على وشك الاندلاع، وبالتالي نحن بحاجة إلى حكومة استبدادية قوية». كان بين -الذي أصبح وزيرًا للصناعة بعد انتخابات أكتوبر- بمنزلة مانع صواعق الجهود المبذولة لتقويض حكومة ويلسون، وبسبب ذلك تعرّض لحملة لا هوادة فيها من التشهير والمراقبة والتهديدات بالقتل.



استمرت عاصفة الغيوم حتى عام 1975. «الشيء المؤكد الذي يشعر به الجميع تقريباً بشكل غريزي، هو أن الأمور لا يمكن أن تستمر على منوالها الحالي»، هكذا ورد في عمود جريدة «تايمز» الرئيس في مايو 1975، الذي لم يذكر حدًا للمدى الذي قد يسوء به الوضع قبل أن تسيطر بريطانيا على نفسها: «عندما يصل الحال إلى ما يشبه عام 1938، على المرء انتظار حلول عام 1940». في يناير التالي، قدّم اللورد تشالفونت فيلمًا وثائقيًا جدليًا بعنوان «يجب ألا يحدث هذا هنا»، وقف فيه بجانب قبر كارل ماركس يعدّد الطرق التي انزلت بها بريطانيا بالفعل نحو الشيوعية. عندما شاهد توني بن الفيلم في منزله، شعر بأنه «ينظر إلى وجوه الطُفّة العسكرية».\* (59)

خلال عامي 1975 و1976، سُخر من موضوع الوطنيين الباسلين الذين يحبطون المؤامرات السوفيتية التي تهدف إلى تدمير الديمقراطية البريطانية في مسلسل السيت كوم «سقوط وصعود ريجنالد بيرين»، وهُوجم في مسرحية ديثيد إدجار «مصير»، واحتُفل به في روايات إثارة مختلفة مثل «المجموعة الخاصة» لتيد ألبيري و«فعل وحشي» لكينيث بنتون. اعتاد كلٌّ من ألبيري وبنتون العمل في أجهزة المخابرات. لا يوجد توضيح أفضل لحالة الارتباب التي استولت على بريطانيا في منتصف السبعينيات من حقيقة أن بعض العملاء السابقين كانوا يؤلفون

59- \* انزعج بن بشكل خاص عندما سمع أن وودرو وايت وصفه بأنه مصدرٌ تهديد قطع شوطًا طويلًا جدًا على مدى سبعة وعشرين عامًا منذ أن وبّخ أورويل لأنه لم يكن يؤيد حزب العمل بشكل كافٍ، وأصبح الآن مناصرًا لحزب المحافظين. (المؤلف).

سيناريوهات خيالية يناقشها عملاء سابقون آخرون في الوقت نفسه بجديّة. أصبحت الحدود بين الخيال والواقع أكثر غموضًا. أحد الملفات المسرّبة عن حيل المكتب الخامس (المخابرات الحربية) كان تحت مُسمّى «البرتقالة الآلية».

عزا اللورد تشالفونت فيما بعد نجاح زعيمة حزب المحافظين الجديد مارجريت تاتشر إلى «كل هذه المخاوف من البيروقراطية، ومن الحكومة المفرطة، ومن تآكل حرية الفرد، ومن كل مخاوف الفوضى». قال إن تاتشر «ضربت على وتر كان ينتظر أن يُضرب عليه». بينما تلاشت كل من منظّمات «يونيسون» و «المساعدة المدنية» و «جي بي 75» بالسرعة التي جاءت بها، ظهرت «جمعية الحرية الوطنية»، وهي مجموعة بارعة ومهنية تربطها علاقات قوية مع تاتشر وحزب المحافظين. أحد الشخصيات البارزة في الجمعية، وهو الأكاديمي والصحفي الأسترالي روبرت موس، وسم تدشين المجموعة في أواخر عام 1975 بكتاب مثير للاهتمام بعنوان «انهيار الديمقراطية». اقترح أنه في مواجهة الاستبداد أو الفوضى، قد تجد بريطانيا أن الاستبداد الذي شوهد في تشيلي وإسبانيا والبرازيل خيارًا أقل سوءًا: «لا يحرّض المرء هاملت على الليدي ماكبث». ووصف البديل المروع في مقال «رسالة من لندن عام 1985» في هيئة قصّة مفرطة الخيال الديستوبي تحكي عن جمهورية بريطانية مدّمة اقتصاديًا ترزح تحت أعقاب حكومة الشعب العامل. في كابوس موس، أفسحت الشرطة الطريق أمام «ميليشيات المصانع، وحلّ مجلس النقابات العمالية محلّ مجلس اللوردات، وأصبح قصر باكنجهام الآن وزارة المساواة. صار

أعضاء حزب المحافظين المحظور يعيشون مثل المقاتلين الثوار، يستمعون إلى «راديو بريطانيا الحرة»، ويحاولون مراوغة دولة المراقبة والتفوق عليها. يختتم موس بجهامة قائلاً: «إنه عالم بارد دخلناه باسم المساواة والسلام، وأشك فيما إذا كانت توجد إمكانية للعودة منه، على الأقل في حياة المرء».

النبوءات كلها خيالية إلى أن تتحقق. إذا كان الأدب اليوتوبي قد بدأ كمحاولة لتلطيف الجدل السياسي باستخدام شخصيات وحبكات خيالية، فليس من المستغرب أن يضيف المجادلون الجادون بعض التوابل الأوروبية إلى رؤاهم. في كتاب «موت الديموقراطية البريطانية»، رسم ستيفن هاسلر -الذي وصف نفسه بأنه «ليبرالي حرب باردة» من تيار العمل اليميني- سيناريوهين بأئسين للمستقبل القريب: إما فوضى وفقر وعنف لا يمكن السيطرة عليها، وإما ديكتاتورية تقودها النقابات ب«الرطانة الفكرية في كابوس أورويل الروائي «1984»». أثارت مجموعة المقالات التي بعنوان «العام 1985: الهروب من رؤية أورويل «1984»: طريق المحافظين إلى الحرية» مخاوف تحويل حزب العمل لبريطانيا إلى «عضو اشتراكي قومي في حلف وارسو». يبدو أن سمعة التاريخ الشهير وحدها هي التي كانت لها أهمية في نظر المساهمين في الكتاب: لم يُذكر اسم أورويل غير مرة واحدة فقط في 146 صفحة من العصف الذهني اليميني المتشدد، ولم يُقتبس على الإطلاق.

بات من الصعب تمييز التنبؤات عن الخيال. وصلت مخاوف مجيء ديكتاتورية النقابات العمالية إلى الذروة مع فيلم ولفريد جريتوريكس التلفزيوني المعادي للاشتراكية «1990»، الذي نرى

فيه الصحفي البطل الذي قام بدوره إدوارد وودوارد يُحرّض ضد «إدارة الرقابة العامة» الشبيهة بالـ«كيه جي بي» في بريطانيا الشمولية المتهاكمة التي نتجت عن الإفلاس الوطني. قال وودوارد لـ«راديو تايمز»: «إنه فيلم مخيف أكثر من «1984» بكثير لأنه أقرب إلينا ممّا كان كتاب أورويل لجيله. إنه حقًا قاذب قوسين أو أدنى». أما «مسرحية تشرشل» للكاتب المسرحي الاشتراكي هوارد برينتون فتدور أحداثها في معسكر اعتقال أنشأته حكومة وحدة وطنية فاشية في عام 1984. يقول برينتون في وصفه الأوروبي لعمله: «إنها هجاءٌ يحذّر قائلًا: «لا تدعوا المستقبل يؤول إلى هذا»...».

بنت مجلّة القصص المصوّرة الجديدة «2000 آيه دي» صدماتها المستقبلية أيضًا على أعنف مخاوف العصر. كان عالم القاضي دريد -الذي ابتكره الكاتب چون فاجنر والرّسام كارلوس إيزكيرا- يشبه هجينًا من ألوم «دياموند دوجز» وفيلم «هاري القذر» ورواية «صحوة النائم» ومحاكاة ساخرة لأوهام الجنرال ووكر الاستبدادية. الناجون من الحرب النووية يعيشون في مدن ضخمة مضطربة يحكمها رجال قانون عسكريون متعجرفون لا يكثرثون للإجراءات القانونية الواجبة. نقيض البطل دريد هو رجل وحشي شبه فاشي، رسمه إيزكيرا اعتمادًا على ذكرياته عن إسبانيا تحت قيادة الجنرال فرانكو.<sup>(60)</sup> أما مسلسل «بليك

60- \* في عام 2016، نشرت مجلّة «2000 آيه دي» عددها رقم 1984. كانت صورة الغلاف عبارة عن ملصق عملاق لدريد يقول: «وزارة العدل تراقبك»، وتحت شعار يقول: «إنما الأمور بخواتيمها...» (المؤلف).

7» التليفزيوني من إنتاج «بي بي سي» فجمع بين أفسى أفكار أورويل وهكسلي وويلز في عمل أشبه بـ«ستار تريك» للمتشائمين المزمنين. كان باتريك ماكجوهان يموج بالمخاوف بدوره. في مقابلة تليفزيونية عام 1977، قال: «أعتقد أن التقدم هو أكبر عدو للإنسان على وجه الأرض، بخلاف ذاته... أظن أننا سنعتني جيّدًا بهذا الكوكب قريبًا». سأله أحد المشاهدين ما إذا كان الشعب سينتفض ويصحّح الأمور. قال ماكجوهان: «كلا، لأننا نُدّار من قبل البنتاجون، من قبل ماديسون أفينيو، من قبل التليفزيون.. وما دمنا نقبل هذه الأشياء ولا نثور، سيكون علينا السير مع التيار إلى مصبّ الشلال الحتمي».

\*\*\*

كما لاحظ الروائي مارتن آيمس في عام 1978: «لم يعد أحد يكتب يوتوبيات: حتّى يوتوبيات الماضي تبدو اليوم كأنها ديستوبيات». كتب أيمس، الذي كان والده الاشتراكي السابق، كنجسلي، بنفس الآن عن مخاوفه في أعمال خيال علمي يمينية كئيبة- هذا في مراجعته كتاب أنتوني برجس الغريب جدًا «1985». النصف الأوّل من الكتاب عبارة عن نقدٍ غير متوقّع لرواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، مدفوعًا باقتناع برجس أن الرواية كانت في جوهرها كوميديا سوداء عن بريطانيا في فترة ما بعد الحرب. بعد أن رفض برجس «الاستبداد غير المحتمل» في رواية أورويل، يقدّم البديل. تستند دولته «توكلاند» إلى فكرة روبرت موس الأساسية عن جمهورية بريطانيا (الخراب الاقتصادي ومذهب المساواة البشع التي أحدثتها النقابات العمّالية العاتية)، ولكن

برجس يحشوها بالمواد الإباحية، وعصابات الشوارع المسلّحة بالخناجر، والرتانة السوقية التي غزت لغة العمّال الإنجليزية، والعرب الأصوليين الأثرياء. تلخّص الأسماء الجديدة للفنادق المملوكة للعرب -الهيلتونز والداينرز- مزيج الرواية التمس من الهجاء الرديء والمحافظة العُصابية. كل إيماء صريحة لأورويل هي أذى أدبي فعله برجس لذاته.

من بين مشكلات الكتاب التي يصعب حصرها، عدم قدرة برجس عن توقُّع عام 1978، فضلاً عن عام 1985. خمّن مارتن آيمس أن فكرة الكتاب وُلدت في عام 1976، عندما «بدا أن كل شيء جاهز للمرحلة النهائية»، لكن الحمّى كانت قد انطفأت بالفعل بحلول الوقت الذي ظهر فيه. ظلّت بريطانيا هشة ومنقسمة وعنيفة، وهو ما مهّد الطريق للثورة التاتشيرية، لكن أزمة بريطانيا الوجودية الحادّة كانت قد هدأت. كانت الجبهة الوطنية اليمينية المتطرّفة التي صارت لفترة وجيزة رابع أكبر حزب في بريطانيا تتراجع. في النهاية، لم يحدث الأمر هنا. أما بخصوص ادّعاء برجس بأن «نبوءة» أورويل كانت خاطئة، فهو خارج عن سياق موضوعنا. كتب آيمس أن «الروايات لا تهتم بما إذا كانت ستتحقّق أم لا، ولقد اجتاز أورويل اختبار الزمن بنجاح ساحق بمعنى آخر تماماً». لقد أضحت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وعاءً يمكن لأيّ شخص أن يصبّ فيها تصوُّره الخاص عن المستقبل. في حين أن جيل الستينيات استندوا إليه روح الوحدة المتحدية الكامنة فيه، تبنّت ثقافة البانك إحساس الرهبة الذي يغلف الكتاب. «اسمع، أنت تعرف ماذا حدث لونسون»،

هكذا زارت فرقة ذا چام. «الآن جاء عام 1984 يخبط على باب دارك»، هكذا سخرت فرقة ديد كينديز. أما أغنية فرقة ذا كلاش الأولى، «1977»، فتنتهي بجو سترامر وهو يصيح بتواريخ السنوات القادمة، قبل أن يتوقف فجأة كجسدٍ يسقط من حبل مشنقة قائلاً: «إنه العام 1984!».

مكتبة  
t.me/soramnqraa

## الفصل الثاني عشر

### الهوس بأورويل

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في عام 1984

«كان أورويل يطفو في الهواء. لم أقرأ «1984»،

لكننا جميعاً نعرف ما هي».

تيري جيليام

قبل دقائق قليلة من منتصف ليلة رأس سنة 1983، صار عددٌ قليل من المشاهدين في مدينة توين فولز بولاية أيداهو هم أول جمهور يشاهد ما سيصبح لاحقاً أشهر إعلان تليفزيوني في العقد. هذا ما شاهدوه: صفوف من العوام البائسين الباهتتين يسرون مثل الروبوتات نحو قاعة، حيث يجلسون للاستماع إلى وجه على شاشة هائلة يصيح متحدثاً عن «توجيهات تنقية المعلومات» التي ستخلص المجتمع من «الحقائق المتناقضة». تخترق فتاة رياضية شابة صفوفهم، تحمل مطرقة ثقيلة وعلى سترتها صورة كمبيوتر، وتطاردها شرطة مكافحة الشغب على نحوٍ أخرق. إنها المرأة الوحيدة في الغرفة؛ مصدر الحيوية والألوان الزاهية الوحيد. مع اقتراب الخطاب من ذروته، تُطوِّح مطرقتها بقوة إلى الشاشة. ينفجر وجه الديكتاتور، وتُغمر الغرفة بالضوء الأبيض وموجة الصدمة. يجلس العوام البائسون كالمَنومِّين، ويقول صوت المعلق: «في 24 يناير، ستطرح شركة أبل نظام ماكنتوش. وسترى لماذا لن يكون عام 1984 مثل رواية «1984»».



قبل عدّة أشهر، طلب الشريك المؤسس متقلّب المزاج لشركة أبل، ستيف جوبز، من وكالة الإعلانات كيات داي ابتكار فكرة راعدة للترويج لمنتج الجديد الذي إما سيكتسح وإما سيفشل. اقترح المخرج الإبداعي لي كلو والمدير الفني برنت توماس ومؤلف الإعلانات ستيف هايدن فكرة أوروبية كانت تدور في عقولهم منذ بضعة أشهر. أحبّ جوبز، الذي كان لا يزال يرى نفسه متمردًا من الثقافة المضادة، الفكرة. استأجرت شركة كيات داي مخرج فيلم «بليد رانر»، ريدلي سكوت، لتصوير الإعلان في استوديوهات شيبرتون في لندن بميزانية غير مسبوقة. جاء سكوت برامية القرص، أنيا ميچور، في دور البطلة حاملة المطرقة؛ وبديفيد جراهام، الممثل الذي أدى صوت شخصية داليكس في «الدكتور هو»، في دور بديل الأخ الأكبر؛ أما الخطاب فكتبه هايدن عن طريق «اقتباس عبارات عشوائية من موسوليني إلى ماو».

حُجزت قاعة لعرض للإعلان في ليلة رأس السنة الجديدة من دون دعاية، ليصنّف على أنه إنتاج عام 1983، وبالتالي يستطيع التأهل لموسم الجوائز. أمّا العرض الحقيقي فكان بعدها بثلاثة أسابيع خلال مباراة السوبر بول: أكبر حدث تليفزيوني أمريكي كل عام. كانت هناك مشكلة واحدة فقط. أصاب الإعلان الذي أسعد أعضاء مؤتمر مبيعات شركة أبل السنوي مجلس الإدارة بالرعب، وطلبوا من جوبز تدميره. علّق كلو: «قالوا إن إنفاق كل هذه الأموال على إعلان لا يعرض جهاز الماكنتوش سيكون تصرفًا غير مسؤول». أبقت شركة كيات داي المشروع حيًا عن طريق التباطؤ والتظاهر بأنهم غير قادرين على إعادة بيع وقت

العرض باهظ الثمن الذي حجزوه لعرض الإعلان في السوبر بول. كانت هذه المقاومة السلبية تصرُّفًا ذكيًا. في 22 من يناير، في منتصف المباراة بين فريق واشنطن ريدسكينز ولوس أنجلوس رايدرز، شهد ستة وتسعون مليون أمريكي إعلان «1984». قال أحد المعلنين المنافسين الذي أعجبه الإعلان أنه أوَّل إعلان في السوبر بول على الإطلاق «يجعل الناس في البارات يتحدثون عن إعلان تجاري بدلاً من المباراة». تحوَّل الإعلان على الفور إلى قصَّة إخبارية، وخلق دعاية مجانية لا تقدر بثمن. وفقًا لمجلَّة «آدفرتيزينج إيج» «لا يوجد إعلان تجاري في التاريخ الحديث أثار مثل هذا الاهتمام المهني والشعبي بهذه السرعة». كان الإعلان مثاليًا رائعًا للتسويق المناهض للشركات، ونجح في تحويل تحذير أورويل إلى حكاية متفائلة عن عصر المعلومات. مثلت أنيا ميچور -رامية المطرقة- كلاً من شركة أبل ومستخدم أبل: المستضعف الشجاع الذي يستعيد السلطة من الحكومة. في حفل إطلاق الماك في 24 يناير، ألقى جوبز خطاباً يصوِّر شركة «آي بي إم» الرائدة في الصناعة على أنها جالوت الشرير الذي يحاول سحق منافسه الجاد الوحيد: «هل ستهيمن شركة الأخ الأزرق على صناعة الحاسبات بأكملها؟ على عصر المعلومات بأكمله؟ هل كان جورج أورويل محقاً؟». غير أن وكالة كيات داي الإعلانية لم تكن تأبه بـ«آي بي إم» على الإطلاق. كان هدفهم تقديم الصورة السلبية عن استخدام الحاسبات كأدوات للتطفل والتحكُّم، التي رسَّخت لها أفلام مثل فيلم «بليد رانر» لريدلي سكوت. ما قاله الإعلان ضمناً هو إن أفضل طريقة لمكافحة التكنولوجيا الخبيثة

هي استخدام التكنولوجيا الحميدة. أم لو كان لدى ونستون سميث مطرقة.

أظهر إعلان «1984» أيضًا أن أيقونية ديستوبيا أصبحت الآن راسخة إلى درجة أنه يمكن اختزالها في مقطع مدته ستين ثانية: العوام السليبيون موحدو الزي والشرطة العسكرية وشاشات التليفزيون والخطاب الاستبدادي والمتمرد الوحيد والوجه المحدق. لقد فهم المشاهدون الأجواء على الفور. إن سيناريو الخضوع الجماعي الميكانيكي («نحن شعب واحد، بإرادة واحدة، وعزم واحد، وسبب واحد») يعود إلى زامياتن أكثر من أورويل في واقع الأمر، وقد كان مرجع سكوت المرئي الرئيسي هو فيلم إتش جي ويلز «الأشياء القادمة». نعت مدير كيات داي التنفيذي، بول كونهون، الإعلان صراحةً بأنه «تأويل رخيص لكتاب أورويل» صمم بفرض «الاستفادة من الشهرة التي منحها أورويل لهذا العام». على الرغم من براعته، لم يتطَلَّب الأمر صاحب رؤية منشقًا لعقد تلك الصلة.

\*\*\*

«لم يتبقَّ سوى عام واحد!»، هكذا صرخت نافذة عرض متجر كتب جرينويتش فيلديج التي زُيِّنت بطابع أورويلي في يناير عام 1983. على بعد شوارع قليلة، شارك أكثر من سبعين شخصية عالمية بارزة، بما في ذلك الفنانة چيني هولزر والمهندس المعماري ريم كولهااس، في معرض بعنوان «1984: لمحة مسبقة»، وهو معرض «يلقي نظرة ثاقبة على نبوءات أورويل». في الصحافة، لمَّح الصحفيون من جميع الاتجاهات السياسية كراتهم الكريستالية

وشحذوا سيوفهم. في عددٍ خاص من صحيفة «ذا فيلدج فويس» طُرِح تحت اسم «لنواجه الأمر»، كتب جيفري ستوكس أن «تأثير الرواية في عشية عام 1984 كان بنفس قدر تأثيرها تقريبًا عندما نُشرت في عام 1949». أما من منظور الروائي الألماني جونتر جراس، لم يبد أن عامًا واحدًا كان كافيًا، فقد وصف الثمانينيات بـ«عقد أورويل».

بحلول ديسمبر، صار الهوس بأورويل جائحة. «إذا لم يكن لديك رأي حول تصوُّر أورويل للدولة الشمولية مطلقة القوى، فمن الأفضل لك أن تُكوِّن رأيًا»، هكذا نصحت صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل». حذَّر برنارد كريك، كاتب سيرة أورويل والمدافع الدؤوب عنه، من أن «طاعون» الهوس بأورويل من شأنه أن يقترب من حجم نجاح «حروب النجوم». كان مارك هاملتون، القيم على تركة أورويل الأدبية، في حالة انتعاش مادي بلا شك. قال لصحيفة «ذا جارديان» إنه رفض طلبات كثيرة للحصول على حق استخدام الرواية في صنع قمصان، وتقويمات، وألعاب لوحية، ومسرحيات موسيقية، وأي شيءٍ آخر قد «يُضعِف» من سمعة أورويل. عندما أبلغه المراسل عن وجود قمصان غير شرعية مكتوب عليها «1984: فُكِّر ازدواجيًا في الأمر»، قال هاملتون متهِّدًا: «لا نستطيع التحكم في كل شيء».

خلال عامي 1983 و1984، باعت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ما يقرب من أربعة ملايين نسخة باثنتين وستين لغة. في يناير من العام الذي سمَّته دار «بنجوين» للنشر «عام الكتاب»، بات الكتاب هو الأوَّل على الإطلاق الذي يتصدَّر قائمة الكتب

الأكثر مبيعاً في «نيويورك تايمز» بعد سنوات من نشره أوّل مرة؛ وتعدّدت احتفالات إحياء الذكرى: ظهرت طبعة أمريكية جديدة بتعقيب من والتر كرونكايت، وطبعة أخرى يشرحها كريك، ونُشرت نسخة طبق الأصل من المخطوطة المتاحة، وتصدّرت ملفّات عن الرواية أغلفة «تايم» و«إنكاونتر» و«راديو تايمز» و«دير شبيجل». صدر فيلم ومسلسلان تليفزيونيان ومعالجة مسرحية للرواية، الأخيرة كتبها الروائي التشيكي المتمرّد باقل كوهوت. صُنِعَ تمثالاً من الشمع لأورويل وهو يكتب على آله الكاتبة تحت عين رجل شرطة مسلّح في متحف مدام توسو. بالإضافة إلى سيل لا نهاية له من الأفلام الوثائقية والمؤتمرات. تقفّى الصحفيون أثر أورويل عبر باريس ولندن وويجان. عُرِضَت سلسلة «جرائم الفكر» على مسرح باربيكان بلندن أعمالاً سياسية لصمويل بيكيت وفاتسواف هايفيل وهارولد بينتر، الأخير الذي كانت مسرحيته الجديدة «كأس أخيرة من أجل الطريق» عبارة عن تأمّل في اللغة والعنف والسلطة.

كانت معظم احتفالات إحياء الذكرى متوقّعة، لكن من كان يتوقع ظهور ستيّف مارتن وجيف جولدبلوم في اسكتش كوميدي أصبح فيه «ستوديو 54»، قبلة الديسكو، «وزارة الحياة الليلية»؛ أو أن شعارات أوقيانيا ستُستخدم في الإعلان عن السجّاد؛ «الحربُ سلامٌ»، هكذا بدأ الإعلان التجاري لمتجر الأثاث «آينشتاين مومجي»، ثم واصل: «الحرية عبودية، الجهلُ قوّة. وسجّادنا الصوفي الجديد المموجّ بسعر 19.84 دولاراً للمتر المربّع! بهذا السعر، من الأفضل لك أن تحترس، أيّها الأخ الأكبر». صارت

الرغبة في عقد اتصال -أي اتصال على الإطلاق- بالقديس جورج متهافنة نوعاً ما. اعتقدت مجلة «جايد» أن تعاطف أورويل مع الطبقة العاملة من شأنه أن يجعله محبباً بلا شك في مسلسل السيت كوم «تشيرز». كتبت مجلة «ميوزيشن» محتدة في مراجعة لألبوم فرقة فان هالين «1984» عديم الصلة: «الأخ الأكبر يقابل فرقة ذوي الخصى الكبيرة». أما مجلة هيئة السياحة البريطانية فقد تفوقت على الجميع بعنوانها الجريء المخادع: «مزارع حيوانات أورويل في 1984». كان التحقيق يتعلّق بتربية الماشية بالقرب من نهر أورويل.

ليس من المستغرب بعد كل ذلك أن يبدأ الضجر من أورويل بينما العام لا يزال في بدايته. «هل يمكن أن ننسى جورج أورويل لدقيقة أو دقيقتين؟»، هكذا تنهّد جيمس كامبيرون في حوار مع صحيفة «ذا جارديان» في عدد 3 يناير. اشتكى الصحفي بول جونسون في مجلة «ذا سبيكتاتور» من أن الإفراط في أورويل صار «كابوساً أوروبلياً في حد ذاته». سخر النائب عن الحزب الليبرالي الكس كارليل من زملائه الذين قارنوا كل شيء «بتنبؤات جورج أورويل التي ابتذلت بالفعل عمّا قد يحدث في عام 1984». حتّى سنوبي -الشخصية الكارتونية- صوّر وهو يتواثب فوق مأواه في رسومات تشارلز شولز، مجهداً من «التفكير في كل نكات جورج أورويل التي سنضطر إلى الاستماع إليها في عام 1984». ترقّى أورويل من مجرد بطل أدبي إلى شخصية شهيرة كلية الوجود، في حين تحوّلت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» من رواية إلى «ميم».

حتماً، ركّز جزء كبير من الهوس بأورويل على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بصفتها المزعومة كنسوة. اصطف كُتّاب مجلّة «ذا فيوتشرست» لتقريره: «بصفته متنبئاً بالعالم في عام 1984، فإن أورويل مخطئ جداً إلى درجة توهله لأن يُنبذ من مجلس المتنبئين، بل لجعله يتلاشى»، هكذا صاح المحرّر.<sup>(61)</sup> أصرّ آيزك أزيوف على أن أورويل «تُبّت خطؤه» فيما يتعلّق بالحاسبات والسفر إلى الفضاء، الأمرين اللذين لم يظهرهما في الكتاب. كان لإعلان شركة الحاسبات «أوليڤيتي» موقف مماثل لا معنى له: «وفقاً لأورويل، سيصبح البشر والحاسبات أعداء في عام 1984. لكن نظرت المتشائمة كانت خاطئة». في الواقع، لم يكن أورويل يحاول من الأساس توقّع شكل التقدّم التقني في الأنظمة الديمقراطية الناجحة. لكن على المرء أن يقرأ الكتاب ليعرف ذلك.

من بين الأشخاص الذين لم يفعلوا ذلك فنان الفيديو الرائد نام جون بايك. في يوم رأس سنة 1984، نظّم بايك برنامجاً تليفزيونياً متعدد الوسائط بالقمر الصناعي للاحتفال بقوة الوسيط في تعزيز الاتصال. كان من ضمن المشاركين في البرنامج فيليب جلاس وجون كيدج وبيتر جابريل ولوري أندرسون وميرس كاننجهام وألين جينسبيرج وجوزيف بويز وسلفادور دالي (الذي وصفه أورويل ذات مرة بالـ «الوغد الصغير القذر»). كان

61- \* يبدو أن المجلّة كانت محو مقال عام 1978 بقلم ديفيد جودمان في «حفرة الذاكرة»، المقال الذي حدّد وجود 137 تنبؤاً منفصلاً في الرواية، وخلص إلى أن أكثر من مئة منها تحقّق بالفعل. (المؤلف).

عنوان البرنامج الساخر هو «صباح الخير يا سيد أورويل». وعلى صعيد آخر، غنّت فرقة أوينجو بوينجو في أغنية «استيقظوا، إنه العام 1984»: «الأخ الأكبر يصرخ لكننا لا نهتم/ لأنه لا يملك شيئاً ليقوله/ فكّروا في المستقبل، فكّروا في النبوءة/ فكّروا في أطفال اليوم». قال بايك لصحيفة «نيويورك تايمز»: «لم أقرأ كُتُب أورويل قط، إنها مملة. لكنه كان أول نبي للاتصالات الإعلامية». يبدو أن بايك قد افترض أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» رواية عن التليفزيون.

سألت إحدى الصحف نجل أورويل، ريتشارد بليز (الذي كان في التاسعة والثلاثين من عمره الآن مثل ونستون سميث)، عمّا كان والده سيقول عن كل هذا الجنون به. قال: «أعتقد أنه كان سيصاب بالفزع الشديد من الطريقة التي فسّر بها الناس ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

\*\*\*

كيف يمكن لرواية أن تكون «خاطئة»؟

لم يتحدّث أورويل كثيراً عن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، لكن ما شدّد على قوله هو أنها ليست نبوءة. ربّما كانت هجاءً أو تحذيراً أو محاكاةً ساخرة، لكنها ليست نبوءة. كما قال في تصريحه لفرانسيس إيه هينسون عام 1949: «لا أعتقد أن المجتمع الذي وصفته سيتحقّق بالضرورة، لكنني أعتقد أن مجتمعاً شبيهاً قد يتحقّق». من الواضح أن هذا لم يحدث. لقد تعرّض الغرب للإحباط والتشويه من نواحٍ عديدة بسبب مكاييد الحرب الباردة، لكنه لم يتحوّل إلى استبدادٍ مماثل. البلد الذي يمكنك فيه قراءة



«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ليس هو البلد الموصوف في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بطبيعة الحال. في غياب هذا التطور، لم يكن إطلاق أبل لحاسوب ماك يشكل أي فارق على الإطلاق. إذا كنت تباع منتجاً في عام 1984 -سواء كان حاسوباً شخصياً أو اقتصاديات ليبرالية جديدة- صار من الضروري أن تُصرِّح أن أورويل (الصورة الرمزية للتشاؤم) كان خاطئاً. لكن هذا لم يكن حُجَّة بل شعاراً ترويجياً. عندما طلبت صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل» من أورسولا كيه لو جين (التي تلقت أكثر من أربعين دعوة للتحدث في فاعليات متعلّقة بأورويل) تقييم بصيرة أورويل، اعترضت قائلة: «أنا لا أعمل في مجال العرافين». وأضافت أن أدب الخيال العلمي يستخدم استعارات من الحاضر، فكيف يمكن أن يكون صحيحاً أو مخطئاً بشأن المستقبل؟<sup>(62)</sup>

يجدر التوقّف ههنا لملاحظة حجم الإنجاز الاستثنائي لكتاب استطاع أن يجعل عامّاً، أي إحدى رحلات الكوكب الروتينية حول الشمس، بهذه الأهمّية. لطالما كان العام 2000 حدثاً كبيراً منتظراً، لكن عام 1984 أصبح عامّاً بارزاً فقط لأن رجلاً واحداً قرّر -في اللحظات الأخيرة- تغيير عنوان روايته. إذا كان أورويل قد تمسك بعنوان «آخر رجل في أوروبا»، ما كان أيٌّ من هذا ليحدث. كما كتب جورج شتاينر في مقالٍ جيّد وقاسٍ في مجلّة «نيويوركر»: «لم يحدث قط أن استطاع رجلٌ، أو جرّة قلم، شطب

62- \* أعادت رواية لو جوين «المسلوب» المنشورة عام 1974، مثل رواية «امرأة على حافة الزمن» لمارج بيرسي، إحياء الخيال العلمي اليوناني بسياسات الثقافة المضادة في السبعينيات، ومن ثم تجاوزت تأثير أورويل تماماً. (المؤلف).

عام من رزنامة الأمل غير أورويل. هل ستتبخّر رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» من الوجدان الجمعي بعد عام 1984؟ هذا -في رأيي- سؤالٌ صعبٌ جدًا».

\*\*\*

في 4 أبريل 1984 (وهو تاريخ أوّل تدوين في يوميات ونستون سميث)، نقلت صحيفة «لندن تايم» خبر إضراب عمّال المناجم البريطانيين الذي كان قد مرّ عليه وقتها شهر واحد فقط. طُرد المتظاهرون من معسكر السلام النسائي في قاعدة جرينهام الجوية المشتركة. خضع مهندس في وادي السيليكون للمحاكمة بتهمة التآمر لبيع بيانات أبحاث الصواريخ لوكلاء بولنديين. نُشر خبر قصير عن عرضي معالجتني 1954 و1956 له ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في مسرح السينما الوطني بلندن، تحت صورة كئيبة للممثل جون هُرت في موقع التصوير النسخة الأحدث. توفيت سونيا أورويل من جراء ورم في المخ في 1 ديسمبر 1980، بعد أن أنهكتها معركة قانونية مريرة لاستعادة السيطرة على شركة جورج أورويل للإنتاج، الشركة التي أسّسها محاسبو أورويل في عام 1947، وبعد مرور ثلاثين عامًا من العيش في ظلّ زوجها الرَّاحل الهائل. ماتت سونيا في الثانية والستين من عمرها، وقرب النهاية قالت لإحدى صديقاتها: «لقد أفسدت حياتي».

قبل أسابيع قليلة من وفاتها، التقت سونيا محاميًا من شيكاغو، وصانع أفلام طامحًا اسمه مارفين روزنبلم غمر نفسه في أعمال أورويل لإغرائها لبيعه حقوق تحويل الرواية إلى السينما

والتلفزيون. بعد عدة محادثات، «تحدث خلالها عن أورويل مثل النافورة»، نجح روزنبلم في مسعاه. على مدار السنوات الثلاث التالية، لم يقابل أيَّ معوقات لإعادة إنتاج «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في عام 1984، لكنه لم يستطع التوقيع مع مخرج ومنتج يلتزمان بالعقد الذي يحظر الاقتراب من «نمط الخيال العلمي الخاص بـ»حروب النجوم» أو «2001: أوديسا فضائية».

نجح روزنبلم في ذلك بعد عدة محادثات «تحدث خلالها عن أورويل مثل النافورة» مرّة أخرى. لم يتوصّل إلى اتفاق إلا بحلول أكتوبر 1983، وقد أجراه مع المخرج البريطاني مايكل رادفورد والمنتج سيمون بيرري، بعد نجاح فيلمهما الدرامي عن الحرب العالمية الثانية «وقت آخر، ومكان آخر». «كان علينا أن نضمن أن الفيلم سيصدر في نهاية عام 1984، لذلك كان علينا أن نبدأ على الفور»، هكذا أخبرني رادفورد البالغ من العمر 72 عامًا في «نادي تشيلسي للفنون» في لندن في صيف عام 2018.

تحرك صنّاع الأفلام سريعًا. بحلول كريسماس عام 1983، انتهى رادفورد من كتابة السيناريو واستطاع بيرري الحصول على ستّة ملايين دولار من شركة إنتاج ريتشارد بارنسون الوليدة «فيرجن فيلمز». اتفق الرجلان على أن أحدهما لن يلعب دور ونستون سميث غير جون هرت، الممثل البريطاني العليل الذي يبدو دائمًا كأنه يعاني من سعال سيئ وضمير يقظ أسوأ. قال رادفورد: «لقد كان التجسيد الأمثل لونغتون سميث. هذا الشخص المُضنى المؤرّق. كان رياضيًا جدًا في الحقيقة، لكنه يستطيع القسوة على جسده». لحسن الحظ كان هرت من عشاق الرواية، وأراد أن يلعب

دور ونستون منذ أن قرأها وهو طالب في الخمسينيات. قال هُرت: «الشيء العظيم في أورويل أنه يدعم ما تشعر به بشكل غريزي». الممثلة الطفلة السابقة سوزانا هاميلتون صارت جوليا، في حين ما مكَّنت دعوة مفتوحة لاختيار ممثل لدور الأخ الأكبر المخرج رادفورد من العثور على بوب فلاج، كوميديان النوادي الذي يتمتَّع «بعينين ثاقبتين جدًا». لم يكن اختيار ممثل شخصية أوبراين بالسهولة نفسها: كان شون كونري مشغولاً ورفض الدور، وكان أاجر مارلون براندو مرتفعاً جداً، وكانت ساق بول سكوفيلد مكسورة. فقط بعد مرور أسابيع من التصوير استطاع رادفورد استدراج ريتشارد بيرتون من تقاعده في هايتي، لأداء الدور الذي سيكون آخر وقوف له أمام الكاميرا قبل وفاته في أغسطس. وفقاً للمخرج، ارتدى بيرتون بذلة العمال الوحيدة التي قُصِّلت في شارع أزياء الرجال الراقي الشهير سافيل رو. قال رادفورد: «كان ممثلاً استثنائياً. المجهود الوحيد الذي بذلته معه هو الاستمرار في إنزاله من عليائه، بليوننة ونعومة». بدأ بيرتون يجد منطق أوبراين المجنون مغرياً بشكل مزعج، وقال لهرت: «هذا مخيف حقاً. لقد بدأت الاعتقاد بالفعل في أن ما أقوله صحيح».

عندما قرأ رادفورد الكتاب أوَّل مرَّة عندما كان مراهقاً، كان يعلم «بالضبط كيف يبدو شكل العالم. هناك الكثير ممَّا يمكن فعله». يحتوي كتاب أورويل على أماكن كثيرة لا تُتسى، واستخدامه للبث الإخباري والملصقات لأغراض السرد القصصي وبناء العالم هو في حدِّ ذاته جزء من أدوات السينما الأساسية لتجسيد مجتمعات المستقبل القريب. «شاشات الرصد هي ما شكَّلت صدمة كبيرة

في نظري»، هكذا قال المخرج الذي استخدم تقنية «الإسقاط الخلفي» لإيهام المشاهد بالشاشات العملاقة. «كانت تهيمن على كل شيء، كما يفعل التلفزيون. لكن كان من الرائع أن تكون قادرًا على قول شيئين في نفس الوقت». بعد الإبحار في تاريخ البروجاندا، صمّم رادفورد تحيةً وعلمًا وشعارًا ونشيدًا وطنيًا خاصة به، واعتمد في إحدى البيانات الإعلامية في الفيلم على بكرة فيلمية حقيقية تتحدث عن زمن الحرب كتبها الشاعر ديLAN توماس لصالح وزارة الإعلام. قال رادفورد موضّحًا استخدامه التكنولوجيا القديمة والأزياء القديمة: «اعتدت أن أقول للناس إن هذا عالم مواز: عام 1984 كما تخيّل رجلٌ في عام 1948». استخدم المصوّر السينمائي روجر ديكينز طريقة مبتكرة لإعطاء الفيلم مظهره البارد باهت الألوان. عادةً، تُفسل بكرات الأفلام من نترات الفضة لجعل الألوان زاهية، لكن ديكنز تركها كما هي. «الشيء المهم في نظري هو خلق عالم يصدّقه الناس»، هكذا قال رادفورد.<sup>(63)</sup>

جدّدت أخبار الفيلم اهتمام ديقيد بوي بـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». التقى بوي رادفورد وبرانسون لمناقشة تأليف الموسيقى التصويرية للفيلم، لكن بوي لم ينفك عن الحديث عن «الموسيقى العضوية» ولم يفهم أيّ شخصٍ آخر معنى ذلك. لكنها قطعًا لم تكن تبدو شبيهة بالمقطوعات التي أرادها برانسون، لذلك رفض

63- \* في أثناء زيارته لموقع التصوير، تلقّى مارفن روزنبلوم مكالمات هاتفية تسأل ما إذا كان إعلان «1984» لشركة أبل مقطعًا من الفيلم، ما دفعه إلى تهديد شركة كيات داي بأنه سيقاضيه، لكن أوان ذلك كان قد فات. (المؤلف).

الاستمرار والتفت بدلاً من ذلك إلى مغنيي فرقة يوريثمكس المتعاقدين مع شركته «فيرجن ريكوردز»، وهو الأمر الذي لم يعرفه رادفورد إلا عندما اتصلت به مغنية الفرقة آني لينوكس من استوديو في جزر الباهاما لتسأله لماذا لم يحضر. وصل الخلاف المحترم بين رادفورد وبرانسون إلى صفحات الأخبار وصنع دعاية ممتازة لفيلم لم يكن من السهل بيعه حول. كان الخلف يدور حول ما إذا كان من الأفضل استخدام موسيقى فرقة يوريثمكس غير الملائمة لأجواء الفيلم («الجنس، الجنس، الجنس، الجنس، جريمة الجنس»)، أم موسيقى دومينيك مولداوني.

يتذكّر رادفورد: «كانت الفكرة الشائعة في الوسط هي أن الفيلم لن يحقق نجاحًا لأن نهايته لم تكن سعيدة. أيضًا لأنه لم يكن روايةً حقًا، وإنما مقال عملاق الطول في الأساس. قالوا لي: "سيكون جمهورك من هم في سنّ خمسة وثلاثين عامًا وعلى دراية بأورويل. سيكون نجاحه محدودًا". لكن الفيلم حقق نجاحًا كبيرًا، وتراوح سنّ الجمهور الذي شاهده من خمسة عشر إلى عشرين عامًا. لماذا؟» قالها وضحك. «لأنه كان يحكي بالكامل عن اليأس. الشباب يحبون اليأس».

قال بيرري في ذلك الوقت: «كنا مثقلين بواجب ثقيل هو أن نُخرج الفيلم بشكل يصلح لكل الأزمنة». يشبه فيلم رادفورد إلى حدّ كبير تخيل القارئ لما يجب أن تكون عليه أجواء رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كان هذا الإخلاص يعني أن الفيلم -بغض النظر عن موسيقى يوريثمكس- لم يتقدم. لكن في الوقت نفسه الذي كان رادفورد يصنع فيه فيلمه، كان فنانون آخرون يدمجون الأفكار

الأوروبية في رؤى ديستوبية جديدة تمامًا ترتبط مباشرة بمزاج الثمانينيات: «في نور هينديتا»، و «حكاية الجارية»، و «برازيل».

\*\*\*

لن يكون من الدقة أن نقول إن المخرج تيري جيليام كان متأثرًا برواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» وهو يصنع فيلم «البرازيل»، لأنه لم يكن قد قرأها بعد. لكنه كان متأثرًا بأجواء «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» التي تغلغلت في الثقافة العامة: «كانت المعرفة العامة في الجو، في الأمور تتعلمها في الكلية والتي تحدثت الكلام عن 1984».

عندما بدأ جيليام تطوير الفكرة في أواخر السبعينيات، كان اسم الفيلم المؤقت «الوزارة»، وكان هناك اسم آخر أيضًا هو «2/1 1984»: وهو تكريم مزدوج لأورويل وفيليني، للإشارة إلى طبيعة الفيلم المنسوجة من الخوف والخيال. قال جيليام لاحقًا للروائي سلمان رشدي: «إن فيلم «برازيل» نتاج لتلك الفترة تحديدًا، لاقترب عام 1984 الذي يجثم في الأفق... لكن لسوء الحظ، صنع هذا النفل المدعو مايكل رادفورد نسخة من رواية «1984»... لذا أسقط في يدي». يمكنك تكوين فكرة عن طابع الفيلم الفريد من حقيقة أن جيليام فكّر أيضًا في اسم «وزارة التعذيب» و «كيف تعلّمت التعايش مع النظام، حتّى الآن»، قبل الاستقرار على اسم «برازيل»، تيمُّنًا بالأغنية التي تصدح في الفيلم. تبدو كأنها أسماء ثلاثة أفلام مختلفة تمامًا.

من الواضح أن جيليام التقط بعض الأفكار المهمة التي استخدمها أورويل. إن البيروقراطي السلبي سام لوري (جوناثان

برایس) وسائق الشاحنة الجامد چیل لایتون (کیم جریست) على شاکلة ونستون وچولیا تقریباً. تُوجد أيضًا وزارة إعلام تستخدم مصطلح «استرجاع المعلومات» کنایة عن التعذیب. واسم الوثيقة الرسمية 27 بی-6 هو إشارة طریفة لعنوان شقّة أورویل الأخيرة فی لندن: رقم 27 بی، ساحة کانونبیری. لكن هدف جیلیام لم یکن هجاء الشمولية. لا یُوجد متعصّبون فی «برازیل، ولا دیکتاتور. فقط المدیرون البیروقراطیون الذین یبقون على آلة الدولة تعمل. بُذرت بذرة الفیلیم فی رأس جیلیام عندما قرأ إحدى وثائق محاكمات الساحرات فی القرن السّابع عشر. تضمّنت الوثيقة قیّم المبالغ المالیة التي كان على المتهّمین دفعها مقابل تعذیبهم وإعدامهم. تلك القسوة العبثیة المتمثّلة فی تحویل عنف الدولة إلى عمل تجاری ألهمت هذا الفیلیم الذی یهجو بیروقراطية خیالیة عدیمة الشفقة تسوّغ جمیع أفعالها: تبدأ الحبكة بسبب خطأ کتابی فی الوزارة.

یتجسّد هجاء جیلیام فی الاعتداءات الإرهابیة التي حلّت محل قنابل أورویل الصاروخیة کوسيلة لإبقاء الشعب فی حالة حرب دائمة. أحبط المخرج المراسلین الذین حاوروه بقوله إنه حتّى هو لا یعرف ما إذا كان الإرهابیون حقیقیین أم عملاء للدولة. «الوزارة بحاجة إلى إرهابیین سواء كانوا موجودین بالفعل أم لا»، هكذا وضّح رئیس سام، السیّد هلبمان، فی مسوّدة سیناریو أولیة كتبها جیلیام وتشارلز ألفرسون. «إن لم یكونوا موجودین، ستُوجدهم الوزارة... بمجرد ما بدأ النظام العمل، ثبت أنه مكتفٍ ذاتیًا بالكامل... تغذّیه من الداخل وفرة من جنون العظمة



والطموح». تتطلَّب أوقيانيا كذلك إمدادًا لا ينقطع من المجرمين، سواء كانوا مذنبين أو غير مذنبين، لأن «عمليات التطهير والتبخير جزء ضروري من آليات الحكومة»، لكن جيليام أعاد صياغة هذه الفكرة إلى نكتة مجنونة.

في افتتاحية فيلم «برازيل»، يوضِّح سطرٌ على الشاشة أن الأحداث تدور في «وقتٍ ما من القرن العشرين». مثل «1984»، يمزج الفيلم الحاضر والمستقبل بأربعينيات القرن الماضي، عن طريق ملصقات زمن الحرب الدعائية، وتصميمات موجة «آرت ديكو»، والأنابيب الهوائية، والتكنولوجيا العتيقة. في الواقع، استخدم كلا الفيلمين طاقم اختيار مواقع التصوير نفسه. تذكر رادفورد: «استخدمنا كثيرًا من مواقع التصوير نفسها. واصلنا العثور على آثار لفيلم "برازيل"، لكن لم يكن لديّ فكرة حقيقية عنه في ذلك الوقت». كان الفيلمان مثل التوأمين المنفصلين: خاضت سوزانا هاميلتون تجربة أداء للعب دور جيل، بينما رُشِّحت جيمي لي كورتيس لدوري جيل وجوليا.

صارت شبه التحيّة التي قدّمها جيليام لأورويل نعمة ونقمة في الوقت نفسه بمجرد الانتهاء من الفيلم. كان فرانك برايس، رئيس شركة يونيفرسال، محرِّر قصّة نسخة «استديو وان» عام 1953 من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، واعتبر أن «برازيل» لا يعدو كونه محاكاة سيئة. نعتة الناقد السينمائي جوديث كريست بـ «1985»، بينما وصفته بولين كايل في «ذا نيو يوركر» بأنه «مهزلة ثملة له 1984». بالتأكيد المهزلة الثملة له «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» لا تمثل رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على الإطلاق. عادة

جويليام الدائمة في مشاكسة السلطة، التي تضمنت معركة شرسة مشهورة مع يونيفرسال حول نسخة العرض النهائية من «برازيل»، حصّنته ضد التشاؤم. ربّما كانت النهاية متشائمة جدًّا في نظر شركة يونيفرسال، لكن وفقًا لمعايير أورويل، فإن حقيقة وفاة سام قبل أن يستسلم مثالية جدًّا. أخبر جويليام سلمان رشدي بأن سام أصبح بطلًا عندما توقّف عن أن يكون ترسًا في آلة: «جواهر فيلم «برازيل» في نظري هو المسؤولية والمشاركة.. لا يمكنك السماح للعالم بالاستمرار في فعل ما يفعله من دون التورط». هذا أيضًا هو جواهر «في فور فينديتا».

\*\*\*

كان لدى أورويل دراية عابرة بقصص الأبطال الخارقين المصوّرة. في عام 1945، تلقّى طردًا يحتوي على بعض القصص المصوّرة التي نشرتها دي سي وتايملي (التي صارت «مارفل» بعد ذلك)، وقد عرّفه على أسماء مثل سوبرمان وباتمان والشعلة البشرية. لم يكن من المعجبين بهذا النوع من القصص، وكتب: «من الواضح تمامًا أنها تميل إلى تحفيز أوهام عن القوّة، وفي نهاية المطاف يمكن تلخيص جوهرها في السحر والسادية. لا يمكنك أن تنظر إلى صفحة من دون أن ترى شخصًا يطير في الهواء، أو شخصًا يلكم آخر على فكه، أو شابة لا ترتدي ما يكفي من ملابس وتقاتل من أجل شرفها، ومن المحتمل بالقدر نفسه أن يكون عدوُّها روبوتًا فولاذيًا أو ديناصورًا طوله خمسة عشر مترًا مثلما قد يكون إنسانًا. الأمر برّمته مجرد إثارة رخيصة لا معنى لها».<sup>(64)</sup>

64- \* في ذلك العام، نشرت مجلة «تايم» مقالًا بعنوان «هل القصص المصوّرة فاشية؟»، وصف فيه الأستاذ اليسوعي والتر جيه أونج سوبرمان بأنه «مثال لبطل الدولة الخارقة، له اهتمام واضح بأيديولوجيات سياسات القطيع». (المؤلف).

ربّما لم يكن أورويل ليفيّر رأيه أبداً، ولكن بحلول الثمانينيات، كما ظهر مع قصص «القاضي دريد»، أصبحت القصص المصوّرة وسيلة فعّالة للهجاء اليساري. جاء الكاتب ألان مور بفكرة الإرهابي غريب الأطوار الذي يحارب دولة شمولية أوّل مرّة في عام 1976. بعد ستّ سنوات، بدأ ينشر مع ديفيد لويد، الرّسام المتشائم بالقدر نفسه، رواية «في فور فينديتا» سلسلة ضمن كتاب المختارات القصصية المصوّرة البريطانية «وورير»، وجعل الأحداث تدور بعد خمسة عشر عاماً في المستقبل. بافتراضه الخاطئ أن حكومة مارجريت تاتشر التي لا تحظى بشعبية ستخسر الانتخابات العامّة المقبلة، تخيّل مور أن حزب العمل سيتبنّى سياسة نزع السلاح من جانب واحد، التي ستحمي بريطانيا من حرب نووية ستدمّر معظم العالم. لكن الخراب الذي تُسبّبه الحرب على المناخ والإمدادات الغذائية يجعل بريطانيا فريسة سهلة لحكومة «نورسفاير» الفاشية الجديدة، التي استولت على السلطة في عام 1992 وأرسلت الأعداء السياسيين والأقليات غير مرغوب فيها إلى معسكرات الاعتقال. أحد هؤلاء الأعداء، الذي حوّلته تجربة علمية (وهو الامتثال الوحيد في القصّة لقواعد الأبطال الخارقين)، يهرب ويصبح الإرهابي الأناركي في. وصف لويد -الذي ابتكر قناع في المستوحى من جاي فوكس- الفكرة بأنها قصّة مصوّرة «للأشخاص الذين لا يفلقون القنوات الإخبارية».

قائمة الأعمال الطويلة التي أثّرت في مور -والتي نُشرت في «وورير» - تضمّنت أعمالاً للثلاثي الديستوبي: أورويل وهكسلي وبرادبوي؛ بالإضافة إلى قصص «القاضي دريد»، ومسلسل

«السجين»، وديفيد بوي، وموجة الخيال العلمي الجديدة. رسومات لويد للندن الرمادية المنهكة لها نكهة أوروبية، كما هو الحال مع شعارات النظام، «القوة من خلال النقاء، والنقاء من خلال الإيمان»، والشعار الأكثر إثارة للأعصاب الآن ممّا كانت عليه في ذلك الوقت: «لنجعل بريطانيا عظيمة مرة أخرى». مثلما الحال في مقاطعة آيرسترب وان، قُضي على تراث الأدب والموسيقى. فقط في «المعرض الخفي» الذي يملكه هي، ما زال يمكن الاستماع إلى أصوات الماضي، من شكسبير إلى موتاون. أنتجت معرفة مور العميقة بهذا الضرب من الأدب نكتة واحدة على الأقل جيدة جدًا. يتتبع المسلسل التليفزيوني الناجح في «نورسفيار» المغامرات العنصرية للبطل الآري ستورم ساكسون في عام 2501 في «دولة إنجلترا المستقبلية كابوسية». إذاً هذا ما يعتبره حكام الدولة الديستوبية ديستوبياً.

غابت رواية «هي فور فينديتا» في عالم النسيان عندما أُغلقت مجلة «وورير» في عام 1985. بحلول الوقت الذي أعاد فيه مور ولويد إحياءها وإكمالها لصالح «دي سي» في عام 1988، بعد تسع سنوات من حكومة تاتشر، استطاعا تدقيق توقعاتهما السابقة. قرّر مور أنه كان شديد التفاؤل عندما فكّر في أن «الأمر سيتطلب أزمة هائلة مثل صراع نووي وشيك لدفع إنجلترا نحو الفاشية». صار الآن يعتقد أن الأمر لن يكون بهذه الصعوبة على الإطلاق.

\*\*\*

بدأت مارجريت آتوود كتابة «حكاية الجارية» في برلين الغربية في ربيع عام 1984. مثل أورويل عندما شرع في «ألف وتسعمئة

وأربعة وثمانون»، كانت في بداية الأربعينيات وتعرف تماماً ما تريد قوله. وُلدت الرواية بملف من قصاصات الجرائد بدأت تجمعه في أثناء ما كانت تعيش في إنجلترا. كانت القصاصات تغطي مواضيع مثل الحقوق الدينية، والسجون في إيران، وانخفاض معدل المواليد، والسياسات الجنسية النازية، وتعدد الزوجات، وبطاقات الائتمان. لقد تركت هذه الملاحظات المتنوعة تتخمر، مثل السماد العضوي، حتى نشأت قصة منها. أسفارها في ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا، حيث اختبرت «الحذر والشعور بالمراقبة وتكميم الأفواه وتغيير المواضيع والطرق المنحرفة التي يمكن للناس من خلالها نقل المعلومات»، غدّت الرواية أيضاً، بالإضافة إلى هوسها القديم بالديستوبيات والحرب العالمية الثانية. تذكّرت ارتباطها بونستون لأنه كان «على خلاف صامت مع الأفكار ونمط الحياة المتاحان أمامه». (قد يكون هذا أحد الأسباب التي تجعل قراءة «1984» أفضل عندما تكون مراهقاً: معظم المراهقين يشعرون بذلك). «لقد أقتعتها الرواية أن تلك الأمور يمكن أن تحدث لها بالفعل، حتى في كندا في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي. نفت آتوود أن تكون «حكاية الجارية» عملاً ينتمي إلى الخيال العلمي، وفضّلت تسميتها «خيال تخميني أوروبي الطابع».

تُروى الرواية على لسان أوفريد (أي «المملوكة لفريد»)، وهي «جارية» دورها الوحيد في دولة جلعاد، الشيوقراطية الفاشية التي وصلت إلى السلطة عن طريق انقلاب وحشي وبسبب أزمة

خصوصية مزمنة، هو إنجاب الأطفال للطبقة الحاكمة العقيمة.\* (65) مهندسو جلعاد متعصبون يوتوبيون يؤمنون حقاً أنهم يبنون عالماً أفضل وأسعد. «يُوجد أكثر من نوع واحد من الحرية»، هذا ما قالتها العمّة ليدا البيروقراطية الرزينة للجاريات. «في أيام الفوضى، سادت الحرية. أما الآن فتمنحنا التحرُّر. لا تقلل من شأن ذلك». في اللغة الجديدة، الجذر اللغوي «حر» يعني التحرُّر فحسب؛ أما مفهوم الحرية فلم يعد موجوداً.

الملحق الذي أوردته آتوود في نهاية الرواية، «ملاحظات تاريخية على حكاية الجارية»، يجمع بين تحيةً لملحق «مبادئ اللغة الجديدة» ومحاكاة ساخرة للأوساط الأكاديمية: العنوان الذي منحه باحثو القرن الثاني والعشرون المتخيلون لحكاية أوفريد فهو نكتة تشوسرية الطابع. لكن هذا الملحق هو آخر وأوضح بصمات «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على رواية آتوود. تُوجد أيضاً مذكرات سرّية (مسجّلة صوتياً على شريط لا مكتوبة، لأن الكتابة من الأمور المحرّمة على النساء في جلعاد) بلا ضمان أن يسمعها أحد. يُوجد شئ عام، ومخبرون، وكتب ممنوعة (بعبارة أخرى كل الكُتب) ومحو للتاريخ. هناك «نساء تتلاشى» ورجال شرطة اسمهم «الأعين» يراقبون الجميع. تُوجد طقوس عنف مقنّنة تسمّى «الانتشال»، وهي أشبه بـ«دقيقتي كراهية» دمويتين. مرّة أخرى، هذه الأفكار استقتها آتوود من العالم الحقيقي بقدر

65- \* كما لاحظ أورويل في أثناء كتابته عن رواية «العقب الحديدية»، فإن كلمة برول prole، أي العوام، تأتي من كلمة بروليتاريين proletarii اللاتينية، التي تعني: أولئك الذين تكون قيمتهم الوحيدة للدولة إنتاج النسل. (المؤلف).

ما استقتها من أورويل. وضعت آتوود قاعدة لنفسها: «لن أدرج في الرواية أيّ تفصيلة لم يفعلها البشر بالفعل في مكان ما أو زمن ما». يذكر الملحق إيران وروسيا ورومانيا. استوحت آتوود أيضًا بعض الابتكارات الوحشية من النازيين، وأسياد العبيد الأمريكيين، والطُفمة العسكرية في أمريكا الجنوبية، وصيَّادي الساحرات في سالم. تكمن عبقرية جلعاد، مثل عبقرية أوقيانيا، في التوليف. يعود التساؤل من جديد عن مصدر الإلهام. كثير من تفاصيل «حكاية الجارية» من ابتكار آتوود. بدءًا من حسّ الدعاية اللاذع والأسلوب القوي، إلى التعامل مع قضايا الجنس والجنسانية والعرق والتطرُّف الديني التي بالكاد استوعبها أورويل. كان يدرك جيّدًا أن الشمولية تتسلَّح بالأمومة والتزمّت الجنسي: «جريمة الجنس» هي أيُّ ممارسة باستثناء «الجماع الطبيعي بين الرجل والزوجة لغرض وحيد هو إنجاب الأطفال، ودون متعة جسدية من جانب المرأة»، وهذا يجعل مرافقة ونستون لجوليا «عملاً سياسياً». لكن اهتمامه بحياة المرأة الداخلية كان طفيفًا، على نحوٍ يضرب به بصفته كاتبًا وإنسانًا.

ما يجعل أجواء جلعاد تبدو أورويلية حقًا هو مناخ عدم الواقعية المُشَل. تفترض أوفريد أن أخبار المعارك البعيدة بين جلعاد والفصائل الدينية المتنافسة قد تكون مزيفة وأن حركة المقاومة مايداي، مثل جماعة «الأخوية» في كتاب أورويل، قد لا تكون موجودة. حتّى ذكرياتها تخونها: عندما تحاول تخيّل وجهي زوجها وابنتها المفقودة، يذبلان كالصور المحترقة. تسمّي أوفريد نفسها «لاجئة من الماضي». سيكون الجيل القادم من النساء

أسعد وأطيع «لأنهن لن يحتفظن بأيّ ذكريات عن أيّ عالم آخر». مثل ونستون سميث، ليست أوفريد راديكالية. إنها تبحث فحسب عن أشياء لتتمسك بها قبل أن تستحيل ضباباً. على الأقل احتفظ ونستون باسمه، على الرغم من أن إنجلترا لم تفعل: يمكن تخيل أن يكون اسم أيرستريب وان الآخر هو «المملوكة لأوقيانيا».

بصفتها أول ديستوبيا مدروسة عن المستقبل القريب ركزت على اضطهاد المرأة، باعت «حكاية الجارية» أكثر من مليون نسخة في أول عامين. وتبعها فيلم مبني على سيناريو لهارولد بينتر عام 1990. منذ ذلك الحين، لم تفك آتوود تُسأل بانتظام عما إذا كان الكتاب تنبؤاً. إجابتها عن السؤال يمكن أن تنطبق على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «نقل إنها نقيض التنبؤ: إذا كان من الممكن وصف هذا المستقبل بالتفصيل، فربما لن يحدث».

\*\*\*

كان أورويل سيبلغ من العمر واحداً وثمانين عاماً في عام 1984. جميع أصدقائه الذين تحدّثوا في المؤتمرات أو نشروا مذكرات أو أجروا مقابلات في ذلك العام وحوله كانوا قد تخطّوا السبعين.<sup>(66)</sup> حتّى المعجبون الأصغر سنّاً الذين تعاركوا حول أحقيتهم إرثه في أوائل الخمسينيات كانوا في الستينيات من

---

66- \* كان من بين الباقيين على قيد الحياة ستيفن سبندر وتوسكو فايفل ومالكولم موجريدج وأنتوني باول وجوليان سيمونز وجاسينثا بوديكوم وجورج وودكوك وديفيد أستور وبول بوتس. أما ريتشارد ريس وإنز هولدن وچاك كومون فكانوا قد رحلوا منذ فترة طويلة. بينما رحل فريدريك واريج وأرثر كويستر وأفريل دان مؤخراً نسبياً. (المؤلف).



أعمارهم. لهذا كانت آراؤهم مثقلة بعقود من الأحمال وبالإحساس الملح بأن من سيربح معركة رضاء أورويل الأخيرة المتخيلة سيفوز بالحرب. كانوا يقاتلون من أجل صلاحية ذكرياتهم والخيارات التي اتخذوها، حتى مع اعتراف بعضهم بحماقة ادعاء أن أفكار أورويل موالية لفكرهم السياسي. قال في إس بريتشيت لمجلة «تايم»: «لقد فهمته إلى حد ما. كان من الصعب تعريفه لأنه ما أن تحدّد وجهة نظر، تجده يتعارض معها».

كان الحلّ -الذي لا يزال شائعاً حتى يومنا هذا- هو تسليط الضوء على الاقتباسات التي يرى أيُّ كاتب أنها تدعم حجّته، وإلقاء تلك غير المفيدة في حفرة الذاكرة. لكن داخل عقولهم، أصرّ هؤلاء الكتاب ببساطة على الحقيقة. لقد تماثلوا بشدة مع نزاهة أورويل الأخلاقية واستقلالية عقله إلى درجة أن رؤية خصومهم وهم «يسرقونه» كانت تجرحهم وجدانيّاً. في حين أن بعضاً من بقايا شيوعبي الثلاثينيات كانوا يبغضونه ويتمنون انقطاع سيرته (وصف الصحفي أليك چيكوب البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بـ«أحد أكثر الكتب المثيرة للاشمئزاز في التاريخ»)، أراد جميع المعلقين الآخرين تقريباً القديس جورج في صفّهم، وأنّهم بعضهم بعضاً -بغضبٍ حقيقي- بالتضليل الفاحش.

أوضح أورويل أنه كان اشتراكياً ديموقراطياً عارض المحافظين والشيوعيين على حدٍ سواء، لذا فقد تمثّلت أكثر محاولة مثيرة للمشاعر لاستخدام سمعة الرجل في ملف غلاف مجلة «هاربر» عام 1983: «إذا كان أورويل على قيد الحياة اليوم»، الذي كتبه

نورمان بودهوريتز، أحد المحافظين الجدد الأمريكيين. «عادةً ما يكون تخمين ما كان سيقوله رجلٌ ميّت عن أحداث لم يعشها قط تجرُّوا لا طائل من ورائه»، هكذا اعترف بودهوريتز، قبل أن يصرَّ بقوة على أن أورويل العجوز كان سيقول إن نورمان بودهوريتز على حق. بالنظر إلى أن مؤسسة المحافظين الجدد الفكرية، «لجنة العالم الحر»، قد أطلقت بالفعل «أورويل برس»، وهي ذراع النشر الخاص بها، فإن أيّ استنتاج آخر كان سيكون غير مريح. ردُّ الاشتراكي البريطاني المشاكس كريستوفر هيتشنز اللطمة بترسانته الخاصة من الاقتباسات «لإثبات» أن أورويل كان سيظلُّ اشتراكياً ديموقراطياً يتبنّى وجهة نظر سلبية قاتمة عن «عباد السلطة الأثرياء الذين أصبحوا مفكرين هذه الأيام». استمرت لعبة شد الحبل هذه لشهور، ولم يكن من الممكن الفوز بها بالتأكيد. أشادت «ناشيونال ريفيو»، المجلّة المحافظة التي شارك في تأسيسها جيمس بيرنام، بأورويل، وكذلك الروائي اليساري إي إل دكتورو والتحرّريون المدنيون الذين ألفوا كتاب «رزنامة 1984: تاريخ أمريكي». استشهد الديموقراطيون والجمهوريون على حدٍّ سواء بـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في رسائل جمع الأموال خلال حملة الانتخابات الرئاسية عام 1984.

هُتحت جبهة معركة أخرى على صفحات الصحافة البريطانية، حيث نشرت «تربيون» سلسلة مقالات حول أشهر كتّابها. أصرَّ المحافظان بيرجرن ورستورن وألفريد شيرمان أن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» معادية للاشتراكية بوضوح. لا، لم تكن كذلك، هذا كان رد برنارد كريك وتوني بين. في ليلة رأس السنة الجديدة، ورد

ذكر الرواية في رسائل العام الجديد التي أرسلها زعماء الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة في بريطانيا. أعلنت مارجريت تاتشر أن عام 1984 سيكون «عام الأمل والحرية»، وبالتالي «كان جورج أورويل مخطئاً»، في الوقت الذي نشر فيه نيل كينوك من حزب العمل مقالاً في صحيفة «لندن تايمز» دافع فيه عن الرواية ضد «لصوص القبور» اليمينيين. ردّت بالمثل جريدة «ذا صن» -وهي من نوعية الصحف الصفراء التي كان أورويل يكرهها- بأن حزب نيل كينوك هو جنين حزب الإنجوسك في الواقع: إن كان حزب العمل قد فاز في الانتخابات العامة عام 1983 تحت حكم «الماركسي» مايكل فوت-زميل أورويل السابق في «تربيون» - «لكننا الآن نساق إلى دولة الشركات، ولما كانت هناك عودة إلى وراء». لكن -حمداً للرب- نجت بريطانيا من هذا الكابوس الأوروبي على يد مارجريت تاتشر. تحايل المقال الذي نشرته «ذا صن» بعنوان «20 شيئاً لم تكن تعرفها من قبل عن جورج أورويل» ولم يذكر كلمة «اشتراكية» مرة واحدة. لاحظ بول جونسون من مجلة «ذا سبيكتاتور» أن هذه «المبالغات الأيديولوجية» لا يمكن أن تؤدي إلا إلى التعادل: «بما أن الجميع من اليسار واليمين والوسط يمكنهم -ويتخطّفون بالفعل- الرجل البائس لخدمة كل غرض سياسي يمكن تصوره، فإن المحصلة النهائية تكاد تكون صفراً». ومع ذلك، لم يفكر أحد في احتمال أن تضمّ صفوف أولئك الذين يحاولون الاستيلاء على أورويل بروباجنديين روس.

في جهد منسّق بشكل واضح، نشرت ثلاث مجلات سوفيتية بارزة مقالات تزعم أن أورويل في الحقيقة كان يسخر من الغرب،

سواء كان يعرف ذلك أم لا. قدّمت صحيفة «نوفوي فريميا» رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على أنها «تحذير قاتم للمجتمع البورجوازي الديموقراطي المتجذّر -كما أشار أورويل- في معاداة الإنسانية، وفي النزعة العسكرية الطاغية، وفي إنكار حقوق الإنسان». بينما قالت جريدة «ليتراتورنايا غازيتا» أن رونالد ريجان هو الأخ الأكبر، وأن شاشات الرصد هي وكالة الأمن القومي، وأن أيرستريب وان هي تجسيد لمواقع الأسلحة النووية الأمريكية في جرينهام كومون البريطانية. أما جريدة «إيزفستيا» فقالت إن التاريخ قد حوّل أوقيانيا إلى «صورة واقعية تمامًا للرأسمالية الإمبريالية المعاصرة».

كان من الممكن أن يدّعي هؤلاء الكُتّاب أن الرواية تدور على سطح المريخ ولن يعرف قراءُهم شيئاً، لأن النخبة الحزبية فقط هي التي يمكنها الوصول إلى نسخة منها بشكل قانوني، تماماً كما يضع الحزب الداخلي وحده يده على كتاب جولدشتاين في «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». كان سعر الرواية في السوق السوداء يكلف ثلثي متوسط الراتب الشهري. في مثالٍ مذهل على التفكير السوفييتي المزدوج، تزامنت تلك النزعة التحريفية لأفكار أورويل مع محاكمة المترجم اللاتفي جونارس أسترا، الذي حُكم عليه بالسجن سبع سنوات في معتقل سيبيريا بتهمة «التحريض والدعاية المناهضة للسوفييت» بسبب جرائم تضمّنت توزيع نسخة ساميزداتية من رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

كان من السهل على مارجریت تاتشر أو ستيف چوبز أن يقولوا إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت تخميناً سيئاً، لكن بالنسبة

إلى بعض القراء، كان العمل تشريحاً مفصلاً بشكل مذهل لنظام ي ألفونه جيّداً. كتب كونور كروز أوبراين: «لم يسبق لأحد أن عاش في ليليبوت، وما إلى ذلك. لكن مئات الملايين من الناس يعيشون اليوم في ظل ظروف سياسية يمكن مقارنتها إلى حدّ كبير بجوهر صورة أورويل». شمل ذلك إيران والصين وكوريا الشمالية، لكن كان للكتاب طابع خاص في الكتلة السوفيتية. هي أثناء رحلاته عبر أوروبا الشرقية، قابل الصحفي تيموثي جارتون آش بانتظام معجبين مستترين بأورويل. هؤلاء اعتادوا أن يسألوه: «كيف عرف؟». حسناً، لأنه كان منتبهاً. لقد راقب السلوك الشيوعي في إسبانيا، واستمع إلى المنفيين، وقرأ كل كتاب وقع في طريقه. وكانت جهوده موضع تقدير. في كتاب «اليوتوبيا في السلطة»، وصف ميشيل هيلر وألكسندر نيكريتش أورويل بأنه «المؤلف الغربي الوحيد تقريباً الذي فهم طبيعة العالم السوفيتي».

لذلك أطلق مجيء عام 1984 العنان لطوفان من الذكريات. قال المهاجر الليتواني توماس فينكلوفا، الذي قرأ نسخة مهربة من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في أوائل الستينيات وربط القصة بأصدقائه كما لو كانت حكاية شعبية، إنها غيرت حياته: «كان أوّل من شرح لي أن الشخص الطبيعي لا يستطيع العيش في ذلك المجتمع». في مقدّمته لنسخة ساميزداتية تشيكية جديدة (قرأها بينتر بصوت عالٍ في سلسلة «جرائم الفكر» على المسرح)، استدعى ميلان لحظة تجلّ مماثلة: «صُدّمت عندما قرأت قصة ونستون سميث لأنني أدركت فجأة أنني أقرأ قصّتي أنا... أينما أذهب، وأيّما أسمع في الإذاعة والتلفزيون، أتذكّر

لندن في 1984». لذا، ففي حين ما اتَّهم بعض النقاد اليساريين في الغرب أورويل بكراهية البشر والانهزامية، وجد كثيرٌ من الناس الذين يريزون تحت مظلة الشمولية الكتاب ملهمًا، لأنهم شعروا بأن شخصًا يفهمهم: لقد اعتادوا أن يُشاهدوا، لكن لا أن يُروا. قارن شيمتشكا تجربة قراءته للرواية برْدَة فعل ونستون على كتاب جولدشتاين: «أفضل الكتب هي التي تخبرك بما تعرفه بالفعل». نشر المجري جيورجي دالوس تنمّة ذكية مريرة للرواية بعنوان «1985»، فيها أطاح ثوار «ربيع لندن» بحزب الإنجسوك قبل أن يُقمعوا في النهاية، تمامًا مثل أسلافهم في العالم الحقيقي في المجر وتشيكوسلوفاكيا.

صارت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كليشيًا مبتذلًا بين مفكّري الستار الحديدي إلى درجة أن ميلان كونديرا بدأ يكرهها. قد تبدو مقولة كونديرا الشهيرة «صراع الإنسان ضد السلطة هو صراع الذاكرة ضد النسيان» مستوحاة من أورويل، لكنه كان يعتقد أن الرواية شجعت أصدقاءه التشيكيين على رؤية حياتهم على أنها «كتلة غير متميزة من المخاوف». وأصرَّ على أن الحياة تحت الحكم السوفيتي لم تكن سيئة مثل الحياة في أوقيانيا. ألم يستمتعوا -على الرغم من كل شيء- بالفن والدعابات والصدافة والحب؟ كل ملذّات الحياة العنيدة التي لا يمكن اختزالها في السياسة؟ اشتكى قائلًا: «في حديثهم عن الأعوام الأربعين المروعة، كانوا جميعًا يضيفون صيغة أورويلية على ذكريات عن حياتهم».

بحلول الوقت الذي نشر فيه كونديرا هذه الكلمات في عام 1993، سقطت أوراسيا.

\*\*\*

غالبًا ما يُنسى أن أورويل لم يتفق مع أوبراين في موضوع الشمولية التي لا تقهر، وأكد في مقالاته الصحفية أن النظام يحمل داخله بذور سقوطه. وافقه في هذا الرأي المتمرد الروسي أندريه أمالريك. في عام 1970، نشر أمالريك مقالاً نوقش كثيرًا بعنوان «هل سيستمر الاتحاد السوفيتي حتى عام 1984؟» (اختار في الأصل عام 1980 موعدًا للانهيـار، لكن صديقًا له أقنعه بتبني موعد أورويل الحاسم بدلًا من ذلك). بسبب ذلك المقال، زُجَّ بأمالريك خمس سنوات في معتقل سيبيريا وتوفي لاحقًا في المنفى. بمجيء عام 1984، تعرَّض أحد أصدقائه للسخرية في السجن من ضباط الـ «كيه جي بي»: «لقد مات أمالريك منذ فترة طويلة، لكننا ما زلنا موجودين». يبيّن واقع ما جرى بعد ذلك أن أمالريك لم يكن مخطئًا بشأن نقاط الضعف القاتلة في الاتحاد السوفيتي، فقط هو توقع تاريخًا أبكر قليلًا. جادل الاشتراكي اليوغوسلافي المخضرم ميلوفان دجيلاس أنه بحلول عام 1984 كانت الشمولية قد تفككت بالفعل، ولم يتبقَّ منها غير «نظام طقسي». عُرِفت لغة هذا النظام باسم نوفويزاك: أي اللغة الجديدة.<sup>(67)</sup> السُّلطة بلا إيمان لا تعني الكمال، كما كان

---

67- \* في كتابها «اللغة الجديدة: لغة الشيوعية السوفيتية» المنشور عام 1989، يتوافق تحليل فرانسواز ثوم مع تحليل أورويل: «على اللغة الجديدة إظهار أن السلطة تعسفية وغير محدودة في الوقت نفسه، وعليها أيضًا تجسيد العنف السلطة. تعمل اللغة الجديدة ذلك بطريقتين: من خلال معارضة كل الأدلة، وعدم تكليف نفسها عناء إخفاء تناقضاتها». (المؤلف).

أوبراين يعتقد، بل الاضمحلال. من دون أيديولوجيا وإرهاب لم يعد النظام السوفيتي شموليًا. الدولة الشمولية، من دون شمولية، لا يمكن أن تستمر.

في عام 1987، طلبت حكومة جورباتشوف الإصلاحية من عالم الاجتماع المخضرم يوري ليفادا تدبير دراسة غير مسبقة للرأي العام الروسي. انتهز ليفادا الفرصة لاستكشاف نظرياته الخاصة حول الإنسان الذي خلقتة عقود العزلة والأبوة والامتنال: الهومو سوفيتيكاس. التفت ليفادا إلى أورويل والتفكير المزدوج لوصف الأفكار المتناقضة المطلوبة من الإنسان الروسي العادي، المُجبر على الإيمان بالتقدم والمساواة وهو لا يختبر أيًا منهما. أكدت الإجابات على استطلاع الرأي فرضيته القائلة بأن معظم مواطني الاتحاد السوفيتي كانوا يتظاهرون فقط بأنهم يؤمنون بالشيوعية: الجميع يعرف الحركات جيدًا إلى درجة أنهم واصلوا الرقص حتى عندما لم يعد بإمكانهم سماع الموسيقى. بعد ثلاثين عامًا، لخص الصحفي الروسي الأمريكي مasha جيسن النتائج التي توصل إليها ليفادا حول الإنسان السوفيتي (الهومو سوفيتيكاس) في كتابه «المستقبل هو التاريخ»: «كان عالمه الداخلي يتألف من تناقضات، وكان هدفه البقاء، وكانت استراتيجيته هي التفاوض المستمر: دورة لا نهائية من الألاعيب والتفكير المزدوج». في عالم أورويل، الإنسان السوفيتي هو جوليا: «كانت تُسلم بأن الجميع، أو الغالبية العظمى، يكرهون الحزب سرًا، وأنهم سيخالفون القواعد إذا أمنوا العقاب». كان ألكساندر ياكوفليف هو مُخطّط سياستي «الانفتاح والشفافية» و «إعادة الهيكلة» الخاصة بجورباتشوف. كان أحد



مشاريع ياكوفليف هو رفع الرقابة عن بعض الكتب ونشرها لأول مرة، مثل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» و «نحن». في يوليو عام 1991، وصف ياكوفليف روسيا بعبارات كان من الممكن أن يميزها قراء تلك الكتب الجدد: «مجتمعنا سقيم جداً. أرواحنا فارغة بشكل دائم. صرنا نفترض أن الجميع مذنبون طوال الوقت، وبالتالي خلقنا مئات الآلاف من العنّاسين الذين يراقبون أخلاقنا وضماننا ونقاء نظرتنا إلى العالم وامثالنا لرغبات السلطات. لقد حولنا الحقيقة إلى جريمة».

بعدها بخمسة أشهر، لم يعد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية موجوداً بشكل رسمي.

\*\*\*

ربّما كان من المتوقع أن يؤدي سقوط الشيوعية إلى جعل «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عملاً متقادماً يحكي عن حقبة معينة، مثل «ظلمة في كبد النهار»، أو «أرخبيل جولاج» لألكسندر سولجينتسين، لكن مناقشة الكتاب كانت قد تمحورت بالفعل حول موضوع الآلة. يجب التأكيد على أن أورويل كان أقل اهتماماً بالعلم في روايته من ويلز أو زامياتن أو هكسلي. على الرغم من أن شاشة الرصد ذكرت في الرواية ما لا يقل عن 119 مرة، لم تُستعرض طريقة عملها إلا بشكل ثانوي، وهي في الحقيقة وسيلة أقل فاعلية للتحكُّم من أدوات رجال الشرطة والمخبرين القديمة، أو قوّة عيني الأخ الأكبر التي تبدو خارقة للطبيعة. العلم في أوقيانيا لا يملأ صفحاتين من كتاب جولدشتاين. أو كما كتب البولندي ليوبولد لايبيدز -أحد المحافظين الجدد- في مجلة

«إنكاونتر» عام 1984: «في نظر أورويل، المشكلة هي تكنولوجيا السلطة لا قوّة التكنولوجيا... الأخ الأكبر ليس روبوتًا فضائيًا». لكن كانت هذه صرخة واهنة لمحارب بارد قديم. عندما قرّر أحد المدرّسين في نيويورك الرواية على تسعة وأربعين طالبًا بالغًا في عام 1982، قرأها واحدٌ فقط على أنها معادية للشيوعية. أما الباقي فذكّرتهم بمكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة المخابرات المركزية ووترجيت والتلفزيون وأجهزة الكمبيوتر. لقد صار الكتاب يُسمع الآن على تردداتٍ مختلفة.

تضمّن العدد المخصّص لأورويل من صحيفة «ذا فيلديج هويس» الأسبوعية قصّة قصيرة كتبها بوب بروين بعنوان «ووردلينك 2029»، يعمل فيها من هم أمثال أوبراين لصالح شبكة كمبيوتر عالمية هي مزيج من شاشات رصدٍ متقدّمة وإنترنت بدائي. كتب بروين: «الأخ الأكبر الأسوأ هو آلة بلا روح يديرها رجالٌ اقتربوا هم أنفسهم من التحوّل إلى آلات». منذ عام 1949، ربطت مجلة «تريبيون» مراجعتها له ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون بخبر عن الآثار المشؤومة له «عقل» ميكانيكي جديد طوّره الباحثون في جامعة مانشستر. الآن، تعكس شعبية الفكرة الخيالية عن الذكاء الصناعي الواعي مطلق القوّة -مثل سكاينت في «ترميناتور» وفيت في «في فور فينديتا» - مخاوف الجمهور بشأن قواعد البيانات والأقمار الصناعية وكاميرات المراقبة. هذا القلق المتزايد بالضبط هو الذي جعل شركة كايت داي للدعاية ترغب في «تخطيم الكذبة القديمة بأن الحاسوب سوف يستعبدنا»، والتبشير بحقبة جديدة من التكنولوجيا اليوتوبية التي تقودها

شركة أبل. وهذا هو السبب أيضاً الذي جعل والتر كرونكايت يكتب في مقال «إعادة نظر في 1984» في صحيفة «نيويورك تايمز» للترويج لحلقته الخاصة على قناة «سي بي إس»: «إذا تمكّن الأخ الأكبر من ربط كل بنوك البيانات الخاصة والحكومية في أمريكا، فسيكون قد قطع ثلاثة أرباع الطريق إلى هدفه». اتفق ناقد صحيفة «نيويورك تايمز» التلفزيوني مع تشخيص كرونكايت بصورة عامّة، لكنه اعتقد أنه أغفل شيئاً مهماً: «الرضا، بل اللهفة، التي يتبنّى بها البشر التقنيات الجديدة».

كان هذا تخوفاً يتعارض مع إعلان شركة أبل «1984». ماذا لو لم يتطلّب فقدان الحرية وجود الأخ الأكبر أو حزب الإنجوسك؟ ماذا لو فعلنا ذلك بأنفسنا لأنفسنا؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

## أوقيانيا 2.0

«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في القرن الحادي والعشرين

«عناد الواقع نسبي. يحتاج الواقع إلى حمايتنا له».

هانا آرنت، 1951.

في عام 1984، وخلال حلقة نقاش عن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»، قال الناقد الإعلامي الأمريكي نيل بوستمان إن التليفزيون الأمريكي غيّر الثقافة والسياسة والسلوك البشري بشكل جذري، بطريقة تشبه إلى حد بعيد «عالم جديد شجاع» أكثر من كتاب أورويل. ثم حوّل هذه النظرية إلى كتاب جدلي قوي بعنوان «تسليّة أنفسنا إلى حدّ الموت»: «كان أورويل يخشى أن ما نكرهه سيفسدنا، بينما كان هكسلي يخشى أن يفسدنا ما نحبّه. هذا الكتاب يدور حول احتمالية أن يكون هكسلي -لا أورويل- على حق». ثم نقرأ هذه العبارة اللافتة للنظر في الفصل الأخير: «في النبوءة الهكسلية، لا يراقبنا الأخ الأكبر باختياره. بل نحن من نراقبه باختيارنا». لم يتوقّع بوستمان أن يؤخذ كلامه بشكل حرفي.

جاءت فكرة برنامج تليفزيون الواقع «الأخ الأكبر»، الذي عُرض أوّل مرّة في هولندا عام 1999، من معرفة أنه بينما لا يزال يُوجد أشخاص يدّعون أنهم يشعرون بالقلق من أن يكونوا مراقبين، فإن عددًا كبيرًا من الأشخاص سيتطوّلون لأن يخضعوا للمراقبة. في

عام 1996، رُكِّبت طالبة جامعية في ولاية بنسلفانيا تدعى چينيفر رينجلي كاميرا ويب في غرفة نومها و «بثَّت» كل تحرُّكاتِها وسكَّانِها عبر موقعها الشهير «چيني كام». بعدها بثلاث سنوات، أخذ رائد الأعمال غريب الأطوار چوش هاريس الفكرة عدة خطوات إلى الأمام من خلال عرض مشروع فني وتجربة اجتماعية تسمَّى «هدوء: نحن نعيش على الملأ». دعا هاريس أكثر من مئة متطوِّع للعيش في مستودع من سِتَّة طوابق في مانهاتن، مجهَّز بجميع المواد الغذائية والمُسكِرات ووسائل الترفيه التي قد يحتاجون إليها، وأخبرهم بأنهم أحرار في فعل ما يحلو لهم، مع العلم أن كل شيء يُسجَّل عن طريق ترسانة من كاميرات الويب. أنتج هاريس نسخة حيَّة ممَّا سيصيره الإنترنت بعد ذلك: مكان يقايض فيه الناس الخصوصية مقابل المتعة والراحة والاهتمام. قال أحد المتطوِّعين: «لقد أحببت العيش في عالم بلا أسرار أو إحساس بالوقت. عالم كنَّا فيه أطفالاً صغاراً يُعتنى بنا». سرعان ما صُنِّف مشروع هاريس ورينجلي على أنهما «أوروبيان».

إذا كان برنامج «هدوء» تعبيراً رائداً عن فكرة قوية، فإن برنامج «الأخ الأكبر» هو نسخة وقت الذروة منه. إنه تجربة اجتماعية انحدرت إلى عرض معانيه تلصُّصي. كان مبتكر الفكرة الهولندي، چون دي مول چونيور، يتكَّم المصدر الذي أوحى باسم البرنامج. ولكن عندما وصل قالب البرنامج إلى الولايات المتحدة في عام 2000، أفضى اسم شركة الإنتاج السر: «شركة أورويل المحدودة للإنتاج». رفع المحامي وليم إف كولسون دعوى قضائية نيابةً عن مارفن روزنبلم وشركة أورويل، متَّهماً صنَّاع البرامج الأمريكيين

بـ«تجميع الجودة المميّزة لهذه العلامة وتقليل قيمتها». كان كولسون يشير إلى قيمة استغلال حقوق البثّ التلفزيوني، ولكن البرنامج فعل شيئاً مشابهاً لأفكار أورويل. في «الأخ الأكبر»، تعيش مجموعة من شركاء السكن تحت المراقبة طوال أربع وعشرين ساعة («وهم نائمون أو مستيقظون، وهم يعملون أو يأكلون، في الداخل أو في الخارج، في الحمّام أو في السرير»، على حدّ تعبير الرواية)، ويُستدعون إلى غرفة اليوميات (المعروفة في بعض البلدان التي أنتجت نسخها الخاصة من البرنامج باسم «غرفة الاعتراف») بالنيابة عن «أخ أكبر» غير موجود. في معظم نسخ البرنامج، يُحظر استخدام الكتب وأدوات الكتابة. كتب كاتب سيرة أورويل الغاضب برنارد كريك يقول: «فهم أورويل الفرق بين «ما يهتم به العامة» و«المصلحة العامة». لهذا كتب ذلك الكتاب الذي جرى التعامل مع تحذيره بازدراء ساخر، وصار يعامل في حد ذاته على أنه ترفيه سطحي». في نفس الوقت تقريباً، بنت هيئة الإذاعة البريطانية نموذجاً للغرفة 101 -غرفة تعذيب أورويل- كمستودع لطيف لمكآره المشاهير.

لم تكن كل الإحالات إلى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» خلال عقد التسعينيات تتّسم بالخفّة. كانت الغرفة 101 عنوان سكن بطل فيلم عام 1999 «الماتركس»، الذي غاص في مسائل الحرية والمجتمع وطبيعة الواقع. ظهرت أيضاً اقتباسات من الرواية في كلمات أغنية «تستيفاي» لفرقة ريج أجينست ذا ماشين، وكلمات أغنية «فاستر» لفرقة مانياك ستريت بريتشرز، وظلّت محتفظة بنفس التأثير الكاسح. ومع ذلك، كان يبدو كما لو أن الكتاب في

نهاية المطاف قد يُسخر منه ويُحطُّ من شأنه مثلما سُحق على ونستون سميث. لم يكن يمكن أن يحدث هذا إلا في عقد نهاية الألفية الذي اتَّسم بالرضا عن الذات، عندما كان بإمكان الأذكى أن يقولوا باقتناع إن تحذير أورويل قد نجح. «لقد انتهى عالم ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في عام 1989، هكذا كتب تيموثي جارتون آش في مايو عام 2001. ظلَّ أورويل مرجعًا لا غنى عنه في مسألة تشويش وخداع اللغة السياسية، هكذا أكَّد جارتون آش، لكن ثالوثه غير المقدس -الإمبريالية والفاشية والشيوعية- كان قد سقط: «بعد أربعين عامًا من موته المبكر المؤلم، انتصر أورويل».

بعدها بأربعة أشهر، اصطدمت طائرتا رُكَّاب بيرجي مركز التجارة العالمي.

\*\*\*

في عام 2003، حُلَّت الذكرى المئوية لميلاد جورج أورويل -بسيرها الذاتية وإعادات الإصدار والمؤتمرات والأفلام الوثائقية التي لا مفرَّ منها- في عالم منقسم بسبب غزو العراق الذي قاده الولايات المتحدة. ربَّما هذا هو السبب في أن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» حازت لقب الكتاب الإنجليزي المثالي في استطلاع للرأي أجرته إذاعة «راديو بي بي سي 4»، متفوقة على الأعمال الأخف وطأة لزادي سميث وجيريمي باكسمان وبيل برايسون وجوناثان كوك. علَّق برنارد كريك قائلاً: «تتمحور ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» حول السلطة مطلقة العنان. ربَّما يشعر الناس حاليًا بالرعب من «أخوين كبيرين» خارجين عن السيطرة،

أو ربّما ثلاثة. علينا وضع صَدّام إلى جوار بوش وبليز».

تهافت منتقدو الحرب على «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون».

استنكر بول فوت في صحيفة «ذا جارديان» «التفكير المزدوج» في «أوقيانيا» (الولايات المتّحدة وبريطانيا). افتُتِحَ ألبوم فرقة راديوهيد «هيل تو ذا ثيف» بأغنية شرسة ومزعورة بعنوان «2 + 2 = 5»، مدفوعة بـ«العبارات الأوروبية الملطّفة» التي سمعها مغني الفرقة الرئيس توم يورك في الأخبار. ظهرت سياسات إدارة بوش بعد 11 سبتمبر بشكل كبير في الأفلام الوثائقية مثل «أورويل يتلوّ في قبره» و«أورويل ضد التيّار»، بينما اختتم المخرج مايكل مور الفيلم الجدلي «فهرنهايت 11/9» بفقرة مُعاد صياغتها من كتاب جولدشتاين: «تشن الزمرة الحاكمة الحرب ضد رعاياها، وهدفها ليس الانتصار على أوراسيا أو إيستاسيا، ولكن الحفاظ على بنية المجتمع سليمة». من المؤكّد أن فكرة «الحرب على الإرهاب» التي لا نهاية لها أعادت أوقيانيا إلى الأذهان، البلد الذي تُسوّغ فيه كل القيود المفروضة لأن «هناك حرب دائمة».

عكست الحياة الفن إلى درجة مثيرة للقلق عندما قال أحد كبار مساعدي الرئيس بوش (عُرف لاحقًا أنه كارل روف، رغم نفيه ذلك) لصحيفة «نيويورك تايمز» إن الإدارة ليس لديها ما تخشاه من «المجتمع الذي يحتكم إلى الواقع... الذي يمتدّد أفرادُه أن الحلول تتبع من الدراسة الحكيمة للواقع المحسوس. لم تعد هذه هي الطريقة التي يعمل بها العالم حقًا. نحن إمبراطورية الآن، وعندما نتحرّك، فإننا نخلق واقعنا الخاص». عند قراءة هذه الكلمات، تكاد تسمع صوت أوبراين. أو كما تسخر إحدى



المقولات الشائعة: لم يكن من المفترض أن تكون «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كُتِبَ إرشادات.

في الوقت نفسه، نشر صقورٌ مثل نورمان بودوريتز وكريستوفر هيتشنز - اللذان وُحِّدتهما الحرب ضد «الفاشية الإسلامية» بعد عشرين عامًا من المعارك في مجلة «هاربر» - كلمات أورويل لإحراج خصومهم من اليسار. هذا النهج تجاوز حرب العراق: أطلق المحافظون بشكل روتيني مصطلح «شرطة الفكر» على أي شخص يدافع عن لغة «صحيحة سياسيًا». كان الهوس بتخيُّل ما يمكن أن يقوله أورويل عن الأحداث الجارية يولّد الاستياء والتعب. فرّق العالم السياسي سكوت لوكاس - مؤلف كتابين قاسيين جدليين عن الكاتب - بين أورويل الإنسان وأورويل الرمز: «لقد استُخدم أورويل كمصا لضرب أولئك الذين يُنظر إلى آرائهم على أنها مزعجة أو مهدّدة بأي شكل من الأشكال». شاركت دافني باتاي، أحد أكثر المراجع احترامًا في الأدب الديستوبي، لوكاس في نفاذ صبره للتخلص من فكرة «القديس جورج»، والنظر إلى أورويل كشخصية معقّدة ومتناقضة وليس كنموذج أخلاقي. قالت دافني في عام 2003: «لا يتمتّع شكسبير بالسلطة الأخلاقية لإعطائنا رأيًا بشأن غزو العراق. لم يكن أحد ليتخيّل مثل هذا الأمر، لكن أورويل يُستشهد به فيه».

في هذه الأثناء، وبالنسبة إلى العديد من مبدعي الأدب الديستوبي الجديد، ظلّت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» البناء الأشمخ في مدينة الكوايبس؛ لم يكن المرء مضطرًا إلى دخوله، لكن لا يمكن له تجاهله تمامًا. في رواية «1Q84»، تلاعب

هاروكي موروكامي بعنوان أورويل وعدّله (الرقم تسعة والحرف كيو متجانسان في اللغة اليابانية)، وجعل أحداث روايته تدور في عام 1984 وتبدأ في أبريل، وأعطى إشارات واضحة إلى أورويل في عالم من الأكوان الموازية والطوائف الدينية. أمّا بطل رواية «قصة حب حقيقية حزينة جدًا» لجاري شتاينجارت -وهي هجاء عن هائض الشركات والانحدار الفكري- فهو كاتب يوميات متعب، سنّه 39 عامًا يعشق امرأة متهمّة أصغر سنًا. قدّم جيمس مكتيج مخرج فيلم «في فور فينديتا» تحيةً لأورويل عن طريق اختيار جون هرت في دور الديكتاتور آدم سوتلر (كان من الممكن أن يكون الاسم أكثر مكرًا)، الذي يعنّف مرؤوسيه من شاشة عملاقة، وبالتالي حوّل ونستون سميث من نسخة مايكل رادفورد إلى «أخ أكبر» عنيف. لاقى الفيلم -على الرغم من عدم نضجه السياسي وبلادته البصرية- صدىً واسعًا، عندما صارت النسخ البلاستيكية الرخيصة من قناع جاي فوكس الخاص الذي يرتديه في رمزًا عالميًا للاحتجاج. قال ديفيد لويد، الفنان المسؤول عن التصميم: «صنّم فيلم «في» للتحذير من احتمال قاتم: إنه نسخة القصص المصوّرة من عالم «1984». ومثلما وصلت رسالة جورج أورويل إلى عدد كبير من القراء لأنها تناولت أمورًا عالمية ذات أهمية لنا جميعًا، فليس من المستغرب أن رسالتنا فعلت ذلك أيضًا».\* (68)

ومع ذلك، لفتت أكثر ديستوبيات القرن الحادي والعشرين برورًا

68- \* زار الكاتب ألان مور، مؤلف «في فور فينديتا»، رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مرّة أخرى في روايته المصوّرة «تحالف الخارقين: الملف الأسود»، التي افتتحت في لندن بعد سقوط حزب الإنجوسك. (المؤلف).

الأنظار لبعدها عن أورويل. أعمال متنوعة مثل رواية «لا تدعني أذهب أبداً» لكازو إيشيجورو، وسلسلة «ألعاب الجوع» لسوزان كولينز، وكوميديا مايك جَدج الوحشية «ديموقراطية الأغبياء»، وفيلم بيكسار «والي» الذي سخر من الرأسمالية المترهلة بدلاً من الشمولية.<sup>(69)</sup> أنكر فيليب روث أن «مؤامرة ضد أمريكا»، روايته التي تحكي عن خط زمني بديل يهزم فيه الطيار تشارلز ليندبيرج الرئيس روزفلت في انتخابات عام 1940، ويؤسس للفاشية في أمريكا، تشترك في كثير من الأمور مع «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «تخيّل أورويل تغييراً هائلاً في المستقبل أدّى إلى عواقب وخيمة على الجميع. أما أنا فحاولت تخيّل تغييراً طفيفاً في الماضي أدّى إلى عواقب وخيمة على قلة نسبية». أما أكثر ديستوبيا لافتة للانتباه في العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين فهي «أبناء البشر»، فيلم المخرج ألفونسو كوارون المقتبس عن رواية بي دي جيمس المنشورة عام 1992. إن إنجلترا في المستقبل القريب في الفيلم لثيمة ومبهجة وعنيفة ولكنها غير قادرة على فرض شمولية. على الرغم من كاميرات المراقبة ومعسكرات الاعتقال، فإن الحالة المزاجية السائدة هي الفوضى بدلاً من السيطرة، وأثاث الرأسمالية لا يزال في مكانه وإن كان باهتاً ورثاً، لأنه في عالم لم يُولد فيه أطفال منذ ثمانية عشر عاماً، لا يُوجد مستقبل حرفياً. يبدو عالم كوارون المنهك الذي استنفد إمكانياته وثيق الصلة أكثر بمخاوف القرن

69 \* مثل فيلم وودي آلان الكوميدي «سليبر» عام 1973 من قبله، أبقى فيلم «ديمقراطية الأغبياء» على تقليد روايتي «النظر إلى الماضي» و «صحوة النائم»: رجل عادي يستيقظ بعد خمسمئة عام من السبات على عالم مختلف. (المؤلف).

الجديد - خاصة بعد أزمة عام 2008 المالية- من استبداد أورويل مطلق القوة.

وكذلك الحال مع المسلسل التلفزيوني «بلاك ميرور» لكاتب السيناريو البريطاني تشارلي بروكر، الذي صار الديستوبيا المميّزة للعقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين لأنه عبّر عن مخاوف عصرية جدًّا بخصوص اعتمادنا غير المدروس على التكنولوجيا. تتناول كل حلقة أحد الاتجاهات السائدة حاليًّا (تلفزيون الواقع، وسائل التواصل الاجتماعي، الواقع الافتراضي، السياسة كعمل استعراضى) وتأخذه إلى حدوده القصوى. قال بروكر في عام 2016: «في أيّ وقت يظهر فيه اختراعٌ جديد، يقول الناس: أوه، هذا أشبه بـ بلاك ميرور». لكنهم لم يفهموا المقصود. إن جوهر «بلاك ميرور» - كما قال هكسلي عن «عالم جديد شجاع» - لا يكمن في «التقدّم العلمي في حدّ ذاته، بل تأثير التقدّم العلمي على الأفراد من البشر». إن عبارة نيل بوستمان حول كتاب هكسلي - «ما نعبه سوف يفسدنا» - تصلح لأن تكون شعارًا لديستوبيات بروكر الذي تتحقّق باشتراكنا في الجريمة. في نسخة قناة «إتش بي أوه» من «451 فهرنهايت» الصادرة عام 2018 والشبيهة بأجواء «بلاك ميرور»، نجد أن السلطة الاستبدادية الحارقة للكتب هي نتيجة تحالف بين الحكومة وشركات التكنولوجيا. تقول إحدى الشخصيات: «لم تفعل الوزارة هذا بنا. لقد فعلنا ذلك بأنفسنا. لقد طالبنا بعالم كهذا».

هناك حقيقةٌ في ذلك. تتمحور صناعة التكنولوجيا في القرن الحادي والعشرين حول البيانات. يُخبر جميع مستخدمي الإنترنت

-باستثناء أولئك الأكثر حذرًا- بشكل روتيني شركات مثل فيسبوك وجوجل بما يحبونه ومن يعرفون وأين يذهبون وغير ذلك الكثير. نعتت الكاتبة ربيكا سولنيت جوجل باسم «الأخ الأكبر العصري». وكتبت عن شركة أخرى من تلك الشركات -أبل- في الذكرى الثلاثين لإعلانها التجاري الأشهر: «ربما كان إعلان شركة أبل 1984» هو بداية رؤية مجتمع وادي السيليكون لنفسه كحل وليس مشكلة؛ كتمردٍ منشق، لا المؤسَّسة الجديدة الصاعدة». جادلت سولنيت -مستشهدة بالمراقبة الحكومية واختراق الخصوصية والابتزاز بالمواد إباحية وإدمان الآيفون- بأن التشدُّق بمقولة «أورويل كان مخطئًا» في الثمانينيات كان سابقًا لأوانه في أحسن الأحوال، إن لم يكن غشًا. لم تكن ثقافة الإنترنت التي شكَّلتها شركات قوية تحمل ازدراءً تجاريًا وفلسفيًا لفكرة الخصوصية «قطيعةً مع الماضي، بل تضخيمًا لأسوأ ما كان في ذلك الماضي... لقد صار عام 2014 يشبه إلى حدٍّ كبير عام 1984». استعرض ديف إيجرز مثل هذه الهواجس في روايته «الدائرة» عام 2013.

القصة التي تحكي عن دخول شابة تُدعى ماي هولاند إلى عالم شركة «الدائرة» التكنولوجية هي هجاء رشيق لوادي السيليكون ذي النزعة اليوتوبية، وتحمل إيماءات خبيثة إلى أسلافها. أُعيدت كتابة ثالث الشعارات الشهير من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ليناسب عصر وسائل التواصل الاجتماعي: «الأسرارُ أكاذيب - المشاركةُ اهتمام - الخصوصيةُ لصوصية». المتمردُ المفعم بالحيوية الذي تسوقه الجموع التلصُّصية إلى حتفه يستدعي إلى

الأذهان چون الهمجي في نهاية رواية «عالم جديد شجاع». إن هدف «الدائرة» الأسمى المتمثل في «الشفافية»، وأن يعيش المرء حياته بأكملها على الملأ تحت مظلة «علانية جديدة مذهلة، في عالم من الضوء السرمدى»، يجعل منازل زامياتن الزجاجية وشاشات أورويل الراصدة تبدو بدائية. فقط في الفصل الأخير تتحوّل الرواية إلى ديستوبيا حقيقية أُلغيت فيها «الحياة الخاصة» من دون الحاجة إلى اللجوء إلى القوة: تثبت ماي حبها للأخ الأكبر من خلال تحويل حياتها إلى منزل مستباح للمراقبة والتلصّص. تساءلت مارجريت آتوود في مراجعتها: «ماذا سيحدث لنا إذا فُرض علينا أن نكون مرئيين طوال الوقت؟ سنكون إذاً في سجن ساطع تحت الإشراف أربعاً وعشرين ساعة. العيش على الملأ بشكل كامل لهو شكل من أشكال الحبس الانفرادي». إن «الدائرة» تجسيد جديد للمكان الذي لا يوجد فيه ظلمة.

كان توقيت إيجرز وليد الصدفة. في 5 يونيو عام 2013، قبل بضعة أشهر من نشر رواية «الدائرة»، كشفت جريدتي «ذا جارديان» و «واشنطن بوست» عن وجود كيان مراقبة إلكتروني هائل تابع وكالة الأمن القومي، باستخدام وثائق سرّ بها مهندس الكمبيوتر إدوارد سنودن. قال سنودن لاحقاً إن أورويل «حدّثنا من خطورة هذا النوع من المعلومات» لكن جهاز المراقبة في أوقيانيا «لم يكن ليُقارن بما لدينا اليوم». في حين ما دافع الرئيس أوباما عن وكالة الأمن القومي بالمقارنات مع الأخ الأكبر، وصفها السناتور بيرني ساندرز بأنها «أورويلية جداً»، وتساءلت جريدة «ذا نيويورك ركر»: «إذا، هل نعيش في عام 1984؟». ارتفعت مبيعات «ألف

وتسعمئة وأربعة وثمانون» بعدة آلاف في المئة على أمازون، التي هي نفسها شركة تقنية عملاقة متعطشة للبيانات.<sup>(70)</sup>

لم يتبأ جورج أروويل بالإنترنت (على الرغم من أنه يمكن القول إن إي إم فورستر فعل ذلك)، ولم يكن لديه سوى فهم بدائي للتكنولوجيا، ومع ذلك كان حاضراً في مثل هذه المحادثات منذ الثمانينيات. رأى المتفائلون أمثال نام چون بايك مبتكر برنامج «صباح الخير يا سيد أروويل»، في الإنترنت قوة لا يمكن إيقافها تجعل من الاستبداد أمراً مستحيلاً: «كان جورج أروويل مخطئاً بعد كل شيء عندما كتب 1984». أعاد بيتر هوبر كتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» في كتاب «انتقام أروويل: طرس 1984» ليقول إن أروويل كان «مخطئاً بشكل شنيع لا يمكن إصلاحه» بخصوص شاشات الرصد لأن الاتصال الشبكي، مثل شبكة الإنترنت العالمية الوليدة، من شأنه أن يؤدي إلى عالم «يتولى فيه العوام المراقبة، ويُجبر الحزب على الخضوع».

وفي المقابل، كتب الروائي توماس بينشون في مقدمته لطبعة عام 2003 من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أن الإنترنت كان «تطوراً يعد بالسيطرة الاجتماعية على نطاق لا يمكن أن يحلم به طفاة القرن العشرين الطريفيون القدماء بشواربهم البلهاء». أدت اكتشافات سنودن إلى تغيير الموقف لصالح تحليل بينشون. بدأ

---

70- \* في مصادفة أخرى، بث «راديو بي بي سي 4» موسماً حافلاً بمعالجات جديدة لأعمال أروويل. قام كريستوفر إكليستون في معالجة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بالأداء الصوتي، ما جعله الممثل الرابع (إلى جانب بيتر كوشينج وباتريك تروتون وچون هرت) الذي لعب كلا من شخصيتي ونستون سميث والدكتور هو. (المؤلف).

التفاؤل بشأن قدرة الإنترنت على محاسبة السلطة - في ضوء  
فيض المعلومات المستمر غير المحدود - يبدو أحرق.

\*\*\*

كان يُنظر إلى «عالم جديد شجاع» و «ألف وتسعمئة وأربعة  
وثمانون» على أنهما ديستوبيتان تستبعد إحداهما الأخرى. لكن  
في عام 1984، بينما كان نيل بوستمان يؤلف كتاب «تسلية أنفسنا  
إلى حد الموت»، توصلت كاتبة سيرة ألدوس هكسلي، سيبيل  
بيدفورد، إلى استنتاج مختلف، واصفة الاختيار بأنه ازدواجية  
مغلوبة: «لقد دخلنا عصر الطغيان المختلط». كانت تعني بهذا  
أن الباحث المعاصر عن السلطة سيلجأ إلى أي مزيج من الإكراه  
والإغواء والإلهاء يثبت أنه أكثر فاعلية.

«الفاعلية» هي إحدى كلمات السر في طغيان فلاديمير بوتين  
المختلط، أو «الديموقراطية الموجهة». منذ أن أصبح رئيس  
روسيا في عام 2000، مدعوماً بالتعطش إلى القوة والاستقرار  
بعد الاضطرابات المدمرة للأعصاب في حقبة ما بعد الشيوعية  
في التسعينيات، أعاد الضابط السابق في الـ «كيه جي بي»  
ملاح النظام القديم تدريجياً مثل عبادة الزعيم، والمسيرات  
العسكرية، والاعتقالات الجماعية، والمحاكمات الصورية، والسجناء  
السياسيين، والعدوان الإقليمي، ودولة الحزب الواحد، والرقابة،  
واللغة الجديدة، والبارانويا المستشرية. في عام 2012، أعلن  
بوتين حلمه بتشديد بديل للاتحاد الأوروبي تتزعمه روسيا، «من  
لشبونة إلى فلاديفوستوك»، غير مقيّد بمفاهيم مزعجة مثل  
حقوق الإنسان والانتخابات الحرة النزيهة. متأثراً بالمفكر الفاشي



ألكسندر دوجين، أطلق على حلمه اسم أوراسيا. في عام 2014، وصلت شعبية ستالين بعد وفاته في روسيا إلى ذروة جديدة بلغت 52 بالمئة، ممّا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الهومو سوفييتيكاس (الإنسان السوفييتي) عاش أطول من الاتحاد السوفييتي.

تختلف مُسوِّغات بوتين -بالتأكيد- عن مُسوِّغات ستالين: القومية والمحافظة الثقافية بدلاً من الأيديولوجية الماركسية. كما أن حكمه أقل وحشية، ويتظاهر بالحفاظ على حرية التعبير والمعارضة السياسية. إن هدف الاستبداد الذي ينتهجه ليس السيطرة الكاملة بل السيطرة الفعّالة. في آخر مقابلة مهمة له قبل وفاته في عام 2005، وصف المصلح الكبير ألكسندر ياكوفليف احتياج روسيا إلى قادة أقوياء بأنه «مرض»، وتحسّر على تراجعها إلى دولة مركزية على حساب مجتمع سليم. قال: «إذا رغبت الدولة، سيكون المجتمع متحضراً، أو شبه متحضّر، أو مجرد قطيع. ارجعوا إلى أوروبل للحصول على وصف جيد لهذا». صحيح، لكن ارجعوا إلى هكسلي أيضاً.

عندما بدأ الصحفي والمخرج السينمائي بيتر بوميرانتسيف العمل في التلفزيون الروسي الحكومي في عام 2006، لاحظ الكيفية التي يولّف بها المسؤولون بين «صناعة الترفيه والبروباجندا والسلطوية». كان العقل الإعلامي المدبر لبوتين في ذلك الوقت هو فلاديسلاف سوركوف، وهو مدير مسرح سابق ومدير علاقات عامّة ذو وجه رقيق ولطيف وعقل فولاذي استطاع تحديد «اللفة والأنماط التي تفكر وتشعر بها الدولة». كان سوركوف رائداً في سياسة تجاوز الحقائق، ونجح في خلق

ضبابٍ مُشوَّشٍ من الأكاذيب والحيل والتناقضات، التي كانت الاستجابة الطبيعية لها هي السخرية العدمية من جوهر مفهوم الحقائق الثابتة. أعاد عنوان كتاب بوميرانتسيف عن روسيا في عهد بوتين وسوركوف صياغة عبارة آرنت التي لا تنسى حول مفهومَي الشمولية والحقيقة: «لا شيء حقيقي وكل شيء جائز». سمّاها الخبير الروسي بوم هاردينج «أرض المجاز».

هذا نوع جديد من الأوروبية. عانى جيل أوروبيل من عواقب الأكاذيب الكبيرة اللا معقولة إلى درجة أنه لم يكن يمكن الحفاظ عليها إلا من خلال سيطرة الشمولية محكمة القبضة. ولكن، لا يحتاج طغاة القرن الحادي والعشرين إلى الذهاب إلى هذا الحد. كتبت المؤرّخة آن أبلباوم في مقال نُشر عام 2018 في مجلة «ذا أتلانتيك»: «إنهم لا يحتاجون إلى أن يؤمن الناس بأيديولوجية تامة النضج، وبالتالي لا يحتاجون إلى عنف أو شرطة إرهابية. إنهم لا يجبرون الناس على الاعتقاد بأن الأسود أبيض، وأن الحربُ سلامٌ، وأن مزارع الدولة حققت ألف بالمئة من الإنتاج المخطط لها». لكنهم يعتمدون على «الأكاذيب متوسطة الحجم» بدلاً من ذلك: «جميعهم يشجعون أتباعهم على الانخراط - على الأقل بعضاً من الوقت - في واقع بديل». مكّن الإنترنت هذه العقلية من الانتشار إلى ما وراء حدود روسيا، عندما صدّرت الجهة الرائدة عالمياً في إنتاج المعلومات المضللة واقعها البديل إلى الديمقراطيات التي لم تكن تملك أدنى فكرة عن مدى ضعفها.

\*\*\*

عندما استخدمت مستشارة الرئيس ترامب كيليان كونواي مصطلح «حقائق بديلة» في 22 يناير عام 2017، عادت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مرّة أخرى إلى قوائم أفضل الكتب

مبيعاً. وصفت «هوليوود ريبورتر» الرواية، التي أُسندت بعد ذلك إلى المخرج بول جرينجراس، بأنها «أهم تركة أدبية على الساحة». أعلنت عشرات دور السينما في جميع أنحاء الولايات المتحدة أنها ستعرض فيلم مايكل رادفورد «1984» يوم 4 أبريل، لأن «الساعات تعلن الواحدة بعد الظهر بالفعل». وطلب المنتجان المسرحيان سونيا فريدمان وسكوت رودين من المؤلفين المسرحيين البريطانيين روبرت آيك ودانكان ماكميلان نقل مسرحيتهما الناجحة «1984» إلى برودواي في أقرب وقت ممكن. أخبرني آيك عندما تحدثت إليه هو وماكميلان في مسرح ألميدا بلندن في العام التالي: «ازدادت شعبية الرواية بسرعة صاروخية في غضون خمسة أيام. قالوا لنا: «نعتقد أنه من المهم أن تُعرض تلك المسرحية في برودواي الآن»».

كما تسأل إحدى الشخصيات في بداية المسرحية: «كيف يبدأ المرء الحديث عن أحد أهم الأشياء التي كُتبت على الورق؟». إن النظام الشمولي الذي يمثله حزب الإنجوسك في حد ذاته مسرحية، لها نص وأدوار محدّدة وديكورات وإكسسوارات ووقفات للتصفيق. ولكن عندما بدأ آيك وماكميلان في عام 2011 التفكير في عرض «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على المسرح، أرادوا تجنب ما هو واضح. قال آيك: «أتذكّر أنني قلت إننا لا نريد رجلاً يرتدي بذلة زرقاء يسير أسفل ملصق كبير، لأن هذا صار مألوفاً جداً إلى درجة أنه فُرغ من معناه. يتطلّب التفاعل مع الكتاب بشكل صحيح قدرًا معينًا من الغرابة والارتباك: «هل تعرف تلك الرواية جيدًا كما نعتقد بالفعل؟». قرأ الرجلان «ألف

وتسعمئة وأربعة وثمانون» مرارًا وتكرارًا بحثًا عن «مفتاح الباب الخفي» الذي لم تعثر عليه أيُّ معالجات سابقة. هذا المفتاح كان هو «نظرية الملحق»، التي تُحوّل بقية الكتاب إلى وثيقة تاريخية درسها وحرّرها أشخاص مجهولون. بمجرد الدخول في هذه المنطقة، تصبح الرواية متاهة مؤثرة من الغموض والألفاظ والمفارقات. قال ماركيز: «لو قرأتها بشكل صحيح، ستجد أنها تتكشف لنا جميعًا بطرق مختلفة. كل شيء صحيح وخاطئ في الوقت نفسه. إنها بنية هيكلية للتفكير المزدوج».

في حين أن فيلم مايكل رادفورد يوضّح نص أورويل (مع الحفاظ على التمييز بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي)، نجد أن المسرحية تنغمس في غموضها. تضمّنت معالجة آيك وماكيز إشارات إلى ديفيد لينش، وفيلم «ذا شاينينج»، وفيلم «إترنال سانشاين أوف ذا سبوتلس مايند»، وأحلام غيبوبة توني سوبرانو من مسلسل «آل سوبرانو». باختصار: الأعمال التي تستكشف العالم السفلي بين الواقع والخيال والذاكرة. ثم طُلب من الممثلين التدرّب على التفكير المزدوج عن طريق لعب الشخصيات بطريقة تسمح بنظريات متعددة حول ما هو حقيقي ومن ينبغي الوثوق به. تنتهي المسرحية بقارئ من مستقبل ما بعد الملحق يسأل سؤالاً أخيرًا: «كيف نعرف أن الحزب سقط؟ أَلن يكون من مصلحتهم هيكلة العالم بطريقة نعتقد بها أنه لم يعد لهم وجود...».

قال ماركيز: «لم نكن نريد حل اللغز للناس. حاولنا تقديم مدى تعقيد. كان من المثير للاهتمام قراءة المراجعات وسماع الناس يخرجون كل ليلة يتجادلون حول ما شاهدوه»، ثم أضاف

ضاحكًا: «عندما ألقينا نظرة على تويتر في أثناء فترة عرض المسرحية، وجدنا أن الجميع يعتقدون أن الآخرين لم يفهموها». شك آيك في أن معالجتهم التجريبية للكتاب ستكون «حفلة لن يرغب أحد في حضورها سوانا»، ولكن عندما افتُتحت «1984» في نوتجهم بلاي هاوس في سبتمبر 2013 بعد ثلاثة أشهر من اكتشافات سنودن، حققت نجاحًا كبيرًا. قُدمت عروض المسرحية الثلاثة اللاحقة في وست إند في أجواء سياسية مختلفة: افتتح الثالث منها في يونيو 2016، في أثناء حملة استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي وقبل مقتل النائب العمالي چو كوكس على يد إرهابي يميني متطرف. في أثناء عرضها في مسرح نيويورك هادسون الذي بدأ في 18 مايو 2017، لاحظ المخرجان أن رد فعل الجمهور كل ليلة يتأثر بما فعله دونالد ترامب في ذلك اليوم. في الليلة التي أعقبت تغريدة ترامب على تويتر التي تضمنت كلمة «covfefe» التي لا معنى لها، كانت هناك رغبة في الفكاهة إلى درجة أن أحد الممثلين أصيب بالذهول وقال: «لقد شاركت في مسرحيات كوميدية أقل ضحكًا من هذه». في ليلة أخرى، كانت الأخبار سيئة تمامًا وكان المزاج حادًا إلى درجة أن بعض الناس فقدوا الوعي. وفي ليلة ثالثة، عندما سأل أوبراين: «أي عام هذا؟»، صاحبت امرأة: «إنه عام 2017 وهو سيئ جدًا!». على الرغم من أن آيك وماكميلان أضافا المقطع المأخوذ من إعلان الاستقلال في ملحق أورويل إلى نسخة برودواي، قاوم الرجال الضغط لجعل المسرحية أكثر موضوعية، وأزالوا بضعة سطور تبدو الآن وثيقة الصلة جدًا بما يحدث. تساءل آيك بعد

ذلك عمّا إذا كان المسرحية قد جاءت في وقتها أكثر من اللازم: «كانت المدينة تشعر بالخجل والحزن بقدر ما تشعر بالغضب في ذلك الوقت. لم يكن الناس مستعدين لمواجهة الأمر». في التوقيت نفسه، وفّرت مسرحية برودواي الأخرى «هالو دوللي» التي أنتجها سكوت رودين هروباً خالصاً من الواقع. اقترح آيك أن جوليا لو كانت تعيش بيننا لاختارت «هالو دوللي».

في أثناء عرضها في برودواي، انتشر اقتباس عظيم التبصّر من «الف وتسعمئة وأربعة وثمانون»: «الشعب لن يثور. إنهم لن يرفعوا أعينهم عن شاشاتهم لفترة كافية تسمح بملاحظة ما يحدث بالفعل». إلا أن السطر لم يكن من الكتاب على الإطلاق. لقد كُتب خصيصاً للمسرحية. امتنّ آيك وماكميلان لمفارقة إعادة كتابة التاريخ غير المقصودة هذه.

\*\*\*

قال ريتشارد بلير في عام 2017: «أظن أن دونالد ترامب كان سيُسلى أبي بطريقة تبعث على السخرية، ولربّما كان سيجعله يقول في نفسه: "هذا هو الرجل الذي كتبت عنه كل تلك السنوات"». يجب القول إن دونالد ترامب ليس الأخ الأكبر. وأيضاً على الرغم من إحيائه عبارات سامة مثل «أمريكا أولاً» و«عدو الشعب»، فإنه لا يمثل ارتداداً إلى الثلاثينيات. إنه يحمل قسوة وتعطّش الديكتاتور إلى السلطة، لكنه لا يتمنّع بضبط النفس أو الفكر أو الأيديولوجية المطلوبة. قد تكون المقارنة الأكثر ملاءمة مع باز ويندرب، الشعبوي الساذج من رواية سينكلير لويس «هذا لا يمكن أن يحدث هنا»، أو في العالم الحقيقي مع جوزيف مكارثي،

الديماغوجي الذي أظهر مستويات مماثلة من النرجسية والخداع والاستياء والطموح الفظ، وقدرة خارقة على جعل الصحفيين يرقصون على إيقاعاته حتى وهم يكرهونه.<sup>(71)</sup>

وعلى الرغم من ذلك، تُوجد سوابق في كتابات أورويل. خلال حملة ترامب ضد هيلاري كلينتون، كان من الصعب مشاهدة المرشح وهو يصرخ في أنصاره «احبسوها!» من دون تذكر «دقيقتي الكراهية» ووصف أورويل لعقيلة الحزب. «نوبة مسعورة متواصلة من كراهية الأعداء الخارجيين والخونة الداخليين، والفرحة بالانتصارات، والتذلل أمام سلطة الحزب وحكمته». يعيد شعار ترامب «لنجعل أمريكا عظيمة مرةً أخرى» إلى الأذهان إشارة أورويل إلى «الأمريكية الخالصة». يوافق الرئيس معظم معايير تعريف أورويل للفاشية التي كتبها عام 1944: «إنها شيءٌ قاس، عديم الضمير، متعجرف، ظلامي، مناهض للبرالية ومعاد للطبقة العاملة... سيقبل أيُّ مواطن إنجليزي غالباً كلمة "متسلط" كمرادف لكلمة فاشي». أكد أورويل أن هؤلاء الرجال لا يمكنهم الارتقاء إلى القمة إلا عندما يفشل الوضع الراهن في تلبية حاجات المواطنين إلى العدالة والأمن وتقدير الذات، لكن انتصار ترامب تطلّب عنصراً أكثر أهمية. إنه لم يستول على السلطة بثورة أو انقلاب. لم يحركه ركودٌ اقتصادي أو فضائح إرهابية، فضلاً عن حرب نووية أو أزمة خصوبة. لقد مرَّ طريقه إلى البيت الأبيض عبر «أرض المجاز» الأمريكية.

71- \* أصبح روي كون، ربيب مكارثي، مُعلّم ترامب في السبعينيات. كما لو كان ينقل العدوى. (المؤلف).

عندما صدّق بعد مستمعي معالجة أوروسون ويلز الإذاعية «حرب العوالم» من دون التحقق من مصادر أخرى، كانوا مدفوعين بالإيمان المفرض بسلطة وسائل الإعلام. أما ناشري المعلومات المضلّة المعاصرين فمدفوعون بالقليل جداً، أو كما جادلت كاتبة الخيال العلمي مارتا راندال في عام 1983، يمكن أن يؤدي انهيار الثقة في الروايات الرسمية الناجم عن فضائح مثل ووترجيت وأوراق البنتاجون إلى بلد «يتوقّف فيه المواطنون عن الاعتماد على القصص الإخبارية الرسمية بالكامل»، ويتجاوزون حدّ الشكوكية الصّحّي بكثير.

خلال العقدين اللذين سبقا انتخابات عام 2016، أظهرت مجموعات مثل منكري التغيّر المناخي، ومناهضي التطعيم، والخلقويين، وحركة بيرثر، وحركة حقيقة أحداث 11 سبتمبر، وأصحاب نظريات المؤامرة من كل نوع، تجاهلاً شرساً للأدلة الواقعية التي تتعارض مع معتقداتهم، والتي غالباً ما تعزّزها وسائل الإعلام اليمينية مثل «فوكس نيوز» ومحطة «توك راديو» والمجتمعات المغلقة على الإنترنت. هذه العقلية التي تتزايد شعبيتها هي مزيج سام من التسفيه والسذاجة. كان الأشخاص الذين يعلنون بفخر شكوكيتهم في شبكة «سي إن إن» أو في جريدة «ذا نيويورك تايمز» سعداء تماماً بتصديق منشورات فيسبوك دون الرجوع إلى مصادر، وقبول العلم الزائف كحقيقة؛ أولئك الذين شكّكوا في هيئة الإذاعة البريطانية وافقوا بحماسة على بروباجندا الدولة في عهد بوتين أو بشار الأسد في سوريا. ربما كان أكثر المشاهد خطورة في «ألف وتسعمئة وأربعة



وثمانون» هو مشهد «دقيقتي الكراهية». على الشاشة، يتحدث جولدشتاين عن الحقيقة «ويصرخ بشكل هستيري قائلاً إن الثورة قد تعرضت للخيانة» لمن يهتم بالاستماع أو التصديق، ولكن أحدًا لمن يكن كذلك باستثناء ونستون. لم يكن الحزب لبيث هذا الكلام دون رقابة ما لم يعلم أنه سيُقابل بالتجاهل. وإن كنت لا تعتقد أن جولدشتاين موجود بالفعل، يكون التسفيه أكثر بذاءة. وبالمثل، فإن نجاح الأخبار الكاذبة التي يصنعها ونستون في وزارة الحقيقة يعتمد على جهل القراء وكسلهم وتحيزهم بقدر ما يعتمد على سلطة الدولة.

إن عواقب تخلي كثير من الأمريكيين عن الواقع كارثية. خلال حملة الانتخابات الرئاسية عام 2016، أغرقت «وكالة أبحاث الإنترنت» -وهي لجنة إلكترونية روسية- وسائل التواصل الاجتماعي بقصص إخبارية مزيفة مصممة لإثارة الارتباك والتسفيه والانقسام. ورد في إحدى الميمات المشهورة للوكالة ما يلي: «يصدق الناس ما تخبرهم به وسائل الإعلام. مقولة لجورج أورويل». الاقتباس ملفق. لم يستخدم أورويل قط عبارة «وسائل الإعلام»، التي لم تدخل إلى نطاق الاستخدام الشائع إلا بعد وفاته، ولم يكن ليقدّم مثل هذا الادّعاء المبسط. إن مفارقة وضع الروس كلمات على لسان أورويل لاستغلال سمعته كمدافع عن الحقيقة لتقويض الإيمان بالصحافة مذهلة.

بعض حسابات وسائل التواصل الاجتماعي التي نشرت هذه الأخبار والصور الهزلية كانت في حد ذاتها مزيفة -أسماء مزيفة، وصور مزيفة، وسير ذاتية مزيفة- لكن كثيرًا منها لم يكن كذلك،

لأن مصممي المعلومات المضلّة وجدوا أنهم كانوا يدفعون بأبًا مفتوحًا بالفعل. بعد تشريح وباء الأخبار الخادعة في منتديات «ريدت»، كتب ستيف هوفمان، رئيس الشركة التنفيذي: «أعتقد أن الخطر الأكبر الذي نواجهه نحن معشر الأميركيين هو ضعف قدرتنا على تمييز الواقع من الهراء. أتمنى لو كان يُوجد حلٌ سهلٌ كحظر جميع أشكال البروباغندا، لكن الأمر ليس بهذه السهولة». طرح الرئيس السابق باراك أوباما نقطة مماثلة: «أحد أكبر التحديات التي تواجهها ديموقراطيتنا هو عدم التفاهنا حول مرجع مشترك للحقائق. استغلّ الروس أننا نعيش في فقاعاتٍ معلوماتية مختلفة تمامًا». كانت أزمة أمريكا المعرفية فرصة ذهبية لترامب، واستطاع الفوز في انتخابات عام 2016 لأن عددًا كبيرًا من الأميركيين كانوا يعيشون فعليًا في واقع مواز. جعلت وسائل التواصل الاجتماعي هذه العملية سهلة جدًا، لأنها أصبحت مصدر الأخبار الرئيسي لملايين الأميركيين، في حين ما تفتقر إلى الرقابة التحريرية المفروضة على وسائل الإعلام التقليدية. ردًا على الانتقادات في عام 2017، أشار أليكس ستاموس، رئيس قسم سياسات الأمان في فيسبوك، إلى أن استخدام أداة الذكاء الاصطناعي ذاتي التعلم غير المشحودة لاستبعاد الأخبار المزيفة يمكن أن يحوّل المنصة إلى «وزارة حقيقة بأنظمة ذكاء اصطناعي»، ولكن بسبب الفشل في التصرف في الوقت المناسب، كان فيسبوك يسمح بالفعل للأطراف الفعّالة الفاسدة مثل «وكالة أبحاث الإنترنت» بنشر معلومات مضلّة دون رادع. ومن المرجّح أن تزداد المشكلة سوءًا. إن رواج عملية تخليق

الصور المعروفة بـ«التزييف العميق» التي تجمع بين الكمبيوتر جرافيك والذكاء الاصطناعي لخلق وهم لا يمكن تحديد زيفه إلا عن طريق تحليل الخبراء، لديه القدرة على إنشاء متاهة من الارتياح ستُرى فيها الصور المزيفة على أنها حقيقية، والحقيقية على أنها مزيفة، وفقًا لتحيز المشاهد. من خلال تركيب الصور، يمكن جعل شخصية الرفيق أوجلفي الخيالية التي اخترعها ونستون يمشي ويتحدث، وفي الوقت نفسه يمكن تجاهل صورة جونز وآرونسون وراذر فورده باعتبارها خدعة. لا يُوجد علاج تكنولوجي. الخلل يكمن في الطبيعة البشرية.

إنه لأمر أوروبي حقًا أن ترامب ورفاقه الاستبداديين قلبوا عبارة «الأخبار الكاذبة» رأسًا على عقب لوصف الأخبار الحقيقية التي لا تروق لهم، في حين ما أصبحت الأكاذيب الصارخة «حقائق بديلة». في مارس 2019، عدّت صحيفة «واشنطن بوست» 9014 ادعاءً كاذبًا صرّح بها ترامب خلال أوّل 773 يومًا في منصبه. ارتفع المتوسط من أقل من ستة تصاريح في اليوم خلال عامه الأوّل، إلى 22 تصريحًا في اليوم في عام 2019. يخلق ترامب واقعه الخاص ويقيس قوّته بعدد الأشخاص التابعين لها: كلّما كانت الكذبة هظّة زاد نجاحها. قدّم محامي ترامب، رودي جولياني، عن غير قصد شعارًا فجًا يناسب «أرض المجاز» الأمريكية، عندما صرخ في وجه محاوره: «الحقيقة ليست حقيقية!». «يكمن الواقع في جمجمة الإنسان».

عادت الكوابيس الديستوبية القديمة إلى الظهور في أمريكا في عهد ترامب بقوّة متجددة. بفضل معالجة «هولو» التلفزيونية لرواية «حكاية الجارية»، باعت رواية آتوود ثلاثة ملايين ونصف

مليون نسخة أخرى، وألهمت موجة جديدة من الديستوبيا النسوية، وجعلت زِيَّ الخادِمات المكوَّن من عباءات حمراء وأغطية رأس بيضاء مشهوراً بين المتمرِّدين مثل قناع في. رفعت امرأة محتجَّة على تنصيب ترامب لافتة مكتوب عليها: «لنجعل رواية مارجريت آتوود خيالاً مرَّةً أخرى». أعلنت آتوود أنها ستشر رواية ثانية عن جلعاد في 2019 باسم «العهود». على عكس أورويل، لقد عاشت لتكتب الجزء الثاني بنفسها. شكَّلت الأيديولوجية الترامبية كواليس معالجة «هولو» لـ «حكاية الجارية»، ومعالجة «إتش بي أوه» لـ «451 فھرنهايت»، ولـ «الأحلام الكهربائية»، وهو مسلسل من إنتاج «أمازون» يستند إلى قصص الخيال العلمي القصيرة لفيليب كيه ديك. كشفت الكاتبة والمخرجة دي ريس أن معالجتها الراديكالية في إحدى حلقات المسلسل لقصة «الغريب المعلق»، التي أصبحت الآن تعليقاً لاذعاً على البارانويا السياسية، انبثق مباشرة من حملة الانتخابات الرئاسية في 2016. كتبت دي ريس: «أعلنت أفكاراً عديدة خطيرة، ورُعيت، وسُمح لها بالانتشار... قالوا إن ما يحدث لا يحدث حقاً. قالوا إن ما تراه ليس ما تراه حقاً. قالوا إن ما تسمعه ليس هو المقصود حقاً».

خلال خطاب ألقاه في يوليو 2018، قال ترامب نفسه: «ما تراه وما تقرأه ليس ما يحدث بالفعل». انتشر بعدها اقتباس آخر من «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» على نطاق واسع، وهو اقتباس حقيقي هذه المرة: «طلب الحزب من الناس رفض تصديق ما تراه أعينهم وما تسمعه آذانهم. كان هذا هو توجيهه الأخير والأهم».

\*\*\*

قد يشعر المرء بحنين إلى تلك الأيام قبل عشرين عامًا عندما كان الأخ الأكبر مُزحاً وكان أورويل هو الذي «ريح». إن مثل هذه الحقبة التي ابتليت بالشعبوية اليمينية المتطرفة، والقومية الاستبدادية، وفيض المعلومات المضللة، وتراجع الإيمان بالديموقراطية الليبرالية، ليست حقبة يمكن فيها نبذ رسالة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» بسهولة، بشرط إمكانية قراءة هذه الرسالة في المقام الأول. في الصين، التي تدير أكثر أنظمة الرقابة تعقيداً في العالم، تُحذف أي إشارة إلى كتاب أورويل من الإنترنت، وأي همس آخر للمعارضة.

كان أورويل متشائماً تماماً وغير متشائم بما فيه الكفاية في الوقت نفسه. من ناحية، لم يستسلم الغرب للاستبداد. وأصبحت النزعة الاستهلاكية -لا الحرب الأبديّة- محرّكة الاقتصاد العالمي. لكنه لم يقدّر صلابة العنصرية والتطرّف الديني. كما أنه لم يتوقّع أن يتبنّى الرجل والمرأة العاديان التفكير المزدوج بحماسة مثل المثقفين، وأنهما سيختاران الاعتقاد -من دون الحاجة إلى إرهاب أو تعذيب- بأن ناتج جمع اثنين واثنين يمكن أن يكون أي شيء يريدان.

تحكي رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» عن أمور كثيرة، ومخاوف قرائها هي التي تملّي أي أمر منها سيكون الأبرز في مراحل التاريخ المختلفة. خلال الحرب الباردة، كانت كتاباً عن الشمولية. وفي الثمانينيات، أصبحت تحذيراً بشأن اجتياح التكنولوجيا. اليوم هي دفاع عن الحقيقة في المقام الأول. في نهاية الأسبوع الأول لترامب في منصبه، اعتذر آدم جوبنيك إلى

مجلة «نيويورك» عن اعتقاده السابق بأن تحذير أورويل كان شديد الملاحظة في عالمنا الحديث: «يُذكر المرء دومًا بما كان أورويل محققًا بشأنه فيما يتعلق بهذا النوع من الاستبداد الفاشم، وهو أنه بشكل أساسي يعتمد على الأكاذيب التي تُروى مرارًا وتكرارًا، إلى أن تصبح محاربة الكذبة أمرًا ليس خطرًا بل أكثر إرهابًا من الاستسلام إلى تكرارها... ليس المطلوب من الناس هو تصديق الكذب، بل أن يخشونه. لا يكمن الكذب في ادعاء أمور زائفة بشأن حقائق بعينها؛ إنما الجنون هو التحدي المتعمد لمفهوم راحة العقل برمته». وهكذا، نجد أننا عدنا من حيث بدأنا، مع أورويل في إسبانيا. لقد اقتبس من مقال «النظر إلى الحرب الإسبانية من جديد» في السنوات الثلاث المنقضية أكثر من السنوات الثلاث والستين الماضية:

أنا على استعداد للاعتقاد أن التاريخ في معظمه غير دقيق ومنحاز، ولكن ما يميز عصرنا هو التخلي عن فكرة أن التاريخ يمكن أن يكتب بصدق. في الماضي كذب الناس عمدًا، أو أضافوا أهواءهم إلى ما كتبوه دون وعي، أو كافحوا من أجل الوصول إلى الحقيقة، وهم يعلمون جيدًا أنهم لا بُدَّ مرتكبون أخطاء كثيرة؛ ولكن في كل حالة كانوا يؤمنون بأن «الحقائق» موجودة وقابلة للتكشُّف إلى حدٍّ ما... هذه الأرضية المشتركة المتفق عليها، بما تعنيه ضمناً أن البشر جميعهم نوع واحد من الحيوانات، وأن الشمولية مدمرة... الهدف الضمني لهذا التفكير هو عالم كابوسي يتحكَّم فيه

الزعيم القائد -أو الزمرة الحاكمة- ليس فقط في المستقبل، بل في الماضي.

خوف أورويل من فكرة أن «مفهوم الحقيقة الموضوعية ذاته يتلاشى من العالم» هو قلب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» المظلم. هذا هو ما استحوذ عليه قبل وقت طويل من ابتكاره الأخ الأكبر أو أوقيانيا أو اللغة الجديدة أو شاشات الرصد، وهو أهم من أي منها. في مراجعتها الأصلية عام 1949، حددت مجلة «لايف» بشكل صحيح جوهر رسالة أورويل: «إذا استمر البشر في الإيمان بالحقائق التي تخضع للقياس وتقديس روح الحقيقة المتمثل في السعي وراء معرفة أكبر، لن يستطيع أحد استعبادهم بالكامل». بعد مرور سبعين عامًا، تبدو هذه الجملة الشرطية عسيرة جدًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

## كلمة ختامية

أنت تعرف كيف تنتهي «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». يجلس ونستون سميث -مدمراً من تجربة الغرفة 101- في مقهى شجرة الكستناء، مخموراً بـ«جن النصر»، ويرسم بخدر معادلة على طاولة يعلوها الغبار. لكن ما هذه المعادلة بالضبط؟ في الطبعة الأولى، وفي كل الطبعات منذ عام 1987، يكتب ونستون: « $5 = 2 + 2$ ». لكن لما يقرب من أربعين عاماً، حذفت طبعة «بنجوين» العدد خمسة وجعلتها: « $2 + 2 =$ ».

لم يكتشف أحدٌ حتى الآن دليلاً يفسّر الحذف. تقول إحدى النظريات إنه كان مجرد خطأ مطبعي، وإن كان ذا مغزى مريب. وتقول نظرية أخرى إن عامل طباعة متمرّد، غير قادر على التفكير في الهزيمة الكاملة، أزالها. الاحتمال الثالث هو أن أورويل نفسه أجرى التغيير قبل وقت قصير من وفاته. أيًا كان السبب، فإن تلك الثغرة في النص تترك بصيص أمل لـونستون، وبالتالي تُغيّر فحوى رسالة أورويل جذرياً. في فيلم مايكل رادفورد، كتب جون هِرت « $2 + 2$ » ثم توقف. قال رادفورد: «أعتقد أن المشاهد كان بحاجة إلى تلك اللحظة. ربّما سيجد مخرجاً. كنت سأستاء بشدّة إذا وضعت معادلة  $5 = 2 + 2$  كاملة. هذا أمر قاتم تماماً، ولم يعد يخاطب الروح البشرية».

مثل نظرية الملحق، تكشف مسألة العدد خمسة المفقود عن رغبة قوية في الاعتقاد أن قصة ونستون ليست كئيبة كما تبدو، وأن أورويل كان يوحى ببصيص أملٍ للقراء اليقظين: لقد صمدت «الروح البشرية» على الرغم من كل شيء. أنا شخصياً لا أظن



أن الكتاب خال من الأمل. بتعدد أحدهما للآخر، استطاع الرعديد والمتهم أن يصيرا باسليين وخاطرا بكل شيء. دُمّر ونستون في نهاية المطاف لأن رجلاً كاسح النفوذ جعل وظيفته الوحيدة في الحياة تدميره. تذكر أيضاً أن كلام أوبراين بشأن خلود حزب الإنجوسك واستحالة المقاومة يجب ألا يؤخذ بظاهره. لكنني أعتقد أن قوة تحذير أورويل تعتمد على «شعور» القارئ بأن الأوان قد فات بالفعل بالنسبة إلى ونستون وجوليا في عام 1984، لتذكيرنا بأنه ما زال هناك وقت في العالم الحقيقي. منذ اليوم الأول، اتهم نقاد الرواية العدائيون أورويل بالتخلي عن الإنسانية: المستقبل سيكون مروّعاً، ولا يمكنك فعل أي شيء حيال ذلك. لكن لا شيء في حياة أورويل وعمله يدعم اليأس. على العكس من ذلك، وبغض النظر عن تذبذبه القصير في «داخل الحوت»، استخدم أورويل باستمرار «عزيمته في مواجهة الحقائق غير السارة» بغية إذكاء مزيد من الوعي، بما في ذلك وعيه الذاتي، ولاجتثاث الأكاذيب والمغالطات التي ابتليت بها الحياة السياسية والتي تهدد الحرية. لم يكن أورويل ليتكلف كل هذا العناء المدمر لكتابة «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» إذا كان جُل ما يريد هو إبلاغ قرائه بأنهم محكوم عليهم بالهلاك. أراد أورويل أن يحفز، لا أن يشل الحركة، كما أكد فيليب راهف من مجلة «بارتيزان ريفيو» في مراجعته عام 1949: «إن قراءة هذه الرواية كمجرد تنبؤ صريح لما سيأتي هي قراءة خاطئة لها. ليس تقيد الإرادة البشرية أمراً قدرًا. كانت نية أورويل بالأحرى دفع العالم الغربي إلى مقاومة نشطة أكثر وعياً للفيروس الشمولي الذي يتعرض له الآن». بعبارة أخرى: قد يكون المستقبل مروّعاً ما لم تفعل شيئاً حياله.

تحلُّ ذكرى «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» السبعون في وقتٍ مظلم للديموقراطية الليبرالية بلا شك. ومع ذلك يواصل ملايين الأشخاص في جميع أنحاء العالم في «المجتمعات المحكّمة إلى الواقع» مقاومة الأكاذيب متوسطة الحجم، لإعادة تأكيد أهمية الحقائق، والنضال للحفاظ على الصدق والنزاهة، والإصرار على حرية قول إن اثنين واثنين يساوي أربعة. في نظر هؤلاء، لا يزال لدى الكتاب الكثير ليقدمه. نظرًا لأن أورويل كان مهتمًا بالإنفس البشرية أكثر من اهتمامه بالأنظمة، فهـ ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» هي خلاصة وافية قوية لكل ما تعلّمه عن الطبيعة البشرية من حيث صلتها بالسياسة، وما زالت دليلًا صامدًا لما يجب الاحتراس منه: كل تحيُّز معرفي، كل تعصُّب غير مدروس، كل تسوية أخلاقية، كل خدعة لُغوية وآلية سلطة تمكّن الظلم من السيطرة. كان أورويل يكتب لعصره، ولكن أيضًا -مثل ونستون- «للمستقبل، ولأولئك الذين لم يُولدوا بعد». أو كما كتب في مقدّمته لـ «مزرعة الحيوان»: القيم الليبرالية «عرضة للتدمير، ويجب الحفاظ عليها بعدّة طرق منها الجهد الواعي».

كانت «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» مساهمة أورويل الأخيرة والجمهورية في هذا الجهد الجماعي. في البيان الذي أملاه على فريدريك واربورج من فراشه في مصحة كرانام في الأشهر الأخيرة، أوضح السبب الرئيسي وراء كتابة الرواية: ليس لتقيد إرادتنا، بل لتقويتها.

«العبارة التي يجب استخلاصها من هذا الموقف الكابوسي الخطير يسيرة: لا تسمح بحدوث ذلك. الأمر يعتمد عليك».

«إن تأليف الكتب لمعاناة مريضة ومرهقة أشبه بصراع طويل مع مرض مؤلم»، هكذا كتب جورج أورويل في مقال «لماذا أكتب؟». على الرغم من المخاطرة بتخيب أمله، يجب أن أقول إن تأليف هذا الكتاب كان من أكثر التجارب إمتاعاً ونفعاً في حياتي. يرجع ذلك إلى حد كبير إلى الشعور بأنني لم أكن وحيداً.

لقد آمن بي وبفكرتي وكيّلي أنتوني توبنج وزوي باجنامينتا، عندما كانت معنوياتي في الحضيض. من دون مجهودهما الدؤوب، وتشجيعهما ونصائحهما، لم يكن هذا الكتاب ليرى النور. فهم محرّري، جيرالد هوارد من «دبليداي» ورافي ميرشانداني من «بيكادور»، بالضبط ما كنت أحاول فعله منذ البداية، ومكّنتي مشورتهما الحكيمة وروح الدعابة التي يتمتّعان بها من تحقيق ذلك. أنا أيضاً ممتنٌّ لزملائهما، وأخص بالذكر نورا جراب من «دبليداي» وبول مارتينوفيتش من «بيكادور». أشكر ديفيد بيرسون ومايكل وندسور على تصميمات الأغلفة الرائعة، وإيمي ستاكهاوس على تدقيقها الصارم، وألكسندرا داو على أوّل صورة مؤلّف لائقة أخذت لي منذ سنوات عديدة.

قرأ كل من دان جولين ولوسي جولين وجون مولين وألكسيس بترديس وبادريج ريدي وجود روجرز المسوّدات المبكرة لفصول مختلفة (كل الفصول في حالة لوسي)، وقدّموا لي ملاحظات لا تقدّر بثمن. ناقشت الفكرة مع دان قبل أن أخط كلمة واحدة في مقترح الكتاب الذي تقدّمت به، وقد ساعدني في تحويل

شيء مهلهل وغير متماسك إلى مشروع مركز. شجعني أصدقاء لا حصر لهم في أثناء تأليف هذا الكتاب؛ ما منحني قناعة حيوية بأنه سيكون شيئاً سيرغب الناس في قراءته. ساعدني كل سؤال مدروس وكل تعليق متحمس قرأته على فيسبوك. شكر خاص لچوشوا بلاكبيرن ومات بلاكدين وچود كلارك وسارة دوناالدسون وتوم دويل وإيان دنت وبول هيوسون وكيتلين موران وبريدن ميرفي ميتشل وريتشارد نيلاند وهيوجو ريفكيند، وأمّي تولا، وأختي تامي.

أنا شديد الامتنان لروبرت آيك ودنكان ماكميلان ومايكل رادفورد على تخصيص وقت كافٍ للجلوس معي لمناقشة معالجاتهم لـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» ونظرياتهم الخاصة عن الرواية. سهّلت إيما بريتشارد من مسرح ألميدا وأليس فيبس من «يونايتد أيجنتس» عقد تلك المقابلات. قدّمتي هيلين لويس لروبرت. أجاب توني إنجراسي وكريس أوليري وبول ترينكا عن أسئلتي حول علاقة ديفيد بوي بـ«ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». عرضت سوزي بويت بسخاء أن تريني رسائل غير منشورة كتبها أورويل إلى والد زوجها ديفيد أستور. شاركني مايكل أنجلو ماتوس بحثاً متعلقاً بأورويل من كتابه القادم عن الموسيقى في عام 1984، الذي لا أطيق الانتظار لقراءته. أرسل لي إيوان بيرسون مصدراً ليس من السهل الحصول عليه. نصحتني چون نيثن بحكمة بالتخلّي عن عنوان الكتاب المؤقت، وقد استغرق الأمر مني عامّاً لاتّباع نصيحته: أرجو أن يحب العنوان الجديد. بصفتي صحفياً مستقلاً، اعتمدت على محرّريّ لمنحي إجازة من

التزاماتي المعتادة، ولإبقاء الباب مفتوحاً عندما أكون مستعداً للعودة. أنا ممتنٌ جداً لتيد كيسلر ونيال دوهرتي وكريس كاتشبول من مجلة «كيو»، ولبييل برنس من مجلة «جي كيو»، ولهيلين لويس من «ذا نيو ستيتسمان»، ولنيك دي سيملين من «إمباير»، ولروب فيرن ولورا سنابس وكل المحرّرين التابعين لي في «ذا جارديان»، ولأندرو هاريسون وزملائي في «ريمينياكس بودكاست». شكراً أيضاً لمستمعي «ريمينياكس» لتحملهم عدداً غير معقول من الإحالات لأورويل. ماذا عساي أن أقول؟ لقد عشتش الرجل في رأسي.

أيضاً عشتش بعض الأشخاص الذين كتبوا عن أورويل في رأسي. صحيح أنني لم أقابل أيّاً منهم مطلقاً، لكنني استمتعت بقضاء وقتٍ بصحبتهن إن جاز التعبير، وأخصّ منهم روبرت كولز وبيتر دافيسون وجيفري مايرز وجون رودن ووليم شتاينهور ودي جيه تابلور والراحل برنارد كريك. أنا مدين لما تعلّمته منهم. كما أنني ممتنٌ لموظفي «أرشيف أورويل» في جامعة لندن والمكتبة البريطانية، حيث أجريت بحثي وكتبت معظم هذا الكتاب. أنا أعتبر المكتبة البريطانية أعزّ مؤسسة عامّة في بريطانيا بعد خدمة الصحة الوطنية. شحذ تأليف كتاب موضوعه الأساسي أهميّة الحقيقة الموضوعية تقديري لكل مدقّقي الحقائق من الصحفيين والعلماء والقديسين الذين يسعون إلى تصحيح الحقائق في عصر تتفشّى فيه الأكاذيب والخدع والشائعات والأخطاء. من هؤلاء كل المحرّرين والمساهمين في ويكيبيديا وسنوبس، وهي مجتمعات إنترنت لا تعرف الكلل، تجدد إيماني بتصميم الناس

على رؤية الأمور على حقيقتها.

لم يبذل أحدٌ جهداً أكبر لضمان ألا يكون هذا الكتاب معاناة مروّعة ومرهقة من لوسي آيتكين، التي كانت معي في كل خطوة على الطريق، من البداية إلى التحرير النهائي. بالإضافة إلى قراءتها مسودّات عدّة فصول، وإلى إسهامها بمعرفتها العميقة بمجال الدعاية في الجزء المتعلّق بإعلان أبل التجاري «1984»، أبدت فضولاً لا ينقطع ومنحتني حبّاً وتشجيعاً لا ينضب. هذا الكتاب مُهدى لها، ولابنتينا إلانور وروزا. عسى أن نعيش جميعاً لنرى أوقاتاً أفضل.

مكتبة  
t.me/soramnqraa

## موجز رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون»

## الجزء الأول

## الفصل الأول

إنه يوم صافٍ بارد من أيام أبريل، والساعات تشير إلى الواحدة بعد الظهر. يعود ونستون سميث البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً إلى شقته في «قصور النصر» في لندن، في أيرستريب وان، في أوقيانيا، لبدأ الكتابة في مذكراته السريّة. هذا مسعى خطير في تلك الدولة التي يحكمها حزبٌ واحد، حيث تفرض شرطة الفكر -التي تراقب عن طريق حوَّامات تجسس وشاشات رصد مزوّدة بأجهزة إرسال واستقبال- مناخاً من المراقبة المستمرة. ملصقات زعيم أوقيانيا الغامض المنتشرة في كل مكان الغامض تقول: «الأخ الأكبر يراقبك». يشارك ونستون في صنع البروباجندا في إدارة السجّلات في مقرّ وزارة الحقيقة؛ المبنى الهرمي الأبيض الشاهق المزيّن بشعارات الحزب: «الحربُ سلامٌ، الحريةُ عبوديةٌ، الجهلُ قوّة». وزارات الحب والسلام والوفرة تحمل أسماءً تهكمية كذلك. جاء ونستون وحيّ جعله يبدأ كتابة مذكراته هذا الصباح في أثناء «دقيقتي الكراهية»، وهو طقس موجّه ضد الخائن المزعوم إيمانويل جولدشتاين، مؤلّف كتاب الهرطقة، وزعيم حركة المقاومة السرية المعروفة باسم «الأخوية». في أثناء انعقاد الطقس، ركّز ونستون بصره على شخصين شعر بأن لهما أهمية كبيرة: مسؤول من حزب الإنجوسك الداخلي اسمه أوبراين، وامرأة ذات شعر بنيّ تعمل في إدارة الخيال قد تكون جاسوسة لشرطة الفكر. يلجّ عقل

ونستون عليه لكتابة جملة واحدة: «يسقط الأخ الأكبر». منذ تلك اللحظة، يدرك ونستون أنه هالك.

## الفصل الثاني

تطلب زوجة بارسونز، جار ونستون وزميلة في إدارة السجلات، منه أن يساعدها في تسليك حوض المطبخ. أطفال آل بارسونز جواسيس. بإيعاز من الحزب، سيُبلغون عن أي شخص لو شكوا في ارتكابه «جريمة التفكير» حتى لو كان أباهم أو أمهم. في أثناء تسليكه الحوض، يتذكر ونستون حلمًا حلم به منذ سبع سنوات، رأى فيه أوبراين يعده أن يقابله في مكان لا ظلام فيه. عند العودة إلى شقته، يكرّس ونستون مذكراته إلى الماضي والمستقبل.

## الفصل الثالث

يحلم ونستون بأمه وأخته اللتين اختفتا في الخمسينيات، ويثقله شعور كاسح بالذنب لا يعرف سببه. يتحوّل الحلم إلى الفتاة داكنة الشعر. يراها تخلع ملابسها في جنة ريفية يُسمّيها «القرية الذهبية». في أثناء أداء تمارين بدنية إجبارية أمام شاشة الرصد، يشرّد عقل ونستون في الطريقة التي يعيد بها الحزب كتابة التاريخ: «من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل. من يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي». على سبيل المثال، لا يمكن الاعتراف علنًا أن أوقيانيا كانت في الماضي في حرب مع إيستاسيا وليس أوراسيا. هذا مثال على «التفكير المزدوج»، وهي عادة عقلية متمثلة في تصديق شيئين متناقضين في الوقت نفسه، اتّباعًا لأوامر الحزب. يشعر ونستون بأنه غير قادر على الوثوق بذكرياته الخاصة.



## الفصل الرابع

يعود ونستون إلى وزارة الحقيقة، حيث يُعدّل بأثر رجعي نسخًا من جريدة «التايمز» لتعكس آخر توجهات الحزب، ويحرق النسخ السابقة في «حفرة الذاكرة». يتفحص ونستون زميليه: رجلٌ ضئيلٌ عصبيٌّ اسمه تيلوتسن، وشاعر شارد الذهن اسمه أمبلفورث. يعيد ونستون كتابة خطبة للأخ الأكبر لاستبعاد أي ذكر لويذرز، وهو بطل حرب سابق مُحي وجوده وصار في عداد المتلاشين، ويستبدل به الرفيق أوجلقي، وهو شخصية من اختراعه. عندما أنهى ونستون عمله، أصبح أوجلقي شخصًا حقيقيًا، وتلاشى ويذرز.

## الفصل الخامس

يتناول ونستون وجبة الغداء في المقصف مع الكادح الخنوع بارسونز والفقير اللُّغوي سايم، الذي يتغنّى بتطور ما يُعرف بـ«اللغة الجديدة»: وهي مجموعة مفردات مكثّفة مصممة لتقييد التفكير. يرى ونستون الفتاة داكنة الشعر مرّة أخرى، ولا يزال يشتبه في أنها جاسوسة للحزب.

## الفصل السادس

يتذكّر ونستون زواجه القصير غير السعيد من كاثرين الموالية للحزب قبل عقد من الزمن، وزيارته إلى عاهرة قبل ثلاث سنوات. تجعله الذكريات يفكّر في مسألة قمع الرغبة الجنسية في أوقيانيا.

## الفصل السابع

يفكّر ونستون في وضع طبقة البروليتاريا وفي تزيف التاريخ. يتذكّر رؤيته للخونة المزعومين جونز وأرونسون ورزرفورد في مقهى شجرة الكستناء، ثم عثوره على صورة بعدها بسنوات

تُثبت براءتهم، وعلى الرغم من ذلك أحرقها على الفور وقتها.  
يتعهد ونستون لنفسه بالتشبُّث بسلامته العقلية والإيمان بالحقيقة  
الموضوعية، التي تتجسد في المعادلة:  $4 = 2 + 2$ .

### الفصل الثامن

يتحدَّى ونستون الحظر المفروض على الفردية أو الحياة  
الخاصة، ويجازف بدخول منطقة البروليتاريا، حيث يسأل رجلاً  
مسناً مشوّشاً دون جدوى عن الحياة قبل حزب الإنجسوك. يذهب  
بعدها إلى حانوت الخردوات الذي ابتاع منه دفتر مذكراته،  
ويشترى ثقالاً ورق زجاجية مصقولة في قلبها قطعة مرجان.  
مالك الحانوت السيّد تشارنجتون يحكي له عن أغنية قديمة  
اسمها «برتقال وليمون». في طريقه إلى بيته، يرى ونستون الفتاة  
داكنة الشعر مرّة أخرى، ويفكر في حتمية تعذيبه وموته.

## الجزء الثاني

### الفصل الأول

تمرّر الفتاة ذات الشعر الداكن ورقة إلى ونستون تقول فيها: «أنا أحبك». يتفقان على اللقاء في ميدان النصر في أثناء عرض عسكري لأسرى أوراسيين، حيث يرتبان موعدًا غراميًا في الريف الواقع غرب لندن.

### الفصل الثاني

يقابل ونستون الفتاة ذات الشعر الداكن في الحقول التي تكاد تكون مطابقة للقرية الذهبية التي يراها في أحلامه. تقول له إن اسمها جوليا، وتكشف له أنها كذلك تكره الحزب، ثم يتطارحان الفرام وسط زهور الأجراس الزرقاء.

### الفصل الثالث

إنه شهر مايو. مع تطوّر العلاقة الغرامية السرية بين ونستون وجوليا، يعرف أكثر عن طبيعة تمرّدها الخاص غير السياسي ضد الحزب. يقول ونستون لها: «نحن في عداد الموتى».

### الفصل الرابع

يستأجر ونستون غرفة فوق حانوت تشارنجتون لتكون عُش حب. من نافذة الغرفة، يسمع امرأة من العوام تغني أغنية من إنتاج قسم الموسيقى. كانت الأغنية -للغرابة- قوية التأثير.

### الفصل الخامس

شهر يونيو. سايم اختفى. تجري تحضيرات أسبوع الكراهية على قدم وساق. يتبادل ونستون وجوليا وجهتي نظريهما عن العالم.

## الفصل السادس

يدعو أوبراين ونستون لزيارته في منزله ليعطيه نسخة من آخر إصدار من قاموس اللغة الجديدة.

## الفصل السابع

في الحلم، يتذكّر ونستون خيانتة لأمه وأخته في يوم اختفائهما من أجل قطعة شوكلاتة. ذكره حلمه أن العوام -بخلاف أعضاء الحزب- ظلّوا بشرًا.

## الفصل الثامن

يزور ونستون وجوليا شقّة أوبراين ويطلبان منه أن ينضمّا إلى أخوية جولدشتاين. بحضور خادمه مارتن، يجعلهما أوبراين يتعهدان بتقديم تضحيات هائلة وارتكاب جرائم رهيبة باسم «الأخوية». يرتّب أوبراين لونغستون طريقة للحصول على نسخة من كتاب جولدشتاين الذي يشرح الطبيعة الحقيقية لحزب الإنجسوك. يتبادل الرجلان أبياتًا من قصيدة «برتقال وليمون».

## الفصل التاسع

شهر أغسطس. مع بلوغ أسبوع الكراهية ذروته، يُعلن على الملأ أن أوقيانيا في حالة حرب مع إيستاسيا بالفعل: لطالما كانت أوقيانيا في حربٍ مع إيستاسيا. في المسيرة، يتسلّم ونستون كتاب جولدشتاين «حكم الأقلية الشمولي: النظرية والتطبيق». في الفراش مع جوليا، يقرأ ونستون أفضل الأجزاء من فصلين، تلك التي تشرح سبب الحرب المستمرة، والتشابه بين الدول العظمى، وهيكل الحزب، وعملية التفكير المزدوج. يتوقّف ونستون عن القراءة عند نقطة جوهرية لأن جوليا غطّت في النوم.

## الفصل العاشر

يستيقظ ونستون بقناعة أن المستقبل ينتمي إلى العوام. ينهار تفاؤله عندما يسمع صوتًا معدنيًا يخرج من شاشة رصدٍ مخفأة في الغرفة يُعلن أنه وجوليا رهن الاعتقال. يكشف السيّد تشارنجتون حقيقة أنه عضو في شرطة الفكر، وتتحطّم ثقالة الورق إلى شظايا.

مكتبة  
t.me/soramnqraa

## الجزء الثالث

### الفصل الأول

يستيقظ ونستون في زنزانة بيضاء الجدران عديمة النوافذ في وزارة الحب. من بين رفاقه في الزنزانة بارسونز (الذي أبلغت عنه ابنته)، وأمبلفورث، وامرأة عجوز قد تكون أم الأخير. بعض السُجناء سيقوا إلى غرفة تُدعى الغرفة 101. يصل أوبراين ويكشف له أنه كان يعمل في الحزب طوال الوقت.

### الفصل الثاني

يستمر تعذيب ونستون لأسابيع، ويعترف بجرائم وهمية عديدة. في أحد الأيام، يستلقي مُقيّدًا على سريره بينما يستجوبه أوبراين، ويتلقّى صدمة كهربائية في كل مرة يعطي فيها إجابة خاطئة. يخبره أوبراين بأنه مجنون ويجب علاجه قبل قتله.

### الفصل الثالث

يستمر التحقيق. يزعم أوبراين أنه هو الذي أُلّف الكتاب المنسوب إلى جولدشتاين مع أعضاء زملاء له في الحزب الداخلي. يوضح لونسون أن الدافع الذي يحرك الحزب هو السلطة المطلقة، التي يجب أن تظهر من خلال الإرهاب المستمر والسيطرة على الواقع. عندما يحتج ونستون بقول إن روح الإنسانية ستتتصر، يجبره أوبراين على النظر إلى المرأة لمواجهة خرابه الجسدي. كان محطّمًا كما توقّع، إلا من ناحية واحدة: هو لم يُخن جوليا، على الرغم من زعم أوبراين أنها خانتته.

## الفصل الرابع

تمرُّ شهوْرٌ أو أسابيع. يشعر ونستون بتحسِنٍ كبيرٍ الآن بعد أن استسلم للتفكير المزدوج وحِكمة الحزب. لكنه ما زال يحب جوليا، ولا يزال -رغم دهشته- يكره الأخ الأكبر. يخبره أوبراين بأن عليه دخول الغرفة 101.

## الفصل الخامس

تُجسّد الغرفة 101 لكل شخص أسوأ وأخبث شيء يراه في العالم. في قاموس ونستون، هذا الشيء هو الجرذان. عند تهديده بجرذين جائعين على وشك تمزيق وجهه، يخون جوليا. لقد هُزم ونستون بالكامل.

## الفصل السادس

يجلس ونستون وحيداً مخموراً في مقهى شجرة الكستناء ينتظر الأخبار. أوقيانيا في حالة حربٍ مع أوراسيا: لطالما كانت أوقيانيا في حالة حرب مع أوراسيا. يستعيد في ذهنه لقاء جوليا -التي سُحقت مثله- في الحديقة. لم يشعر أحدهما بشيء تجاه الآخر. يتذكّر أمه وأخته للمرة الأخيرة. تملؤه أخبار الانتصار العسكري في إفريقيا بالفرحة، وكذا فكرة إعدامه. لقد صار يحب الأخ الأكبر.

## ملحق، مبادئ اللغة الجديدة

شرح علمي للغة الجديدة يتأمل في أحداث عام 1984. تاريخ ومؤلف الملحق غير مذكورين.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ضريبة الشعبية الهائلة لأيّ فنان هي ضمان أن يُساء فهمه، يعرف الناس ظاهرياً عن رواية «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» أكثر ممّا يعرفونها بالفعل.

هذا الكتاب محاولة لاستعادة بعض التوازن عن طريق شرح عمّا تدور حوله رواية أورويل حقاً، وظروف كتابتها، وكيف غيّرت العالم -على مدى سبعين السنة الماضية- بعد رحيل مؤلّفها. بالتأكيد لا يقتصر معنى أيّ عملٍ فني على مقاصد مُبدعه، لكن في حالتنا هذه، تستحقّ مقاصد أورويل -التي كثيراً ما شوّهت وأُهملت- إعادة النظر، إذا ما أردنا أن يفهم الكتاب بصفته كتاباً، لا مجرد منبع نافع لا ينضب للإحالات الشعبية الساخرة. إنه عملٌ فني ووسيلة لفهم العالم على حدٍ سواء.

هذه إذاً قصّة كتاب «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون». لقد كتبت سيرً عديدة لجورج أورويل، وأجريت بعض الدراسات الأكاديمية عن السياق الفكري لكتابه، لكن لم تُجر محاولة من قبل لدمج الأمرين في سردٍ واحد، مع محاولة استكشاف صيرورة الكتاب أيضاً. أنا مهتم بحياة أورويل لأنها في المقام الأول وسيلة لإلقاء الضوء على التجارب والأفكار التي غدّت كابوسه الشخصي هذا، الذي دمرّ فيه بشكل منهجي كل ما كان يقدره: الصدق والنزاهة والعدالة والذاكرة والتاريخ والشفافية والخصوصية والفطرة السليمة والتعلُّ وإنجلترا والحب. سأنتقّي أثر أورويل عبر قصف لندن وقوّات الحرس الوطني وهيئة الإذاعة البريطانية ولندن الثقافية وأوروبا المنهكة بعد الحرب، وصولاً إلى جزيرة جورا حيث كتب روايته أخيراً، كي أهدم الأسطورة التي تقول: إن «ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون» كانت نحيباً طويلاً سبّبه اليأس، صدر عن رجلٍ وحيد يحتضر غير قادر على مواجهة المستقبل. أريد أن ألفت الانتباه إلى ما كان يفكر فيه حقاً، وكيف تأتّى له هذا التفكير.

tel: 00966 11 444 4444

ISBN 978-9921



9 789921

MOHAMED KHATIB



15 كتاب

على

apple play

أو على

Store